موسوعة الحروب الصليبية



الدولة الزنكية

وَنَجاح المشرُوعِ الإسلامِي بِقيَادَة نُورِ الدينِ الشَّهيد
في مُقَاوَمَةِ التغلغُلِ البَاطِني وَالغَزوِ الصَّليبيِّ

د. عليّ محمّد محمّد الصَّلَّابي

الطبعة الأولى

1427هـ 2007م

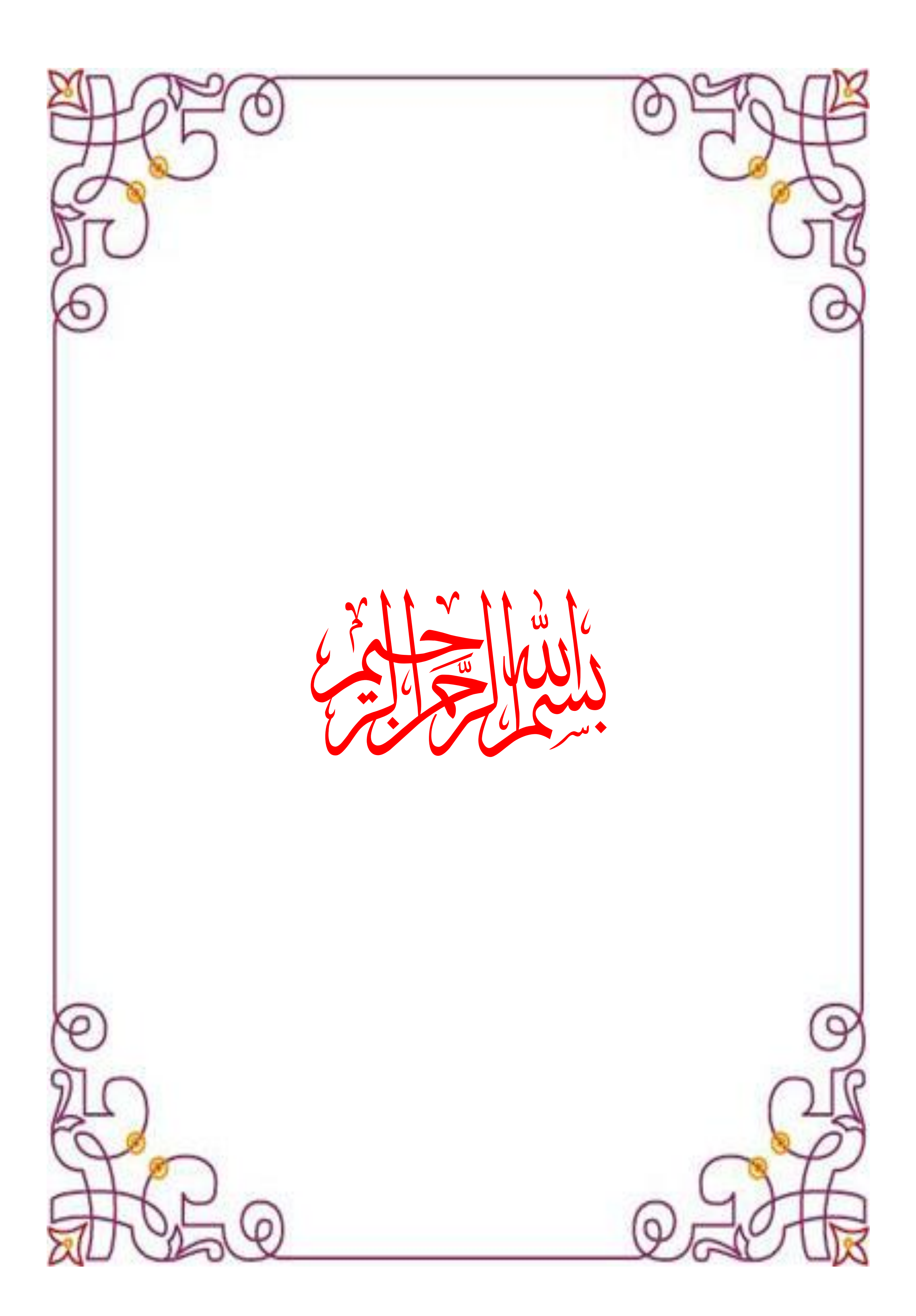
موسوعة الحروب الصليبية

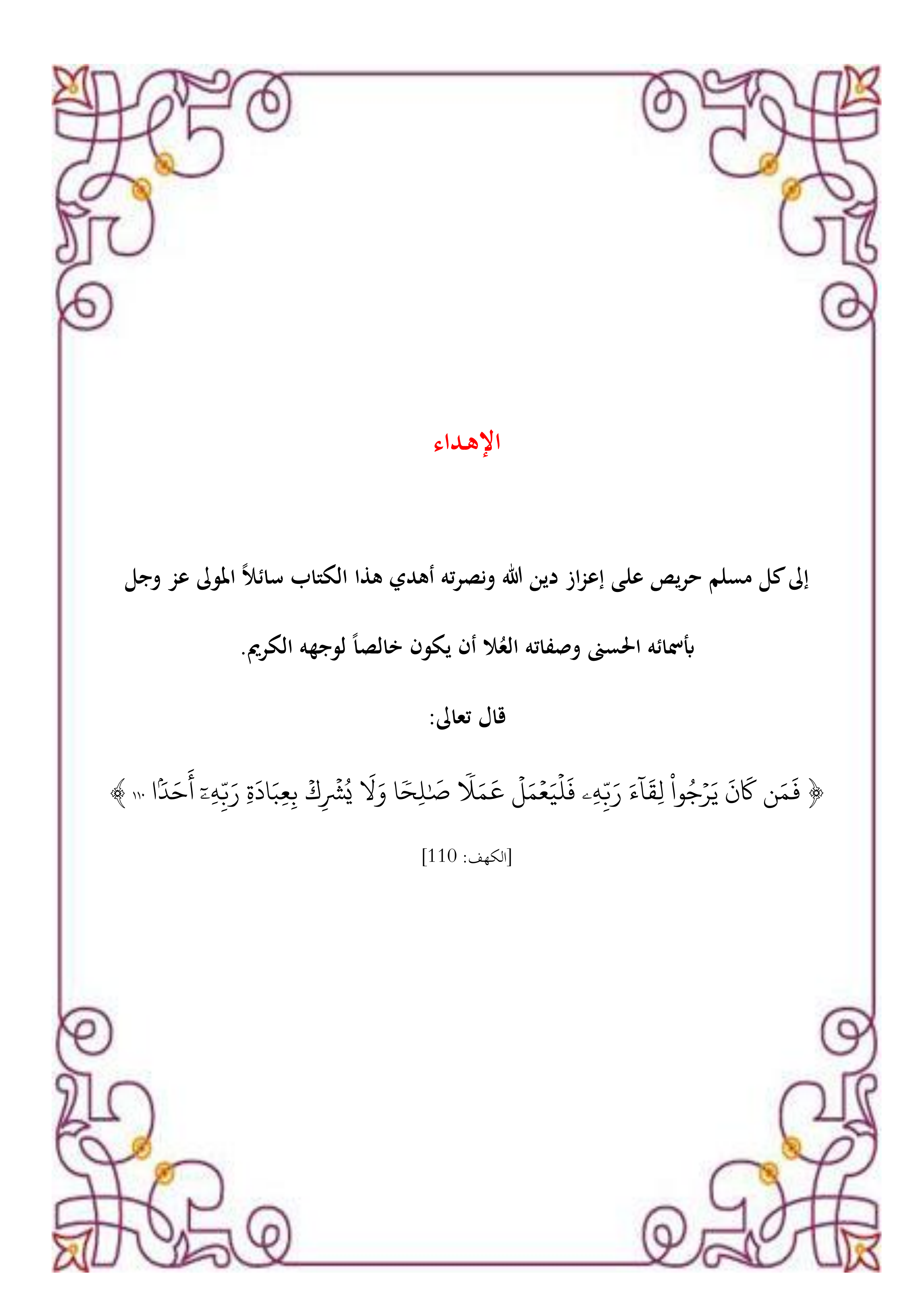
(2)

عصر الدولة الزنكية
ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين الشهيد
في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠ ﴾

[الكهف: 110]

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينهُ ونستغفرهُ ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدهِ الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب : 71-71]

يا رب لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهكَ وعظيم سلطانك ، ولك الحمدُ حتى ترضى ، ولك الحمدُ إذا رضيتَ ، ولكَ الحمدُ بعدَ الرضا ، فلله تعالى الحمدُ كما ينبغي لجلالهِ ، وله الثناءُ كما يليقُ بكماله ، وله المجدُ كما تستدعيهِ عظمته وكبرياؤه.

أما بعد:

هذا الكتابُ امتداد لما سبقهُ من كتب درست عهد النبوة ، وعهد الخلافة الراشدة ، وعهد الدولة الأموية ، وعهد السلاجقة ، وقد صدر منها: السيرة النبوية ، وأبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والحسن بن علي رضي اللهُ عنهم ، والدولة الأموية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، رضي اللهُ عَنه ، وعمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، ودولة السلاجقة وبروز المشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ، والدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ودولتا المرابطين والموحدين ، والدولة الفاطمية العبيدية، والثمار الزكية للحركة السنوسيَّة ، وفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

وقد سميت هذا الكتاب: «عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» وتعتبر حلقة مهمة من ضمن سلسلة الحروب الصليبية ، والتي نسألُ اللهَ تعالى بأسمائهِ الحسنى وصفاتهِ العُلى أن تكون لوجهه خالصة ، ولعباده نافعة ، ويطرح فيها القبول والبركة ، ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه العلي الكبير ، ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية المستهدفة.

وهذا الكتاب يتحدث عن الزنكيين من حيث أصول أسرتهم ، وعن جدهم آق سنقر ، ومكانته لدى السلطان ملكشاه ، وسياسته الداخلية والخارجية في حلب وتولي إمارتها ، وعن نشأة عماد الدين زنكي ، وبزوغ نجمه السياسي، ودور بهاء الدين الشهرزوري في تعيينهِ أميراً على الموصل ، وعن أهم صفاته ، كالشجاعة ، والهيبة ، والدهاء، والمكر ، والحيلة ، واليقظة ، والحذر ، والذكاء ، وقدرته على إختيار الأكفاء من الرجال ، ووفائه لأصحابه ، وغيرته على محارمهم ، وعدله ، وعبادته ، وهواياته.

ويتحدث عن سياسته الداخلية ، والنظم الإدارية والعسكرية ، وعلاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية ، وتوسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة ، وعلاقته بالأكراد كبني أيوب حكام تكريت ، والأكراد الحميدية ، والعكارية ، والمهرانية ، والبشنوية ، وعلاقته بالإمارات المحلية في ديار بكر ، ومحاولاته في ضم دمشق سواء بالتفاهم ، أم بالحصار ، أم بالسياسة ، وتكلمت عن جهاده ضد الصليبيين ، وتطرقتُ لحال المسلمين قبل مجيئهِ للإمارة ، وسياسته مع الصليبيين ، وفتحه للحصون والقلاع ، وسعيهِ الحثيث لتوحيد الجبهة الإسلامية وقيادتها لمقاومة

الاحتلال الصليبي ، وذكرت مناصرة عماد الدين لبني منقذ عندما تعرضت إمارة شيزر لمحاصرة الجيش البيزنطي ، والصليبي ، ومواقفه البطولية في مقارعة الغزاة ، وأساليبه التي استخدمها ضدهم سواء نفسية أو تعبوية من طلب النجدة من مختلف المناطق ، واستخدام سهام الحيلة والدهاء لتعميق الخلاف بين أفرنج الشام ، وملك الروم البيزنطي ، وقد حقق نجاحاً منقطع النظير في هذا الميدان ، وفي نهاية المطاف اضطر الإمبراطور البيزنطي إلى فك حصاره عن شيزر بفضل الله ، ثم جهود عماد الدين العسكرية.

وكانت من أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة تدهور العلاقات بين البيزنطيين ، والصليبيين ، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية ، وقد ا نهمكَ عماد الدين بعد ذلكَ في إتمام خطتهِ بتوحيد الجبهة الإسلامية ، كي يكون أكثر قدرةً على مجابهة الصليبيين ، وأشاد الشعراء بدفاع عماد الدين زنكي عن شيزر ، فقال ابن قسيم الحموي في مدحه:

بعـــــــزمـــــــك أيهـــــا الملـــك العظيـــــم   تَـــــــــذِلُّ لـــك الصِّعـــــاب وتستقيـــــم
ألـــــم تـــــر أن كلـــب الـــرُّوم لمـــــا   تبيّـــــنَ أنـــــه الملـــــك الرجيـــــم
فجـــــاء يطبِّـــــق الفلـــــوات خيـــــلاً   كـــــأن الجَحْفَـــــل الليـــــل البهيـــــم

إلى أن قال:

أيلتمـــــس الفرنـــــجُ لديـــــكَ عفـــــواً   وأنـــــتَ بقطـــــعِ دابرهـــــم زعيـــــم
إذا خطـــــرت سيوفـــــكَ فـــــي نفـــــوس   فـــــأوَّل مـــــا تفارقهـــــا الجســـــوم

واستطاع عماد الدين بفضل الله ثم بجهودهِ الميمونةِ أن ينتزعَ من الصليبيين إمارة الرُّها؛ التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة 491 هـ1097 م بزعامة بدوين الأول ، وكان تحريرها في عام 539 هـ وقد ساعد عماد الدين زنكي عوامل عديدة في فتح الرُّها ، ومن أهمها: تنامي حركة الجهاد الإسلامي حتى عصره ، وحصاد تجربة المسلمين في ذلكَ المجال ، فلا ريبَ في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرُّها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك ، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة في جانب أمراء الموصل خلال فترة تزيد على أربعة عقود من الزمان على نحوٍ مثل موتٍ بطيء لها إلى أن تمَّ الإجهاز عليها في العامِ المذكور.

ويضافُ إلى ذلكَ براعة عماد الدين العسكرية؛ الذي فاجأ تلكَ الإمارة الصليبية بالهجوم بعد أن اطمأن الصليبيون إليه ، وتصوروا أنه لن يهاجم ، فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ، ووجه إليها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها ، وهكذا أثبت ذلكَ القائد الكبير: أنه اختار التوقيت الملائم لذلكَ العمل العسكري العظيم.

لقد حقق عماد الدين زنكي بفتح الرُّها أهم إنجازاته التي قامَ بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه ، وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ، ومن أهم تلكَ النتائج على الإجمال:

1 ـ تأكد للمسلمين: أنَّ حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد ، وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية ؛ دون أن يكون ذلكَ إجحافاً بإنجازات القادة السابقين على زنكي لا سيما الأمير مودود بن التونتكين ، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم؛ فإنها البداية ، واليوم إسقاط الرُّها ، وغداً إسقاطُ باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدثَ فعلاً ، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء ، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء.

2 . تأكدَ منطقُ التاريخ من: أنَّ مثل تلكَ الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة؛ لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلكَ الوضع السياسي والعسكري الدخيل ، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق ، ولم تعد الرُّها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كلٍّ من سلاجقة آسيا الصغرى ، وسلاجقة الروم ، وكذلكَ بلاد فارس.

3 .كما أدى سقوط الرُّها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق والرَّحم الأم ، فلم يكن ذلكَ الغرب يسمح لامتدادهِ السياسي ، والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة ، بل لا بد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها ، وإجهاز فعاليات إمارة الموصل ، ومن ثم كان قيام الحملة الصليبية الثانية عام 542 هـ. وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرُّها ، وهو أمر يوضِّح لنا بجلاءٍ كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية ، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية ، وإنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراعٍ قاريٍّ ، أو عالميٍّ على نحو يجعل لهم مكانةً بارزة في تاريخ المسلمين. وقد مدح الشعراء الإنجاز الكبير الذي قامَ به عماد الدين لفتحهِ إمارة الرُّها ، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجهِ لفتح الرُّها ، فقال:

بجيـــــش جـــــاش بالفرســـــان حـــــتى ... ظننــــــت البــــــرَّ بحــــراً مــــن ســـــــلاح
وألسنـــــة مـــــــن العذبـــات حُمْــــــر ... تخاطبنـــــــا بأفــــــــواهِ الرِّيـــــــــاح
وأروع جيشـــــــــهِ ليـــــلٌ بهيـــــــم ... وغُرَّتـــــــــه عمـــــــود للصبـــــــــاح
صفـــــوح عنــــــد قدرتـــــه ولكـــــن ... قليـــــل الصفـــــحِ مـــا بيـــن الصفـــــــاح
فكــــــان ثباتــــــــهُ للقلــــــب قلبــــاً ... وهيبتـــــــهُ جناحــــــــاً للجنـــــــــاح

وهنَّأ الشاعر ابن القيسراني القاضي كمال الدين الشهرزوري بهذا الفتح ، فقال:

إن الصفــــائح يـــــوم صافحـــت الرُّهـــــا ... عطفـــت عليهـــا كـــل أشـــوس ناكـــــب
فتـــــح الفتــــوح مبشِّـــــراً بتمامـــــــه ... كالفجـــر فـــي صـــدر النَّهـــــار الايـــــبِ
للـــــه أيـــــة وقفـــــة بدريـــــــــة ... نُصــــــرت صحابتهـــا بأيمـــــن صاحـــــب
ظفــــرٌ كمـــال الديـــن كنتـــت لقاحـــــه ... كـــــم ناهـــــضٍ بالحـــرب غيـــر محـــــاربِ
وأمدكـــــم جيــــشُ الملائـــكِ نُصـــــرةً ... بكتائــــــبٍ محفوفــــــــةٍ بكتائـــــــــبِ
جبنـــوا الدَّبـــور وقُدْتُـمْ ريـحَ الصَّبـــــا ... جُنــــد النبـــوةِ هـــل لهـــا مــــن غالـــــب؟!

إلى أن قال:

وإذا رأيــــت الليـــــث يجمـــع نفسَـــــهُ ... دون الفريســـــةِ فهــــــو عيــــن الواثــــــبِ

وكان فتح الرُّها بداية لما بعدها ، وإذا لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكملَ مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة ، فاستغل فرصةَ تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة ، واستطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجهِ ، وأن يكَوِّنَ لنفسهِ مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع ، وعسكري متمكن ، ومسلم واعٍ. وأدرك الخطر الذي حاق بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين ، وذلكَ بتجميعهِ القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام ، وتوحيد المدن ،

والإمارات المنفصلة ، في نطاق دولة واحدة استطاع بحنكته أن يستغلَّ أقصى ما يمكن أن تقدمه دولته من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجهِ المزدوج ، أي: تشكيل الجبهة الإسلامية ، وضرب الصليبيين ، ويعتبر عماد الدين زنكي أول قائد سلجوقي قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين؛ ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقِفْهُ المحاولاتِ الجدية التي سبقت زنكي وبخاصة تلك التي تمت على أيدي كل من مودود بن التونتكين 502 هـ 507 هـ وإيلغازي وبلك الأرتقيين 518 هـ 520 هـ.

وقد مهد عماد الدين زنكي الطريق لقادة التحرير من بعدهِ ، فلم تكن جهود ابنه نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق ، وبعد استشهاد عماد الدين تولى القيادة ابنه البطل الفذ والمجاهد الشهير نور الدين محمود الشهيد الملك العادل ، فذكرت في هذا الكتاب سيرتهُ، وترتيبهُ أوضاع البيت الزنكي مع أخيهِ سيف الدين غازي، واتفاقهم على توحيد الكلمة ، ومناصرة بعضهم البعض ضد الأعداء ، وأصبحَ سيف الدين غازي أميرَ الموصل ، ونور الدين محمود أميراً على حلب ، وتوسعتُ في ذكر مفتاح شخصية نور الدين زنكي ، وشعوره بالمسؤولية ، وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين ، وخوفه من محاسبة الله له، وشدة إيمانه بالله واليوم الاخر. وقد كان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاّب في شخصيته ، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه ، وتميزت شخصيتهُ بمجموعة من الصفات الرفيعة ، والأخلاق الحميدة التي ساعدتهُ على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها: الجدية ، والذكاء المتوقد ، والشعور بالمسؤولية ، والقدرة على مواجهة المشاكل والأحداث ، ونزعتهُ للبناء والإعمار ، وقوة الشخصية ، ومحبتهُ لله ، ومحبة الناس لهُ ، واللياقةُ البدنية العالية ، وتجرُّدهُ ، وزهدهُ الكبير ، حتى قال الشاعر فيه:

ثنـــــى يـــده عـــن الدنيـــا عفافـــاً ... ومـــال بهـــا عـــن الأمـــوالِ زهـــــدا

وقال فيه آخر:

لا زلـــتَ تقفـــو الصالحيـــن مسابقـــاً ... لهُـــم وتَطْلُـــعُ خلفـــــكَ الأبـــــرارُ
نفـــس السيـــادةِ زهـــدُ ملـــكٍ فـــي الـــذي ... فيـــــه تفانـــــت يَعـــــربٌ ونـــــزارُ

وتحدثتُ عن شجاعته التي قال الشاعر فيها:

تبـــــدو الشجاعـــةُ مـن طلاقـة وجهـــــهِ ... كالرُّمـــح دلَّ علـــــى القســـــاوةِ لِيْنُــــهُ
ووراءَ يقظتـــــهِ أنـــــــاةُ مُجـــــــرِّبٍ ... للـــــه سطـــــوةُ بأســـــــهِ وسُكُونـــــه!

وقال آخر:

متهلـــــلٌ والمـــــوتُ فـــــي نبراتِـــــهِ ... يُرجَـــى ويُرْهَـــبُ خوفُـــــه وعقابُـــــهُ

وتكلمتُ عن محبته للجهاد والشهادةِ ، فقد ذكر العماد الأصفهاني ، فقال: «حضرتُ عند نور الدين بدمشق . في شهر صفر . والحديث يجري في طيب دمشقَ ، ورقة هوائها ، وأزهار رياضها ، وكلٌّ منَّا يمدحها ، ويطربها فقال نور

الدين: إنما حب الجهاد يسلّيني عنها ، فما أرغبُ فيها. وعندما دخل الموصل ، وغادرها بعد عشرين يوماً سألهُ أصحابه: إنكَ تحب الموصل، والمقامَ بها، ونراكَ أسرعت العودة؟!

فيجيبُ: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو ، وملازماً للجهاد.

وكان رحمه الله يتعرضُ للشهادة ، وكان يسألُ الله أن يحشرهُ من بطون السِّباع وحواصل الطير!!

وبيَّنتُ لوحات رائعة من عبادته ، فقد كان يصلي أكثر الليالي ، ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمامِ شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها ويحافظُ على الجماعة ، وكانَ كثير الابتهال إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أموره كلها ، وقد اشتهر بالإنفاق الواسع الكريم العظيم ، وكانت لهُ أوقافٌ في كافةِ مجالات الحياة الاجتماعية على المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والأرامل، والأيتام... إلخ. وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجودهِ فقد قال أحدهم:

يا أيهـــا الملـــــكُ المنـــــادي جـــــوده ... فـتي سائـــر الآفـــاقِ هـــل مـــن معســـرِ

ولأنـــتَ أكـــرمُ مـــن أنـاسٍ نَوَّهـــوا ... باســـمِ ابــن أوس واستخصّـــُوا البحتـــري

ذلّـتْ لدولتـــكَ الرقـــابُ ولا تـــزل ... إن تغـــزُ تغنـــمْ أو تقاتـــلْ تظفـــرِ

ومدحه أسامة بن منقذ بقوله:

فـــي كــــلِّ عـــام للبريـــة ليلـــةٌ ... فيهـــا تَشُــبُّ النـــارُ بالإيقـــادِ

لكــنْ لنــور الديــن مــن دون الــورى ... نــارانِ: نـــارُ قِــرىً ونـــار جهـــاد

أبـــداً يصرِّفهـــا نـــداه بأســـه ... فالعــــامُ أجمـــعُ ليلـــةَ الميـــلادِ

مَلِـــكٌ لــه فــي كـل جيــدٍ منــةٌ ... أبهـــى مـــن الأطـــواقِ في الأجيـــادِ

أعلـــى الملـوكَ يــداً وأمنعهـــم حمـــىً ... وأمدَّهـــم كفـــاً ببـــذلِ تـــلادِ

يُعطـــي الجزيـــل مـــن النَّــوال تبرُّعـــاً ... مـــن غيـــر مسألـــةٍ ولا ميعـــادِ

وأشرتُ إلى أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين محمود ، وكيفَ اتَّخذ من عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي بهِ في دولته ، فقد اقتنع بأهمية التجارب الإصلاحية في تقويةِ وإثراء المشروع النهضوي ، ودورها في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة ، وتسلمها القيادة ، فللتجارب التاريخية إسهام كبير في تطوير الدول ، وتجديد معاني الإيمان في الأمة ، ولذلكَ حرصَ على معرفة هذه السيرة المباركة كي يقتدي بها في إدارته للدولة ، ولقد اتت معالم التجديد والإصلاح الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارَها في الدولة الزنكية ، وكانت أهم معالم التجديد في دولة نور الدين:

1 ـ الحرص على تطبيق الشريعة: فقد جعل من مقاليد الحكم في الدولة أداة مسخرة لخدمة الشريعة ، وتطبيق أحكامها وقيمها ومبادئها في واقع الحياة ، ودعا إلى تحكيم الشريعة بحماسٍ منقطعِ النظير. وقال في هذا الصدد: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق والأذى الحاصل منها قريب أفلا نحفظ الدين ، ونمنعُ عنه ما يناقضهُ وهو الأصل؟!

وقال: نحنُ شحن للشريعة نمضي أوامرها! فقد جدد الملوك اتِّباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل ، والمشرب ، والملبس، وغير ذلك ، فإنَّ كثيراً من الحكام قبله كانوا كالجاهلية ، همَّة أحدهم بطنه ، وفرجهُ ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً؛ حتى جاءَ اللهُ بدولتهِ ، فوقفَ ضح مع أوامر الشرع ونواهيهِ وألزم أتباعهُ وذويهِ ، فاقتدى بهِ

غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ، فقد أصدر أوامرهُ إلى كافة موظَّفيهِ على الالتزام بأحكام الشرع ، ومنع ارتكاب الفواحش ، وشرب الخمور ، أو بيعها في جميع بلادهِ ، وأسقطَ كل ما يدخلُ تحتَ شبه الحرام ، وأزالَ كل ما يندُّ عن محجة الشريعة البيضاء ، وينحرف إلى بؤر الظلام. وكانَ يُنزل العقاب السريع العادل بكل من خالفَ أمره ، وكل الناسِ عنده فيه سواء. وقد مدحهُ الشعراء ، فقال فيهِ ابن منير:

كـــــم سيـــــرةٍ أحييتهـــا عمريَّـــــــةٍ ... رُفعـــتْ لهـــــا فـــــي الخافقيـــنِ منـــارُ

ونوافـــــلٍ صيرتهـــــن لوازمـــــــــاً ... بأقلِّهــــــا تستعبــــــــد الأحـــــــرارُ

أمَّـــا نهـــاركَ فهـــو ليـــلُ مجاهـــــدٍ ... والليـــــلُ مـــــن طــــولِ القيـــامِ نهـــارُ

أيها الأخوة الكرام! يا أبناء الإسلام! يا من همهم النهوض الحضاري لهذه الأمة الجريحة! علينا بالسعي الدؤوب في مجتمعاتنا ودولنا حتى تأخذ الشريعةُ الغراء مكانتها وحقها من الاحترام والتقدير والتطبيق ، فأثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيهِ ظاهرةٌ بينةٌ لدارس التاريخ ، ومن تلكَ الاثار: التمكينُ في الأرض ، والأمن ، والاستقرار ، والنصر ، والفتحُ المبين ، والعزُّ ، والشرف ، وانزواء الرذائل قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين ، ودولة عمر بن عبد العزيز ، ودولة يوسف بن تاشفين ، ودولة محمد الفاتح ، وهي من سنن الله الجارية في الأرض والتي لا تتبدل ، ولا تتغير ، فأيُّ قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل ، والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها ، مستوعبة لسنن الله في الأرض؛ فإنها تصل إليه ولو بعد حين ، وترى اثار التحكيم على أفرادها ، ومجتمعاتها ، ودولها ، وحكامها ، كما سنرى ذلكَ في سيرة نور الدين محمود وعصره بإذن الله تعالى.

إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربهِ ودينه ، وأقام شرعهُ ، وقصد رضاهُ ، وجعلهُ فوق كل اعتبار قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ٦٥ ﴾ [النساء : 65] .

وقال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي:

فــــــإذا أحـــبَّ اللـــهُ باطـــنَ عبـــده ... ظهـــــرت عليــــــهِ مواهـــــبُ الفتَّـــــــاحِ

وإذا صفـــتْ للــــهِ نيـــــةُ مصلــــحٍ ... مـــــالَ العبــــــادُ عليــــــــهِ بـــــالأرواحِ

2 . ومن معالم التجديد بناء دولة العقيدة على منهج أهل السنة الجماعة: فقد جعل من العقيدة الإسلامية الصحيحة العمود الفقري لدولته، وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة ، وقمع البدعة ، قال عنه ابن كثير: «أظهر نور الدين ببلاده السنة ، وأمات البدعة ، وأمر بالتأذين بحيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده ، وإنما كان يؤذن بحيَّ على خير العمل؛ لأن شعار الرفض كان ظاهراً»[(1)].

وكان نور الدين يتحرّى سنة النبي ﷺ في أموره كلها ، ومن أعظم إنجازات دولته إسقاط الدولة الفاطمية بمصر ، وكان الفضلُ لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلَّص المسلمين من شرورها ، وأعلن تبعية مصر للخلافة العباسية السنيَّة ، وكان رأيُ نور الدين في الدولة الفاطمية العبيدية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي ، وهو

[(1)] البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 130.

يبشره بفتح مصر ، وسقوط دولةِ الإلحاد ، والرفض ، والبدع[(1)] ويقول فيها: «وطالما بقيت مئتين وثمانين سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغمتها بالانفراجِ ، واجتمعَ فيها داءان: الكفر، والبدعة ، وتمكَّنَّا من إزالة الإلحاد والرفض ، ومن إقامة الفرض»[(2)]. وسيرى القارئ الكريم بإذن الله فقه نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في هذا الكتاب.

استفاد نور الدين من خريجي المدارس النظامية ، وتبنَّاهُمْ في مدارس الدولة النورية ، وفتح لهم الأبواب لدعم المذهب السنّي ، ومناهضة الفكر الشيعي الرافضي، وصبغ الدولة بالكتاب والسنة ، ووضع مشروعاً فكرياً ثقافياً عقائدياً تربوياً تعليمياً ، استهدف به رعايا دولته ، ولم يفرِّق بين علماء الشافعية ، والأحناف ، والحنابلة والمالكية، وأهل الحديث، وشيوخ التصوُّف السني، وغيرهم من أبناء الأمة، وتحركَ بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الشيعية الرافضية. وقد تحركَ نور الدين في مشروعهِ الانفِ الذكر من خلال مؤسسات المجتمع المدني،كالكتاتيب، والمدارس، والمساجد، والرُّبُطِ، وأخذ بكافة الأسباب المادية والمعنوية المعينة على تحقيق الهدف المنشود من صبغ الدولة النوريّة ورعايا الدولة من المسلمين بالكتاب والسنة، وقد أثمرت جهوده في بلاد الشام، وعلى سبيل المثال في حلب فقد تسابقَ أمراؤه ، وأعيان دولته ، وخلفاؤه من بعده على إنشاء المؤسسات العلمية؛ حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السُّنِّيَّة بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة الإمامية ، والإسماعيلية.

وقد أحصى المؤرخ عز الدين بن شداد ت 684 هـ مدارس حلب في أيامهِ ، فوجدها أربعاً وخمسينَ مدرسةً موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة ، منها: إحدى وعشرون للشافعية ، واثنتان وعشرون للحنفية ، وثلاث للمالكية والحنابلة ، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثينَ مقراً للصوفية. وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة؛ إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام 600 هـ ، وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون ، وبأفعال السنة يتظاهرون ، وهذا بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية ، وتعيين الأساتذة الأكفّاء لها ، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجعَ التشيّع في هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة ، وهذا يدلُّ على أهمية التربية العقيدية ، والفكرية ، والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

ومما ساعد نور الدين محمود على تحقيق برنامجهِ الإصلاحي: أنَّ جهودهُ جاءت تالية لجهود المدارس النظامية ، فانتفعَ بما حققته من نتائج ، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السُّنِّيِّ ، والانتصار له.

3 . ومن معالم التجديد في دولة نور الدين حرصه على إقامة العدل: فقد كان قدوة في عدله ، أسر القلوب ، وبهر العقول ، فقد كانت سياستهُ تقوم على العدل الشامل بين الناس ، وقد نجح في ذلكَ على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً قلَّ نظيرهُ حتى اقترن اسمهُ بالعدل وسمي بالملك العادل ، ومدحه الشعراء على ذلكَ فقد قال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيــي العــدل الــذي فــي ظلِّــه ... مــن عدلــه رعــت الأســودُ مــع المهــا
محمـــودُ المحمـــودُ مـــن أيامـــه ... لبهائهـا ضحـكَ الزَّمـانُ وقَهْقَهـا

[(1)] المصدر نفسه.

[(2)] كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 331.

4 ـ ومن معالم التجديد في دولة نور الدين اهتمامهُ بالعلماء: فقد فتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم ، فقدَّمهم على الأمراء ، وبذلَ لهم العطاء ، وشجَّع المتميزين منهم إلى الهجرة لدولتهِ وقد شاركَ العلماء معه في الجهاد ضد الصليبيين بالكلمة والسيفِ والتأليف والوعظ ، كما سنرى في هذا الكتاب بإذن الله.

هذا وقد طوَّر نور الدين النظام الإداري لدولته ، وحرص على صبغته لدولتهِ ، وحرص على صبغتهِ بالصبغة الإسلامية، واعتمدَ في إدارتهِ للشورى ، وابتعد عن الانفراد بالقرار بشكل كبير ، وقدم المصلحة العامة على الانفعالات ، وكان مثالاً رائعاً في الزهد، والتعفف، وبذل المال في الصالح العام، وحرص على توفير الأمن للرعية، وضمن لهم الحريات العامة ، كحرية الرأي ، والمحافظة على كرامة الفرد. وأفردتُ مبحثاً عن النظام الاقتصادي ، والخدمات الاجتماعية ، فبينت مصادر دخل دولة نور الدين ، كنظام الإقطاع الحربي ، والزكاة، والخراج، والجزية، والغنائم، وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين ، وأثر الأمانة الكبيرة التي تميَّز بها نور الدين ، وحكومتهِ الرشيدة على خزانة الدولة ، وأثر الأمن والاستقرار على انتعاش الحركة التجارية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات، والاتفاقات التي ألزم بها الخصوم لدفع أموالٍ للدولةِ الزنكية. وتحدثت عن دعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية. وأثر السياسة الزراعية، والصناعية، والتجارية في تقوية اقتصاد الدولة، واهتمَّ نور الدين بالشرائح المنتجة كالفلاحين ، وأصحاب الأموال كالتُّجار ، فقد حرص على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرض دولتهِ على نحو يدعم اقتصاديات الدولة، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس الشرعية لا أن تذهب إلى خارجها ، في وقت تصارعت فيهِ مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة. وقد وجد كبار التجار من نور الدين قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل. وعندما دخل نور الدين مدينة دمشق حرص أشد الحرص على الاجتماعِ مع كبار التجار الدماشقة من أجل بعث الطمأنينةِ في نفوسهم ، ولتوضيح معالم سياستهِ الاقتصادية المرتقبة ، وقد استفاد التجار من هُدَن الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية.

وكان من سياسة نور الدين الاقتصادية والمؤيدة بالشرع الإسلامي إلغاء الضرائب ، وأخذ نور الدين في تنفيذ هذه السياسة منذُ فترة مبكرة ، وكان حيناً بعد حين يصدرُ الأوامر ويعمِّم الكتب، والمناشير بإسقاطِ حشود الضرائب «اللاشرعية» التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكّام والأمراء الذين عاصروه، وكانت شعبيّته تزداد باطِّراد عجيب في خط متوازٍ مع مقادير الضرائب التي كان يأمرُ بإلغائها ، وهدد من لا يطبق ذلكَ من المسؤولين: ومن أزالها زلَّت قدمه ، ومن أحلَّها حلَّ دمه، ومن قرأه، أو قرأ عليهِ فليمتثل ما أمرنا به، وليمضه مرضياً لربه ممضياً لما أمر به. وكانت النتيجةُ الطبيعيةُ لذلكَ أن نشط الناس للعمل ، فأخرج التجار أموالهم ، ومضوا يتاجرون ، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعافِ ما كان يجيءُ من وجوه الحرام. وسعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه ، وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وَسِعَتْ لتغطية شتى الحاجات ابتداءً من قضايا المسكن ، والملبس ، والمأكل ، وانتهاء بقضايا الروح ، ومروراً بالحاجات الفكرية ، والصحية ، والعمرانية ، والإنتاجية ، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة ، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال ، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة والفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات ، والملاجىء ، ودور الأيتام ، والمدارس ، ودور الحديث ، والخانات ، والرُّبُط ، والجسور ، والقناطر ،

والقنوات ، والأسواق ، والحمامات ، والطرق العامة ، والمخافر، والخنادق ، والأسوار ، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها ، وحيناً خمساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاعٍ ما من قطاعات الأمة.

وقد لاحظت في دراستي لفترة الحروب الصليبية: أنَّ انتصارات نور الدين ، وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة؛ منها على مستوى الخلافة نفسها ، ومنها على المستوى الشعبي ، ومنها على مستوى الوزارة ، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترد صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهدِ السلجوقي الأول ، وكذلكَ الوزارة العباسية في عهد يحيى بن هبيرة الوزير الصالح ، والعالم الرباني. وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني من زعماء الدعوة الشعبية والإصلاح العام في عاصمة الخلافة العباسية، فقد كانت عامَّة الجماهير متعطشة إلى شخصية روحية رفيعة، تكونُ على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره ، وتؤثر في المجتمع بدعوتها ومواعظها وتزكيتها، وتوقظ في النفوس الإيمان، وتحيي فقه القدوم على الله، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلوِّ الهمَّة، وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله وتدعو إلى التوحيد الكامل والدين الخالص. ولقد كان هذا المصلح الكبير في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني ، واستطاع أن يؤسس مدرسة ساهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ، ومواجهة التحديات العقائدية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وساهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية. وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وحوَّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء ، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يستهدف إعداد

الطلبة والمريدين روحياً واجتماعياً ، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتوفر لهذا المنهج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية ، والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون ، فالتحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثير كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي[(1)].

وتعتبر تعاليم الشيخ عبد القادر ومدرستهُ ذات أثر ملموس ساهم في نهوض الأمة في عهد الزنكيين ، والأيوبيين ، كان الشيخ عبد القادر على أصول منهج أهل السنة في الأصول والفروع ، وكانت له جهود مشكورة في التصدي للمذهب الشيعي الرافضي ، وإعداد الأمة للجهاد ضد الصليبيين الغزاة. وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر ، واعتبره من أئمة الصوفية والمشايخ المشهورين الذين كانوا على الصراط المستقيم ، وإنهُ من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وشهد لهُ بأنهُ من الشيوخ الكبار[(2)]، ثم شهد لهُ أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق ، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[(3)].

[(1)] هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاًعن الجهاد والتجديد ص 339.

[(2)] فتاوى ابن تيمية (463/10).

[(3)] المصدر نفسه (488/10).

وفي الفصل الأخير من الكتاب تحدثتُ عن سياسة نور الدين الخارجية وعلاقتهِ مع الخليفة المقتفي لأمر الله والوزير يحيى بن هبيرة والخليفة المستنجد بالله ثم المستضيء بالله ، وتكلمتُ عن جهود نور الدين وأخيه سيف الدين في التصدي للحملة الصليبية الثانية وحمايته لدمشق من الغزاة وأهم نتائج تلك الحملة ، وعن سياسته في ضم دمشق ، وكيف تعامل مع القوى الإسلامية والأسر الحاكمة في بلاد الشام والجزيرة والأناضول ، وعن سياسته تجاه القوى المسيحية ، وعلاقته مع مملكة بيت المقدس ، وإمارة الرُّها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وعن المعارك التي خاضها ، والحصون التي فتحها ، وعن علاقتهِ بالإمبراطورية البيزنطية ، واستخدامه لفقه السياسة الشرعية في زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس ، وأنطاكية ضده ، وحتى لا يجعل دولتهُ بين عدوين: الصليبيِّين في الجنوب ، والبيزنطيين في الشمال ، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية ، ومعلوم: أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية ، وكذلكَ الحالُ بالنسبةِ للدولةِ النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين ، والفاطميين ، ومملكة بيت المقدس الصليبية؛ أي: بكافة القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية. والملاحظة المهمة في فقه نور الدين جهده الكبير في المفاوضات مع الاستعداد العظيم لحشد الجيوش واستنفار الأمة للتصدي ، ولقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق أسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبيين، وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن ، وإنما لتنازلات غير عادية ، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية ، فإنهُ وازنَ بين الإطاحة بمشروعهِ الكبير على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الأخير، علماً بأن سلاجقة الروم في تلك المرحلة كانوا كالدولة المستقلة، ولم

تندمج في مشروع نور الدين، بل كانت تعتدي على حلفاء الدولة الزنكية وأملاكهم ، واستطاع نور الدين إيقاف الحملة بعد عقد معاهدة بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية ، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة حفظ المشروع الإسلامي النوري من التصدع، أو الضعف، أو الزوال ، وما كان للدبلوماسية النورية أن تنجح لولا الله ثم مساندتها بقوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي، الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام 559 هـ/1164م.

إنَّ مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي على أصول الإسلام الصحيح: من عقيدة سليمة ، ومرجعية واضحة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدي الخلفاء الراشدين ، ولها القدرة على استيعاب طاقات الأمة ، وعلى رأس ذلكَ المشروع قيادة ربانية واعية تستطيع أن تستفيد من إمكانيات الأمة ، وتستوعب فقه المبادرة كي تفجر طاقاتها وتوجهها نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة ، فيأتي دور القيادة لتربط بين الخيوط ، والخطوط ، والتنسيق بين المواهب والطاقات ، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها وفق رؤية نهوض شاملة تتحدى كل العوائق ، وتسد كل الثغرات التي تحتاجها الأمة في النهوض ، وتبث روح الأمل والتفاؤل بين الناس ، وتحضهم على التمسك بعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم ، والترفع عن حطام الدنيا وإحياء معاني التضحية وشحذ الهمم ، وتقوية العزائم ، في نفوس النخب والجمهور العريض في الأمة ، وتأخذ بها رويداً نحو الأهداف المرسومة لمشروع النهوض ، وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى:

﴿ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [النساء : 104] .

هذا وقد تحدثت عن التفكير الاستراتيجي عند نور الدين ، وأهمية صلاح أُولي الأمر في نجاحِ المشروع المقاوم للتغلغل الباطني، والغزو الصليبي، وعن الاستراتيجية العسكرية لنور الدين ، كالتركيز على النوعية والفاعلية ، والتعبئة العامة للأمة ، وإنهاك العدو ، واستنزاف قوّاته ، وتطبيق نور الدين لمبادىء الحرب الأساسية ، كتحديد الهدف ، والعمل التعرضي ، والقدرة على الحشد والمناورة ، ووحدة القيادة ، وعنصر المفاجأة ، ودور الاستخبارات ، ومبدأ التقرُّبِ غير المباشر ، واستخدامه للحرب النفسية في رفع معنويات الأمة ، وإضعاف همم العدو.

وأفردتُ المبحث الأخير عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية ، فوضحت جذور الشيعة الإسماعيلية ، ونشأة الدولة الفاطمية ، وتكلمت عن جرائمها في الشمال الإفريقي ، كغلو بعض دعاتهم كعبيد الله المهدي ، وتسلطهم وظلمهم وتحريمهم الإفتاء على مذهب الإمام مالك ، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة ، ومنع التجمعات ، وإتلاف مصنفات أهل السنة ، ومنع علماء أهل السنة من التدريس ، وتعطيل الشرائع ، وإسقاط الفرائض ، وإزالة اثار خلفاء السنة ، ودخول خيولهم المساجد. وتحدثت عن أساليب أهالي الشمال الإفريقي في مقاومة الفكر البدعي الشيعي الرافضي المنحرف عن الكتاب والسنة ، كالمقاومة السلبية ، والمقاومة الجدلية ، والمقاومة المسلحة ، والمقاومة عبر التأليف ، ومقاومة شعراء أهل السنة ، وأشرتُ إلى انتقال المعز لدين الله الفاطمي من الشمال

الإفريقي ، ودخولهِ مصر لكي يتخلص من المقاومة ، والثورات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في الشمال الإفريقي لمدة خمس عقود متتالية رافضين المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الباطني ، معلنين عقائد الإسلام الصحيح ، فاستفاد المعز لدين الله الفاطمي من ضعف الحكم الأخشيدي التابع للدولة العباسية، فرمى بسهامهِ المسمومة ، ودفع إليها جيوشهُ المحمومة بقيادة جوهر الصقلي سنة 358 هـ الذي لم يجد أيَّ عناء في ضمها لأملاك العبيديين.

وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة 361 هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي ، وبعد الانتقال إلى مصر بدأت المقاومة السنية في الشمال الإفريقي تقوى مع مرور الزمن؛ حتى استطاع المعز بن باديس الصنهاجي في 435 هـ عندما تولى الحكم أن يطهر الشمال الإفريقي من الشيعة الرافضة ، وبدأ في حملات تطهير للمعتقدات الباطنيَّة ، ولمن يطعن ، ويسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوعز للعامة وجنوده بقتل من يظهر الشتم ، والسب لأبي بكر ، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فسارع أهل السنة في الشمال الإفريقي للتخلص من الشيعة الرافضة الإسماعيلية ، وتصفيته من المعتقدات الفاسدة في ملحمة من ملاحم الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأشرتُ إلى جهود السلاجقة في حماية العراق ، وبلاد الشام من التشيّع الرافضي ، ودور المدارس النظامية في الإحياء السني ، وتقليص المد الشيعي الرافضي ، وإعداد الكوادر اللازمة لقيادة حركة المقاومة ضد الغزاة الصليبيين. وبينتُ جهود نور الدين السياسية ، والعسكرية ، والفكرية للقضاء على الدولة الفاطمية ، وقد تمَّ ذلكَ على يدي صلاح الدين

الذي تدرَّجَ في إلغاء الخلافة الفاطمية وفق رؤية استراتيجية وضعها القاضي الفاضل بالتعاون مع القيادة النورية وقد تمَّ بيانها في هذا الكتاب.

إن من الدروس المهمة في هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد الزنكيين ، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق؛ وهي المشروع الصليبي الذي تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثاني ، والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر ، والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لوائهِ نور الدين زنكي.

فكانت المحاورُ التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً ، تعمق الهوية العقائدية السنية ، والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة ، والتصدي لشبهات المذهب الشيعي ، وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين ، وكانت المحاور متداخلة من حيث السير إلا أنَّ تحرير بيت المقدس ، والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً ، وعسكرياً ، وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السني.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس ، وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح ، وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم.

وعلى كل من يتصدى لقيادة الأمة في المواقف السياسية والتصريحات الإعلامية عليه أن يدرس كتاب ربِّه ، وسنة نبيه، وهدى الخلافة الراشدة ، وحركة التاريخ الإسلامي ، وحقيقة الصراع بين هذه المشاريع المتباينة؛ كي يساهموا في توعية الأمة ، وإزالة الجهل عنها ، ومعرفة أعدائها.

إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بدَّ أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها ، وتوجِد الكتب النافعة في هذا المجال وهذا من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال والدعوة مع اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين والمبتدعة...إلخ وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار، والعقائد ، والثقافات ، والمناهج ، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري ، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد ، وأفكار وثقافة تدفعه ، فالحرف هو الذي يلد السيف ، واللسان هو الذي يلد السنان ، والكتب هي تلد الكتائب.

إن تجربة نور الدين محمود ثرية ، وهي تجيب عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية والإقليمية والعالمية ، وهذه التجربة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً ، تماماً كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله على أن الإسلام قدير في أية لحظة تتوفر فيها النية المخلصة ، والإيمان الصادق ، والالتزام المسؤول والذكاء الواعي على إعادة دوره الحضاري والقيادي وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هذا وقد كانت علاقتي الروحية مع نور الدين محمود منذُ كنتُ طالباً بالمدينة المنورة ، حيث إنني كنتُ ممن تتلمذ على أشرطة الشيخ الدكتور سفر الحوالي شفاه الله من كل سوء ، ومن ضمنها كان الحديث عن نور الدين محمود الشهيد في شريطين ، فتعلقت بسيرة هذا القائد الفذ ، وقد حث الشيخ في محاضرته طلاب العلم والعلماء على كتابة سيرته والبحث فيها ومن هناك كانت نقطة البداية ، وفي إحدى زياراتي للمدينة النبوية بعد تخرجي زرت أستاذنا وشيخنا الدكتور يحيى إبراهيم اليحيى ، وحدثني عن نور الدين محمود ، وطلب مني أن أبحث في سيرتهِ ، فإنها تستحق الدراسة على حدِّ قوله ، وازدتُ قناعةً بالموضوع إلا أن انشغالي بالسيرة ، وتاريخ صدر الإسلام ، ومرحلة الدراسات العليا منعني من تحقيق

هذا الهدف النبيل الذي لم يغب عن ذاكرتي ، ووجداني ، وأصبح من ضمن أهدافي الرئيسية في الحياة، ودخل في أورادي ، ودعواتي بأن يوفقني الله لتحقيقه.

وعندما أقمت باليمن السعيد الحبيب ، كان من ضمن شيوخي الذين طلبوا مني الكتابة في مرحلة الحروب الصليبية الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان ، الذي استفدتُ منهُ كثيراً في عهدِ الخلافة الراشدة ، ولا أنسى أبداً شيخي ، وأستاذي ياسين عبد العزيز اليماني الذي فتح لي بيته للحوار والنقاش ، وأعطاني من وقته الثمين الساعات الطوال ، وفي زيارتي للشيخ الدكتور القرضاوي حثني على الكتابة في سيرة نور الدين محمود ، واعتبرها من الشخصيات التي لم تُعْطَ حقها في التاريخ.

وأما شيخي وأستاذي الدكتور سلمان العودة فقد قال لي: «نادراً ما تتاح الفرصة للبحث في القضايا التاريخية مثل ما أتيحت لكَ ، فعليكَ بالإخلاص لله ، وأن تتقيه فيما تكتب» وعندما قرأ خطتي في إعادة كتابة التاريخ ، شجعني على المضي فيها ، وقد استفدتُ من حواراتي ومناقشتي معه في الأمور التاريخية والفكرية ، وكان يستقبلها بسعة صدر وبكل أريحية كعادة الشيخ مع طلابه وتلاميذه. كما أن لأحداث العراق تأثيراً مباشراً على هذه الكتابات ، وهذا جهد مقلٌّ أساهم به مع إخواني في معركة المصير ، مع الاعتراف بالتقصير في حقهم ولهم مني الدعاءُ في ظهر الغيب بالسداد والتوفيق ، وتحرير بلاد الرافدين من الغزاة المحتلين ومن الأخطار الداخلية والخارجية ، وعلينا أن نستلهم من سيرة نور الدين محمود الشهيد الدروس والعبر في حياتنا المعاصرة وكيف نخطط لتحرير بيت المقدس من أيدي اليهود الغاصبين.

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الأربعاء الساعة الثانية عشرة ، وثماني دقائق من تاريخ 20 شعبان 1427 هـ الموافق 2006/9/13 والفضل لله من قبل ومن بعد ، وأسألهُ سبحانهُ وتعالى بأسمائِهِ الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ، ولعبادهِ نافعاً ، ويشرح صدور العباد للانتفاع بهِ ويبارك فيه بمنه ، وكرمه ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ، ويجعلهُ في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: 19]

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : 2]

وصلى اللهُ على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبِهِ وسلم ، سبحانكَ اللهم وبحمدكَ أشهد أن لا إله إلا أنتَ أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر ، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ، ومواصلةِ المسيرة في خدمةِ تاريخ أمتنا.

http://www.alsallabi.com

في نهاية الكتاب أضفت الخلاصة التي وصلت إليها من دراستي لعهد السلاجقة والزنكيين.



الفصل الأوَّل

ظهور عماد الدِّين زنكي
على مسرحِ الأحداث

المبحث الأول : أصول الأسرة الزَّنكيَّة

ينتمي عماد الدين آق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (السبايو) التركمانية وقد حظي والدهُ أبو سعيد اق سنقر. الملقب بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب[(1)] . باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية ، والعسكرية للدولة السلجوقية[(2)]، وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول وأترابه[(3)] ، وقيل: إنه كان لصيقه ، ومن أخصّ أصدقائه[(4)] ، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، ولما تسلَّم ملكشاه الحكم عينه حاجباً له، وحظي عندهُ فكان من المقرَّبين ، وأنس إليهِ ، ووثق به؛ حتى أفضى إليهِ بأسرارِه ، واعتمدَ عليهِ في مهماتِه، فكان أبرزَ قادته[(5)].

أولاً: مكانة آق سنقر عند السلطان ملكشاه:

من أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سُنْقُر عند السلطان منحهُ لقب «قسيم الدولة» ، وهذا يعني: الشريك وكانت الألقابُ في تلك الآونة مصونة لا تُعطى إلا لمستحقيها[(6)] ، ويبدو: أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، وبالإضافة إلى ذلكَ؛ فإن آق سُنْقُر كان يقف على يمين سدَّة السلطنة ، ولا يتقدمه أحد ، وصار ذلكَ أيضاً لعقبِهِ من بعده[(7)].

والراجح: أنَّ منح آق سنقر هذا اللقب يعود إلى ثلاثة أسباب:

1 . محبة السلطان ملكشاه له ودعمه إياه.

2 . انتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة ، وأنَّهُ كان ذا مكانة رفيعة منها.

3 . أنه أدَّى خدمات جليلة لملكشاه استحقت منحه هذا اللقب[(8)].

واشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة ، فقد سيره ملكشاه عام 477 هـ مع عميد الدولة بن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل ، وطرد العقيليين منها ، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة[(9)] ، وبعد مرور سنتين اشتركَ مع السلطان ملكشاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين ، فولاَّه إيَّاها تقديراً لجهودهِ[(10)]، وقد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها ، كمنبج ، واللاذقية، وكفر طاب[(11)]. واستطاع أن يوسِّعَ نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص

---

(1) وفيات الأعيان (217/1 ، 218) ، عماد الدين زنكي ، د. عماد الدين.

(2) عماد الدين زنكي ، د. عماد الدين خليل ص 31.

(3) التاريخ الباهر في الدول الأتابكية بالموصل ص 4.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ، د. محمد طقوش.

(5) التاريخ الباهر ص 4.

(6) المصدر نفسه نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 43.

(7) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 43.

(8) إمارة حلب ، محمد ضامن ص 136.

(9) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (19/1 . 21 ، 22).

(10) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 32.

(11) الباهر ص 8 ، عماد الدين زنكي ص 32

عام 483 هـ ، وحصن أفاميه عام 484 هـ كما فرض طاعته على صاحب شيزر عام 481 هـ ، وفي عام 485 هـ اشتركَ مع ملكشاه في مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل، وظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملكشاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك ، ولم يسع يوماً إلى الخروج على أوامره ، ورفض السلطان بدوره الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر ، أو إقرار مساعيهم للتخلص منه[(1)].

ثانياً: سياسة آق سنقر في حلب الداخلية:

بدأت مع تولي آق سنقر الحكم في حلب مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة ، وانتهى حكم القبائل العربية لهذه الإمارة، وأزيحت عن مسرح الأحداث في شمالي بلاد الشام ، ويُعدُّ سُنْقُر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب بعدما كانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية فيما بينها ، ثم بينها وبين التركمان القادمين من الشرق ، ودامَ حكمه ثماني سنوات تقريباً كانت مرحلة هامة في

تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل: أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة [(2)] ، لقد تسلم آق سُنقر الحكم في ظل حالة من الفوضى التامة بفعل عاملين: داخلي ، وخارجي ، يتمثل الأول بصراع الحكَّام ، وتدبيرهم المؤامرات ، واستعانتهم بالقوى الكبرى في المنطقة كالخلافة العباسية في بغداد ، والدولة الفاطمية في مصر بالإضافة إلى الدولة السلجوقية الجديدة الطامعة في التوسع في المنطقة هي:

1 . قوة القبائل العربية البدوية وبخاصة الكلابيين العقيليين والمرداسيين لاستعادة نفوذها المسلوب.

2 . قوة التركمان المدمِّرة التي كانت تغير على المنطقة.

3 . قوة الدولة البيزنطية التي كانت تستغلُّ الصراعات الداخلية لاستعادة نفوذها المفقود.

شهدت حلب نتيجة ذلكَ أوضاعاً من عدم الاستقرار السياسي ، انعكسَ سلباً على الأوضاع الاقتصادية ، والاجتماعية ، والأمنية فيها في خضم هذه الصراعات ، وتغافل الحكام عن الاهتمام بالشؤون الداخلية للسكان ، كما أهملوا تطوير الحياة الاقتصادية ، مما أدَّى إلى تراجع واردات البلاد ، وعمدوا إلى استنزاف السكان بفرض ضرائب أخرى وأتاوات باهظة كلما أعوزهم المال ، حتى أثقلوا كاهلهم ، فتذمروا من سوء الأوضاع ، وكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق ، مما أدَّى إلى انعدام الأمن على الطرق ، فتعطلت الحركة التجارية ، وقلَّت السلعُ في الأسواق ، وتراجعت موارد الزراعة لعدم تمكُّن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول ، فبرزت في هذه الظروف الصعبة منظمة الأحداث التي أخذت على عاتقها رعاية مصالح أفرادها ومقاومة التعديات الخارجية[(3)] ، ووضع اق سنقر نصب عينيه هدفاً راحَ يعمل على تحقيقه ، تمثل في إعادة الأمور إلى نصابها ، ولذلكَ شرعَ في:

[(1)] عماد الدين زنكي ص 32 ، 33

[(2)] مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 209 ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 46.

[(3)] دخول الترك الغز إلى الشام ، مصطفى شاكر ص 307 ، 314 . 315.

1 . إقامة الحدود الشرعية ، وطارد اللصوص وقطاع الطرق ، وقضى عليهم ، وتخلص من المتطرفين في الفساد ، كما قضى على الفوضى التي كانت متفشية في البلاد ، وعامل أهل حلب بالحسنى؛ حتى توارثوا الرحمة عليه إلى اخر الدهر»[(1)].

2 .كتبَ إلى عمال الأطراف؛ حيث ولم يكتفِ اق سنقر بحصر تدابيره الإصلاحية في حلب بل كتب إلى عمال الأطراف التي خضعت لحكمه أن يحذوا حذوه ، وتابع أعماله بنفسه.

3 . وأقرَّ قسيم الدولة مبدأ المسؤولية الجماعية ، فإذا تعرض أحد التجار للسرقة في قرية ما ، أو إذا هوجمت قافلة أو نهبت؛ فإن أهل القرية التي جرت الحادثة فيها يكونون مسؤولين جماعياً عن دفع قيمة الضرر اللاحق بهؤلاء[(2)] ، ونتيجة لهذا المبدأ هبَّ سكان القرى لمساعدة الحكام في فرض الأمن ، فإذا وصل تاجر إلى قرية أو مدينة ، وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبهِ ونام وهو مطمئن بحراسة أهلها ، وهكذا شارك السكان بتحمل المسؤولية في حفظ الأمن حتى أمنت الطرق ، وتحدث التجار والمسافرون بحسن تدبيره وسيرته[(3)].

ونتيجة لاستتباب الأمن في كافة أرجاء إمارة حلب نشطت التجارة ، وامتلأت الأسواق بالبضائع الواردة إليها من كل الجهات ، واستقر الوضعُ الاقتصادي ، وتداعى الناس إليها للكسب فيها والعيشِ برغد[(4)]. وقد اعترف المؤرخون بحسن سياسة اق سنقر الداخلية ، والأمنية، وأجمعوا على مدحه:

قال ابن القلانسي: «وأحسن فيهم السيرة ، وبسط العدل في أهلها ، وحمى السابلة للمترددين فيها ، وأقام الهيبة ، وأنصف الرعية ، وتتبع المفسدين ، فأبادهم ، وقصد أهل الشر ، فأبعدهم ، وحصل له بذلكَ من الصيت ، وحسن الذكر ، وتضاعف الثناء والشكر.. فعمرت السابلة للمترددين من السفار ، وزاد انتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار»[(5)].

وقال ابن واصل: «ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة وأقيمت الحدود الشرعية ، وعمرت الطرقات ، وأمنت السبل ، وقُتِلَ المفسدون بكل فج ، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق؛ أمر بصلبه على أبواب المدينة»[(6)].

وقال ابن الأثير: «وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسةً لرعيتهِ ، وحفظاً لهم ، وكانت بلادهُ بين رخص عام ، وعدل شامل ، وأمن واسع»[(7)].

وقال عنهُ ابن كثير: «بأنه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأجودهم سريرة ، وكان الرعية في أمنٍ وعدل ورخص[(8)].

[(1)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 47.

[(2)] المصدر نفسه.

[(3)] الباهر: ص 15.

[(4)] مرآة الزمان (244/8).

[(5)] ذيل تاريخ دمشق ص 196.

[(6)] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (19/1).

[(7)] الكامل في التاريخ (368/8).

[(8)] البداية والنهاية (143/16).

وأما من حيث إنجازاته العمرانية؛ فقد جدَّد عمارة منارة حلب بالجامع عام (482 هـ/1089 م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم ، وفي ذلكَ قصة لطيفة ذكرها ابن واصل مفادها: في سنة اثنتين وثمانين وأربعمئة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشّاب منارة حلب ، وكان بحلب بيت معبد نار ، قديم العمارة ، صار بعد ذلكَ أتون حمَّام ، فأخذ ابن الخشاب حجارته ، وبنى بها المنارة ، فأنهى بعض حُسَّاده إلى الأمير قسيم الدولة خبره ، فغضب على القاضي ابن الخشاب ، وقال: «هدمت معبداً هو لي وملكي» فقال: «أيها الأمير ، هذا معبد للنار ، وقد صار أتوناً»[(1)] ، فأخذتُ حجارتهُ لأعمر بها معبداً للإسلام ، يُذكر فيه الله وحده لا شريكَ لهُ ، وكتبتُ اسمكَ عليه ، وجعلتُ الثوابَ لك ، فإن رسمت غرمت ثمنه لك ، ويكون الثواب لي؛ فعلتُ فأعجب الأمير كلامه ، واستصوب رأيهُ ، وقال: بل الثواب لي ، وافعل ما تريد ، فشرع في عمارة المنارة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة[(2)].

ثالثاً: سياستهُ الخارجية:

عادت سياسة آق سنقر بنتائج هامة على المنطقة ، فسادَ الاطمئنان ، وأمنت الطرق ، وانتشر العمران ، فانتعشت التجارة ، وقد بلغَ من سيطرة آق سنقر على الأمن في قرى حلب وضياعها أن أرسل من ينادي فيها أن لا يغلق أحدٌ بابه ، وأن يتركوا الاتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً[(3)]. ومن ثم جاءت شهرتهُ بناءً على ما أنجزه في هذا المجال[(4)] وبعد أن نظم قسيم الدولة إمارته الداخلية ، وحقَّقَ الأمن والاستقرار أراد أن يقوم بدورٍ خارجي ، وكانت بلادُ الشام عبر تاريخها عرضة للصراعات من أجل السيطرة بين الشمال والجنوب. وقد مثلت دمشق ، مُنذ القرن السابع الميلادي، الجنوب ، في حين مثَّلت حلب الشَّمال ، وكانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية، واقتصادية ، ولكن غالباً ما كانت سياسية ، حيث حاول حكام دمشق من جهتهم ، وحكام حلب أيضاً مَدَّ سيطرتهم كلياً على بلاد الشام، وتبعاً لهذه القاعدة حدث صراعٌ بين تُتُش ، وآق سُنقر[(5)]، فقد وقف في وجه تُتش الطامع في بلاده ، وأن يتوسَّع على حساب جيرانهِ ، وبدا لهُ قبل الإقدام على تنفيذ هذا المشروع أن ينشيء جيشاً منظماً يعتمد عليهِ في حروبه ، وشرعَ في ذلكَ ، وكانت نواة هذا الجيش تتمثل بالقوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب ، وتعدادها أربعة الاف مقاتل ، ثم تعدَّت الستة الاف[(6)]. وقد اعتمد آق سُنقر على نوعين من القوات العسكرية.

* **النوع الأول**: القوات الاحتياطية التي كان يزدادُ عددها باستمرار ، وهي تنتمي إلى العنصر التركي.

* **النوع الثاني**: القوات الاحتياطية التي كان يجمعها حين يحتاج إليها ، وكانت خليطاً من العرب ، والتركمان ، وغيرهم ، وقد وصل عددها في المعركة التي خاضها ضد تُتش إلى عشرين ألفاً ، وكان تتش قد جهد منذُ أن أصبح حاكماً على دمشق في عام 470 هـ/1077 م في العمل على:

[(1)] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (20/1).

[(2)] المصدر نفسه (20/1).

[(3)] عماد الدين زنكي ص 35.

[(4)] ذيل تاريخ دمشق ص 119 . 120 الباهر ص 15.

[(5)] مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 215.

[(6)] مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 215.

* بسط سلطانه على كامل بلاد الشام ، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية ، أو تُحكم من قبلها.

* إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان ، إلا أنه فشل في تحقيق الهدف الأول، ونجحَ في تحقيق الثاني إنما بعد وفاة ملكشاه الأول ، على أن الأوضاع التي آلت إليها البلاد لم ترض تتش ، فلجأ إلى السياسة ، وطلب من أخيه عام (480 هـ/1087 م) تزويده بقوات ومعدات تمكنهُ من طرد الفاطميين من بلاد الشام ، وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة بما فيها المدن الساحلية ، والواقع: أنَّ ملكشاه الأول كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في بلاد الشام ، والعراق ، لذلكَ لبَّى طلب أخيه ، وأمر كلاًّ من قسيم الدولة صاحب حلب ، وبوزان صاحب الرُّها ، بأن يقدِّما له كل ما يحتاجهُ في مهمتهِ من عساكر وتجهيزات[(1)] ويبدو: أنَّ الحاكمين لم ينفذا الأوامر السلطانية ، فلم يذهب اق سنقر بعيداً في مساعدة تُتش وهو يعلم مدى خطورة أطماعهِ، وكذلكَ فعل بوزان.

ومن جهته ، فإن تُتش لم يقم بأيِّ عمل عسكري جدِّي ضد مدن الساحل[(2)] ، ولكن الأوضاع تبدَّلت في عام (482 هـ/1089 م) حين استولى الفاطميون على عكا ، وصور ، وصيدا ، وجبيل ، كما أنه وصل إلى المعسكر الفاطمي ، في غضون ذلك ، خلف بن ملاعب صاحب حمص ، وأفامية[(3)] ، فاجتمعَ بالقائد الفاطمي ، واعترف لهُ رسمياً بسلطان الفاطميين ، وسيادتهم عليه[(4)]، مما شكل تحدياً مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام ، ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من بسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراضٍ تابعة لتتش مما دفعه إلى الاستنجادِ مجدداً بأخيهِ. كما أنَّ الحكام السلاجقة في هذه البلاد شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص ، وكذلكَ فعل السكان بفعل أنه اتصف بالظلم ، ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام؛ أمر السلطان أخاه تُتُش بتأديب ابن ملاعب ، وطرد الفاطميين من البلاد، وضمَّها إلى الأملاك السلجوقية، وطلب في الوقت نفسه، من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته[(5)] انزعج كلٌّ من آق سُنقر ، وبوزان من قيادة تُتُش لهذه الحملة ، وأدركا: أنه سوفَ ينفرد بحكم ما سيتولى عليه، فخرجا مكرهين غير مقتنعين بمساعدته[(6)]، وصلت القواتُ المتحالفة إلى حمص عام 483 هـ/1090 م وحاصرتها ، وضيَّقت عليها؛ حتى استسلمت ، وقبض على ابن ملاعب ، وأُرسل إلى السلطان ملكشاه الأول[(7)] ، وانكشفت في غضون ذلكَ أطماع الأطراف المتحالفة ، فقد طلب كلٌّ من الأمراء حمص لنفسه ، وكتبَ إلى السلطان بذلكَ ، فأنعمَ بها على أخيه[(8)].

[(1)] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 51.

[(2)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 51.

[(3)] أفامية: مدينة حصينة.

[(4)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 51.

[(5)] المصدر نفسه ص 52.

[(6)] المصدر نفسه ص 52.

[(7)] المصدر نفسه ص 52.

[(8)] بغية الطالب (3354/7).

1 ـ موقف آق سنقر من تتش: في عام 484 هـ نزل تتش بجيوشه على طرابلس ، وكان بها قاضيها وهو صاحبها واسمه جلال الملك بن عمار ، ونصبوا المجانيق ، فاحتج عليهم ابن عمار ، وأظهر لهم منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس ، فلم يقبل تتش ذلكَ ، وتوقف آق سنقر عن قتاله ، فقال لهُ تتش: أنت تتبع لي؛ فكيف تخالفني؟! فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان ، فغضب تاج الدولة تتش ورجع إلى دمشق واق سنقر إلى حلب[(1)].

وأدركَ آق سنقر: أنَّ سياسته العدائية تجاه تُتُش تفرض عليه منعه من ضم أي مدينة إلى أملاكهِ ، لذلكَ جهد أثناء عودتهِ إلى حلب في ضمِّ المواقع التابعة لخلف بن ملاعب ، ومنها أفامية التي سلَّمها إلى منقذ صاحب شيزر[(2)]، وقد هدف من ذلكَ إلى أمورٍ منها:

أ ـ إقامة منطقة حاجزة بين أملاكهِ في شمال الشام ، وأملاك تتش في الجنوب واعتقد: أنَّ إمارة بني منقذ في شيرز بإمكانها أن تقوم بهذا الدور.

ب ـ حرمانُ تُتُش من ضمِّ إمارة بني منقذ ، وبالتالي إبعاده عن منطقة حلب.

ت ـ إيجاد حليف قوي يعتمد عليهِ في صراعه مع تُتُش.

ث ـ إبعاد بني منقذ عن التحالف مع تُتُش[(3)].

والواقع: أنَّ ملكشاه وقف على هذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام ، فعمد إلى وضع حدٍّ لهُ ، فاستدعى في شهر رمضان عام 484 هـ شهر تشرين الأول عام 1091 م، جميع ولاتهِ في بلاد الشام ، والجزيرة بالإضافة إلى أخيه تُتش، ليبحث معهم مشاكل وقضايا مناطقهم[(4)] ، واستغل تُتُش وجودهُ عندَ أخيهِ ، وعرض خلافه مع آق سُنقر ، واتهمهُ بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية ، وقام آق سنقر يدافع عن نفسه متهماً تُتُش بالكذب ، واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره ، فرفض اتهامَ أخيهِ له كما رفض مساعيه للتخلص منه[(5)].

2 ـ دعم آق سنقر للسلطان بركيارق: ظلت العلاقة الطيبة قائمة بينَ آق سُنقر وملكشاه طيلة حياة هذا الأخير. ولما توفي عام 485 هـ/1092 م طلب تُتُش السلطنة لنفسه في ظلِّ صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى ، وتجهَّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه ، وكاتب كلاً من آق سُنقُر ، وبوزان يطلب مساعدتهما[(6)] ، واستجابوا لذلكَ ، واشتركوا في حربٍ مع إبراهيم بن قريش صاحب الموصل؛ لأنه رفض الخطبةَ في الموصل لتتش ، ورفض أن يعطيه طريقاً إلى بغداد ، فهُزِمَ صاحب الموصل وأخذت منه ، ساروا إلى ميافارقين فَمَلَكَ تُتُش سائر ديار بكر[(7)] ، ثم سار تُتُش إلى أذربيجان ، وكان بركيارق بن ملكشاه قد قويَ أمره ، وصارت بيدهِ الري ، وهمذان ، فسارَ ليمنعَ عمه[(8)] ، ولما

[(1)] تاريخ الزنكيين ص 53.
[(2)] المصدر نفسه ص 53.
[(3)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 53.
[(4)] المصدر نفسه ص 53.
[(5)] تبريز: أشهر مدن أذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة.
[(6)] ذيل تاريخ دمشق ص 203.
[(7)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 53.
[(8)] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 54.

علمَ تُتُش بذلكَ قرر الإسراع في زحفهِ باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه ، وعندما وصل إلى مدينة تبريز[(1)]؛ حدثت المفاجأة إذ تخلَّى عنهُ آق سُنُقر، وبوزان وانضما إلى بركيارق عند مدينة الري[(2)] فقوي موقفه بهما، وكان هذا الإنسحاب محطماً لخطة تُتُش ، ويبدو أن هناكَ عدة أسباب دفعت آق سنقر إلى هذا التصرف ، ولعل أهمها:

أ. كان تُتُش منافساً خطيراً لآق سنقر ، وإنَّ تأييده له حتَّمه واقع الظروف السياسية التي كان يمر بها.

ب. رأى آق سنقر أن تبقى السلطنة محصورة في أبناء سيده ملكشاه الأول وفاء منه له.

ج. شعر قسيم الدولة بأن تُتُش يُقَرِّب ياغي سيان صاحب أنطاكية ، ويميل إليهِ وقد يعتمدُ عليه في حكم بلاد الشام في المستقبل[(3)].

ومهما يكن من أمر ، فقد أدركَ تُتُش حرج موقفه ، وضعف قواته بعد الانسحابات التي حصلت في صفوفهِ ، فاضطر إلى التوقف عن الزحف وعن قتال بركيارق ، واثر الانسحاب إلى الشام ، فعاد أدراجه نحو ديار بكر ، وتوقف في الرحبة ، ثم حدث أن أقنع كلٌّ من آق سنقر ، وبوزان السلطان بركيارق بألاَّ يترك تُتُش وشأنه وحذَّراه من أطماعه، وأشارا عليهِ بمطاردته[(4)] وفعلاً تحركَ الجميعُ باتجاه الرحبة ، فلما علم تُتُش بذلكَ تركها ، واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية التي بقي فيها مدَّةً ثم عاد إلى دمشق[(5)] ، وفي الرحبة عقد اجتماعاً رباعياً ضمَّ السلطان بركيارق ، وآق سنقر ، وبوزان ، وعلي بن مسلم بن قريش العقيلي تمخَّضَ عن عقد تحالف بين الحاكمين السلجوقيين من جهة والأمير العقيلي من جهة ثانية ، تحت إشراف السلطان ، هدفه الوقوف في وجهِ تُتُش ، وعاد السلطان إلى بغداد بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سنقر ، في حين عاد بوزان إلى الرُّها ، واق سنقر إلى حلب ، فوصل إليها في شهر ذي القعدة عام 486 هـ شهر تشرين عام 1093 م ، وهكذا قام آق سنقر بدور بارز في إفشال مخططات تتش ومنعهِ من الحصول على السلطنة ، وساعد بركيارق على الاحتفاظ بها ، مدركاً في الوقت نفسه: أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التي وجهت إليهِ ، فأخذ يستعد للتصدي له ، وانتزاع دمشق منه هذه المرة ، فطلب المساعدة من السلطان بركيارق فأمدَّه بـ: «كربوغا» ، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرُّها ، ويوسف بن ابق حاكم الرحبة ، كما انضم إليهِ جماعة من بني كلاب ، وأحداث حلب[(6)].

3. مقتل آق سنقر: وكان أول ما فكر فيهِ تُتش عند عودتهِ إلى دمشق هو الانتقام من آق سنقر وبوزان بعد أن تخليا عنه في وقت الشدَّة[(7)] ، فأخذ يستعد لقتالهما ، وتحالف مع ياغي سيان صاحب أنطاكية بعد أن زوَّج ابنه رضوان من ابنتهِ[(8)]كما جنَّد قوات إضافية من بني كلاب ، والتقى الجيشان يوم السبت في التاسع من شهر جمادى الأول/شهر

[(1)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 53.

[(2)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 53.

[(3)] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 55.

[(4)] المصدر نفسه 55.

[(5)] المصدر نفسه 55.

[(6)] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 55 الكامل في التاريخ (368/8).

[(7)] الحركة الصليبية ، عاشور (112/1) تاريخ الزنكيين ص 56.

[(8)] زبدة حلب (331/1).

ايار) عند تل السلطان[(1)] ، القريب من حلب ، ويبدو: أنَّ آق سنقر لم يثق بمن كان معهُ من العرب ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ثم إلى القلب والراجح أن هذا التبديل في المواقع العسكرية أثر على قدراته القتالية ، فدارت الدائرةُ عليهِ ، ووقعَ أسيراً في يد تُتُش[(2)] ، فسألهُ تُتُش: «لو ظفرت بي ما كنتَ صنعتَ بي؟ قال: كنتُ أرى قتلكَ! قال: فأنا أحكمُ عليكَ بما كنتَ تحكم علي!» فقتلهُ صبراً ، وتسلمَ قلعة حلب الإثنين 11 جمادى الأولى[(3)]، ودفن آق سنقر خارج حلب ثم لما ملك عماد الدين نقل بقايا أبيهِ فدفنها بجانب المدرسة الرجاحية في حلب[(4)].

رابعاً: نشأة عماد الدين زنكي وأسرته:

1 ـ نشأته : ولد عماد الدين زنكي سنة 477 هـ وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه حتى لقب بقسيم الدولة، وكان الابن الوحيد لهذا القائد العظيم في الدولة السلجوقية، وتولى والده آق سنقر حلب سنة 479 هـ أي: بعد سنتين من مولده ، فكانت حلب مهد طفولتهِ وقضى بها أيامه الأولى[(5)].

2 ـ تربية والده له : عاش زنكي في كنف والده مدة عشر سنوات تكونت خلالها الخطوط العريضة لشخصيتهِ ، وتشربَ من أبيهِ أخلاقهُ وصفاتهُ ، ولا شك: أنَّ والدهُ درَّبه على الفروسية منذُ نعومة أظفاره ، ليكون نعم الوارث لمركزه، وقد دربه على ركوب الخيل ، ورمي السهام، وعوَّده الصبر على المشاق في الحرب وممارستها ، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة حسن تربية والده له ، فقد تميز بالشجاعة التي تبلغ حد الذروة ، فهو يهاجم مع مودود طبرية ، وينهزم الصليبيون ، ويلحقهم المسلمون وعماد الدين في المقدمة ، ولا يلتفت إلى الوراء ، ليتأكد من لحاق أصحابه به، ويصل إلى باب طبرية ، ويحارب الإفرنج عليه ، ويبدي شجاعة فائقة ، وينسحب ويحسن الانسحاب عندما لا يرى حوله أحداً ، فيعجب الناس من رجوعه سالماً ، كما عجبوا من شجاعته[(6)]، وورث عن أبيه آق سنقر القوَّة التي لا تعرف العطف والتي لا تبقي على عدوٍّ خطر ، وورث عنه التخطيط الذي يؤدي إلى حتف الخصم الذي رسمه له زنكي[(7)].

3 ـ والدتهُ: توفي والده وعمره عشر سنوات ، ولكن أمه عاشت حتى رأت ابنها يرث أباه ، ويحكم الموصل ، وقرَّت عينها إذ رأتهُ في السنة التي توفيت فيها يحاصر دمشق التي قتل صاحبها تتش زوجها آق سنقر ، فقد توفيت سنة 529 هـ بالموصل.

وكانت هناكَ أسطورة أوربيَّة سورية: أن أتابك الموصل من أصل فرنجي ويفترض أن أمه كانت الأميرة الجميلة النمساوية التي أسرت ، وقضت بقية أيامها في حريم اق سنقر ، وأن امرأة عظيمة أوربية تستطيع أن تلد مثل هذا البطل. ولكن هذه القصة غير صحيحة؛ لأن أباه آق سنقر مات قبل سنوات من حدوث الكارثة ـ الغزو الصليبي ـ ، ولا يذكر لنا

[(1)] تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق.
[(2)] الكامل في التاريخ (368/8).
[(3)] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 55.
[(4)] المصدر نفسه ص 55.
[(5)] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 57.
[(6)] الروضتين (68/1).
[(7)] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 58.

المؤرخون اسماً لوالدتهِ ، ولا أصلها حتى نستطيع أن نتعرف على أسباب اكتسابه اللون الأسمر مع أن المشهور عن الأتراك اللونُ الأبيض ، فلعله ورث هذه الصفات عن والدته[(1)].

4 . زوجات عماد الدين: أ . تزوج زنكي أكثر من واحدة ، فمن زوجاته التي ذكرها المؤرخون؛ زوجة الأمير كندغدي. وقال السلطان محمود: قد زوجتكَ امرأة الأمير كندغدي من أكابر أمراء السلطان محمد ، والسلطان محمود ، واتفق أنه مات وترك ولداً صغيراً وزوجة ومن المال والبرك (المتاع الخاص من ثياب وقماش وسلاح) ما لا يقدر عليه إلا السلطان، فطلب من عماد الدين أن يتزوجها وأرسل إليها ، يقول لها: إنني زوجتك بعماد الدين زنكي ، فامتنعت ، ثم أجابت ، فركب زنكي من غدٍ بعد دخوله بها ومعهُ ولد كندغدي وهو في موكب عظيم من أصحابهِ وأصحاب كندغدي ، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحدٍ من العسكر مثله[(2)].

ب . الزوجة الثانية: خاتون ابنة الملك رضوان ، كان زواجه بها زواجاً سياسياً ، فقد تزوجها ليصبح له الحق والشرعية في حكم حلب[(3)]، ولكنه هجرها بعد أن رأى ثياب أبيهِ آق سنقر الذي قتلهُ جدها تتش ، وطلقها بتدخل القاضي أبي غانم قاضي حلب[(4)] ، وكان زواجهُ بها سنة 522 هـ على رأي حسن حبشي وسنة 523 هـ على رأي ابن العديم [(5)].

ج . الزوجة الثالثة: صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي؛ تزوج صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي سنة 529 هـ والظاهر: أنَّ زواجه منها كان ليمكِّن نفوذه في تلك المنطقة ، فقد كان زنكي في السنة السابقة لهذا الزواج في حرب ، وكان حسان الدين تمرتاش معهُ في حربه ضد داود بن سكمان بن أرتق ، وربما أراد بالمصاهرة أن يضم خلاطاً إليهِ ، ويقوي جبهته في تلك المنطقة ، ولا سيما أنه في سنة زواجه كان في حرب في تلك الجبهة ، فاستولى على الصقر وشوش.

د . الزوجة الرابعة: ابنة تمرتاش.

هـ . الزوجة الخامسة: خاتون بنت جناح الدولة حسين ، وكان زواجه منها سنة 531 هـ وفي هذه السنة كانت فترة نشاطه في حمص ، فقد حاصرها حصاراً شديداً ولا يستبعد أن يكون زواجه بها ليكتسب شرعية أخذه حمص من دمشق؛ لأنها الوارثة لها بعد والدها ، وليضم إليه أنصار والدها ، ويساعدوه على أخذ المدينة[(6)].

و . الزوجة السادسة: تزوجها سنة 532 هـ وهي صفوة الملك ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بني تاج الملوك، وهي أخت الملك دقاق لأمه[(7)]، وقد كانَ زواجهُ منها في أمل أن يمتلكَ دمشق ، فلما لم يحصل له ملك دمشق؛ أعرض عنها[(8)].

[(1)] المصدر نفسه ص 59.

[(2)] التاريخ الباهر ص 28.

[(3)] نور الدين زنكي ، حسن حبشي ص 24.

[(4)] زبدة حلب ص 244 ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 59.

[(5)] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 59.

[(6)] المصدر نفسه ص 60.

[(7)] الروضتين (80/1).

[(8)] مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص 60.

ونلاحظ: أنَّ موضوع زوجات زنكي قد حظي باهتمام عدد من المؤرخين ، وأغلب الظن: أنَّ سبب ذلكَ يعود إلى العلاقة الوثيقة بين معظم عقود الزواج التي قام بها وبين مشاريعه السياسية والعسكرية ، وكان زنكي يعتمد رابطة الزواج لتحقيق بعض أهدافه السياسية ، والعسكرية ، وإنه تمكن بهذا الأسلوب من توثيق علاقاته بعدد من الحكام والأمراء ، الأمرُ الذي ساعده إلى حدٍّ كبير في تنفيذ خططه الرامية إلى توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي[(1)].

5 . أبناؤه: هم سيف الدين غازي وهو الأكبر ، ونور الدين محمود ، وقطب الدين مودود ، ونصرة الدين أمير أفيران.

وجميع أولاده ظهرت عليهم النجابة مما ورثوه من والدهم وكانوا ذوي أخلاق حميدة ، وشجاعة فائقة ، وخاصة نور الدين محمود ، وسيف الدين غازي ، وقطب الدين مودود ، فأخبار شجاعتهم مشهورة ، ونلاحظ من أسماء أولاد زنكي اسم مودود فقد يدل على إعجاب زنكي بالأمير مودود ، وهناك غازي ، واسمه يدل عليه ، أما محمود ، فإنه يطابق اسم أحد السلاطين السلاجقة ممن خدمه زنكي[(2)].

وقد خصص زنكي لتربية أولادهِ علياً بن منصور السروجي ، وكان أديباً شاعراً خطاطاً ، وعندما كبر سيف الدين غازي؛ أرسله أبوه لخدمة السلطان مسعود ، فتلقاه بالحفاوة والتقدير ، ورتب في خدمتهِ عشرة من الحراس[(3)] ، وقد بقي سيف الدين هناكَ حتى قبيل مقتل أبيهِ بوقت قصير ، وأما نور الدين محمود فقد نشأ تحت رعاية والده ، وتعلم القران الكريم ، والفروسية ، والرمي[(4)] ، ولما جاوز صباه لزم خدمة أبيه حتى مقتله[(5)] ، وهكذا كان زنكي يُعِدُّ أولاده لتحمل المسؤوليات الإدارية والعسكرية في المستقبل ، وما يقال عن غازي ، ومحمود يمكن أن يقال عن ابنيه الاخرين: أفيران ، ومودود[(6)].

المبحث الثاني : تطور شخصية عماد الدين القيادية

أولاً: بزوغ نجمه السياسي:

كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي مُنذ عهد طفولته ذلكَ الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية ، والعسكرية ، والإدارية في الأعوام (465 هـ 487 هـ) ، والمكانة التي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين السلاجقة ، وعملهِ على تدعيم كيانهم ، حتى إنه ضحى بحياته . كما رأينا . في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركيارق ، ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه، فجازاه . بعد مقتله . بتوجيه

---

(1) عماد الدين زنكي ص 172.
(2) الحرب الصليبية والأسرة الزنكية ص 62.
(3) الباهر ص 97.
(4) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين ص 173.
(5) الروضتين (119/1).
(6) عماد الدين زنكي ص 173.

العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرةِ من عمره ، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه ، وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر[1].

1 . مكانة زنكي عند أمير الموصل كربوقا: لما تولى الموصل قوام الدولة كربوقا سنة 489 هـ ، باسم السلطان بركيارق أولى زنكي اهتماماً خاصاً ، وطلبَ من بعض مماليكِ والدهِ المقيمين في حلب إحضار عماد الدين إليه ، وقال لهم: «هو ابن أخي ، وأنا أولى الناسِ بتربيته» فأحضروه عنده[2] ، ويبدو أن كربوقا أدركَ مكانة آق سنقر والد عماد الدين في نفوس كثير من التركمان ، وعرف ما يكنُّونَ له من الولاء والطاعة ، فحرصَ على أن يضمَّ إليهِ ابنهُ عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحملهُ التركمان لوالده ، إضافة إلى أن كربوقا أثناء ملازمته لآق سنقر قد أدركَ نجابة عماد الدين، ومكانتهُ بينَ مماليك والده، فأراد أن يضمه إلى جانبهِ للاستعانةِ به، وبمماليك والده في حروبه ضدَّ خصومه ، وربما ليضمن عدم منافسته له مستقبلاً ، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا ، وظل عماد الدين زنكي ملازماً له بالموصل إلى أن توفي كربوقا سنة 495 هـ/1101 م[3].

2 . مكانته عند الأمير جكرمش والي الموصل: بقيت العلاقة طيبة بين زنكي وشمس الدولة جكرمش الذي أعقب كربوقا على ولاية الموصل (495 . 500 هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه وعلى معرفة بالخدمات التي أداها والد زنكي للسلاجقة ، ومن ثم توثقت العلاقة بينهُ وبين زنكي؛ حيث قرَّبهُ ، وأحبه ، واتخذه ولداً ، وظل الأخير ملازماً له؛ حتى وفاته عام 500 هـ[4].

3 . في عهد ولاية جاولي سقاو على الموصل: بعد وفاة جكرمش تولى جاولي سقاو (500 هـ 502 هـ) على ولاية الموصل وكان زنكي قد بلغ مرحلة الشباب (وبدت عليهِ علائم الشهامة) وساد الصفاء علاقاته بالوالي الجديد. إلا أن عصيان الأخير للسلطان محمد عام 502 هـ وهروبه إلى الشام ، دفع زنكي إلى الانفصال عنهُ وجماعة من كبار الأمراء في نفس الوقت الذي عين فيهِ السلطان والياً جديداً على الموصل هو الأمير مودود بن التونتكين (502 . 507 هـ) ، فانضم زنكي ورفاقه إليه. مما كان له أبلغ الأثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء ، الأمر الذي رشحه لأن يكون من كبار أمراء هذا الوالي ، وأن يحصل على مزيد من الإقطاعات[5].

4 . ملازمته للأمير مودود في حرب الصليبيين: لما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به عماد الدين؛ عرف له مكانته بالإضافة إلى منزلة أبيه ، ولما رأى منهُ العقل والشجاعة؛ زاد في إقطاعهِ ، وشهد زنكي حروبه كلها وخاصة مع الصليبيين في طبرية ، وقبل مجيء مودود كان زنكي قد تميز بشجاعته ومقدرته وقد شارك في الغزوات التي قام بها ضد اللاتين ، ويذكر المؤرخون بكلِّ اعتزاز: أن عبقريته كرست للجهاد من السنوات الأولى من عمره[6] ، وقد أظهر في عهدِ مودود

[1] الباهر ص 15 ، عماد الدين زنكي ص 36.
[2] عماد الدين زنكي ص 36.
[3] الباهر ص 16 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 31.
[4] الباهر ص 16 عماد الدين زنكي ص 36.
[5] عماد الدين زنكي ص 37.
[6] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 63.

من البطولات في جهاده ضد الصليبيين ما أكسبهُ شهرة واسعة لدى المسلمين ، وظل ملازماً لمودود حتى مقتلهِ عام 507 هـ على أيدي الباطنية في جامع دمشق[1].

5 ـ في خدمة الأمير آق سنقر البرسقي: عاد زنكي بعد استشهاد مودود إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد «جيوش بك» ثم ما لبث أن انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين ، في نفس العام ، فقاتل في الرُّها ، وسميساط وسروج ، وأظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلكَ ما زاد من شهرته لدى المسلمين[2] ، ودفع السلطان محمد إلى أن يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي ، والرجوع إلى مشورته تقديراً لإخلاصهِ وقدراته[3].

6 ـ بعد وفاة السلطان السلجوقي محمد 511 هـ: عندما توفي السلطان محمد سنة 511 هـ ، سعى «جيوش» إلى استغلال وجود ابنه مسعود ـ إذ كان أتابكاً له ـ ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي ينصب نفسه سلطاناً على سلاجقة العراق ، مستهدفاً من وراء ذلكَ التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد ، وقد أيد زنكي هذه المحاولة ، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل إلا أن المحاولة أخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد ، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه الحكم[4]. وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود ، غير أن زنكي رفض تأييده ، وأشار على المتمردين بطاعة السلطان ، وترك مخالفته ، وحذرهم عاقبة العصيان ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله ، وأقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل بعد هزيمة جيوش بك ، ومسعود على يد السلطان محمود الذي بلغهُ موقف زنكي منهُ فقدَّره حقَّ قدره ، وأوصى البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به وتقديمه على سائر الأمراء[5].

7 ـ تولي عماد الدين زنكي إمارة واسط ، والبصرة: وعندما عين البرسقي عام 516 هـ شحنة العراق رافقه زنكي واشترك إلى جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس

أمير الحلة ، وانتهت بهزيمة البرسقي[6] الذي رأى أن يزيد من اعتمادهِ على زنكي في صراعه ضد دبيس ، فولاه واسط ـ ذات الموقع الهام ـ وكلَّفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات أمير الحلة ، وقد استطاع زنكي أن يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية ، وأن يستولي على هذا الموقع[7] ، وأظهر زنكي في منصبهِ الجديد حزماً وكفاءة ، وأبان عن مقدرة إدارية فذة[8]، الأمر الذي دفع البرسقي ، حاكم العراق إلى إضافة البصرة إلى ولايته ، لكي يصدَّ هجمات الأعراب الدائمة عليها ، وينشر الأمن في ربوعها[9] ، فانتقل زنكي إليها لكي يحقق فيها ما أنجزهُ في

---

[1] الباهر ص 17 ـ 19 عماد الدين زنكي ص 37.
[2] الباهر ص 17 ـ 19 عماد الدين زنكي ص 37.
[3] الباهر ص 24 عماد الدين زنكي ص 38.
[4] الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 38.
[5] الباهر ص 22 ـ 24 ، الروضتين (73/1).
[6] المنتظم (232/9 ـ 233) الباهر ص 24.
[7] الباهر ص 25 ، عماد الدين زنكي ص 38.
[8] الروضتين (73/1) عماد الدين زنكي ص 39.
[9] البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 39.

واسط من نشر الأمن والقضاء على الفوضى. وقد تمكن في وقت قصير أن يوقف هجمات الأعراب ، وغاراتهم المتتابعة عند حدها ، وأن يجليهم إلى أعماق الصحراء ، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة ، وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية كالتي أظهرها في واسط من قبل ، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية ، ومن رهبته للأعداء ، حتى إن دبيس بن صدقة ـ أقوى أمراء الجنوب ـ تجنب الاصطدام معهُ؛ لأنه أدركَ أن ليس في طاقتهِ مجابهتهُ والتغلب عليه ، وفضَّل توحيد جهوده ضد الخليفة العباسي في بغداد بدلاً من مقارعة هذا الأمير القدير[1].

8 ـ دفاع زنكي والبرسقي عن الخليفة المسترشد: لم يترك البرسقي وزنكي الخليفة يجابه بمفردهِ حشود دبيس، فجمعوا قواتهم والتقوا به في مطلع عام 517 هـ قريباً من الحلة ، واستطاعوا ـ بفضل الله ، ثم الخطة البارعة التي اتبعها زنكي ـ أن يلحقوا به هزيمة نكراء ، وأن يقتلوا ، ويأسروا الكثير من جندهِ ، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار ، بينما عاد المسترشد ، وحلفاؤه إلى بغداد يستقبلهم الأهالي هناك استقبالاً حافلاً بعد خلاصهم من خطر محقق كاد يحيق ببغداد ، ويعرضها للنهب والتخريب[2]، وكان زنكي ـ لدى مغادرتهِ البصرة ـ قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الأمير «سخت كمان» فاستغل دبيس بُعد زنكي عنها وهاجمها على حين غرة ، وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهب أهاليها ، ولكن زنكي ما لبث أن عاد إلى البصرة ليقر الأوضاع فيها من جديد ، فانسحبَ دبيس من المنطقة واتَّجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين[3].

9 ـ عماد الدين في خدمة السلطان محمود: أقيل البرسقي من شحنكية العراق في عام 517 هـ وأعيد إلى الموصل لقيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وعين يرنقش الزكوي شحنة بعده[4] ، فأرسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه إلى البصرة ليتجه معه إلى الموصل ، غير أن الأخير فضل أن يربط مصيره بالسلطان محمود ، يصحبهُ عدد من كبار الأمراء، وقرر السلطان محمود تزويجه بأرملة أحد أمرائه الكبار ، وتم ذلكَ في احتفال شهدهُ السلطان وعدد كبير من القادة والمسؤولين[5] ، الأمر الذي هيّأ لزنكي فرصة الظهور في محيط كبار الأمراء وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته[6].

10 ـ تكليف السلطان محمود عماد الدين بتوطيد الأمن في البصرة: غدت البصرة بعد مغادرة زنكي لها ، مسرحاً للفوضى ، وهدفاً للنهب والتخريب ، وهجمات الأعراب ، وبلغ السلطان ذلكَ فأمر زنكي بالعودة إليها ، بعد أن أقطعهُ إياها عام 518 هـ وطلب منهُ اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتوطيد الأمن في المنطقة ، كما كلفه مهمة الإشراف على واسط ، والسعي للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة بإرسال جيش للاستيلاء عليها؛ إذ كانت هدفاً لمحاولاته التوسعية[7] ، غادر زنكي أصفهان إلى البصرة، وباشر مهام منصبه، فأحسن معاملة أهلها، واستطاع أن يخلصهم من هجمات الأعراب ، وذلكَ عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجمات مضادة على الأعراب ونصب الكمائن لهم

---

(1) المنتظم (242/9 ، 243) عماد الدين زنكي ص 39.
(2) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 39.
(3) المنتظم (249/9).
(4) المنتظم (249/9).
(5) الباهر ص 27 ـ 28 عماد الدين زنكي ص 40.
(6) عماد الدين زنكي ص 40.
(7) الباهر ص 28 عماد الدين زنكي ص 41.

، كما اهتم ـ بالوقت ذاته ـ بأمور واسط ، وأخذ يمد السلطان بأخبار العراق بحيث لم يخف على الأخير شيئاً من أموره ، الأمر الذي زاد من تقديره لزنكي ومن ارتفاعِ منزلتهِ عنده ، ورشحهُ لمنصب شحنكية العراق[1].

11 ـ الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان السلجوقي: في عام 519 هـ تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسهُ مضطراً للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة ، وفرض سيطرته المباشرة على العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط ، إلا أن زنكي تمكن من صده ، والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط. وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منهُ إقرار الصلح ، فرفض الأخير طلبه ، الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين ، وقد رأى السلطان أن يعتمد على زنكي في صراعهِ هذا ، فأرسل إليهِ يأمرهُ بالحضور إلى بغداد على رأس قواته ، وأن يجلب معهُ ما يستطيع من زوارق حربية وسفن ، فنفَّذ زنكي الأمر ، وجمعَ عدداً كبيراً منها ، إثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض ، وبعد أن ملأها بالمقالة اتخذ طريقه إلى بغداد ، وما أن بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة براً ونهراً ، حتى أدركَ أن ليس في طاقته الصمود طويلاً إزاء شروط السلطان ، وأنَّ بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر ، فأرسل إليهِ يعلن موافقته على الصلح ، ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام[2]، وهكذا لعب زنكي دوراً حاسماً في وضع حدٍّ للصراع بين السلطان والخليفة ، والذي كان من المحتمل أن يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها[3].

12 ـ تولي عماد الدين شحنكية العراق: ولما أراد السلطان محمود الرحيل نظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية العراق ، وبغداد ، ويأمن معهم من الخليفة ، ويضبط الأمور ، فلم يرَ في أمرائهِ وأصحابهِ من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق من الاتساع ، ويقوى على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي ، فولاّه شحنكية العراق مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع وسار السلطان عن بغداد[4] ، وقد اطمأن إلى نفوذهِ في العراق ، بعد أن أناب عنه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام ، وأصبح عماد الدين منذُ ذلكَ التاريخ يصرفُ الأمور لا في بغداد وحدها ، بل في سائر جهات العراق[5].

ثانياً: دور الفقهاء في تعيين عماد الدين على الموصل:

عندما توفي أمير الموصل عز الدين البرسقي عام 521 هـ 1127 م تولى أمرها أخ صغير له تحت وصاية مملوك تركي يدعى جاولي ، أدركَ الفقهاء أن ضعف الموصل لا بد وأن يؤثر على حلب وبلاد الشام في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الصراع؛ إذ إن ذلكَ الفراغ السياسي ، وعدم وجود قيادة عسكرية قوية في الموصل لا بد وأن يلقي انعكاساً على الصراع

---

(1) الباهر ص 28 عماد الدين زنكي ص 41.

(2) المنتظم (252/9 ـ 259) الباهر ص 28 ـ 31.

(3) عماد الدين زنكي ص 41 ، 42.

(4) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 68.

(5) الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 32.

الصليبي الإسلامي[1] ، ولذلكَ قامت عائلة الشهرزوري المعروفة بالعلم والصلاح بدور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائداً عسكرياً قوياً.

وقام جاولي بإرسال القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري ، ونائب عز الدين البرسقي صلاح الدين محمد الياغيسياني إلى بغداد ، التي كان بها السلطان محمود السلجوقي ، وتركا الولاية في الموصل لأخ عز الدين الصغير حتى يظل يسيطر باسمه على الحكم فيها بصفة الوصاية عليه ، إلا أن القاضي ورفيقه أدركا ذلكَ الهدف وأنهما ليس في نيتهما تحقيق هدف جاولي ، لاعتقادهما بعدم كفاءته لذلكَ في الظرف الصعب؛ حيث كانا على معرفة بطباعه ، و تصرفاته التي لا يرضيان عنها ، ويبدو في الوقت نفسهِ: أنهما كانا على علاقة متينة بعماد الدين زنكي؛ حيث خططا معاً ليتمكنا من إقناع ذلكَ السلطان لتولية الموصل وحلب ، حرصاً منهما على عدم ضياع البلاد الإسلامية . وخاصةً الموصل . في أيدي الصليبيين[2] ، وبوصول القاضي ورفيقه إلى بغداد اتصل صلاح الدين محمد بأحد أقربائه في بغداد نصر الدين جقروا حيث كان بينهما مصاهرة[3] ، واجتمعوا به ، وقرروا أن جاولي لا يصلح لحفظ البلاد لأنه كان سيأى السيرة[4]، وأخذ القاضي الشهرزوري على عاتقه حمل الأمانة ، وقول الحق ، فاجتمع هو وصلاح الدين الياغيسياني بوزير السلطان السلجوقي[5] ، وقالا له: قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها ، وقويت شوكتهم بها ، واستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين[6].

ويتضح من خلال حديث القاضي بهاء الدين الشهرزوري مبلغ تخوفه من سيطرة الصليبيين على أراضي الإسلام ، وخشيته من اتساع الرتق باستيلائهم على المزيد منها ، وحاجة البلاد إلى الرجل المناسب لوقف التوسع الصليبي ، والتصدي له. فاستطرد قائلاً: «ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي ، وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها»[7] ومن عمق إحساسه بالمسؤولية أمام الله والعباد نراه يقول: «وقد أنهينا الحال إليك لئلا يجري خلل، أو وهن على الإسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان»[8]. وهذا يعطينا درساً مهماً في دور الفقيه الذي وضع مصلحة الأمة فوق كل اعتبار، ولم يتأثر بترغيب ، ولا ترهيب من حاكم الموصل الذي أرسله للسلطان السلجوقي ، كما أن في اختيار كمال الدين الشهرزوري لعماد الدين زنكي تزكية له من بين بقية الأمراء في ذلكَ العهد. وقام وزير السلطان شرف الدين أنوشروان بن خالد بتوصيل مطلبهما ، وحال بلاد الشام إلى السلطان محمود. وبواسطة ذلكَ الوزير اقتنع السلطان برأيهما وحالهما. وتحقق هدفهما عندما استشارهما فيمن يفضلون لولاية الموصل ، ويبدو: أنَّ

---

[1] موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 84.

[2] الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 84.

[3] المصدر نفسه ص 84.

[4] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 106.

[5] المصدر نفسه ص 106.

[6] الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 107.

[7] الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء ص 107.

[8] الكامل في التاريخ (8/659).

القاضي الشهرزوري ، ورفيقه أشارا عليه بمجموعة من القادة المسلمين من بينهم عماد الدين زنكي حتى لا يشك في أمرهما ، وإصرارهما عليه، إلا أنه اختار عماد الدين بإيعاز من وزيره أنوشروان، وعينه والياً على الموصل[1]، وهنا يظهر دور العالم القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري في اختيار القائد الأفضل لقيادة القوى الإسلامية نحو مواجهة الغزو الصليبي ، حتى كانَ لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي؛ حيث تمكن خلاله من غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ، ورحب به أهلها عام 521 هـ/1127 م ، لأن موقع حلب الاستراتيجي بين بلاد الشام ، ومناطق أعالي الفرات هو الذي جعلها في قلب الأحداث آنذاك؛ حتى إن ذلكَ الأمير ـ عماد الدين ـ قد أدركَ أهمية ذلكَ الموقع بالنسبة لبلاد الشام ، والموصل ، والجزيرة الفراتية ، وتمنى لو أخذها المسلمون قبل أن يدخلها الصليبيون[2]:

إن هذا العدو قد طمعَ في البلاد ، وإن أخذ حلب؛ لم يبق بالشام إسلام ، فالمسلمون أولى من الكفار بها[3].

1 ـ مكانة القاضي بهاء الدين الشهرزوري عند عماد الدين: واعترافاً من عماد الدين زنكي بما بذله القاضي بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه ، ورداً لجميله نحوه عينه قاضي قضاة بلاده جميعها ، وما يفتحه من البلاد ، وكذلكَ زادهُ أملاكاً ، وإقطاعاً ، واحتراماً ، وكان يثقُ به وبارئهِ ، لذلكَ كانت منزلتهُ عظيمةً عنده ، وكان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور الهامة في دولته؛ حتى صرح ابن الأثير بذلكَ قائلاً: «وكان لا يصدر إلا عن رأيه»[4]. إن احترام العلماء، وتقدير ارائهم ، واستشارتهم ، من عوامل وأسباب نجاح القادة السياسيين ، والعسكريين.

2 ـ أتابكيَّة الموصل: مال السلطان السلجوقي إلى تولية عماد الدين زنكي إمارة الموصل لما علم من شهامته ، وتمكنهِ من إنجاز المهام التي أنيطت به من قبل ، وأمره بالحضور ، وبعد مناقشات قصيرة اقتنعَ السلطان بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد ، ومن ثم أصدر منشوراً بتوليتهِ الموصل ، والجزيرة وما يفتتحهُ من بلاد الشام ، وسلَّمهُ ولديه: ألب أرسلان ، والخفاجي ليكون أتابكاً لهما (أي: أباً مربياً) وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك ، ومنذُ ذلكَ الوقت سمي زنكي أتابكاً ، وأصبح كلٌّ من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر. وفي الثالث من رمضان عام 521 هـ وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز قادماً من بلاد فارس ، ليتولى شحنكية العراق ، فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم مهام منصبهِ الجديد[5] ، وتعتبر أتابكيَّة الموصل نواةً للدولة الزنكية[6].

ثالثاً: أهم صفاته:

---

(1) المصدر نفسه (659/8).

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام ص 86.

(3) المصدر نفسه ص 86.

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 108.

(5) المنتظم (5/10) عماد الدين زنكي ص 45.

(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 27.

كان عماد الدين زنكي حسن الصورة ، أسمر اللون ، مليح العينين[1] ، معتدل الطول[2] ، وخط الشيب رأسهُ في سني حكمه الأخيرة[3] ، وكان ذا شخصية قوية ، شديدة الهيبة على رعيته وجنده[4]، جاداً في معظم الأحيان ، وكان جدُّه الصارم يمنعه من الاستسلام للراحة ، أو الترف ، ويدفعهُ إلى مواصلة كفاحهِ من أجل أهدافه ، ويجعل أصوات السلاح ألذ في سمعهِ من غناء القينات[5]، وإليكَ تفصيل أهم صفاته.

1 . شجاعته: فقد ورث الشجاعة عن أبيه الذي تقدم في جيش ملكشاه ، وقد مرَّ معنا شيءٌ من سيرته وقوله لتتش المنتصر وهو الأسير بين يديه: لو ظفرت بك لقتلتك، ويلقى نتيجة جرأته ، فيقتله تتش صبراً[6]، وقد تقدم عماد الدين عند أمراء الموصل بشجاعته ، وظهرت شجاعته في القتال في زمن مبكر ، فقد سار مع مودود في غزوته ضدَّ الإفرنج ، وخرج إفرنج طبرية للدفاع عنها ، فحمل عليهم ، وانهزم الإفرنج من أمامه ، وطعن بباب سور طبرية طعنة أثرت فيهِ وكان أصحابهُ قد تأخروا عنه ، لما قرب من الأسوار ومع ذلكَ قاتل متراجعاً ، فعجب الناسُ من شجاعتهِ ونجاته[7].

وقال أبو شامة في شجاعته: «وأما شجاعتهُ وإقدامهُ فإليهِ النِّهايةُ فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلكَ جملةً: أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها ، وبيت سُكمان ، وركن الدولة داود صاحب صحن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، و كان ينتصف منهم، ويغزو كُلاً منهم في عقر دارهِ ، ويفتح بلادهم، ما عدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلٌّ يداريه، ويخضع له، ويطلب منهُ ما تستقر القواعد على يديه»[8] وحمل على قلعة عقر الحميدية في جبال الموصل، وأهلها أكراد، وهي على جبال عالية، فوصلت طعنتهُ إلى سورها، وفي حصار الرُّها، جمع أمراءهُ عنده، ومد السماط، وقال: لا يأكلْ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرُّها، فلم يتقدم إليهِ غير أمير واحد، وصبي واحد لا يعرفه، لما يعرفون من إقدامه وشجاعته وأن أحداً لا يقدرُ على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلكَ الصبي: ما أنت وهذا المقام ، فقال عماد الدين: دعه، فإني أرى واللهِ وجهاً لا يتخلف عني[9] ، وكان يقدر الشجعان ، وكان لا يضطرب أمام أي خطر[10].

2 . هيبتهُ: كان عماد الدين ذا هيبةٍ شديدة في نفوس أصحابهِ ، لا يجرؤون على الجلوس بين يديه ، واشترك معه في الحروب أجناس مختلفة ، ويحتاج ضبطها لكثير من الدراية والمهارة والهيئة ، فاستطاع بشخصيتهِ القوية فرض النظام على

---

(1) الباهر ص 76 عماد الدين زنكي ص 173.

(2) الروضتين (108/1) عماد الدين زنكي ص 173.

(3) الباهر ص 76 ، عماد الدين زنكي ص 173.

(4) زبدة حلب (290/2 . 291) عماد الدين زنكي ص 173.

(5) الباهر 81 عماد الدين زنكي ص 173.

(6) مفرج الكروب (26/1).

(7) أخبار الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 160.

(8) كتاب الروضتين (160/1).

(9) مفرج الكروب (93/1).

(10) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 159.

جميع جندهِ ، وكان ذا هيبة وسطوة ، وكان إذا مشى يسير العسكر خلفه في صفين ، كأنهم الخيط خوفاً أن يدوس أحدهم الزرع ، ولا يجسر أحد أن يدوس عرقاً منه ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يجسر أن يأخذ من فلاح تبناً إلا بثمنه ، أو بخطٍّ من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدَّى أحدٌ؛ صلبه[1] وهيبتهُ كانت في نفوس قادته ، قال علي كوجك نائبه بالموصل: «لما فتحنا الرُّها مع الشهيد ، وقع بيدي من النهب جارية رائعة أعجبني حسنها ، ومال قلبي إليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد بردِّ السبي ، والمال المنهوب ، وكان مهيباً مخيفاً فرددتها وقلبي معلق بها»[2]. وخرج يوماً من باب السر في قلعة الجزيرة خطوة ، وملاَّح له نائم ، فأيقظهُ بعض الجنادرية من مماليك السلطان ، فحين رأى الشهيد سقط على الأرض ، فحركه فوجده ميتاً[3].

وركب يوماً فعثرت دابتهُ ، وكاد يسقط عنها ، فاستدعى أميراً وكان معه ، فقال لهُ كلاماً لم يفهمه ، ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه ، فعاد إلى بيته ، وودع أهله عازماً على الهرب ، فقالت لهُ زوجته: ما ذنبكَ ، وما حملك على الهرب؟ فذكر لها الحال ، فقالت له: إنَّ نصير الدين له بك عناية ، فاذكر له قصتكَ ، وافعل ما يأمركَ به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب ، وأهلك. فلم تزل بهِ زوجته تراجعهُ ، وتقوي عزمه إلى أن عرف نصير الدين حاله ، فضحكَ منهُ ، وقال له: خذ هذه الصرة ـ الدنانير ـ واحملها إليه ، فهي التي أراد. فقال: اللهُ اللهُ في دمي ونفسي ، فقال: لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليهِ فحين راه قال: أمعكَ شيء؟ قال: نعم ، فأمرهُ أن يتصدقَ به ، فلما فرغ من الصدقة قصد نصير الدين ، وشكره ، وقال: من أين علمتَ: أنه أراد الصُّرَّة؟ فقال: إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم ، يرسل إليَّ يأخذه من الليل ، وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني: أنَّ دابته عثرت بهِ؛ حتى كاد يسقط إلى الأرض ، فأرسلكَ إليَّ ، فعلمتُ: أنهُ ذكر الصدقة[4].

واجتمعَ حوله العرب ، والترك ، والتركمان ، والأكرادُ ، والبدو ، وكان يجتهد أن تضبط أمور هذه الجموع بحكمة القائد الماهر ، ويضبطهم في أحرج الأوقات ، فعندما اقتحم جندهُ الرُّها ، وكادوا يأتون على ما فيها ، كف أيديهم ، وحافظ على البلد؛ لأن تخريب مثله لا يجوز في السياسة كما قال[5]. وخاف خصومه قصد ولايته لعلمهم: أنهم لا ينالون منها عرضاً[6].

وبلغَ من خوف الفرنجة منه: أنه رفع الحصار عن قلعة البيرة لقتل نائبه في الموصل ، فسلَّمها أهلها إلى حسام الدين تمرتاش خوفاً من عودة الشهيد إليهم[7] ، وكان يخشاه سلاطين السلاجقة ، ولا يقدرون على قصد بلاده ، فيقول ابن

---

(1) تاريخ حلب 283 ، الحروب الصليبية ص 159.

(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية نقلاً عن تاريخ حلب ص 159.

(3) مفرج الكروب (105/1).

(4) مفرج الكروب (105/1).

(5) الحروب الصليبية والأسرة والزنكية ص 159.

(6) الباهر ص 25.

(7) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 160.

الأثير: «أرادَ السلطان مسعود زنكي إثارة الأطراف عليه ، ومنع السلطان مسعود قصده ، لحصانة بلاده ، وكثرة عساكره وأمواله»[1] والخليفة المسترشد نفسه حاصر الموصل فلم ينل منها شيئاً مدة ثلاثة شهور[2].

3 . ذو دهاء ومكر وحيلة: كان ذا دهاءٍ ، ومكرٍ ، وحيلة ، وذكاء نافذ في مجابهة المشاكل الحربية ، والسياسية ، وقد مكّنهُ ذلكَ من اجتياز كثير من الصعوبات ، وتحقيق مزيد من الانتصارات ، فمن مناوراته البارعة ضدَّ التحالف البيزنطي الصليبي عام 532 هـ أن أرسل إلى قادته ، يقول: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، وتكون الغلبة لأحدِ الطرفين ، فظن الروم والصليبيون أن وراءه قوات ضخمة أتاحت لهُ أن يطرح تحديه ، فتجنبوا لقاءهُ وهو ما كان زنكي يرجوه ، ثم راحَ بعد ذلكَ يراسل إمبراطور الروم ، ويوهمهُ: أن الصليبيين متفقون مع المسلمين سراً وبالعكس ، واستطاع بذلكَ أن يبذر بذور الانشقاق في الجبهة المسيحية مما اضطر قواتها إلى الانسحاب[3] هذا إلى أنه فتح الرُّها وهو أكبر نصر حققه في حياتِهِ ، معتمداً على الحيلة والمكر؛ إذ اتجه إلى امد موهماً الصليبيين: أنه يسعى لحصارها ، وما إن رحل أمير الرُّها عن حاضرته مطمئناً إلى انهماك زنكي بمشاكله في ديار بكر حتى انقضَّ الأخيرُ عليها ، وتمكن من اجتياحها[4].

4 . ذكاؤه: من ذكائه: أنه لم يظهر أنه مستقل عن السلاطين السلاجقة ، بل أظهر: أنه يحكم بأمرهم ، فقد كان معهُ ولدان من أولاد السلطان محمود بن محمد السلجوقي، وهما: ألب أرسلان ، وفرخ شاه ويعرف بالخفاجي، وكان يظهر: أنَّ الحكم له في بلاده ، وأنه نائب عنه ، وكان إذا أرسلَ رسولاً أو أجاب عن رسالة يقول: قال الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر موت السلطان مسعود ، ليجمع العساكر باسم ألب أرسلان ، ويخرج الأموال ، ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك[5] ، وكان ابنه سيف الدين غازي عند السلطان مسعود ليثق بطاعته[6] وكان يثير الأطراف على السلطان مسعود حتى يحتاجه ويجمعهم عليه مرة ثانية ليشتغل بهم عنه[7].

5 . يقظته وحذره: كان عماد الدين زنكي شجاعاً غير هيَّاب ، إلا أنه كان حذراً يحتاط للأمور ، فقد كان شديد العناية بأخبار الأطراف ، وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، ولا سيما بلاط السلطان ، وكان يدفع في ذلكَ المال الجزيل ، فكان يطالع ويكتب إليهِ بكل ما يفعله السلطان في ليلهِ ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد ، فكان يصلُ إليهِ كل يوم من عيونهِ عدة كتب ، وكان مع اشتغالهِ بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغيرة ، وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع؛ صار كبيراً ، وكان لا يمكن أي ملك أن يعبر بلاده بغير إذنه ، وإذا استأذنه رسول في العبور؛ أذن له ، وأرسل إليهِ من يسيِّرهُ ، ولا يتركهُ يجتمعُ بأحدٍ من الرعية ، ولا غيرهم ، فكان الرسول يدخلُ بلاده ، ويخرج منها ، ولا يعلمُ من أحوالها شيئاً.

---

(1) الباهر والكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية ص 160.

(2) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية ص 160.

(3) الباهر ص 55 . 56 نقلاً عن الحروب الصليبية ص 160.

(4) الباهر 67 . 68.

(5) أخبار الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية ص 168.

(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 168.

(7) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية ص 168.

ومن آرائهِ: أنه لما اجتمعَ له الأموال الكثيرة؛ أودعَ بعضها بسنجار ، وبعضها بالموصل ، وبعضها بحلب ، وقال: إن جرى عليَّ بعض هذه الجهات فتق ، أو حيل بيني وبينهُ؛ استعنتُ على سد الخرق بالمال في غيره[1] ، وكان الرجل طويل الفكر كتوماً لا يعلنُ عمَّا ينويه إلا بعد أن يتخذ الأهبة الكاملة ، وكان يفرض أسوأ الاحتمالات ، ويُعِدُّ نفسه لها ، فلما سار من بغداد قاصداً الموصل؛ أخذ البوازيج ، وهي قرية قرب تكريت[2]؛ ليملكها ، ويتقوى بها ، ويجعلها في ظهره إن منعهُ جاولي عن البلاد[3] ، ومن حذره تردده في دخول دمشق بعد أن وعده جماعة من أهلها بفتح أبوابها له خوفاً من أن يتفرق جيشهُ ، ولضيق المسالك ولإمكان مهاجمتهم من ظهور البيوت[4]، ولما وصل الروم الفرنج إلى الشام؛ نازلوا حلب ، ولم يرد عماد الدين أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم؛ لأنهم كانوا في جمع عظيم ، فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة[5].

6 . قدرته على اختيار الأكفاء من الرجال: وكان يختار الرجال الأكفاء ، الذين أخلصوا له ، وكانوا دعائم دولته ، ودولة أبنائه من بعده ، فقد كانت له همَّةٌ عالية ، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل ، ويرغبهم ويخطبهم ، ويوفر لهم العطاء. وقال ابن الأثير: «حكى لي والدي: قيل للشهيد: إنَّ هذا كمال الدين ، ويحصل له في كل سنة ما يزيد على عشرة الاف دينار أميرية ، وغيره يقنع منه بخمسمئة دينار. فقال لهم: بهذا العقل ، والرأي تدبرون دولتي؟! إنَّ كمال الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمئة دينار ، إن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خير من مئة ألف دينار ، وكان كما قال . رحمه الله .»[6].

وكان يتعهد أصحابه ، ويمتحنهم ، فقد أعطى يوماً خُشكُنانكه[7] إلى طشت دار له وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنة لا يفارقه خوفاً أن يطلبها منه ، فلما كان بعد سنة سأله عنها ، فأخرجها من منديل كان لا يفارقه خوفاً من أن يطلب منه ، فاستحسن ذلك ، وجعله داراً لقلعة كواشي[8] . وهي قلعة حصينة في الجبال الواقعة شرقي الموصل[9] ، وكان يخطب الرجال ذوي الهمم والآراء الصائبة ، والأنفس الأبية ويوسع في الأرزاق ، فيسهل عليهم فعل الجميل ، واصطناع الرجال ، ومن أسباب توفيقه: أنه كان نقاداً للرجال ، يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ، ويوليهم ثقته[10]، فمن هؤلاء:

أ . بهاء الدين الشهرزوري الذي يقول عنه ابن القلانسي: وكان صاحب عزيمة وهمة نافذة ويقظة ثابتة.

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 167.

(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 167.

(3) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 168.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية ص 168.

(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 168.

(6) كتاب الروضتين (159/1 ، 160).

(7) معناها: كعكه.

(8) مفرج الكروب (103/1).

(9) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 166.

(10) المصدر نفسه ص 166.

ب ـ ومنهم وزيره ضياء الدين أبو سعيد ابن الكفرتوثي ، وكان على ما حكي عنه: حسن الطريقة جميل العقل كريم النفس مرضي السياسة مشهوراً للنفاسة والرئاسة.

ج ـ ومنهم نصير الدين جقر ، وقد كان لنصير الدين أخبار في العدل والإنصاف وتجنب الجور والاعتساف ، أخباره متداولة بين التجار والمسافرين ، ومتناقلة بين الواردين ، والصادرين من السفار ، وقد كان رأيه جمع الأموال من غير جهة حرام ، لكنه يتناولها بألطف مقال ، وأحسن فعال ، وأرفق توصل واحتيال ، فهذا محمود من ولاة الأمور وقصد سديد في سياسة الجمهور ، وهذه هي الغاية في مرضيِّ السياسة ، والنهاية في قوانين الرياسة[1].

7 ـ تقديره للرجال: ويظهر تقديره للرجال من تولية نائبه بالموصل ، فبعد مقتل نصير الدين ارتاب في من يقيمه في موضعه ، ويخلفه في منصبه ، فوقع اختياره على الأمير علي كوجك ، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور وبسالته ، فولاه مكانه ، وعهد إليه أن يقتفي اثاره في الاحتياط والتحفظ ، وتتبع أفعاله في التحرز واليقظة ، وإن كان لا يغني غناءه ولا يضاهي كفاءته ومضاءه ، فتوجه نحوها ، وحصل بها وساس أمورها سياسة سكتت معها نفوس أهلها ، وبذل جهده في حماية المسالك وأمن السوابل ، وقضاء حوائج ذوي الحاجات ، ونصرة المظلومين ، فاستقام الأمر ، وحسنت بتدبيره الأحوال ، وتحققت بيقظته في أعماله الأمان[2].

8 ـ قليل التلون والتنقل: وكان عماد الدين الزنكي رحمه الله قليل التلون والتنقل ، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم ، لم يتغيَّر على أحد من أصحابه مُذْ مَلَك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغيُّر ، والأمراء ، والمقدَّمون الذين كانوا معه أوَّلاً هم الذين بقوا أخيراً من سَلِمَ منهم من الموت ؛ فلهذا كانوا ينصحونه ، ويبذلون نفوسهم له ، وكان الإنسان إذا قدم عسكره؛ لم يكن غريباً ، إن كان جندياً؛ اشتمل عليه الأجناد ، وأضافوه ، وإن كان صاحب ديوان؛ قصد أهل الديوان ، وإن كان عالماً؛ قصد القضاة بني الشَّهرزوري، فيحسنون إليه، ويؤنسون غربته، فيشعر وكأنه في أهله، وسبب ذلك جميعه: أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العليَّة والآراء الصائبة والأنفس الأبية ، ويوسع عليهم في الأرزاق ، فيسهل عليهم فعل الجميل ، واصطناع المعروف[3].

9 ـ غيرته: اتصف عماد الدين زنكي بالغيرة الشديدة ولا سيما على نساء الأجناد ، فإن التعرض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها ، وكان يقول:«إن جندي لا يفارقوني في أسفاري ، وقلَّما يقيمون عند أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حُرمهم؛ هلكن وفَسَدنَ[4]» ، وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً اسمه نور الدين حسن البربطي ، وكان من خواصِّه وأقرب الناس إليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه عنه: أنه يتعرض للحُرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغسيساني أن يسير مُجداً ، ويدخل الجزيرة ، إذا دخلها أخذ البربطيَّ ، وقطع ذكره ، وقلع عينيه ، عقوبة لنظره بهما إلى الحُرَم ، ثم يصلبه ، فسار الصَّلاح مُجداً ، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد ، فخرج إلى لقائه ، فأكرمه الصَّلاح ، ودخل معه البلد ، وقال له:

---

(1) ذيل تاريخ دمشق ص 275 الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 166.

(2) ذيل تاريخ دمشق ص 172.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين(163/1).

(4) الباهر ص 84.

المولى أتابك يُسلِّم عليك ، ويريد أن يُعليَ قدرك ، ويرفع منزلتك ويسلِّمَ إليك قلعة حلب ، ويوليكَ جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين ، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل ، وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دِجْلة ، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح ، وأمضى فيه ما أمر به ، وأخذ جميع ماله ، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيءٍ من أفعاله[1].

10 ـ عدله: حرص عماد الدين زنكي على نشر العدل بين رعيته ، فقد أوصى عُمَّاله بأهل حران ، ونهى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، هذا ما حكاه أهل حران ، وأما فلاَّحو حلب فإنهم يذكرون ضد ذلك؛ لأنه كان يلزم الناس ويجمع الرجال للقتال والحصار[2] ، وكان من أحسن الملوك سيرة وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور ، وكانت رعيته في أمنٍ شامل ، يعجز القوي من ظلم الضعيف.

ومما رواه أبو شامة: أن الشهيد كان بجزيرة في الشتاء ، فدخل الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي وهو من أكابر أمرائه، ومن ذوي الرأي عنده ، ونزل بدار يهودي ، وأخرجه منها ، فاشتكى اليهودي ، والشهيد راكب ، وبجانبه عز الدين أبو بكر الدبيسي ، ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى أبي بكر الدبيسي نظرة غضب ، ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ، ودخل البلد ، فأخرج خيامه ، وأمر بنصبها خارج البلد ، ولم تكن الأرض تحتمل نصب الخيام ، فوضعوا عليها التبن ، وخرج إليها من ساعته[3].

وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأراضي ، والاكتفاء بالإقطاعات؛ لأن الأملاك متى صارت لأصحاب السلطان ، ظلموا الرعية ، وتعدوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم ، ولحسن سيرته قصده الناس يتخذون بلاده داراً للإقامة[4]. ومن عدله: أنه لما فتح المعرَّة وأخذها من الفرنج جاءه الناس يطلبون أملاكهم ، وكان عماد الدين حنفي المذهب ومن مَذهب أبي حنيفة ـ أن الكفار إذا استولوا على بلد؛ وفيه أملاك المسلمين خرجت تلك الأموال عن أصحابها لصيرورة البلد دار حرب ، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال ـ ولما طلب الناس منه أملاكهم استفتى عماد الدين الفقهاء ، فأفتوه بما يقتضيه مذهبهم ، وهو أن الأملاك لبيت المال ، ولا حظَّ لأصحابها فيها ، فقال: «رحمه الله: إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم ، ونحن نأخذ أملاكهم؛ فأيُّ فرق بيننا وبين الفرنج؟! كلُّ من أتى بكتاب يدل على أنه مالك لأرض؛ فليأخذها. فرد إلى الناس جميع أملاكهم ، ولم يتعرَّض لشيء منها»[5].

11 ـ عبادته: كان عماد الدين زنكي يشعر بمسؤوليته كمسلم سواء في سياسته وعلاقاته العامة أم في سلوكه الشخصي فقد كرّس حياته وطاقاته في سبيل (الجهاد) ضد الصليبيين ، والجهاد من أفضل أركان العبادة[6] ، واعتبر نفسه قائد المسلمين الأول في الوقوف بوجه الخطر الصليبي معتقداً أن مركزه ـ كأقوى أمير في المنطقة ـ يحتم عليه ذلك ، ولعلَّ موقفه من التحالف البيزنطي الصليبي ضد المسلمين 532هـ يوضح طبيعة نظرته في هذا المجال.

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين(161/1).

(2) زبدة حلب ص 284 الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 162.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين(157/1).

(4) المصدر نفسه(158/1).

(5) مفرج الكروب(75/1).

(6) تاريخ دولة سلجوق ص 186 عماد الدين زنكي ص 186.

فعندما قرر الاستنجاد بالسلطان السلجوقي ، واعترض قاضيه بأن ذلك ربما أدى إلى تمهيد الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بلاده؛ ردَّ قائلاً: «إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار»[1].

وكان كلما قرر التوجه لقتال الصليبيين استثار في المسلمين تعشقهم للجهاد ففي عام 524هـ على سبيل المثال . اتجه إلى الشام وصمم العزم على الجهاد... وإعلاء كلمة الله[2]. وفي عام 532هـ سار إلى بعرين الخاضعة للصليبيين ، وجمع عساكره وحثهم على الجهاد[3] ، وعندما عزم على فتح الرُّها عام 539هـ تبعته العساكر... عازمين على أن يؤدوا فريضة الجهاد[4].وقد لاقى فتحه للرُّها استبشاراً عاماً لدى المسلمين في كل مكان: فامتلأت به المحافل في الآفاق[5] ، واعتبروه نصراً حاسماً للإسلام ضد الصليبية[6] ، ومن ثم فإن مفهوم الجهاد خلع على عماد الدين زنكي صفة إسلامية في نظر المسلمين إلى الحد الذي دفع العماد الأصفهاني إلى القول: «بأنه كان قطباً يدور عليه فلك الإسلام»[7] ، كما ذكر رنسيمان أن زنكي اعتبر نفسه «حامي الإسلام» ضد الصليبيين[8] ، وتتضح نزعة زنكي الدينية في سياسته الداخلية وفي سلوكه الشخصي كذلك ، وهناك العديد من الأمثلة التي تبين إلى أيِّ مدىً بلغ الحسَّ الديني لدى هذا الأمير المسؤول ، فعندما قام عام 534هـ على سبيل المثال . بتولية هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له: هذا الأمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إيَّاه ، فينبغي أن تتقي الله[9]. وكان يتصدق كل جمعة بمئة دينار جهراً ، ويتصدق بما عداها من الأيام سرّاً[10]. كما كان يستفتي الفقهاء والقضاة قبل إقدامه على كثير من الأعمال[11]، وقد أقام الحدود الشرعية في أنحاء بلاده[12].

* شبهات حول شخصية عماد الدين: إنَّ عدداً من المؤرخين يأخذون على زنكي لجوءه إلى الغدر والظلم إزاء أعدائه في بعض الأحيان ، فيصفه الأصفهاني بأنه كان يبلغ في ذلك حدَّ الظلم[13] ويصفه الذهبي بالظلم ، والزعارة[14] ، ويذكر أسامه بن منقذ كيف كان زنكي أحياناً يسكت عن الأساليب القاسية التي اتبعها أحياناً بعض كبار موظفيه

---

[1] الباهر ص 62 عماد الدين زنكي ص 175.
[2] الباهر ص 39 عماد الدين زنكي ص 175.
[3] الباهر ص 39 عماد الدين زنكي ص 176.
[4] ذيل تاريخ دمشق ص 279 عماد الدين ص 176.
[5] عماد الدين زنكي ص 176.
[6] المصدر نفسه ص 176. الباهر ص 69 . 70.
[7] تاريخ دولة ال سلجوق ص 185.
[8] عماد الدين زنكي ص 176.
[9] زبدة حلب (274/2 . 275).
[10] الباهر ص 81 عماد الدين زنكي ص 176.
[11] مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 176.
[12] زبدة حلب (284/2) عماد الدين زنكي ص 176.
[13] تاريخ ال سلجوق ص 186.
[14] العبر في خبر من غبر (112/4).

أمثال الياغسياني حاجبه[1] ، ونصير الدين جقر نائبه في الموصل[2]، ويحمل ابن واصل عليه لدى استعراضه أحداث الهجوم على حماة عام 524هـ .

قائلاً: وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه ، ولا شيء أقبح من الغدر. ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء؛ استفتى الفقهاء في ذلك ، فأفتاه من لا دين له ، وجوَّز له ما لا يحلُّ ، ولا يحسن شرعاً ، وعرفاً[3].

وقد ناقش الدكتور عماد الدين خليل تلك التهم ، وقال: ..ولعل ما يبرر لزنكي موقفه هذا إزاء أمراء الشام محاولته الجادة لكسب الوقت ، وتوحيد العدد الأكبر من المدن ذات الحكم الذاتي هناك من أجل الإسراع بتشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة للوقوف بوجه الخطر الصليبي ، بعد أن أدرك عدم إمكان تحقيق نصر حاسم ضدَّهم في حالة تمزق بلاد الشام إلى إمارات عديدة متطاحنة ، فكان لا بد من الخدعة سيَّما وأنَّها في حالة كهذه توفر على المسلمين كثيراً من الجهود والدماء ، لذا نجد زنكي يستفتي الفقهاء قبل أن يقدم على فعلته هذه ، وشبيه بهذا: الحيلة الطريفة التي مكَّنته عام 529هـ من الاستيلاء على الرقَّة ، دون سفك قطرة من الدم واحدة[4].

وهل الحرب ضدَّ الأمراء الذين سبَوا وحدة الأمة ، ومصالحها الحيوية إلاَّ خداعهم والكيد لهم ، أمَّا إعدامه بعض أمراء بعلبك إثر استيلائه عليها بعد قتال عنيف عام 534هـ فقد جاء نتيجة نقضهم بعض الشروط التي تمَّ الاتفاق عليها قبيل مغادرتهم القلعة[5] ولعلَّ هذه الحادثة هي أبرز ما دفع المؤرخين إلى وصف زنكي بالقسوة ، والغدر. وقد أشار ابن الأثير. في الكامل . إلى ذلك بقوله: واستقبح الناس ذلك من فعلِهِ ، واستعظموه ، وخافه غيرهم[6]. ولكن زنكي سرعان ما سعى إلى التعويض عن خطئه هذا ، وذلك بإصدار العفو عن العدد الأكبر من المحكوم عليهم بالإعدام ، وتولية بعلبك لنجم الدين أيوب ، وهو الذي بذل جهوداً مشكورة في التوسط لهؤلاء الأمراء والدفاع عنهم[7].

وفي حصار زنكي لقلعة جعبر 541هـ جرت مفاوضات بين الطرفين وافق فيها على تسلم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عن القلعة وما أن وصله الرسول حاملاً المبلغ المتفق عليه ، حتى ردَّه من حيث جاء ، بعد أن وردته أنباء تشير إلى أن القلعة قد أوشكت على السقوط[8] ، وهو موقف يبرره تماماً حرصه على وحدة الجبهة الإسلامية إزاء أنانيات الأمراء الصغار وأطماعهم الذاتية[9]. وأمَّا ما أورده ابن العديم من أن زنكي

---

(1) الاعتبار ص 157 عماد الدين زنكي ص 177.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 177.

(3) مفرج الكروب (42/1).

(4) عماد الدين زنكي ص 179.

(5) زبدة حلب (273/2) عماد الدين زنكي ص 179.

(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 179.

(7) أخبار الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 179.

(8) زبدة حلب (282/2 . 283).

(9) عماد الدين زنكي ص 179.

كان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد ، قاصداً نفسه[1] ، فإنَّه لا يعني سوى عزمه على اتباع نظام المركزية في الإدارة ، وتركيز السلطة بيد المسؤول الأعلى[2].

* هواياته: كان طبع زنكي جاداً ، وعمله المتواصل من أجل تحقيق أهدافه السياسية ، والعسكرية يستنفذان الكثير من وقته ، ولا يتيحان له من الفراغ للراحة والتمتع إلا القليل القليل ، وفي هذه الفترات المتباعدة من التحرُّر من قيوم العمل والمسؤولية كان زنكي يسعى للترفيه عن نفسه وممارسة هواياته المفضلة التي كان الصيد والطراد أبرزها ، وأقربها إلى طبيعته الحادة[3].

ويحدثنا ابن منقذ عن الجولات التي قام بها مع أمير الموصل وعن أنواع الصيد ووسائله وحيله ، ولنستمع إليه: شاهدت زنكي يوماً ، وكانت له الجوارح الكثيرة ، ونحن نسير على الأنهار ، فيتقدم البازدارية[4] بالبزاة ، ويطلقونها على طيور الماء ، وتدق الطبول كجاري العادة ، فتصيد ـ من طيور الماء ـ ما تصيد ، وتخطىء ما تخطىء ، ووراءهم الشواهيق الجبلية على أيدي البازدارية ، فإذا أخطأت البزاة؛ أرسلوا الشواهيق على الطيور. ويستطرد ابن منقذ قائلاً: وشاهدته يوماً ونحن بظاهر الموصل .... وبين يديه بازدار وعلى يده باشق ، فطار ذكرُ دراج[5] ، فأرسله عليه ، فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض ـ تمكن من الإفلات ـ فلما ارتفع لحقه الباز وأخذه ونزل به وقد ثبَّته[6].

ثم يمضي ابن منقذ يقصُّ علينا وجوهاً أخرى من الصيد ، الذي كان يألفه زنكي ويهواه

فيقول: ورأيت زنكي وهو في صيد الوحش مراراً عديدة ، فإذا ما نصبت الحلقة واجتمعت الوحوش داخلها ـ ثم حاولت الخروج ـ رموها وكان زنكي من أرمى الناس ، فكان إذا دنا منه الغزال؛ رماه فنراه كأنَّه قد عثر فيقع ويذبح. وشاهدته وقد ضربوا الخيام ، فوصل الوحش إلى الخيام ، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئاً كثيراً....وشاهدته يوماً؛ ونحن بسنجار؛ وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: ها هنا ضبعة نائمة ، فسار زنكي ، ونحن معه إلى وادٍ هناك والضبعة نائمة على صخرة في سفحه ، فترجَّل ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابه ، فوقعت أسفل الوادي ، فنزلوا وجاؤوا بها بين يديه؛ وهي ميِّتة[7].

وكان الملوك والأمراء إذا أرادوا التقرب إلى زنكي وكسب ودّه؛ قدّموا له هدايا مما اصطادوه من طيورٍ ، وحيوانات شتَّى، وكان يرد عليهم ـ بدوره ـ بهدايا مما جنته يداه في جولات الصيد والطراد: فهوداً وبزاة وصقوراً[8]. ولم يكن تعشُّق زنكي لسباق الخيل ومهارات الفروسية بأقل من تعشُّقِهِ للصيد والطراد ، فهذه هواية تصدر هي الأخرى عن الطبع الجاد والرغبة في قضاء أوقات الفراغ بما هو مجدٍ في عصر كانت الفروسية فيه شارته الأولى[9]. وفي فترات أخرى من فترات الفراغ

---

[1] زبدة حلب (284/2) عماد الدين زنكي ص 179.

[2] عماد الدين زنكي ص 180.

[3] المصدر نفسه ص 180.

[4] الاعتبار ص 192 ـ 193.

[5] الدراج: طير من فصيلة الدجاج.

[6] الاعتبار ص 192 ـ 193.

[7] الاعتبار ص 192 ـ 193.

[8] زبدة حلب (263/2).

[9] عماد الدين زنكي ص 181.

المتباعدة كان زنكي يروِّح عن نفسه بالقيام منفرداً برحلات هادئة على نهر دجلة ، متخففاً من أعباء ومهام إمارة شاسعة الأطراف يتربَّص بها الأعداء من كلِّ جانب[1].

رابعاً: سياسته الداخلية:

اهتم عماد الدين زنكي بضبط إمارته ، وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً لِمَا فصَّلناه في كتابنا عن السلاجقة ، وتحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة (489 . 521هـ) إلى عهد الأتابكة . لم يؤد إلى ظهور مؤسسات إدارية جديدة بالمرَّة على المنطقة. بل إن معظم هذه المؤسسات ظلّ موجوداً في العهد الجديد مع إجراء بعض التعديلات ، واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية ، والعسكرية الجديدة ، وأقام زنكي تنظيماته الإدارية ، على أكتاف مجموعة الموظفين منحهم نوعاً من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الإدارية ، ولكن تحت إشرافه التام ومراقبته الدقيقة ، وكان هؤلاء الموظفون يعملون في أربعة مجالات رئيسية ، هي:

محافظة قلعة الموصل وسائر قلاع الإمارة. وكانت تسمى في كثير من الأحيان: النيابة ، ويدعى متوليها (النائب).

ولاية المدن والأعمال.

الوزارة.

الدواوين.

1 . نيابة الموصل أو محافظة القلعة: أنشأ زنكي هذا المنصب حال دخوله الموصل في رمضان عام 521هـ وقد أطلقت المصادر عليه لقب النيابة أحياناً[2] ،ودزدارية قلاع الإمارة أحياناً أخرى[3]. ولما كانت كلمة دزدار الأعجمية تعني حافظ القلعة فمن الممكن تسمية هذا المنصب بالمحافظة ، وكان من مهام نائب الموصل أن يدير شؤونها وبقية أجزاء الإمارة نيابة عن زنكي، وأن يكاتب السلطان السلجوقي، والخليفة العباسي عن أحوال الإمارة خلال تغيب الأمير[4]، ومن مهامه جمع الضرائب وجباية الأموال ، والإشراف المستمر على إحكام تحصينات الموصل وتعميق خنادقها ، فضلاً عن الأعمال العسكرية المحصنة كالدفاع عن المدينة[5]، والقيام بحملات توسعية بناء على أوامر زنكي[6].

وكان نائب زنكي بالموصل يشرف على إقامة الحدود ، وتعقب المفسدين ومثيري الفتن ، ومدمني الخمر ، ومعاقبة كلٍّ منهم حسب جريمته ، فضلاً عن مراقبة أبواب العاصمة والطواف في أحياء التجارة والمال وغير ذلك من الأعمال[7].

وفي أغلب الظن: أنَّ السلطات الإدارية الواسعة التي كان نائب زنكي يمارسها كانت تتطلب جهازاً إدارياً واسعاً لتنفيذ الأوامر والقرارات[8]، ومن أشهر نواب زنكي في الموصل:

---

(1) المصدر نفسه.

(2) ذيل دمشق ص 263 . 270 ، عماد الدين زنكي ص 234.

(3) الباهر ص 35 ، الروضتين في أخبار الدولتين (76/1).

(4) ذيل تاريخ دمشق ص 263 عماد الدين زنكي ص 235.

(5) وفيات الأعيان (315/1 ، 316).

(6) الباهر ص 64 عماد الدين زنكي ص 235.

(7) عماد الدين زنكي ص 235 ، 236 ، 237.

(8) المصدر نفسه ص 238.

أ . نصير الدين جقر بن يعقوب 521 . 539هـ: هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب: (نصير الدين) وكان جقر أعظم أصحاب زنكي منزلة ، وقد لعب دوراً هاماً في توليته على الموصل عام 521هـ [1]واتبع جقر سياسة إدارية تضاربت المصادر في تحديد سماتها ، بل إن المصدر الواحد لم يستطع تجنب هذا التناقض ، فابن خلكان يصفه بأنه عرف بالعدل ، والإنصاف ، وتجنب الجور والظلم ، ثم يشير إلى أن الطابع العام لسياسته ، وما اشتهر عنه هو الظلم وأنه كان: جبَّاراً عسوفاً سفاكاً للدماء مستحلاً للأموال[2]. ويشير الفارقي إلى ما لقيَ الناس منه من شدة الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط[3] وكان ظلم جقر .كما يشير ابن خلكان . أحد أسباب المؤامرة التي دبرها أحد الأمراء ضده[4].

وكان زنكي يقول عنه: إنه يخافني ، وما يخاف الله[5]. ووضَّح عماد الدين خليل هذه التناقضات بقوله:..بأن جقر اتبع سياسة شديدة قاسية ممتزجة بأسلوب من الرفق و اللباقة أضفى على سياسته سمات العدل ، ودفع بعض المؤرخين على عدم التأكيد على أيٍّ من الجانبين. ويظهر أنه كان قد اهتم إلى حدٍّ كبير بتجميع الأموال لحسابه وحساب أهله وأقاربه حتى إن زنكي لدى عودته إلى الموصل بعد مقتل جقر ، استخرج ذخائره ، وصادر معظم ما لأولئك الأقارب[6].

إنَّ أهم الأعمال التي أنجزها جقر خلال فترة نيابته هي إحكامه لأسوار الموصل ، وحفره لخنادقها ، ودفاعه عنها ضد حصار الخليفة المسترشد العباسي عام 527هـ الذي اضطر أخيراً إلى الانسحاب بسبب صمود جقر[7] لقيادة جيوش زنكي لدى مهاجمة حصون الأكراد في الجهات الجبلية شمالي الموصل ، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها[8] ، كان يساعد جقر في حكم الموصل والٍ يعينه هو[9].

ب . زين الدين علي كجك بن بكتكين 539 . 541هـ: يعتبر زين الدين علي كجك من أبرز رجال عماد الدين ، وأحد قادته الكبار وقد اشترك معه في معظم حروبه في بغداد والشام ومناطق الأكراد ، وكان زين الدين رجلاً صالحاً ذا أصل تركماني ، لقب بكجك أي: (القصير اللطيف) وكان معروفاً بالقوة والشجاعة والإقدام ، رؤوفاً بالفقراء مواسٍ للمرضى[10] ، اشتهر بالمحافظة على حسن العهد ، وأداء الأمانة ، ولم يمارس غدراً قط[11] ، وبلغ من تقواه أن قال عنه

---

(1) الباهر ص 34 . 35.

(2) وفيات الأعيان (315/1 . 316).

(3) عماد الدين زنكي ص 239.

(4) وفيات الأعيان(316/1).

(5) الاعتبار ص 157.

(6) وفيات الأعيان(316/1).

(7) المصدر نفسه(315/1 . 316).

(8) الباهر ص 64 عماد الدين زنكي ص 240.

(9) عماد الدين زنكي ص 240.

(10) الاعتبار ص 177 . 178.

(11) الباهر ص 135.

زنكي: إنَّه يخاف الله ، ولا يخافني[1] ، وقد رأى عنه أهل الموصل كلَّ خير[2]، واستقام له الأمر ، وحسنت بتدبيره الأحوال[3]، وانتشر الأمن في المنطقة ، وازداد عمران البلاد[4]، وتحققت بهذا امال السكان[5].

ت ـ نائب زنكي في حلب: أدرك زنكي أهمية حلب بالنسبة لأعماله العسكرية والسياسية في الشام ، فاتخذها قاعدة له في المنطقة ، واعتبرها عاصمته الإدارية هناك ، وأقام فيها جهازاً إدارياً يشابه إلى حدٍ ما ذاك الذي أقامه في الموصل، وجعل على رأس هذا الجهاز نائبه في حلب ليقوم في منطقة الشام بما يقوم به نائبه في الموصل في الجهات الشرقية من إمارته[6].

وقد جعل عماد الدين زنكي نائبه في حلب المسؤول الأعلى عن الجهاز الإداري هناك ، وكان نائبه من كبار القادة العسكريين ، وكان يطلق عليه أحياناً اسم «مقدم زنكي في حلب» ومن أشهر نواب عماد زنكي في حلب سوار بن إيتكين قدم إلى حلب عام 524 هـ الأمير سوار الملقب بمسعود هارباً من دمشق إثر تدهور علاقته بأميرها ، وتقدم لعرض خدماته على زنكي: فأكرمه هذا وشرفه وخلع عليه ، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها ، واعتمد عليه في قتال الصليبيين ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور[7]، وكانت أعماله العسكرية هي التي أكسبته شهرة واستنفذت معظم أوقاته وجهوده بسبب قربه من المواقع الصليبية ، وهكذا كان الأمير سوار يقوم بشن هجمات سريعة خاطفة على قوات الصليبيين وقوافلهم وكان ـ أحياناً أخرى يمدُّ قوات زنكي بجندٍ من عنده يقودهم بنفسه إن دعت الضرورة ، كما كان يقوم بالدفاع عن مدينة حلب وأعمالها ضد هجمات الصليبيين ، وفضلاً عن الجنود النظاميين الذين اعتمدهم كان ينضم إليه أحياناً كثيرة تركمان المنطقة[8]، طمعاً في الغنيمة ، أو حباً بالجهاد. وقد استمرَّ سوار في منصبه حتى مقتل زنكي عام 541 هـ[9].

ث ـ ولاة نواب زنكي على المدن والقلاع: يتضح مما سبق: أنه كان لزنكي نائبان مركزيان هما: نائبه في الموصل الذي يشرف على الجهات الشرقية من الإمارة ، ونائبه على حلب الذي يشرف على الجهات الغربية «أي: القسم الشامي». وفضلاً عن هذين عين زنكي على المدن و الأقاليم التي فتحها مجموعة من الولاة يطلق عليها اسم النواب أو العمال[10].

2 ـ الوزارة: إن الوزارة في عهد زنكي ليست سوى جزء من التطور العام لهذا المنصب طيلة عصور التاريخ الإسلامي تبلور منصب الوزير مُنذ العصر العباسي الأول ، وكان عمله في البداية يقتصر على تنفيذ أوامر الخليفة العباسي ؛ لذا سمي هذا النوع من الاستيزار بـ «وزارة التنفيذ» وبعد مرور فترة قصيرة ظهر نوع اخر ، عندما فوض الخليفة وزيره لإدارة

---

(1) الاعتبار ص 157 عماد الدين زنكي ص 241.

(2) وفيات الأعيان(316/1) عماد الدين زنكي ص 242.

(3) ذيل تاريخ دمشق ص 281 ـ 282.

(4) ذيل تاريخ دمشق ص 281 ـ 282.

(5) الباهر ص 84 عماد الدين زنكي ص 242.

(6) زبدة حلب(245/2) عماد الدين زنكي ص 245.

(7) ذيل تاريخ دمشق ص 240 ـ 241 عماد الدين زنكي ص 246.

(8) عماد الدين زنكي ص 246.

(9) المصدر نفسه ص 246.

(10) المصدر نفسه ص 246.

شؤون مملكته؛ أطلق عليه: «وزارة التفويض»[1] واستمر هذا المنصب يتأرجح بين التنفيذ والتفويض حسب مركز الخليفة ، أو السلطان الحاكم[2] ومن أشهر وزراء عماد الدين زنكي:

أ . الكفرتوثي 528 . 536هـ: تجمع المصادر على أن أول من استوزره زنكي هو: ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكفرتوثي[3] عام 528هـ ، ويتضح من هذا أن السنوات السبع الأولى من حكم زنكي لم يكن اتخذ خلالها وزيراً ، وربَّما كان نائبه في الموصل هذا الذي يقوم بمهام الوزير ، مما جعل زنكي يستغني عن هذا المنصب طيلة تلك المدة ، وتذكر المصادر بالقول بأن الكفرتوثي كان مشهوراً ، بحسن الطريقة ، والكفاية ، وحب الخير ، والمذهب الحميد[4] ، وقد قدم مع زنكي إلى حلب ، مما يشير إلى أنَّه لم يكن مستقراً في الموصل بشكل دائم[5].

ب . أبو الرضا بن صدقة 536 . 538هـ: بقي الكفرتوثي في منصبه كوزير طيلة اثني عشر عاماً ، وتوفي في شعبان عام 536هـ[6] ، فاستوزر زنكي بعده جلال الدين أبا الرضا محمد بن صدقة[7] ، ولكنه لم يستمر في منصبه طويلاً؛ حيث عزل عام 538هـ لأسباب أوجبت ذلك ودعت إليه[8].

ج . أبو المحاسن العجمي: يذكر ابن القلانسي: أنَّ زنكي ألقى القبض عام 531هـ على وزيره أبي المحاسن علي بن أبي طالب العجمي ، واعتقله في قلعة حلب ، حيث بقي هناك بسبب مصادرته للأموال ، وانكسار المعاملات التي عجز عن القيام بها ، وتأدية ما عليه من التزامات مالية[9] ، ولم تقدم المصادر عن ترجمة العجمي شيئاً يستحق الذكر[10].

س . جمال الدين الأصفهاني: أطنبت المصادر في وصف أخلاق جمال الدين ، مركِّزة الأضواء على كرمه العجيب ، تلك الأخلاق التي قربته من زنكي ، وجعلته محبوباً ومشتهراً في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي ، ومنحته لقب الجود لكثرة جوده ، كما دفعت أبناء زنكي . فيما بعد . إلى الاعتماد عليه في إدارة إمارتهم[11].

وقد أطلقت بعض المصادر عن جمال الدين الأصبهاني: وزير صاحب الموصل[12] ، وذكرت بعض المصادر: أن زنكي جعل جمال الدين مشرف مملكته كلها ، وحكَّمه تحكيماً لا مزيد عليه[13]. ويقول ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من جمال الدين الوزير في أيام زنكي من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحافظة . أي التحقيق . فيها ، ما يدل على تمكنه من الكفاية ، وتشير المصادر إلى أنَّ زنكي عوَّل على جمال الدين في الفترة الأخيرة من حكمه في الإشراف

---

(1) المصدر نفسه ص 256.

(2) المصدر نفسه ص 256.

(3) ذيل تاريخ دمشق ص 243 وفيات الأعيان(228/4).

(4) زبدة حلب(254/2) عماد الدين زنكي ص 262.

(5) عماد الدين زنكي ص 262.

(6) ذيل تاريخ دمشق ص 275 ، عماد الدين زنكي ص 262.

(7) عماد الدين زنكي ص 262.

(8) ذيل تاريخ دمشق ص 277 ، عماد الدين زنكي ص 263.

(9) ذيل تاريخ دمشق ص 263.

(10) عماد الدين زنكي ص 264.

(11) ذيل تاريخ دمشق ص 356 عماد الدين زنكي ص 265.

(12) الباهر ص 118 . 119 عماد الدين زنكي ص 259.

(13) الباهر ص 118 . 119 وفيات الأعيان(228/4).

على ديوانه ، وزاد راتبه[1] ، ومكّنه في منصبه[2] ، ولم يحاول جمال الدين أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص ، بل كان يأخذ ما يكفي لمعيشته ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي[3] ، مما زاد من اعتماد الأخير عليه وثقته به ، فمكنه من أصحاب[4] ديوانه وهكذا كان جمال الدين يتمتع بسلطان عملية واسعة ، وخاصة في مسائل الإشراف على الديوان والمسائل المالية ، فقد شغل جمال الدين منصباً خطيراً ، وقد أطلقت معظم المصادر على جمال الدين لقب «وزير»[5].

ش ـ الوزير مروان بن علي بن سلامة: كان وزير عماد الدين زنكي في الموصل مروان بن علي بن سلامة الطتري نسبة إلى «طترة» من ديار بكر ، وكان مروان هذا قد ورد بغداد ، وتفقَّه على يد الغزالي ، والشاشي ، ثم عاد إلى بلده ليدبر أمور الوزارة حتَّى وفاته عام 540هـ [6] .

3 ـ الموظفون ونظام التوظيف: اهتم عماد الدين زنكي بأمر الوظائف والموظفين اهتماماً كبيراً كي يستطيع أن يسيِّر أمور دولته بشكل منظَّم ، وكي يجنب جهازه الإداري الهزات التي كثيراً ما تعرقل سير الأمور ، وقد طبَّق زنكي مبادأى إدارية، منها:

أ ـ مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري: كي يتحقق هدفه انف الذكر ، ويضع يديه على الموظفين الأكفاء فكان: يتعهد أصحابه، ويمتحنهم فلا يرفع أحداً فوق قدره الذي يستحقه، ولا يضعه دونه[7]، كما كان يجعل كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه.

ب ـ الثقة على قدر المعرفة: فكان يولي موظفيه على قدر ما يعلم منهم كي يشعرهم بالأمن والاستقرار ، وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه.

ج ـ مبدأ كفاءة الشخص: فقد جعل من كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه[8].

س ـ ثقته في موظفيه: فكان: قليل التلون والتنقل ، بطيء الملل والتغيُّر ، شديد العزم ، لم يتغيَّر على أحد من أصحابه مُذْ ملك إلى أن قتل إلاَّ بذنب يوجب التغيُّر ، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أوَّلاً هم الذين بقوا معه أخيراً ، فلهذا كانوا ينصحونه ، ويبذلون نفوسهم له[9] ، وهذا هو الذي دعا جمال الدين الوزير إلى وصف زنكي بأنَّه كان متمكناً ، قوي العزم ، لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولا يتلون بأقوال أصحابه ، ممَّا دفع أصحابه إلى حفظه[10].

---

[1] عماد الدين زنكي ص 260.

[2] تاريخ ال سلجوق ص 192 ـ 193 عماد الدين زنكي ص 260.

[3] عماد الدين زنكي ص 260.

[4] المصدر نفسه ص 260.

[5] المصدر نفسه ص 260.

[6] طبقات الشافعية(295/7) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 255.

[7] الباهر ص 79 عماد الدين زنكي ص 266.

[8] الباهر ص 63 عماد الدين زنكي ص 266.

[9] عماد الدين زنكي ص 266.

[10] الباهر ص 82 ـ 83 عماد الدين زنكي ص 266.

ش ـ انتقاء الموظفين: كان زنكي ينتقي موظَّفيه من الرجال ذوي الهمم العالية ، والآراء الصائبة ، والأنفس الأبيَّة[1] فإذا ما أضيف إلى ذلك توسيعه في رواتب موظفيه[2]؛ أدركنا مدى إخلاص هؤلاء له ، ولعملهم ، ومدى سير الأمور الإدارية في ولايته سيراً طبيعياً. وخير مَثَل على ذلك: موظفه الكبير جمال الدين الأصفهاني الذي أظهر في أيَّامه من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والتحقيق فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلمَّا وزر جمال الدين نفسه لقطب الدين مودود بن زنكي؛ قلَّت كفايته وصار يهمل بعض الأمور ، وعندما سأله أحد الموظفين عن السبب في ذلك أجاب: ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما هي أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه[3].

ع ـ المركزية في الحكم: يقول بعض الباحثين كان زنكي يؤمن بما يُسَمَّى اليوم (الدكتاتور العادل) ويسعى إلى تطبيق هذا المبدأ في مجال الإدارة ، فكان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد ـ يعني نفسه[4]. ويقول عماد الدين خليل: كلمة (ظالم) تعني: السيطرة الفردية المركزيَّة في الحكم ، وعدم السماح للموظفين الاخرين بالارتفاع إلى مستوى مسؤوليته في الإدارة ، ومشاركته في الحكم ؛ ولهذا السبب ـ نفسه ـ لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم أحد من أفراد الرعية أو التعرض لهم بأي أذىً. وقد عاقب عز الدين الدبيسي ـ وهو من أكابر أمرائه ـ لأنَّه سلب أحد يهود جزيرة ابن عمر بيته[5]، وعاقب أحد ولاته بسمل عينيه لتعرضه لامرأة[6] ، فخاف الولاة ، وانزجروا[7] وعجز القوي عن ظلم الضعيف[8].

ك ـ نهيه أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك: كان ينهي أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك قائلاً لهم: ما دامت البلاد بأيدينا؛ فأيُّ حاجة بكم إلى الأملاك ، فإن الإقطاعات تغني عنها ، فإن خرجت البلاد من أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية ، وتعدوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم[9].

وقد لخص زنكي بهذا التصريح سياسته العادلة إزاء الرعية ، وموقفه من موظفيه كما أوضح مفهومه عن الحكم المستبد العادل ، وهذا هو الذي دفع عدداً من المؤرخين إلى التأكيد على سياسته العادلة لدى استعراضهم لسيرته[10] ، وأنه كان يتقبل آراء الرعية ، وانتقاداتهم. ويروي ابن واصل: أنَّ زنكي كان يمارس الظلم في بدء أمره ، فسمع في إحدى الليالي شخصاً يغني بيتين من الشعر عن العدل ، فبكى وتبدَّلت نيته في الظلم ، وألزم نفسه بالعدل مُنذ ذلك اليوم[11]، كما يشير ابن العديم إلى أن أهل حران امتدحوا سياسة زنكي العادلة معهم ، ثم يقول: وبلغني: أنَّه لا يتجاسر أحد من

---

(1) أخبار الروضتين(114/1).

(2) عماد الدين زنكي ص 267.

(3) الباهر ص 82 ـ 83 عماد الدين زنكي ص 267.

(4) زبدة حلب(284/2) عماد الدين زنكي ص 266.

(5) الباهر ص 77 عماد الدين زنكي ص 267.

(6) الباهر ص 84 عماد الدين زنكي ص 267.

(7) مرآة الزمان(190/8).

(8) زبدة حلب(284/2).

(9) الباهر ص 77 عماد الدين زنكي ص 268.

(10) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 268.

(11) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 268.

رعيته ، كائناً من كان أن يظلم أحداً من خلق الله[1]. وفي العموم كانت سياسته إلى العدل أميل، وخالطها شيء من الظلم، وحرص على التخلص منه.

4 . الدواوين: كان ديوان زنكي يقاس بدواوين السلاطين السلاجقة لكثرة التجميل ، ونفاذ الأمر ، وعظم الحاشية والخرج[2]. وهذا يؤكد أهمية ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات؛ بحيث إنَّ أيَّ مراجع كان يقصده كان يجد من توفر موظفيه عليه ونظرهم في مصالحه ما يجعله كأنه في أهله[3].

5 . الأمن الداخلي والإعمار: استطاع زنكي ، بإدارته الحازمة وضبطه للأمور[4] وعدالته وبمساعدة أجهزة الجيش والبريد أن يحقق نتائج هامة في إمارته في مجال إقرار الأمن والقضاء على المفسدين ، ونشر العمران في البلاد ، حيث يشير ابن العديم إلى أن البلاد عمرت في أيام زنكي بعد خرابها ، وسادها الأمن بعد الخوف ، وكان زنكي لا يبقي على مفسد[5] ، وقد كان الأمن مضطرباً في الموصل نفسها خلال الفترة التي سبقت حكم زنكي ، ويورد ابن الأثير نصاً يلقي ضوءاً على الموضوع ، رغم ما فيه من مبالغة ، يقول فيه: كان الناس لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن[6] العمارة ، وكانت معظم المناطق البعيدة عن المركز خربة لا عمران فيها، ولا أمن ، وسرعان ما ساد العمران هذه المناطق لدى مجيء زنكي[7] ، بفضل حمايته للبلاد ومنعه المفسدين ، وكفه أيدي الأقوياء[8].

وكان لانتشار الأمن في المنطقة أثر واضح في زيادة عدد السكان في إمارة زنكي[9] ، كما غدت الموصل ملجأ للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الأمن هناك واشتداد الضوائق الاقتصادية[10]. وبالإمكان معرفة الدَّور الذي لعبه زنكي في مجال الأمن بتتبع ذلك في الأيام التي أعقبت اغتياله حيث اضطربت الأعمال ، واختلَّت المسالك، وانطلقت أيدي الحراميَّة في إفساد الأطراف، والعبث في سائر النواحي[11].

وعندما كان زنكي يسيطر على المدن؛ لم يكن يترك جنوده يتحكمون بمقدَّراتها ويسيئون إلى أهاليها ، وينشرون الرعب والفوضى في ربوعها ، بل كان سرعان ما يعين عليها والياً من قبله؛ كي تكون الكلمة والسلطة بأيدي رجال مدنيين ، من أجل إحلال الأمن في المدينة وإعمارها[12] ، وكان لا يسمح ـ أبداً ـ لجنده ـ خلال التحركات والعمليات الحربية بأن يعتدوا على الفلاحين بنهب أو تخريب مزارعهم ، فكان العسكر يمشي خلفه كأنهم بين خيطين ، مخافة أن يدوس

---

(1) زبدة حلب(284/2) عماد الدين زنكي ص 268.
(2) الباهر ص 83 عماد الدين زنكي ص 270.
(3) عماد الدين زنكي ص 270.
(4) الباهر ص 13 عماد الدين زنكي ص 270.
(5) زبدة حلب(284/2) عماد الدين زنكي ص 270.
(6) الباهر ص 77 عماد الدين زنكي ص 270.
(7) الباهر ص 77 ـ 78 عماد الدين زنكي ص 271.
(8) المصدر نفسه ص 77.
(9) الكامل في التاريخ نقلاًعن عماد الدين زنكي ص 271.
(10) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 271.
(11) كتاب الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 271.
(12) عماد الدين زنكي ص 271.

العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ . ولو مقداراً ضئيلاً من التبن . من فلاح إلاَّ بثمنه، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية وإن تعدَّى أحد؛ صلبه[1].

ففي عام 528هـ مثلاً . قام بالقضاء على أعمال النهب والفوضى التي كان يقوم بها بعض أكراد شرقي الموصل ضد الفلاحين[2] وفي عام 533هـ استولى على منطقة شهرزور التركمانية: فأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان[3]. وفي عام 537هـ استطاع أن يستولي على عدد من حصون الأكراد شمالي الموصل وأن يقضي على أعمال الفساد في المنطقة[4].

وفي عام 539هـ قام عسكره . إثر استرجاع الرُّها من الصليبيين . باستباحة المدينة خلال الأيام الأولى من الفتح ، فلما دخل زنكي البلد أعجبه منظره ، فأسف لمثله من الخراب ، ورأى أن تخريبه وإخلاءه من أهله غير مستحسن من مثله فأمر بإعادة ما أخذ من سبي وأموال ، فردوا عن اخرهم ، وعاد البلد عامراً آهلاً آمناً[5] ، ثم أصدر أوامره بإعادة إعمار الرُّها[6] ، فأصلح أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان[7] . وفي عام 537هـ استطاع أن يستولي على عدد من حصون الأكراد شمالي الموصل وأن يقضي على أعمال الفساد في المنطقة[8]. ولا أدلَّ على حب عماد الدين زنكي للإعمار ورفقه بأهالي المناطق المفتوحة من تعيينه نجم الدين أيوب والياً على بعلبك عام 534 هـ ، وهو الذي توسَّط لدى زنكي في العفو عن أمراء بعلبك الذين حكم عليهم بالإعدام ، فأجابه زنكي إلى طلبه وولاه على بعلبك وأقطعه ثلثها[9].

6 . سياسة الترحيل: اتبع زنكي ما يمكن تسميته (سياسة الترحيل) أي: نقل جماعة من مكان إلى مكان اخر لتحقيق غرضين ، أولهما: التمكين لحكمه في بعض المناطق التي استولى عليها ، وثانيهما: اتخاذ بعض هذه الجماعات كقوات حاجزة بين ممتلكاته وبين مناطق الأعداء ، ففي عام 536هـ استولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات ، ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها[10] ، وأغلب الظن أن آل مهراش هم حكام «الحديثة» الذين كانوا يهددون سيطرة زنكي على المدينة مما اضطره إلى إبعادهم.

وفي عام 540هـ وعندما أعلن أرمن الرُّها العصيان ضد زنكي واستطاع نائبه زين الدين كجك أن يقضي على المحاولة، أمره زنكي بإعدام قادة المؤامرة ثم قام بترحيل بعض الأرمن من المدينة ، وأحل محلهم ثلاثمئة عائلة يهودية تخلصاً من

---

(1) زبدة حلب(283/2 . 284) عماد الدين زنكي ص 271.

(2) عماد الدين زنكي ص 271.

(3) الباهر ص 57 . 58 عماد الدين زنكي ص 272.

(4) الباهر ص 64 مراة الزمان(190/8) عماد الدين ص 272.

(5) الباهر ص 69 عماد الدين زنكي ص 272.

(6) زبدة حلب(279/2 . 280).

(7) الباهر ص 57 .58 عماد الدين زنكي ص 272.

(8) الباهر ص 64 مراة الزمان(190/8) عماد الدين زنكي ص 272.

(9) كتاب الروضتين(86/1 . 87).

(10) المنتظم(102/10) عماد الدين زنكي ص 273.

خطر وجودهم[1] وخلال فترة مبكرة من حكم زنكي قام بنقل طائفة من التركمان تدعى «الإيوانية» مع أميرهم ياروق أرسلان إلى الشام ، وأسكنهم في ولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الصليبيين ، ومنحهم الحق في تملك كلَّ ما استولوا عليه من البلاد العائدة لهؤلاء.

وقد استطاعت هذه الطائفة ـ فعلاً ـ أن تسترد من الصليبيين الكثير من الأراضي المحيطة بحلب؛ حيث بقيت بأيديهم إلى سنة 600هـ[2]. وكان ياروق مقدماً كبيراً وإليه نسبت الطائفة الياروقية من التركمان. وقد حققت هذه الطائفة ـ فضلاً عن أعمالها الحربية ـ نتائج عمرانية؛ إذ بنى ياروق وأتباعه على شاطىء نهر قويق المار بحلب عمائر كثيرة عرفت بالياروقية واشتهرت هناك[3] ، وقد استفاد زنكي في توطيد الأمن الداخلي إلى حد كبير من جهاز استخباراته الدقيق[4] ومن البريد ، ويمكن القول بأن جند زنكي وحرسه وحاميات المدن قاموا ـ كذلك ـ بدور تنفيذي هام في هذا المجال[5].

خامساً: النظم العسكرية عند عماد الدين زنكي:

1 ـ الجيش: كانت مؤسسة الجيش الضاربة قد استخدمها زنكي للقضاء على الإمارات المحلية لكي يوحدها في جبهة إسلامية متماسكة ليستطيع مجابهة الصليبيين ، وقد اعتنى بجيشه بحيث أصبح قوياً متماسكاً. ومن الأمور المتعلقة بالجيش التي اهتم بها زنكي:

أ ـ ديوان الجيش: نظم زنكي ديوان الجيش؛ ليقوم بالإشراف على أمور الجند وتنظيمهم ، وتوزيع رواتبهم ، وأعطياتهم بانتظام[6] وجعل على رأس هذا الديوان موظفاً أعلى يطلق عليه «أمير حاجب»[7] ، وكان عمله أن ينصف بين الأمراء والجند ، تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمراجعة النائب ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند ، وما ناسب ذلك[8].

كما كان ينظر في مخاصمة الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك[9] ، وذكر ابن الأثير: أنَّه: كان لزنكي جماعة كثيرة من الخراسانية في الركاب أي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للأمير ، يُقال لهم: الجامكيات[10] الوافرة ، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ، ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة ، ففي بعض السنين تأخرت رواتبهم تأخراً يسيراً ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم زنكي مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئاً، فأرسل إليهم ، وسألهم عن حالهم فذكروه له ، فقال لهم: أشكوتم إلى الديوان؟ قالوا: لا ، قال: فهل ذكرتم حالكم للأمير حاجب؟ قالوا: لا ، قال: فلأي شيء

---

(1) عماد الدين زنكي ص 273.
(2) الباهر ص 80 عماد الدين زنكي ص 273.
(3) عماد الدين زنكي ص 273.
(4) المصدر نفسه ص 274.
(5) المصدر نفسه ص 274.
(6) الباهر ص 83 عماد الدين زنكي ص 192.
(7) الباهر ص 83 عماد الدين زنكي ص 192.
(8) صبح الأعشى(19/4) عماد الدين زنكي ص 192.
(9) الخطط(219/2) عماد الدين زنكي ص 192.
(10) الجامكيات: هي الرواتب العامة.

أعطي الديوان مئة ألف ، وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها! .. كان عليكم أن تشكوا حالكم إلى الديوان ، فإن أهملوا أمركم قلتم لـ (أمير حاجب) ، فإن أهمل أمركم شكوتم الجميع إليّ حتى أعاقبهم على إهمالهم ، وأما الان فالذنب عليكم ، ثم أمر بتأديبهم ، وقطع رواتبهم ، حتى شفع فيهم بعض الأمراء فعفا عنهم ، ثم أحضر موظفي الديوان ، وأمير حاجب وقال لهم: إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي ، ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي ، وبهم من الحاجة إلى النفقات في أسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عني؟ وأنكر عليهم ذلك ، فخرجوا من عنده ، وفرقوا في الأجناد من أموالهم إلى حين وصول «رواتبهم» فأخذوا عوض ما أخرجوه[1] ، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة قائلاً بأن زنكي بهذا الإجراء: أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره[2].

ب ـ أمير حاجب زنكي: تولى صلاح الدين بن أيوب الياغسياني منصب أمير حاجب لدى زنكي ، ويرجع ذلك في تولية الأخير على الموصل؛ إذ كان أحد عضوين في الوفد الذي توجه إلى بغداد عام 521هـ لمفاوضة المسؤولين حول إقرار الوضع في المنطقة ، وقد وعده زنكي بتوليته منصب أمير حاجب حالماً يستقر في الموصل ، فلما دخلها عام 521هـ ولاّه هذا المنصب الهام[3] ، وقد ظلّ الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله ، واعتمد عليه هذا في مهامه العسكرية[4] ، وجعله أحد قواده الكبار ، وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المهام والمعارك العسكرية ، وتقدم لدى زنكي بالمناصحة ، وسداد التدبير ، وحسن السفارة ، وصواب الرأي[5] ، ولذلك لم يعترضه أو يقيله من منصبه طيلة فترة حكمه[6] .

ج ـ تنظيم الجيش وعناصره: تعتبر نظم عماد الدين زنكي امتداداً لنظم السلاجقة من جهة ، وأساساً للنظم الأيوبية والمملوكية من جهة أخرى ، ومن العناصر التي كانت تشكل جيش زنكي: الخراسانيون ، والتركمان الذين كانوا يشكلون أعداداً كبيرة؛ إذ يشير ابن القلانسي إلى أن زنكي عندما حاصر الرُّها عام 539هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليه (أي: على الرُّها) وأداء فريضة الجهاد ، فوصل إليه منهم الخلق الكثير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات ، وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات[7].

وقد استفاد زنكي من التركمان لجهاد الصليبيين بالدرجة الأولى ، وقام بنقل طائفة من التركمان الأيوانية مع أميرهم «الياروق» إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي لهم.. فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال ، ويراوحونهم ، ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى سنة 600هـ. وقد استفاد الأمير سوار

[1] الباهر ص 83 عماد الدين زنكي ص 193.
[2] الباهر ص 83 عماد الدين زنكي ص 193.
[3] الباهر ص 35 عماد الدين زنكي ص 195.
[4] ذيل تاريخ دمشق ص 258.
[5] كتاب الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 195.
[6] عماد الدين زنكي ص 195.
[7] الباهر ص 279 عماد الدين زنكي ص 197.

بن إيتكين التركماني نائب زنكي في حلب من التركمان في غارته ضد الصليبيين في شمالي الشام ، واستطاع أن يحقق بواسطتهم انتصارات عديدة[1] ، وكان التركمان ينتشرون في معظم أنحاء الشام وبخاصة مناطق الفرات ، وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة[2].

وكان زنكي يمضي إلى الفرات لجمع التركمان قبل القيام بمعاركه المهمة؛ إذ كان هؤلاء بأعدادهم الضخمة، ومراسم في الحرب ، وشجاعتهم ، يشكلون أهم عنصر في جيشه[3]، وجاءت إشارات متعددة عن(الحلبيين) كقوة عسكرية اشتركت في معارك عديدة ضد الصليبيين في شمالي الشام بقيادة الأمير سوار ، وقامت بدور أساسي في الدفاع عن حلب وبعض المدن الأخرى القريبة عند هجوم الامبراطور البيزنطي المتحالف مع الصليبيين على هذه المنطقة عام 532 هـ[4] ، كما قام الحلبيون بدور هام في فتح الرُّها عام 539 هـ جنباً إلى جنب مع الخراسانيين؛ إذ كان في (الحلبيين) أيضاً من هو «عارف بمواضع النقوب» ، فنقبوا عدة مواضع مع الخراسانيين ، وأشعلوا فيها النار مما أدى إلى انهيار بعض أجزاء السور ودخول المسلمين إلى الرُّها[5].

وقد كان هؤلاء الحلبيون من سكان حلب الأصليين ، أي من العرب ، بدليل ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يجبر فلاحي حلب على الالتحاق بجيشه في أوقات القتال[6]، ويظهر أن هؤلاء كانوا يتركون الجيش ، ويعودون إلى أعمالهم الزراعية بعد انتهاء القتال ، ولا ريب: أنهم كانوا يتقاضون أجوراً على اشتراكهم في المعارك ، سواء كانت أرزاقاً معينة ، أم ما يحصلون عليه من الغنائم ، وقد ذكر ابن واصل أن زنكي رحل إلى أرض حماة عام 533هـ واستصحب من أهلها تسعة الاف راجل يخدمون الركاب[7]. أي: للقيام بمهمة الحشم في خدمة الجيش وأمرائه في حلهم وترحالهم، فضلاً عن حراسة زنكي الخاصة ، مما يشير إلى أن هذا اعتمد على أهالي الشام في كثير من الأمور الحربية[8] واعتمد جيشه على عناصر أخرى كالبدو والأكراد[9].

. عدد جيش زنكي: ويظهر مما سبق: أنَّ عدد جيش زنكي لم يكن ثابتاً ، بل كان عرضة للزيادة والنقصان بما ينضم إليه من المتطوعين من حين لآخر. وقد حاول زنكي أن يضمن وجود مورد عسكري بشري ثابت ، ففرض التجنيد الإجباري على بعض المناطق القريبة من مواطن الخطر ، ولذلك كان يلزم أهل حلب بجمع الرجالة للقتال والحصار ، فإن كان ذلك في جهاد الكفار؛ فقد كان يجب عليهم ذلك ، وله إلزامهم به[10].

---

(1) عماد الدين زنكي ص 197.

(2) زبدة حلب (264/2 . 268).

(3) ذيل تاريخ دمشق ص 279 عماد الدين زنكي ص 198.

(4) عماد الدين زنكي ص 198.

(5) المصدر نفسه ص 199.

(6) المصدر نفسه ص 199.

(7) المصدر نفسه ص 199.

(8) المصدر نفسه ص 199.

(9) المصدر نفسه ص 199.

(10) عماد الدين زنكي ص 199.

. معسكرات عماد الدين زنكي: هنالك إشارات محدودة عن معسكرات الجنود ، ففي شتاء إحدى السنين قدم زنكي إلى جزيرة ابن عمر ، فنزل بالقلعة ، وعسكر جنده في الخيام خارج المدينة[1] ، الأمر الذي يشير إلى وجود معسكرات غير ثابتة في الحالات الطارئة ، وأمَّا في الحالات الدائمة ، فقد كان زنكي يقيم حامية عسكرية في كل مدينة ، أو حصن يفتحه بعد أن يقطع أراضيها لأمراء الحامية وجنودها[2] وهذا يؤكد وجود معسكرات ثابتة في مختلف المناطق التابعة لزنكي ، ولم تحدد المصادر فيما إذا كانت سكنى الجند داخل القلاع أم خارجها[3]؟

. استخدام الخيل في جيش عماد الدين: وردت إشارات عديدة عن اهتمام قوات عماد الدين زنكي بالخيل واستخدامها في مختلف الحروب ، وفي الهجمات السريعة ، وقد ذكر أسامة بن منقذ بعض اللمحات عن الخيول في عهد زنكي ، فكان الفارس يلبس الزردية ، أو الكزاغند (أي: الدرع). والخوذة ، ويقاتل بالسيف أحياناً ، وبالدبوس أحياناً أخرى[4]. وقد جرى التنافس بين قوات زنكي لاقتناء الخيول الحسنة[5] وكان للأمراء ركائبيون ، وإصطبلات خاصة لخيولهم[6] ويشير ابن العديم إلى استخدام الخيل في معارك عام 532هـ ضدَّ الروم والصليبيين.

وقد اعتمد الأمير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنَّها ضد الصليبيين[7]. وهنالك إشارات مختصرة عن تنظيم النقل في جيش زنكي؛ إذ يشير ابن منقذ إلى استخدام زنكي للبغال[8]. ويظهر: أن حروبه الجبلية دفعته إلى ذلك ، كما استُخدِمت الإبل في مناطق الجزيرة المستوية في الظروف التي تطلبت السرعة[9].

س . استدعاء الجيوش وأساليب الحرب: قبيل إعلان الحرب كان زنكي يستدعي قوات من المتطوعين لتنضم إلى جيوشه النظامية المجهزة[10]. فعندما عزم على فتح الرُّها عام 539هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها ، وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق الكثير[11]. كما كان يمر . في طريقه إلى الحرب ببعض مدن إمارته ، ويجمع منها الجند ليضيفهم إلى قواته كما فعل مع أهالي حلب[12] ، وحماة[13] وكان الجهاد ضدَّ الصليبيين أحد الدوافع المهمة في اشتراك المتطوعين في حروب زنكي وخصوصاً التركمان ، كما كانت الرغبة في الغنائم والخوف من سلطة زنكي[14] من الدوافع الأخرى لذلك ، وكانت معظم المعارك التي خاضها زنكي عبارة عن هجمات ومحاصرة للحصون الكثيرة

---

(1) الباهر ص 76 . 77 ، كتاب الروضتين(110/1).
(2) عماد الدين زنكي ص 200 الباهر ص 66 .69.
(3) عماد الدين زنكي ص 200.
(4) الاعتبار ص 98 عماد الدين زنكي ص201.
(5) عماد الدين زنكي ص 201.
(6) المصدر نفسه ص 201.
(7) زبدة حلب(262 . 267).
(8) عماد الدين زنكي ص 201.
(9) الاعتبار ص 59 . 60 عماد الدين زنكي ص 201.
(10) الباهر ص 68 عماد الدين زنكي ص 201.
(11) عماد الدين زنكي ص 202.
(12) ذيل تاريخ دمشق ص 279 عماد الدين زنكي ص 202.
(13) عماد الدين زنكي ص 202.
(14) مفرج الكروب(84/1) عماد الدين زنكي ص 202.

المنتشرة في منطقة الجزيرة والشام ، وأما المعارك المفتوحة فإنّها كانت أقلّ من حروب الأسوار بشكل ملحوظ ، ولذلك قلت الإشارات عن الأساليب التي اتبعت فيها[1].

وكان للجواسيس أهمية كبيرة في المعارك التي خاضها زنكي ، وكانوا ينتشرون في مناطق العدو ، ويطلعون أميرهم على تحركاته ، وإمكانياته لكي يكون على بينة من الأمر ، وكان زنكي يحدد موقفه الحربي أحياناً بناء على ما يقدمه هؤلاء من معلومات[2] ، ومن ثم يتجه هو أو أحد قواده على رأس الجيش لفرض الحصار ، فإذا ما استدعت الظروف السرعة في السير؛ اتخذ من الوسائل ما يكفل ذلك ، ففي عام 528هـ على سبيل المثال توجه إلى (خلاط) وأراد الوصول إليها بسرعة ، فسلك طريقاً عبر الجبال عبر الطريق المسلوك ، وكان جنده يستريحون ، كل واحد في موضعه دون خيام[3].

وعندما توجه لحصار الرُّها عام 539هـ استعان على السرعة بركوب النجائب (أي: الإبل صغيرة العمر)[4].

حروب الأسوار: قدمت بعض المصادر تفصيلات عن أساليب الأسوار ، ففي حصار الرُّها تقدم زنكي . أولاً . إلى أهل الحصن بتسليمه له دون أن يضطر إلى تخريبه ، فلما رفضوا؛ أمر المنجنيقات بالضرب ، وقاد الشجعان لنزاله على شكل زحوف مستمرة لقتال الحامية ، وفي الوقت نفسه كان النقابون العارفون بمواضع النقوب يعملون على نقب بعض المناطق الواقعة تحت الأبراج ، وبعد ذلك وضعوا فيها الأخشاب ، وأحرقوها ، فسقطت الأبراج ، واحترق السور، واندفع جند زنكي إلى داخل الحصن[5].

أسلوب الاشتباك: اتبع زنكي أسلوب الاشتباك مع حامية الحصن حالماً يفسح المجال بذلك؛ إذ تبدأ المنجنيقات أولاً بضرب الأسوار ، وما أن تحدث بعض الفتحات؛ حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك المناطق والاشتباك مع الحامية ، فإذا ما قضوا على المدافعين؛ فتحوا الطريق أمام الجيش للدخول إلى الحصن والاستيلاء عليه[6].

الناحية التموينية: كان عماد الدين زنكي يؤكد في حصاره للحصون على الناحية التموينية ، فيفرض حصاراً اقتصادياً على الحصن ، فضلاً عن الحصار العسكري[7] ، كما كان يؤكد على إثارة حماسة الجند بأن يشترك هو نفسه في الهجوم على الأسوار كما حدث في معركتي عقر الحميدية عام 528هـ[8] والرُّها عام 539هـ[9].

الحروب المفتوحة: فقد اتبع زنكي أسلوب الحرب المفتوحة ، حيث تقسم القوات إلى عدة مجموعات على رأس كلٍّ منها أمير: ميمنة ، قلب ، ميسرة ، مقدمة ، مؤخرة. وقد ظهرت براعة زنكي وقواده في استخدام الأساليب المختلفة في القتال ، كنصب الكمائن[10] وفي الحالات التي كانوا يرون فيها: أن من الخطورة الدخول بمعارك مفتوحة مع العدو، إما

---

[1] الباهر ص 68 عماد الدين زنكي ص 202.

[2] عماد الدين زنكي ص 202.

[3] مفرج الكروب(93/1) عماد الدين زنكي ص 202.

[4] الاعتبار 88 . 89.

[5] الباهر ص 68.

[6] ذيل تاريخ دمشق ص 279.

[7] الاعتبار ص 155 عماد الدين زنكي ص 203.

[8] ذيل تاريخ دمشق ص 279.

[9] عماد الدين زنكي ص 203.

[10] مفرج الكروب(93/1 . 94).

لقلّة عددهم ، أو لعدم ملاءمة الظروف العسكرية لهذا النوع من القتال ، في هذه الحالات كان زنكي وقواده يلجؤون إلى شن الغارات على معسكرات العدو ، والانسحاب بسرعة ، وكانوا يستهدفون من ذلك إقلاق تلك المعسكرات ، ونشر الخوف ، والفوضى في صفوفها ؛ وذلك بما يحدثونه في أطرافها من قتل ، واختطاف ، ونهب ، وتخريب ، ممَّا يؤدي أيضاً إلى اضطراب في تموين العدو ، وهو عامل هامٌّ لإضعافه.

وقد حققت هذه الأساليب انتصارات عديدة لزنكي ورجاله[1]. وكان زنكي ـ أحياناً أخرى ـ يمارس ضغطه الاقتصادي ضد أعدائه عن طريق القيام بعمليات النهب والتخريب في المناطق التي تمدُّ حصون هؤلاء بالتموين ، كما حدث في منطقة حمص في السنوات التي سبقت الاستيلاء عليها عام 532هـ[2] وفي حصاره لدمشق عام 534هـ حيث أحرق عدة قرى من المرج ، والغوطة ، وشنَّ الغارات على حوران ، وأعمال دمشق للنَّهب ، والتخريب[3].

ع ـ الأسلحة التي استخدمها عماد الدين زنكي في جهاده: فقد ورد ذكر بعضٍ منها كالدبوس وهو آلة من حديد ذات أضلاع، والرماح، والسيوف، والقوس، والسهم، والنشّاب، والمنجنيقات، والدبابة، والكبش، والقلعة المتحركة والتي كانت تستخدم لنقل الجند ، والمعدات الحربية إلى الأسوار لكي تحميهم من سهام الأعداء ونيرانهم[4] ، كما استعمل جند زنكي النار العادية لحرق الأسوار بعد نقبها ، وملئها بالخشب[5] وبلغت أسلحة زنكي من الكثرة في إحدى المعارك بحيث قال عنها الشاعر:

ظننـــا البـــرَّ بحـــــراً مـــــن ســـــــــلاح[6] ....

وكان مع جيوش زنكي جرائحيٌّ لعلاج مصابي الحرب[7] ، وربما كان ذلك دليلاً على وجود مجموعة ، أو هيئة ترافق جند زنكي لإسعاف الجرحى[8].

سلوك الأمراء والجند تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة: كانت الاعتبارات السياسية والعسكرية هي التي تحدد سلوك الجند، وأمرائهم تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة ، ففي عام 533 هـ على سبيل المثال ، فتح زنكي حصن بزاعة بالسيف: وقتل كلَّ من فيه من الروم ، والفرنج[9] كردٍّ انتقاميٍّ على سلوك الروم والصليبيين تجاه المسلمين لدى استيلائهم على هذا الحصن ، ومعاملتهم لأهله بوحشية بالغة[10]. كما أن هذا الحصن كان يشكل مركزاً عسكرياً مهماً لقربه من حلب ، ومن ثم فإن وجود أية جماعة تؤيد الصليبيين فيه يشكل خطراً على المنطقة كلها.

---

(1) ذيل تاريخ دمشق ص 259 عماد الدين زنكي ص 204.

(2) الباهر 55 ـ 56 ، مفرج الكروب(78/1 ، 79).

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 204.

(4) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 205.

(5) تاريخ المماليك ص 276 عماد الدين زنكي ص 205.

(6) ذيل تاريخ دمشق 279 ، 282 ، عماد الدين زنكي ص 205.

(7) الباهر ص 68 عماد الدين زنكي ص 205.

(8) الاعتبار ص 59 ـ 60.

(9) عماد الدين زنكي ص 206.

(10) مفرج الكروب(83/1) ، عماد الدين زنكي ص 206.

وكذلك يمكن القول في موقف زنكي عند فتح الرُّها عام 539 هـ ، بعد مقاومة شديدة دفعته إلى إطلاق الحرية لجنده، وأمرائه في الأيام الأولى من الفتح ، فملؤوا أيديهم من الغنائم ، والأسلاب ، والأسرى[1]، لكنَّه لدى اطلاعه على البلد: أعجبه منظره فأسف لمثله في الخراب ، ورأى: أنَّ خرابه وإخلاءه غير مستحسن ، فأمر بإعادة ما أخذ من الغنائم ، والسبي فردوا ، وعاد البلد عامراً ، اهلاً بالسكان ، بعد أن كان داثراً[2].

وهكذا نجد: أن موقف زنكي بالسماح لجنده بالنهب والأسر كان ذا اعتبار عسكري بسبب المقاومة العنيفة ، تلك الأعمال كانت ذا اعتبار سياسي؛ إذ كان يرمي من وراء ذلك جعل المسيحيين الوطنيين في الرُّها كتلة واحدة يفيد منها ضدَّ الصليبيين الذين يخالفونهم في المذهب ، ولعله أراد أن يستعين بالمسيحيين الوطنيين بالإضافة إلى الحامية التركية في المحافظة على الرُّها بعد طرد القوات الصليبيَّة منها[3]. ولذلك اجتهد في مصالح . أهل الرُّها . ووعدهم بإجمال السيرة وبسط العدالة[4]، وعلى هذا الأساس كانت معاملة زنكي لأهل بعلبك ، وأمرائها بعد أن أعطاهم الأمان؛ إذ إن ما اتخذه معهم من شدة ، وقسوة قصد به إثارة خوف المقاتلين له من المسلمين في دمشق[5].

ف . علاقة عماد الدين زنكي بجنوده: قامت علاقة عماد الدين زنكي بجنده على النظام والطاعة والانضباط من جهة، وعلى الود والتعاطف والرأفة من جهة أخرى ، بسبب ما قدمه للجند من رواتب حسنة ، وما شمل به أهليهم من رعاية واهتمام[6] ، وكان عقابه صارماً للمخالفين من جنده لا سيَّما إذا كانت مخالفتهم على حساب الرعية[7]، وقد بلغ زنكي من السطوة والنفوذ لدى جنده: أنَّه إذا ركب؛ مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين ، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ من فلاحٍ حفنة من التبن إلاَّ بثمنها ، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية[8].

وكان زنكي يقدِّر الدور الهام الذي يؤديه الجند في خدمة الإمارة ؛ لذلك عني بتوفير الراحة والاستقرار للجندي في كل ما يتعلق به ، وبخاصة عائلته وزوجته ، فكان شديد الغيرة على الحريم ، لا سيما نساء الجند ، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها ، وقد علل ذلك بقوله: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري وما يقيمون عند أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن[9] ، ولذلك كان يعاقب المتعرضين للنساء أشد العقاب وقد مرَّ معنا قصة والي جزيرة ابن عمر التابع لعماد الدين زنكي (حسن البرطي) وكيف جرده من كل أمواله وعاقبه[10].

---

(1) مفرج الكروب(77/1 . 78) ، عماد الدين زنكي ص 206.

(2) عماد الدين زنكي ص 206.

(3) المصدر نفسه ص 206.

(4) الحروب الصليبية(8527/1) العريني.

(5) ذيل تاريخ دمشق ص 280.

(6) عماد الدين زنكي ص 207.

(7) المصدر نفسه ص 209.

(8) كتاب الروضتين(110/1) عماد الدين زنكي ص 208.

(9) زبدة حلب(283/2 . 284).

(10) الباهر ص 84 ، عماد الدين زنكي ص 208.

ص ـ الاستخبارات: أقام عماد الدين زنكي جهازاً للمخابرات ، وخصص له الموظفين ، والرواتب ، وقد ورد عنه أنَّه: كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، وكان له في بلاد السلطان السلجوقي من يطالعه ، ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره ، وحرب وسلم ، وهزل وجد ، وكان يصرف على ذلك الأموال الجليلة ، وكان يصل إليه في كل يوم عدة قاصدين ، أو كتب[1] كما كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار[2].

وقد اتصف عماد الدين زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال ، فكان لا يُمكِّن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه ، وإذا استأذنه رسول في العبور إلى بلاده أذن له ، وأرسل إليه من يسيره ، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ، ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة[3] ، كما كان لا يمكِّن أحد موظفيه من مغادرة بلاده ، ويعلل ذلك بأن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها؛ زالت الهيبة ، وتطرق الخصوم إليها[4] وهنالك عدد من الروايات حول هروب بعض موظفيه ، وفلاحيه إلى الإمارات الأخرى ، وإلحاحه بإعادتهم إلى إمارته؛ حتى لو اضطره ذلك إلى استخدام القوة[5].

وقد قدم جهاز مخابراته خدمات مهمة له في ظروف شتَّى ، ولعب دوراً هاماً في حصار بعرين عام 531هـ[6]، وحصار الرُّها عام 539هـ[7] ، كما كان يستخدمه عماد الدين للتعرف على أحوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع وملاحظة ما يصل إليهم من رواتب وسلاح[8] ، وكان عماد الدين زنكي مع اشتغاله بأمور الدولة الهامة لا يهمل الاطلاع على القضايا الثانوية ، معللاً ذلك بأن الصغير إذا لم يعرف؛ ليمنع؛ صار كبيراً[9]. وكان من الطبيعي أن رجال المخابرات في الدولة الزنكية ارتبطوا بعماد الدين مباشرة نظراً لأهمية دورهم السياسي والعسكري ، ولأنهم كانوا يتسلمون أوامرهم المباشرة منه[10].

1 ـ كان عماد الدين زنكي رجلاً ذا هدف واضح ، وهذا أول شروط النجاح ، وكان جاداً ومثابراً في تنفيذ خططه ، وكان غالباً لا يهادن الصليبيين قاسياً عليهم ، وكان حريصاً على نشر الخوف في حصونهم ، وقلاعهم ، ومدنهم ، وكان يقدر الظروف الحربية ، فقد هادن جوسلين عندما قدم إلى الموصل لكي يتفرغ لإصلاح البلاد ، وتجنيد الأجناد، وتجنب مهاجمة مملكة بيت المقدس؛ حتى لا يثير أوروبا ضدَّه ، فقد كان هدفه القضاء على الأطراف مثل الرُّها ، وإضعاف

---

[1] الباهر ص 84 ، عماد الدين زنكي ص 208.
[2] الباهر ص 78 ، كتاب الروضتين (111/1) عماد الدين زنكي ص 209.
[3] مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 209.
[4] مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 210.
[5] كتاب الروضتين (283/2).
[6] الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 210.
[7] عماد الدين زنكي ص 210.
[8] الباهر ص 78 نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 210.
[9] الباهر ص 78 ، عماد الدين زنكي ص 210.
[10] عماد الدين زنكي ص 210.

أنطاكية ، والقضاء على إمارة طرابلس ، وله فقه كبير في السياسة الحربية[1] ستُبَيَّن بإذن الله تعالى عند الحديث عن جهوده الوحدوية ، وأعماله الجهادية.

2 . نظام الإقطاع العسكري: أدرك زنكي ضرورة توزيع الإقطاعات على أمرائه وجنده نظراً لطبيعة الظروف الحربية ، والسياسية التي جابهتها إمارته ، حيث انتشرت مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة في الجزيرة ، والشام ، والجبال ، وشرقي الموصل فضلاً عن إمارات الصليبيين ، فكان ذلك يحتم عليه اتباع الأساليب التي تضمن له تشكيل قوة عسكرية متمكنة ، يخلص أفرادها لأميرهم ، ومصلحة إمارتهم بناء على وجود مصالح مشتركة ، وليس ثمة في تلك الفترة ما هو أحسن من الأسلوب الإقطاعي لضمان تكوين الجندي المخلص ، والجيش القوي المنظم.

لذلك كان أول عمل قام به زنكي عند دخوله الموصل 521هـ هو «تقرير قواعد الجنود ، وإقطاع العساكر»[2] ، كما جعل من منهجه قبل الاصطدام مع الصليبيين ، الاستيلاء على ما بقي من البلاد الشامية والجزرية ، وإصلاح شأنها ، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ، ويعرف نصحهم وشجاعتهم[3] ، وفي سبيل تحقيق ذلك عقد هدنة مؤقتة مع صليبيي الرُّها[4].

ولم تكن معظم مدن الموصل ، والجزيرة ، وشمالي الشام خاضعة لزنكي عند توليته هذه المناطق رسمياً من قبل السلجوقي، لذا غدت معظم عمليات التوزيع الإقطاعي متوقفة إلى حد كبير على فتوحاته، ومتدرجة زمنياً مع أوقات هذه الفتوحات، فكان كلما استولى على بلد رتب أموره ، وأقطع أعماله الأجناد والأمراء[5] ، وفضلاً عن قيام المقطع بالدفاع عن المنطقة ، وإمداد جيوش زنكي بقوات من عنده في حالات القتال[6] ، فقد استخدم الأخير الإقطاع لأغراض أخرى أهمها الغرض الإداري ، وهو قيام المقطع بإدارة أمور ولايته كوال من قبل زنكي على تلك المنطقة[7] أو لإبعاد الشخص الذي يرى في وجوده خطراً بإقطاعه منطقة بعيدة[8] ، أو لإكرام بعض أمرائه المقربين اعترافاً بفضلهم[9]، أو لإغراء بعض أعدائه بتسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق[10] ، كما أنه تنازل عن بعض الحصون التي فتحها في ديار بكر لحسام الدين تمرتاش أمير بني أرتق ، وذلك لأغراض سياسية تستهدف تقوية حلفه مع حسام الدين ضدَّ أعدائه في المنطقة[11] ، وإليك أسماء بعض الأمراء والقواد الذي أقطعهم زنكي بعض المدن، والحصون:

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 169 ، 171.

(2) الباهر ص 36 ، عماد الدين زنكي ص 218.

(3) الباهر ص 37 ، عماد الدين زنكي ص 218.

(4) الباهر ص 37 ، مفرج الكروب (36/1).

(5) الكامل نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 218.

(6) مفرج الكروب (103/1) عماد الدين زنكي ص 218.

(7) عماد الدين زنكي ص 218.

(8) الباهر ص 35 عماد الدين زنكي ص 218.

(9) الباهر ص 16 ، عماد الدين زنكي ص 218.

(10) ذيل تاريخ دمشق ص 270 ، عماد الدين زنكي ص 219.

(11) عماد الدين زنكي ص 219.

أ ـ الأمير جاولي كان وصياً على ابن عز الدين مسعود والي الموصل المتوفى عام 521هـ ، أقطع الرحبة تخلصاً من خطره[1].

ب ـ بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري ، قاضي قضاة الموصل ، وهبه زنكي أملاكاً وإقطاعاً[2] ، لم تحددها المصادر[3].

ج ـ أبو بكر البكجي أحد كبار أمراء زنكي ، أقطع نصيبين[4].

د ـ سوتكين الكرجي ، أقطع حرَّان عام 522هـ أو 523هـ وفي عام 527هـ أعلن العصيان وقد استطاع زنكي القضاء عليه عام 533هـ وعيَّن نوابه هناك[5].

هـ صلاح الدين الياغسياني (أمير حاجب). أقطع حماة عام 523هـ.

و ـ زين الدين علي كجك بن بكتكين ، أحد كبار قواد زنكي أقطع أربل عام 526هـ[6]، وعقر الحميدية ، وأعمالها عام 528هـ[7] وشهرزور[8].

ز ـ شهاب الدين أميرك الجاندار ، أقطع الرقة عام 529هـ[9].

ح ـ نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه: أقطعهما زنكي في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً ، وقيل: إنه أقطع أسد الدين بالمؤزر[10] وذلك بعد التجائهما إليه في أواخر عام 532هـ.

ط ـ عز الدين الدبيسي من أكابر أمراء زنكي ، كانت دقوقا من جملة إقطاعه[11].

ي ـ ناصر الدين كوري بن جكرمش (والي الموصل 495 ـ 500هـ) أقطعه زنكي إقطاعاً كثيراً اعترافاً بفضل والده[12].

ك ـ الأمير سوار بن إيتكين التركماني ، وِلّي حلب عام 524هـ[13] وأجرى عليه زنكي الإقطاعات الكثيرة ، واعتمد عليه في قتال الفرنج[14].

ل ـ نجم الدين أيوب الذي ولاه زنكي بعلبك عام 534هـ ، بعد أن أقطعه ثلثها ، وقيل: نصفها[15].

---

(1) كتاب الروضتين (76/1) عماد الدين زنكي ص 219.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 219.

(3) عماد الدين زنكي ص 219.

(4) الباهر ص 79.

(5) مفرج الكروب(84/1).

(6) ذيل تاريخ دمشق ص 258.

(7) عماد الدين زنكي ص 220.

(8) المصدر نفسه ص 220.

(9) المصدر نفسه ص 220.

(10) المصدر نفسه ص 220.

(11) المصدر نفسه ص 220.

(12) المصدر نفسه ص 220.

(13) المصدر نفسه ص 221.

(14) المصدر نفسه ص 221.

(15) المصدر نفسه ص 221.

وكان زنكي يمتلك بعض الإقطاعات ، خارج حدود إمارته حصل عليها في ظروف استثنائية ، كتلك التي وهبه الخليفة المقتفي إيَّاها ، من أملاكه الخاصة في بغداد ، رغبة في استمالته[1] وقال متحدثاً عن ذلك: هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف ، وهي أن يكون له في العراق إقطاع[2]. ومن ثم اعتبر هذا النوع من الإقطاع شاذاً. فهذه بعض الأسماء التي قدمتها المصادر عن مقطعي زنكي من كبار الأمراء والقواد ، والراجح: أنَّ عدداً كبيراً من المقطعين لم تشر إليهم المصادر ، إما إغفالاً منها ، أو لعدم أهمية الأماكن التي أقطعت لهم من النواحي العسكرية والجغرافية وربما لقلة اشتهار المقطعين أنفسهم[3].

وقد وزِّعت الإقطاعات على الجند فضلاً عن الأمراء ، وتشير النصوص الواردة في ذلك إلى أن زنكي كان يقوم بنفسه أحياناً بتقرير قواعد الجند ، وإقطاعهم[4]، وأورد ابن الأثير في الباهر الإجراء الذي اتخذه زنكي بشأن أمرائه المقطعين؛ إذ نهى هؤلاء: عن اقتناء الأملاك معللاً ذلك بقوله: ما دامت البلاد لنا؛ فأيُّ حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الإقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية ، وتعدوا عليهم ، وغصبوا أملاكهم[5]. وهذا النصُّ يؤكد بوضوح عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل المقطعين بل كانت هذه الملكية بيد الفلاحين[6] ، والأهالي[7] مقابل دفع ضريبة سنوية للحكومة ، والمقطعين[8] ، وقد كان لهذا الإجراء الذي اتخذه زنكي بمنع المقطعين من «التملك» نتائج إيجابية.

إنَّ اقتناء الأملاك من قبل هؤلاء يؤدي إلى أضرار عديدة قد تلحق بالأهالي وبمصلحة الإمارة على حدٍّ سواء ، أولها ما يجر إليه المقطعين من ظلمٍ للرعية ، واعتداءٍ عليهم ، واغتصابٍ لأملاكهم ، ذلك: أنَّ الأمير في حالة كهذه سيستخدم ما يمتلكه من نفوذ وسلطة للضغط على أصحاب الملك ببيعه ملكهم بأقل ثمن ، وربما دفعتهم إلى التنازل عنه بالقوة[9]، وقد أدرك ابن الأثير مدى عدالة زنكي في هذه الخطوة فعلق عليها قائلاً: فما أحسن هذا الخلق . أي: خلق زنكي . وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم. ولا خلاف في أنَّ عمارة البلاد من ثمرات العدل ، وكف الأيدي المتطاولة إلى أهلها[10].

وفضلاً عن ذلك ، فإنَّ من نتائج اقتناء المقطعين للأملاك تجمع الثروة بأيدي طبقة محدودة من الأمراء ، واحتكار هذه الطبقة لموارد الرزق ، بينما تبقى أكثرية السكان في فقر مدقع.

---

(1) عماد الدين زنكي ص 221.

(2) الباهر ص 54 عماد الدين زنكي.

(3) عماد الدين زنكي ص 221.

(4) الباهر ص 35 . 36 ، 37.

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 222.

(6) زبدة حلب (283/2 . 284) عماد الدين زنكي ص 223.

(7) مفرج الكروب (74/1 . 75).

(8) الباهر ص 79 زبدة حلب(280/2).

(9) عماد الدين زنكي ص 22.

(10) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 223.

هذا إلى أن اقتناء الأمراء للأملاك والعناية بها قد يؤدي بهم إلى عدم توجيه جهودهم لكل ما يتعلق بالجندية ، والدفاع، وهي الأمور التي أُقطعوا الأراضي والأعمال من أجلها[1].

ويستدل من بعض الروايات: أنَّه لم يكن يشترط في المقطع البقاء في إقطاعه خاصة إذا كان من أصحاب الوظائف العالية التي تقتضي ملازمته لزنكي، وكان المقطع في هذه الحالة ينيب عنه من يقوم بإدارة إقطاعيته ، كما حدث بالنسبة لجمال الدين محمد بن أيوب الياغسياني ، أمير حاجب زنكي ، الذي أقطع عدة مدن ، فأناب في كلٍّ منها من يعتمد عليه في إدارة شؤونها[2] كحماة التي أناب فيها ابنه شهاب الدين أحمد[3]، وحصن الخربة التي أناب فيه عيسى الحاجب[4] ، وكذلك بالنسبة لزين الدين علي كجك بن بكتكين قائد زنكي في الموصل ، الذي أقطع أربل ، وعقر الحمدية وأعمالها ، ومن المرجح: أنَّه أناب عنه فيهما من يدير شؤونهما بدليل عدم مغادرته الموصل إلى إقطاعه في أربل إلاَّ عام 563هـ[5].

وتشير الروايات إلى أنَّ نور الدين محمود بن زنكي أدخل نظام التوريث في الإقطاع ، إذ كان: من آرائه الحسنة ما كان يعتمده في أمر أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحدهم ، وخلف ولداً ذكراً؛ أقرَّ الإقطاع عليه. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند في الحروب بين يديه[6].

وقد رجح الدكتور عماد الدين خليل أن زنكي سبق ابنه في إدخال هذا النظام؛ إذ هنالك سابقة من عهده تُشير إلى هذا الاتجاه الجديد في نظام الإقطاع ، وذلك عندما قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملَّكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكاً لهم ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ، ويراوحونهم ، وأخذوا كثيراً من السواد[7]، وسدُّوا ذلك الثغر العظيم.

ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة 600هـ. ولا شك: أنَّ زنكي ، أدرك ، كما أدرك ولده من بعده مدى النتائج الإيجابية التي يمكن أن يؤدي إليها نظام التوريث هذا ، وأهمها إخلاص جنده له ، واستماتتهم في القضاء على ما يهدد إمارته من أخطار لما في ذلك من مصلحة لهم ولأولادهم الذين سيرثون إقطاعهم من بعدهم[8].

3 . نظام الإعداد القيادي (الأتابكية): وهي كلمة مشتقة من الكلمة التركية أتابك المركبة من المقطعين (أتا) بمعنى: أب و«بك» بمعنى أمير ، وتعني «الوالد الأمير» وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى تربية أبناء الملوك والسلاطين ، ويرعى شؤونهم .

وكان الأتابك: هو الحاكم الأعلى في الأتابكية ، وكان يلقب بالملك أيضاً ، وله الإشراف على جميع شؤون المملكة ، أو الأتابكية ، كما أنَّه يُعَدُ المسؤول الأوَّل عن السياسة الخارجية ، ومن حقه أن يعلن الحرب ، ويقود الجيوش ، ويعين

---

(1) عماد الدين زنكي ص 223.

(2) المصدر نفسه ص 223.

(3) ذيل تاريخ دمشق ص 258 ، الاعتبار ص 97 . 98.

(4) الاعتبار ص 78.

(5) الباهر ص 78 ، الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 224.

(6) مفرج الكروب (280/1).

(7) المنطقة الزراعية المحيطة بحلب ، عماد الدين زنكي ص 225.

(8) كتاب الروضتين (111/1 . 112).

الولاة والقوَّاد ، فهو لذلك أشبه بالسلطان السلجوقي ، كما أن له الحق في نقش اسمه على السكة ، والدعاء له في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة والسلطان[1].

وقد عُرف عماد الدين زنكي بلقب (الأتابك) مُنذ تعينه حاكماً على الموصل عام 521هـ ، واشتهرت الإمارة التي أسسها باسم(أتابكية الموصل) والسلالة التي أعقبته في الحكم باسم الأتابكة ، وقد بدأت تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام 521هـ عندما ولاه السلطان محمود الموصل ، وسلمه ولديه: ألب أرسلان ، وفرُّوخ شاه (المعروف بالخفاجي) وجعله أتابكاً لهما[2]، وقد ترتبت على «أتابكية زنكي» نتائج عديدة ، فقد كان عليه من الناحية الرسمية أن يحكم باسم ألب أرسلان أكبر الأميرين ، وأن يخطب له ، ولذلك أظهر للخلفاء والسلاطين وأصحاب الأطراف: أنَّ البلاد التي يحكمها إنما هي للملك ألب أرسلان[3]، وأنَّه نائب فيها: فكان إذا أرسل رسولاً ، أو أجاب على رسالة ، فإنما يقول: قال الملك: كذا[4] وكذا ، وكان هذا الإجراء من قبل زنكي لا يعدو أن يكون شكلياً؛ إذ أن السلطة الفعلية كانت متركزة في يده ، ولم يكن لأحدٍ من ابني السلطان محمود أية سلطة عملية ، بل كانا أشبه بالمحتجزين؛ إذ فرَّق زنكي بينهما ، فجعل أحدهما في أحد معاقل سنجار ، والآخر تحت إشراف زوجته في الموصل[5].

وقد استهدف من الخطبة لألب أرسلان إلقاء الصفة الرسمية «الشرعية» على سياسته، وأعماله مستغلاً اسم الملك السلجوقي ، كما عمل زنكي على استغلال وجود هذين الملكين السلجوقيين ، فقام بمحاولات ثلاث(525هـ 529هـ) لتنصيب ألب أرسلان على عرش سلاجقة العراق ، بالاتفاق مع الخليفة العباسي ضدَّ السلطان السلجوقي في أصفهان ، وقد استهدف من وراء ذلك جعل السلطة الفعلية لسلاجقة العراق بيده باسم السلطان الشرعي المنصب ، ولكن هذه المحاولات انتهت جميعاً بالفشل[6].

أ ـ محاولة انقلابية في الموصل: قامت مؤامرة ضدَّ عماد الدين زنكي تزعَّمها الملك الخفاجي عام 539هـ أثناء غياب زنكي عن الموصل؛ إذ اتفق الخفاجي وأنصاره على اغتيال نصير الدين جقر نائب زنكي في الموصل ، ومن ثم السيطرة على المدينة ، وإعلان العصيان ضد زنكي ، ففي صباح الثامن ، أو التاسع من ذي القعدة عام 539هـ ركب جقر في موكبه كعادته ، واخترق شوارع المدينة متجهاً إلى الدار التي يقيم فيها الملك الخفاجي للتسليم عليه[7]، فحسَّن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إنَّك إن قتلته؛ ملكت الموصل ، وغيرها ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك فوقع هذا في نفسه وظنَّه صحيحاً ، فلما دخل نصير الدين إليه كعادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك ، فقتلوه ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنَّاً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرَّقوا ، ويملك الملك البلاد ، وكان الأمر

---

(1) دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ص 236.

(2) وفيات الأعيان(315/1 ـ 316) عماد الدين زنكي ص 226.

(3) عماد الدين زنكي ص 227.

(4) الباهر ص 71 عماد الدين زنكي ص227.

(5) عماد الدين زنكي ص 227.

(6) المصدر نفسه ص 227.

(7) المصدر نفسه ص 227.

بخلاف ما ظنُّوا ، فإن أصحابه ، وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدَّار مع الملك ، واجتمع معهم الخلق الكثير ، وكانت دولة عماد الدين مملوءة بالرِّجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة ، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيءٌ[1].

ب ـ دور العلماء في تثبيت عماد الدين: كان عماد الدين زنكي منشغلاً بمحاصرة البيرة سنة 539هـ وكانت هذه المدينة قد أوشكت على السقوط في يد عماد زنكي ، فورد إليه نبأ مقتل نائبه في الموصل نصير الدين جقر ، فانزعج كثيراً ، واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيرة ، وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر ، وهو القاضي تاج الدين بن يحيى بن الشهرزوري كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيرة ، فلمَّا وصل تاج الدين إلى الموصل؛ علم: أن الملك السلجوقي ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر؛ ليملك الموصل في غياب عماد الدين عنها[2]، ولذلك قام القاضي تاج الدين بن الشهرزوري بخدعة كي يفسد على الملك السلجوقي زعيم الانقلاب بالموصل مخططه ، فدخل في الدار التي كان يحاصره فيها أصحاب جقر ، وأصحاب عماد الدين زنكي ، وظل يخادعه بمعسول الكلام ، ويحسن له ما فعله مع جقر ، ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ، ويكون في مأمن ، حيث يوجد بها الأموال ، والسلاح ، فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل ، فاقتنع الملك السلجوقي بن محمود ، وخرج في صحبة القاضي تاج الدين ، وصعدا معاً إلى القلعة ، وهناك قبض عليه وعلى من معه من أتباعه الذين قتلوا نصير الدين جقر ، وبعد ذلك توجه القاضي تاج الدين إلى عماد الدين زنكي وبلَّغه بكل ما فعله ، فسكن جأشه ، واطمأن قلبه[3].

وممَّا تقدم يتضح لنا مدى ما بلغه القاضي تاج الدين من الفطنة ، وحسن التصرف ، مثل باقي أقاربه من بيت الشهرزوري الذين امتلأت بهم دولة عماد الدين زنكي[4] وعيَّن عماد الدين زنكي قائده زين الدين علي كجك ليحلَّ محل جقر نائب الموصل المقتول ، ثم ذهب هو بنفسه بعد ذلك لإقرار الأوضاع هناك[5].

ج ـ سياسة عماد الدين مع الملك الاخر ألب أرسلان: أبدى زنكي ، بعد مقتل الخفاجي ، عطفه على الملك الاخر ألب أرسلان ، فألغى احتجازه في أحد معاقل سنجار وعطف عليه وعني بتفاصيل أمره ، وعين له حرَّاساً وموظفين لخدمته ، واهتمَّ بمراسيم جلوسه وركوبه ، وطالب رجاله بالاهتمام بأمره ، واحترامه ، وتلبية مطالبه ، وقد استهدف من هذه الإجراءات تغطية الملك الخفاجي[6] ، كي لا يثير السلاجقة ضده ومحاولة منه لاستغلال ألب أرسلان لتحقيق أمله في المستقبل ، وذلك بالمطالبة بتوليته سلطنة العراق. بعد وفاة عمِّه السلطان مسعود ، ليصبح زنكي المتحكم الفعلي باسم السلطان الجديد[7].

---

(1) كتاب الروضتين.

(2) دور الفقهاء العلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 113.

(3) الباهر ص 72 دور الفقهاء والعلماء ص 113.

(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 114.

(5) عماد الدين زنكي ص 229.

(6) عماد الدين زنكي ص 229.

(7) المصدر نفسه ص 230.

المبحث الثالث : علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

تسلَّم عماد الدين زنكي الموصل من الأمير جاولي ، وأقطعه الرحبة وأعمالها [1]، ثم انصرف إلى تنظيم شؤون إمارته إدارياً ، وعسكرياً مستنداً في ذلك إلى ما كان سائداً عند السلاجقة من نظم الحكم ، فولَّى نصير الدين جقر قلعة الموصل ، وفوَّض إليه أمر الولاية جميعها ، وعيَّن الياغسياني أمير حاجب ، والقاضي الشهرزوري قاضي بلاده ، وما يفتحه من بلاده[2] ، ثم انصرف إلى العمل على تحقيق هدفين وضعهما نصب عينيه ، هما:

. تأسيس دولة وراثية وتوسيعها عن طريق ضم المدن والإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام ، وتوحيدها مع إمارة الموصل.

. تكوين جبهة إسلامية متماسكة تستطيع مواجهة الصليبيين ، وتطردهم من الشرق الإسلامي ، فدخل من أجل ذلك في علاقات سياسية عسكرية مع الأمراء المحليين.

ويبدو: أنَّه لم يتمكن من المضي قُدُماً في تحقيق هدفيه في بادئ الأمر بسبب انغماسه في أحداث العراق ، ممَّا صرفه عن ميدان بلاد الشام؛ إذ شهد هذا البلد آنذاك صراعاً بين الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية من أجل الاستئثار بالنفوذ وقد تدخل فيه عماد الدين زنكي، وانتهى بانتصار واضح لصالحه وتحديد مستقبله السياسي[3]

أولاً: محاولة عزل عماد الدين زنكي عن الموصل:

تراوحت علاقة عماد الدين بالخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية بين التعاون المثمرة والعداء الشديد وفقاً للمصلحة العامة والشخصية في الوقت نفسه ، على أنَّ هذه التقلبات لم تؤثر على مركزه في ولاية الموصل ، والجزيرة ، وبلاد الشام ، فقد تعرَّض في بداية حكمه لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه ، وإحلال دُبَيس بن صدقة أمير الحلة مكانه ، ذلك: أنَّ هذا الرجل كان قد التحق بخدمة السلطان سنجر ، سلطان السلاجقة العظام في خراسان ، وأضحى من أمرائه المقربين ، وحدث أن وجَّه محمود سلطان سلاجقة العراق إلى خراسان لتصفية المشاكل القديمة مع عمِّه سنجر[4] ، وأثناء المباحثات التي جرت بينهما طلب سنجر من ابن أخيه محمود:

. أن يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل ، والجزيرة ، وبلاد الشام ، ويوليها لدُبَيس.

. وأن يطلب من الخليفة تحسين علاقاته به بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة[5].

ويبدو: أنَّ محموداً استجاب لطلب عمه ، فعندما وصل إلى بغداد في مطلع عام 523هـ/(اخر عام 1128م) سعى لدى الخليفة المسترشد بالله لتحقيق ذلك ، كما طلب من عماد الدين زنكي التخلي عن منصبه ، وتسليمه لدُبَيس[6].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 88.

(2) الباهر ص 34.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 89.

(4) أخبار الدولة السلجوقية للحسيني ص 88 . 90.

(5) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم(10/8 . 9).

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 89.

كان هذا الطلب كافياً للقضاء على آمال عماد الدين زنكي ، وتطلعاته السياسية ، لذلك تحرك على وجه السرعة لإحباط هذا التدبير ، فقدم إلى بغداد ، وتمكَّن بعد مباحثات طويلة من إقناع السلطان بضرورة إبقائه على ولاية الموصل لمجابهة الصليبيين ، كما أكَّد طاعته ، وإخلاصه له ، فخلع عليه ، وجدَّد له ولايته ، وكتب له منشوراً جديداً بحكم الموصل ، والجزيرة ، والشام تأكيداً لمنشور عام 521هـ[1] وقد ساعدت عماد الدين زنكي مجموعة من العوامل على بقائه في منصبه ، منها ما بذله الخليفة من جهود لتثبيت زنكي على الموصل بدافع من كراهيته العميقة لدُبَيس؛ حتى إنَّه أرسل إلى السلطان محمود يقول له: إنَّ دبيساً أعان الفرنجة ضد المسلمين؛ فكيف توليه[2]؟! وكان دبيس قد انضم إلى الصليبيين . وهو من الطائفة الشيعية الاثني عشرية . بعد هزيمة 517هـ وأسهم معهم في حصار حلب طمعاً بالاستيلاء عليها وحكمها نيابة عنهم.

لم يكن أهالي بغداد أقل كراهية لدبيس وحقداً عليه من الخليفة نفسه؛ حتى إنهم تظاهروا ضدَّه لدى دخوله العاصمة ، وراحوا يندِّدون به ، ويهتفون بالتأييد والدعاء للخليفة والسلطان[3] بسبب محاولات دُبَيس المتكررة لنهب بغداد ، وتخريبها[4]. فضلاً عن مساعدته للصليبيين[5].

ولم يكن في صالح السلطان محمود نفسه عزل زنكي عن الموصل وهو الذي وقف إلى جانبه في الظروف الحرجة ، ولعلَّه لم يقم بمحاولة العزل . أساساً. إلا تحت ضغط عمِّه سنجر صاحب السلطة العليا على السلاجقة ، هذا فضلاً عن أن تعيين دبيساً في الموصل قد يتيح لسنجر أن يتَّخذ منه صنيعة ضدَّ مصالح السلطان محمود في العراق[6].

ثانياً: صراع البيت السلجوقي على السلطنة بعد وفاة السلطان محمود:

اطمأنَّ زنكي إلى ولايته طيلة الأعوام الأخيرة من حكم السلطان محمود ، وعندما توفي هذا في منتصف عام 525هـ أرسل زنكي إلى الخليفة المسترشد يطلب منه أن يقيم الخطبة ببغداد للملك السلجوقي ألب أرسلان . وهو أحد الملكين اللذين أنيطت بزنكي مهمة الإشراف على تربيتهما ، إلاَّ أن الخليفة اعتذر عن ذلك محتجاً[7]:

1 . بصغر سن ألب أرسلان وبعدم صلاحيته للحكم.

2 . بأنَّ السلطان كان قد عهد بالسلطنة من بعده وهو بأصفهان إلى ابنه داود.

3 . بأنَّ حكام الولايات قد بدؤوا فعلاً بإقامة الخطبة له ، وأضاف بأنه لن يقدم على اتخاذ أيِّ إجراء بهذا الصدد قبل أن تصله رسالة من السلطان سنجر زعيم السلاجقة الكبار في خراسان[8].

---

[1] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب(40/1).
[2] زبدة حلب(244/2) عماد الدين زنكي ص 50.
[3] زبدة حلب(221/2 . 225).
[4] المنتظم(11/10).
[5] عماد الدين زنكي ص 51.
[6] المصدر نفسه ص 51.
[7] المصدر نفسه ص 51.
[8] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 91.

وهكذا فوّت الخليفة فرصة ذهبية على عماد الدين زنكي للاستفادة من وفاة السلطان محمود ، الذي لو نجح في اغتنامها؛ لأتاحت له مجالات جديدة في العمل السياسي ، ودفعته إلى الخروج عن الولاء للسلاجقة بتنصيب أحد أمرائهم المقيم تحت إشرافه في الموصل سلطاناً على سلاجقة العراق ، فيصبح بذلك المتحكم الفعلي في شؤون العراق باسم السلطان الجديد[1].

وفي العام التالي استطاع السلطان مسعود بن محمد ـ حاكم أذربيجان ـ استمالة زنكي لمساعدته في المطالبة بعرش سلاجقة العراق لقاء منحه مدينة أربل الحصينة شرقي الموصل ، وتم الاتفاق بينهم على أن يتجها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المسترشد بالخطبة لمسعود ، والاعتراف به سلطاناً على العراق[2] ، إلاَّ أنَّ سلجوق شاه بن محمد ـ أخا مسعود الذي كان يطمح هو الاخر بعرش السلاجقة في العراق سبق أخاه إلى بغداد ، وطالب الخليفة بالخطبة له فامتنع الأخير عن تنفيذ طلبه ، ولما سمع سلجوق شاه باقتراب زنكي على رأس قواته الموالية لمسعود؛ أمر قائده (قراجا الساقي) بالإسراع في التوجه شمالاً لإيقاف تقدمه ، فوصل إلى مشارف سامراء بأقل من يومين ، ودارت المعركة بين الطرفين عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء ، وانتهت بهزيمة زنكي ، وأسر عدد كبير من قواته ،فلجأ بمن معه من فلول إلى تكريت[3] حيث أسرع واليها نجم الدين أيوب بإقامة المعابر لهم ، وإكرام ضيافتهم لحين عودتهم إلى الموصل[4] ، وهناك استطاع زنكي أن يعيد تنظيم قواته ، بعد أن أنفق عليها أموالاً كثيرة ، وجهزه بالمؤن والمعدات[5].

ثالثاً: موقف السلطان سنجر من الأحداث:

كان السلطان سنجر يراقب تطورات الأحداث السياسية في العراق ، بهدف انتهاز فرصة للتدخل والهيمنة على مقدَّرات الأمور، وإخضاع سلاجقة العراق لإشرافه المباشر، وحتى يدعم موقفه؛ رأى أن يستقطب كلاً من عماد الدين زنكي، ودُبَيس بن صدقة ، فطلب منهما التوجه إلى بغداد ، والاستيلاء عليها ، وإقامة الخطبة فيها له ولخليفته الملك طغرل بن محمد بن محمود ، وتعهد بإضافة شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكي ، وبإقطاع الحلة لدُبَيس[6] فوافق عماد الدين زنكي على هذا العرض لاعتقاده بأنَّ النصر سيكون حليف سنجر ، وبذا يستطيع أن يحقق مزيداً من مطامعه. أدرك كلٌّ من مسعود وسلجوقشاه: أنَّ الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر، ويقضي على مصالحهما في العراق ، فعقدا صلحاً بينهما ، ووحّدا قواتهما للوقوف في وجهه ، لكن سنجر انتصر على جيوشهما ، وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلاجقة العراق في شهر جمادى الاخرة عام 526هـ/ شهر نيسان عام 1132م[7].

---

(1) عماد الدين زنكي ص 52.
(2) مفرج الكروب (97/1) عماد الدين زنكي ص 52.
(3) المنتظم (25/10) الباهر ص 43.
(4) الباهر ص 119 ـ 120 عماد الدين زنكي ص 52.
(5) الباهر ص 43 عماد الدين زنكي ص 52.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 93.
(7) المصدر نفسه ص 92.

في هذه الأثناء كان عماد الدين زنكي ، ودُبَيس قد اقتربا من بغداد ، واشتبكا مع قوات الخليفة في «أواخر شهر رجب/ شهر أيار» وحلّت بهما الهزيمة ، فتراجع عماد الدين زنكي إلى الموصل ، وقام دُبَيس بمحاولة فاشلة لاستعادة الحلة[1] ، واستطاع مسعود ، بعد سلسلة من الحروب ، أن يقضي على منافسيه ويجلس على عرش سلاجقة العراق بموافقة سنجر في شهر صفر عام 527هـ/ شهر كانون الأول 1132م.

. نتائج تلك الحروب: كان للحروب التي حدثت بين السلاجقة فيما بينهم من جهة ، ثم فيما بينهم وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى ، واشتراك عماد الدين زنكي فيها نتائج هامة على وضعه السياسي والعسكري ، منها:

1 . أنَّه خسر علاقته الودية بالسلطنة السلجوقية التي استفاد منها في أيام السلطان محمود ، إلاَّ أنَّه حصل على مدينة إربل المهمة عسكرياً.

2 . اتسعت شهرته كأمير ذي قوة مؤثّرة في الصراع الدائر في المنطقة.

3 . خرج من تلك الحروب وقد تعرَّف على عائلة بني أيوب ، مما سيكون له أثر كبير في تطور هذه العائلة ، وازدياد نشاطها.

4 . تدهورت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية[2].

رابعاً: محاصرة الموصل:

أرسل المسترشد بالله إلى عماد الدين الإمام أبا الفتوح الإسفراييني ، فأغلظ له في القول ، فأهانه عماد الدين ، وعاد إلى المسترشد بالله ، فسار إلى الموصل بثلاثين ألفاً سنة 527هـ[3] ، وحاصرها في 20 رمضان فنزل بالموصل نائبه نصير الدين ، وسار هو إلى سنجار ليقطع المسيرة عن عسكر الخليفة ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر ، وعاد الخليفة إلى بغداد يوم عرفة ، وسبب هذا الحصار سير عماد الدين زنكي السابق إلى بغداد ، واختلاف سلاطين السلاجقة ، وإهانة زنكي لرسول الخليفة[4].

لم يتمكن جيش الخليفة من اقتحام الموصل ، وكان عماد الدين في غضون ذلك يشن الهجمات عليه؛ حتى أضحى محاصراً ، فتناقصت أقواته ، وساء وضعه القتالي[5]. وعلى الرغم من هذا الموقف الصعب الذي وجد الخليفة فيه نفسه إلاَّ أن عماد الدين زنكي لم يتمكن من النيل منه ، وكان تراجع الخليفة العسكري الذي حصل بعد ذلك نتيجة لعوامل خارجية؛ إذ استغل السلطان مسعود فرصة انهماك الخليفة بحصار الموصل فتوجه إلى بغداد لتعزيز مركزه فيها ، واستغاث بدُبَيس بن صدقة للاستيلاء عليها[6]. تلقى الخليفة هذه الأنباء المقلقة؛ وهو يحاصر الموصل ، ففكَّ الحصار عنها ،

---

(1) الباهر ص 45 ، 46 ، تاريخ الزنكيين في الموصل ص 93.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 93.

(3) زبدة حلب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 75.

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية ص 75.

(5) الكامل في التاريخ (696/8).

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 94.

وعاد إلى بغداد؛ ليدافع عن عاصمته ، فوصل إليها في العاشر من شهر ذي الحجة[1]. وبذلك تخلّص عماد الدين زنكي من الخطر الذي كاد أن يقضي على آله[2].

خامساً: التوتر بين عماد الدين والسلطان مسعود:

أجرى الخليفة المسترشد بالله العباسي مفاوضات ناجحة مع عماد الدين زنكي ، وعُقد الصلح بين الجانبين في مطلع عام 528هـ أواخر عام 1133م وتُبودِلت الهدايا ، وأرسل عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي إلى الخليفة؛ ليؤكد طاعته وولاءه له[3] ، واستنجد الخليفة بزنكي عام 529هـ أثناء صراعه مع السلطان مسعود ، وكان عماد الدين زنكي آنذاك يحاصر دمشق ، ففك الحصار عنها ، وعقد صلحاً مع حكومتها حتى لا يُطعن من الخلف ، وعاد مسرعاً إلى بغداد لنجدة الخليفة ، إلاَّ أنَّه وصل متأخراً؛ إذ انتصر السلطان مسعود على الخليفة المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في العاشر من رمضان ووقع في الأسر ، وظل مأسوراً حتى منتصف ذي القعدة ، حين هاجمه جماعة من الباطنية ، وقتلوه[4].

وقد فصَّلت في سيرة المسترشد بالله العباسي في كتابي عن دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني ، والغزو الصليبي. هذا وقد أخذت البيعة بعد مقتل المسترشد بالله لابنه أبي جعفر منصور الملقب بالراشد بالله (529هـ 530هـ) بموافقة السلطان مسعود[5]، وهكذا ضاعت فرصة أخرى من يد عماد الدين زنكي للسيطرة على العراق[6]، ونتيجة لهذه التطورات السياسية ازداد التوتر بين عماد الدين زنكي والسلطان ، وقد بلغ حداً دفع الثاني إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الأول حتى يتخلَّص من خطره بشكلٍ نهائيٍّ ، فاستدعاه إلى أصفهان ، لكن دُبَيساً أخبره بنواياه ، وحذَّره من التوجه إلى بلاطه ، فامتنع عن الذهاب ، ولما علم السلطان بما فعله دُبيس؛ قتله على الفور[7].

وكان عماد الدين زنكي قد أحسن لصدقة ، فعندما وقع في يدي تاج الملوك حاكم دمشق طلب عماد الدين من أمير دمشق أن يسلمه دُبيساً وإن امتنع عن تسليمه سار إلى دمشق ، وحاصرها ، وخرَّبها ، ونهب بلدها ، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك ، وأرسل عماد الدين سونج بن تاج الملوك والأمراء الذين معه ، وأرسل تاج الملوك دُبيساً ، فأيقن دُبيس بالهلاك ففعل زنكي معه خلاف ما ظن ، وأحسن إليه ، وحمل له الأقوات ، والسلاح ، والدواب ، وسائر أمتعة الخزائن ، وقدمه على نفسه ، وفعل معه ما يفعل مع أكابر الملوك[8].

ولما سمع عماد الدين زنكي بمقتل دبيس بن صدقة قال: فديناه بالمال ، وفدانا بالروح[9] ، وذكر ابن كثير بأنه فداه بخمسين ألف دينار ، وما لبثت العلاقات أن تدهورت بين الخليفة الجديد ، وبين السلطان مسعود واجتمع لدى الراشد

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 94.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 94.
(3) المنتظم (34/10) الباهر ص 47 . 48.
(4) عماد الدين زنكي ص 57.
(5) المصدر نفسه ص 57 تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 95.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 95.
(7) المنتظم(53/10) تاريخ الزنكيين ص 95.
(8) الكامل في التاريخ(680/8).
(9) واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين ص 17.

عدد من الأمراء المناهضين للسلطان ، وجندوا له العمل على إسقاطه ، والمجيء بسلطان جديد يرتضونه[1]. وفي مستهل صفر عام 530هـ وصل زنكي بغداد قادماً من الشام بعد أن استدعاه الراشد ، واتفق معه على إعلان الخطبة لألب أرسلان المقيم في الموصل[2] ، وانضم إلى الأمراء الذين كانوا قد حرَّضوا الخليفة على إعلان العصيان ضد السلطان مسعود[3]. ووجد الخليفة: أنَّ الفرصة قد سنحت للبدء بالعمل ، فألغى الخطبة لمسعود ، وحوَّلها لداود بن محمود ، خلافاً لما تمَّ الاتفاق عليه مع زنكي[4].

وقام السلطان الجديد بتعيين شحنة له في العراق ، ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى دبَّت الخلافات بين الراشد وسائر الأمراء بسبب المنافسات والأحقاد القديمة[5] ، واتفق المتحالفون على توجيه ضربتهم للسلطان مسعود في بلاد فارس نفسها ، إلاَّ أنَّهم ما أن قطعوا مسافة قصيرة حتى ورد خبر بتوجه مسعود على رأس قواته صوب بغداد ، فارتأوا أن يعودوا إليها لاتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة لصد الهجوم[6] ، وما لبث السلطان مسعود أن فرض الحصار على بغداد ، وجرت مناوشات ، ومعارك جانبية بين الطرفين لم تستقرَّ عن نتيجة حاسمة وسعى الخليفة إلى إحلال الصلح ، وإنهاء الخلاف ، ولكن دون جدوى.

وأخذت الأوضاع داخل بغداد تزداد سوءاً يوماً بعد يوم[7] ، ونجح السلطان مسعود في دخول بغداد ، وخلعه عن سدة الخلافة ، وولَّى المقتفي لأمر الله مكانه في شهر ذي الحجة عام 530هـ أيلول عام 1136م[8] ، وغادر الراشد بغداد متوجهاً إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكي ، والجدير بالذكر: أنَّ الخطبة للمقتفي اقتصرت على بعض أنحاء العراق بينما استمرت مناطق الموصل ، والجزيرة ، وبلاد الشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية عماد الدين زنكي[9].

سادساً: مصالحة عماد الدين زنكي للسلطان مسعود:

لم يدم التحالف طويلاً بين عماد الدين زنكي والراشد ، فقد شعر كلٌّ منهما بضعف موقفه أمام موقف السلطان ، والخليفة الجديد ؛ لذلك أسرعا بإرسال الرسل للتوسط لديهما ، وإنهاء حالة الحرب[10] ، وأضحى عماد الدين زنكي ـ على الرغم من ضعف موقفه ـ القوة التي تتطلع إليها الأطراف المتنازعة لاستقطابها ، وهكذا كانت استمالة أعوان المقتفي إلى جانبهم ، وكافأه الخليفة ، بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد في ألقابه[11] ، واضطر تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية إلى التخلي عن حليفه الراشد.

---

[1] عماد الدين زنكي ص 58.
[2] النجوم الزاهرة(358/5) عماد الدين زنكي ص 58.
[3] المنتظم (55/10) عماد الدين زنكي ص 58.
[4] مفرج الكروب (64/1) عماد الدين زنكي ص 58.
[5] عماد الدين زنكي ص 59.
[6] المنتظم (57/10) مفرج الكروب (65/1).
[7] عماد الدين زنكي ص 60.
[8] مفرج الكروب (65/1 ، 66) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 95.
[9] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 96.
[10] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 96.
[11] الباهر نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 96.

كانت التقلبات السياسية السريعة بعماد الدين زنكي تهدف إلى ضمان استمرار حكمه ، وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في الموصل ، والجزيرة ، والشام لتكوين جبهة إسلامية موحّدة تقف في وجه الصليبيين[1] ، وكان من الطبيعي أن تتحسن العلاقات بينه وبين السلطان مسعود الذي أرسل إليه في شهر ربيع الأول عام 532هـ/ شهر تشرين الثاني عام 1137م التشريف الكامل ، والخلع[2].

وأدرك عماد الدين زنكي خطورة الأوضاع في شمال الشام بفعل تهديد الصليبيين لمدينة حلب ؛ التي كانت تعاني من الفوضى في ظلِّ الصراع على السلطة بعد وفاة حاكمها إيلغازي الأرتقي في شهر رمضان عام 516هـ/1122م ، فأرسل قاضيه الشهرزوري ليشرح للسلطان هذا الوضع ، ويطلب منه مساعدة عسكرية لإبعاد الصليبيين عن المنطقة[3] ونجح الشهرزوري في مهمته ، وتمكَّن من إقناع السلطان بإمداده بقوة عسكرية إلاَّ أنَّ رسالة عاجلة وصلت إلى بغداد من عماد الدين زنكي ، أفادت بأن الصليبيين رحلوا عن حلب ، وأنه لم يعد بحاجة إلى المدد العسكري ، وتدليلاً على العلاقات الجيدة بين السلطنة السلجوقية ، والدولة الزنكية ، فقد أرسل السلطان مسعود رسالة تهنئة إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب حمص بمناسبة انتصاره على الصليبيين ، وخلع عليه الخلع السلطانية ، إلاَّ أنَّ هذه العلاقات تبدَّلت في عام 538هـ/ 1143م حين حاول السلطان مسعود الذي خشي من طموحات عماد الدين زنكي ، واتساع رقعة إمارته ، وتنامي قوته العسكرية ، توجيه ضربة حاسمة ، معتقداً بأنه وراء القلاقل التي كان يقوم بها أمراء الأطراف ضد حكمه في العراق ، وأن هؤلاء لا يلتزمون بسياسته ، والراجح: أنَّ عماد الدين زنكي هدف إلى إلهاء السلطان لمنعه من مضايقته ، وبذلك يستطيع وهو مطمئن أن يوطد نفوذه في الموصل ويوسع رقعة أملاكه على حساب الأمراء المسلمين المجاورين ، ويحارب الصليبيين[4]. ولما علم بنوايا السلطان؛ أرسل إليه يستعطفه ، ويستميله ، وفعلاً جرت مفاوضات بين الطرفين أدَّت إلى إعادة الوفاق بينهما ، وكان من أهم بنود الصلح أن:

. يدفع عماد الدين للسلطان مبلغ مئة ألف دينار.

. يتنازل له عن بعض إقطاعاته.

. يحضر شخصياً إلى بلاطه لإعلان الطاعة[5].

. والواضح أن تراجع السلطان عن موقفه العدائي تجاهه يعود إلى أمرين:

الأول: أنَّه أدرك خطورة الوضع في الجزيرة، وشمالي الشام؛ حيث غدا الصليبيون يشكلون خطراً مباشراً على المنطقة ، وأن عماد الدين زنكي هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تقف في وجههم ، وترغمهم على التراجع.

---

[1] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 96.

[2] المصدر نفسه ص 96.

[3] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 96.

[4] تاريخ الزنكيين ص 97.

[5] المنتظم (108/10) الباهر ص 65.

الثاني: أنَّه جُوبه بمعارضة شديدة من رجال دولته ومواطنيه من أجل إبقاء إمارة الموصل كحاجز قوي متماسك أمام أطماع الصليبيين ، وقد أوضحت هذه المعارضة أن عماد الدين زنكي هو الأمير الوحيد في المنطقة الجدير بالتصدي لتلك الأطماع ، وأنَّ القضاء عليه يعني فتح الطريق أمام الصليبيين في العراق[1].

بعد إقرار الصلح أرسل عماد الدين زنكي عشرين ألف دينار كدفعة أولى تنفيذاً للبند الأول من الاتفاق ، ثم تنازل السلطان عن المبلغ المتبقي بهدف استقطابه ، وكسب وده؛ حتى لا ينضم إلى أمراء الأطراف الذين خرجوا عن حكمه، كما تغاضى عن تنفيذ البند الخاص بحضوره إلى البلاط السلجوقي ، وعذره بسبب انهماكه في جهاد الصليبيين إلاّ أنَّه اشترط عليه فتح الرُّها[2].وقامت علاقات عماد الدين زنكي مع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله على الودِّ ، والتعاطف ، واستمرت الصلات المتبادلة بينهما ، وازدادت هذه العلاقات وثوقاً بعد أن فتح عماد الدين زنكي الرُّها في عام (539هـ/1144م) حيث منحه عدداً من الألقاب ، كالأمير الكبير ، العادل ، المؤيد ، المظفر ، المنصور[3].

وهكذا يتضح: أنَّ عماد الدين زنكي اتبع سياسة مستقلة إلى حد كبير ، تجاه علاقته بكلٍّ من الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي ، وأضحى يشكل قوة مؤثرة ضاغطة في الأحداث التي شهدها العراق مستغلاً علاقات الخلافة المتقلبة بالسلطنة السلجوقية لتحسين وضعه السياسي ، غير أنَّ هذه السياسة لم تؤدِّ إلى استقرار وضعه بل على العكس هدَّدت حكمه بين الفينة والفينة ، ولولا نجاحه في مقاومة الصليبيين ، وإقامة إمارة حاجزة في الموصل بينهم وبين العراق؛ لكان من المحتمل أن تتعرَّض إمارته لخضات سياسية شديدة وخطيرة ربما أودت بجهوده في بناء دولة[4].

المبحث الرابع : توسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 98.

(2) الباهر ص 65 تاريخ الزنكيين في الموصل ص 98.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 98.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 98.

521هـ 541هـ/ 1127 . 1146م

بدأ عماد الدين زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم المدن التي حوله والقريبة منه بسبب ضعفها، وتفرقها، وضيق مساحتها ، وكان ولاة الموصل الذين سبقوه قد عجزوا عن اكتساحها ، وبالتالي عن تحويل السلطة الرسمية التي منحهم السلاجقة إياها بحكم الموصل ، والجزيرة ، وشمالي الشام إلى سلطة فعلية ، ولذلك سعى زنكي للقضاء على هذه المواقع المستقلة؛ كي تغدو سلطته في هذه المناطق أمراً واقعاً. كانت البوازيج . الواقعة على طريق الموصل عند مصب الزاب الأسفل . أولى المواقع التي استولى عليها زنكي وذلك لدى توجهه إلى الموصل عام 521هـ لتولي مهام منصبه ، مستهدفاً من وراء ذلك اتخاذها خط رجعة له لحماية ظهره في حالة تصدي وصي حاكم الموصل لزحفه ، ثم استمرَّ في سيره نحو الموصل ، وعندما وصل جاولي نبأ تقدمه على رأس قوات حاشدة ، يحمل معه منشور السلطان بحكم الموصل؛ أدرك أنْ ليس في طاقته التصدي له ، واثر السلامة ، فخرج لاستقباله ، يصحبه أمراء الموصل وقادتها ، وما أن التقى به حتى ترجَّل ، وقبَّل الأرض بين يديه ، وأعلن طاعته له ، فأقطعه زنكي مدينة الرحبة ، وأعمالها ، وسيره إليها[1].

أولاً: جزيرة ابن عمر 521هـ:

بعد أن رتب عماد الدين زنكي أوضاعه في الموصل ، أراد الانتقال إلى جزيرة ابن عمر ، وسار بقواته إليها ، وبمجرد وصوله إلى مشارفها علم أعيانها وسكانها بقدومه ، فخافوا منه ، وامتنعوا عن استقباله ، وأغلقوا أبواب المدينة في وجهه ، فضرب عماد الدين حصاره حولها ، وبدأ بمراسلة أعيان المدينة ، ومماليك البرسقي ، وحاول إقناعهم بالمهادنة، وبذل لهم الوعود الكثيرة إن سلموا المدينة ، غير أنَّهم امتنعوا عن موافقته ، وعند ذلك قرَّر عماد الدين قتالهم ، وإخضاع المدينة عنوة. وكان مجرى دجلة يفصل بين جيش عماد الدين والمدينة فأمر قواته بعبور النهر إلى المدينة ، فمنهم من عبر بالسفن ، وبعضهم بالأكلاك[2].

ولما تكاثر جيش عماد الدين وشدَّد حصاره على المدينة؛ كان السكان قد خرجوا إلى منطقة بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة ، وكانوا بخروجهم يحاولون منع جيش عماد الدين من إكمال عبوره ، ولكن عساكر عماد الدين تمكنوا من العبور ، وشددوا الحصار على المدينة ، وجرت مناوشات بين مماليك البرسقي ، والمهاجمين ، ظهر فيها التباين بين القوتين ، ولم يمض وقت طويل حتى انهزم جماعة البرسقي. ولما رأى أهالي الجزيرة أن ميزان المعركة ليس في صالحهم؛ ضعفوا ، وأيقنوا أن على المدينة أن تستسلم أفضل من دخولها عنوة. فبعثوا إلى عماد الدين ، يطلبون منه الأمان فاستجاب لطلبهم ، واستلم المدينة[3]، ولعله بدأ بمهاجمة هذا الموقع قبل غيره من المدن والقلاع بسبب قربه من الموصل وأهميته العسكرية والاقتصادية[4].

ثانياً: حلب522هـ:

---

(1) عماد الدين زنكي ص 69 ، 70.

(2) تاريخ جزيرة ابن عمر ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 121.

(4) عماد الدين زنكي ص 71.

تُعَدُّ حلب ذات أهمية بالغة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجاهة الصليبيين بفضل ما تتمتَّع به من حصانة عسكرية ، ومركز متميز ، وإمكانات اقتصادية وبشرية وسياسية هامة، وبالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة ، وبين الشام واسيا الصغرى من جهة أخرى ، ثم بين إمارتين صليبيتين هما: الرُّها ، وأنطاكية ، وغدت . مُنذ عهد طويل . قاعدة لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة ، والفرات ، والأناضول ، وشمالي بلاد الشام، وأواسطه ، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد ، وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين ، لذلك كان ضمها من قبل أيِّ قائد إسلامي بمثابة فتح الطريق أمامه لتبوء مركز القيادة في حركة الجهاد[1].

وساعدت الظروف السياسية التي كانت تمر بها إمارة حلب التي وجدت نفسها في حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البُرسقي في عام(521هـ/1127م) وتعدُّد المطالبين بالسلطة ، وتنازعهم ، فقد استأثر «قتلغ أبه» نائب الأتابك ، بإدارة شؤونها[2] ، في الوقت الذي طمع فيه جوسلين الثاني أمير الرُّها وبوهيمند الثاني أمير أنطاكية لاتخاذها قاعدة لمد نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي. وشنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها رافقها تدهور حاد في أوضاعها الاقتصادية ، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[3] ، مما دفع هؤلاء إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي ، وقد تزعم الثورة ضد «قتلغ أبه» الذي اتصف بالتعسف[4].

ويبدو: أن سليمان لم يتمكن من وضع حدٍّ لتدهور الأوضاع على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين الثاني تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب[5] ، لكن يقظة عماد الدين زنكي أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم ، وقد سعى إلى ضم حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل، والجزيرة، وبلاد الشام، ومهَّد لخطواته هذه بإرسال الرسل إليها حتى يشرحوا لسكانها أحقيته في تولي أمورها ، كما أرسل حاجبه الياغسياني لتنظيم أمورها الإدارية، وتمهيد الطريق له لدخولها، ثم غادر الموصل في طريقه إليها، وضمَّ في طريقه بزاعة[6] ، ومنبج ، ولما وصل إلى مشارف المدينة في شهر جمادى الاخرة عام 522هـ شهر حزيران عام 1128م خرج سكانها لاستقباله املين ببداية عهد جديد من الأمن ، والاستقرار بعدما سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم ، فدخل القلعة وبدأ بتنظيم أمورها ، وأقطع أعمالها لأمرائه وأجناده[7] وحتى يثبت أقدامه في حلب ويقطع الطريق على المفسدين ضايق عماد الدين زنكي زعماء المدينة المعارضين لحكمه ، وذوي المصالح القديمة فيها ، فقضى على بعضهم ، وفرَّ

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 100.

(3) الباهر ص 34 ، 37 . 38.

(4) زبدة حلب (431/1) تاريخ الزنكيين ص 101.

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 101.

(6) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب.

(7) الحروب الصليبية د. سهيل زكار(678/2).

البعض الاخر من وجهه ، فقتل «قتلغ أبه» وفرَّ إبراهيم بن رضوان بن تتش إلى نصيبين وغادر سليمان بن عبد الجبار إلى المدينة ، والتجأ فضائل بن بديع رئيس حلب السابق إلى قلعة جعبر القريبة من حلب[1].

وبذلك تحققَّت الوحدة بين الموصل وحلب ، مرة أخرى ، وحصل عماد الدين زنكي على موقع هام ، وأمن جانب المعارضة ، وتهيَّأت له الفرصة للتدخل في الأوضاع السياسية لبلاد الشام ، لتوحيد صفوف المسلمين ، ومجابهة أخطار الصليبيين ، كما أدَّى ذلك إلى عزل إمارة الرُّها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب[2].

ثالثاً: سنجار ، والخابور ، وحرَّان ، وإربل ، والرقَّة:

1 . سنجار والخابور:

لم يتعرض زنكي . حين توجه إلى حلب . للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل؛ إذ كانت الظروف تستدعي منه أن يضع يده على حلب أولاً ، ثم ينطلق لفرض سيطرته على المواقع الأخرى من أجل تأمين الطريق إلى الشام. وما إنْ أقرَّ الأوضاع في المدينة المذكورة حتى اتَّجه في أواخر عام 522 هـ للاستيلاء على سنجار ، والمناطق المجاورة[3]، وفرض الحصار عليها ، إلا أن أهاليها امتنعوا عليه ، وحين لم يروا من مقاومتهم جدوى إزاء إصرار زنكي على اقتحام المدينة ، اضطروا إلى مصالحته ، وتسليم سنجار إليه[4]. ثم ما لبث أن أرسل من هناك بعض قواته إلى الخابور[5]؛ حيث تمكنت من الاستيلاء عليه[6]. وكانت سنجار تقع وسط الطريق بين الموصل وحلب ، وتشكل منطلقاً للسيطرة على المناطق الأخرى[7] ، ولذا فقد حقق زنكي باستيلائه عليها نصراً هاماً[8].

2 . ضمُّ حرَّان:

كانت حرَّان تابعة لعز الدين مسعود بن البُرسُقي ، وكانت قد تعرضت بعد وفاته لتهديدات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المواقع القريبة منها كالرُّها ، وسروج ، فاستدعى أهلها عماد الدين زنكي في عام 523هـ/1129م؛ إذ انتهت المشكلة بوفاة «سوتكين»[9].

3 . ضمُّ إربل:

أدرك عماد الدين زنكي أهمية إربل العسكرية بالنسبة للموصل؛ إذ هي بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق ، ونقطة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً صوب الشام ، وعندما أتيحت له فرصة مهاجمتها لم يتردَّد رغم كونها من ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان أذربيجان ، فهاجمها عام 526 هـ ، وشدد النكير عليها ، إلا أن حاميتها استطاعت أن تصمد لحين تقدُّم السلطان مسعود لنجدتها ، فاضطر زنكي إلى الانسحاب ، ثم رأى مسعود

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 101

(2) المصدر نفسه ص 101.

(3) عماد الدين زنكي ص 74.

(4) الباهر ص 37 الكامل في التاريخ (661/8).

(5) عماد الدين زنكي ص 74.

(6) الباهر ص 37 الكامل في التاريخ (661/8).

(7) عماد الدين زنكي ص 74.

(8) المصدر نفسه ص 74.

(9) مفرج الكروب (84/1) تاريخ الزنكيين ص 102.

أن يضحي بهذا الموقع؛ كي يكسب زنكي إلى جانبه في صراعه ضدَّ منافسيه من أجل الحصول على عرش سلاجقة العراق ، فوافق الأخير على اتفاق كهذا يتيح له ضم موقع هام إلى إمارته قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقاً ، وبعد أن أخذ كلٌّ من الحليفين العهود من صاحبه؛ تسلم زنكي إربل ، وعيَّن فيها نائباً عنه[1].

4 . ضمُّ الرَّقة[2]:

مرَّ عماد الدين زنكي بالرقة في عام 529 هـ/1135 م ، وهو في طريقه إلى دمشق ، في محاولة لضمِّها ، فرأى أن يضمها إلى أملاكه ، فانتهز هذه الفرصة ، ونفَّذ خدعة ذكية ، فأعلن رغبته بالاستحمام في حمام البلد ، فقام حاجبه الياغسياني بتدبير هذا الأمر ، واتفق مع مسيِّب بن مالك صاحب الرقة ، الذي لم يشك في نوايا عماد الدين زنكي ورجاله ، على السماح للجيش بدخول المدينة ، وما إن أصبح اخر جندي داخل السور حتى أمر عماد الدين زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة ، فأبعد المسيِّب ، وأقطعها أحد أمرائه[3].

5 . ضمُّ دقوقا[4] وشهرزور[5]:

ضمَّ عماد الدين زنكي دقوقا في عام 531 هـ/1137 م عنوةً[6] ، ودخل بعد ثلاث سنوات قلعة شهرزور ، الواقعة وسط سهل واسع يمتد من إربل إلى همذان ويقطنه الأكراد[7]، وقد ارتبط هذا الضمُّ بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بين الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركماني حاكم شهرزور ، وبين السلطان السلجوقي مسعود ، فخشي عماد الدين زنكي أن يتنازل الأمير التركماني عن بعض أملاكه للسلطان ، ومنها شهرزور ، فيغدو مجاوراً لإمارة الموصل ، فيشكل عندئذ خطراً جدِّياً عليه[8].

6 . التوسع باتجاه الجنوب:

توسع عماد الدين زنكي بين عامي (536 هـ 538 هـ/1141 م . 1143 م) في الجنوب الغربي ، فضمَّ الحديثة الواقعة على الفرات[9] ، وعانة القريبة منها[10] ، وفي عام 541 هـ/1146 م كان قد بلغ درجة من القوة مما دفعه إلى ضمِّ قلعة جعبر المطلة على الفرات عملاً بخطته القاضية؛ بألاَّ يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره[11]. وكانت هذه القلعة تحت حكم العقيليين ، فهاجمها على حين غرَّة وحاصرها ، وتوغلت قواته في ربضها ، واستمرَّ القتال حتى اليوم

---

(1) مفرج الكروب (97/1) عماد الدين زنكي ص 76.

(2) مدينة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة.

(3) زبدة حلب (450/2) تاريخ الزنكيين ص 76.

(4) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد الحموي (459/8).

(5) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.

(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 103.

(7) معجم البلدان.

(8) الباهر ص 57 . 58 تاريخ الزنكيين ص 104.

(9) تقع على جزيرة وسط الفرات وهي غير حديثة الموصل.

(10) عانة: بلد مشهور ، بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة.

(11) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 104.

الخامس من شهر ربيع الاخر ، حيث اغتيل عماد الدين زنكي ، فساد الاضطراب صفوف جيشه ، فاضطر أفراده إلى فك الحصار[1] ، مما سنبحثه مفصلاً بإذن الله تعالى.

رابعاً: علاقة عماد الدين زنكي بالأكراد:

1 . بنو أيوب حكام تكريت 526 هـ 541 هـ:

تعتبر علاقة عماد الدين زنكي بالبيت الأيوبي الكردي متميزة ، وبدأت هذه العلاقة في الثاني عشر من ربيع الاخر عام 526 هـ عندما انهزم زنكي في أعقاب المعركة التي دارت بينه . كحليف للسلطان مسعود . وبين قوات المِلِكَيْن: طغرل ، وداود المنافسين للسلطان المذكور[2] ، وانسحب بفلول جيشه نحو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين أيوب[3] ، فأقام هذه المعابر على دجلة ، وجهّز عدداً من السفن لنقل قواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت ، وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده ، وداوى جراحهم ، وقدَّم إليهم سائر ما يحتاجون إليه ، وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وإكرام[4]. وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعاً اعترافاً منه بفضله وحسن ضيافته[5]. وعندما بُلِّغَ بهرور . شحنة بغداد . موقف نائبه في تكريت من زنكي؛ بعث إليه رسولاً ليعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق ، وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه[6]، وازداد حرج بهرور لدى قيام أسد الدين شيركوه بقتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء ، واضطرّ إلى إصدار أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت ، وجميع أفراد عائلته ، ولم يكن باستطاعة بهرور معاقبة أسد الدين شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه[7].

وفي هذه الفترة الحرجة من أواخر عام 532 هـ ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب ، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان ذلك في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور[8] ، ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام ، ولم ينس زنكي الإحسان ، فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال ، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة[9]، وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته[10]، والإشراف على تربية أبنائه[11] ، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضدَّ الصليبيين[12] ، وظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية عماد

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 104.
(2) عماد الدين زنكي ص 76.
(3) عماد الدين زنكي ص 76.
(4) المصدر نفسه ص 77.
(5) كتاب الروضتين (537/2).
(6) وفيات الأعيان (142/6) عماد الدين زنكي ص 77.
(7) الباهر ص 119 عماد الدين زنكي ص 77.
(8) وفيات الأعيان (143/6 . 144) عماد الدين زنكي ص 77.
(9) كتاب الروضتين (538/2).
(10) الباهر ص 119 عماد الدين زنكي ص 77.
(11) عماد الدين زنكي ص 77.
(12) كتاب الروضتين (538/2) عماد الدين زنكي ص 77.

الدين زنكي ، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم. وعندما استولى على بعلبك عام 534 هـ عيَّن نجم الدين أيوب والياً عليها ، وأقطعه ثلثها[1] ، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية[2] ، وظل يمارس مهام عمله كوالٍ لزنكي حتى مقتل الأخير عام 541 هـ ، وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده ، وبدت عليه سمات النجابة والذكاء ، والتمعتْ عيناه ببريق القوة[3].

وهكذا قُدِّرَ لعماد الدين زنكي أن يلعب دوراً هاماً في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية ، والعسكرية ، والإدارية ، وأن يمهِّد لها الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود[4].

2 . الأكراد الحميدية:

بدأ عماد الدين زنكي يَضمُّ مناطق الأكراد الحميدية بسبب قرب حصونهم من الموصل. وكان الحميديُّون يقومون في كثير من الأحيان بمهاجمة قرى ومزارع الموصل الشرقية ، ونهب فلاَّحيها ، مما سبَّب قلقاً وخوفاً لفلاَّحي الموصل ، وعندما أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل ، أقرَّ الأمير عيسى الحميدي على ولايته ، ولم يتعرضه بشيء مما في يده[5].

إلا أنَّ الأمير المذكور سرعان ما خرج على طاعة زنكي لدى حصار الخليفة المسترشد الموصل عام 527 هـ ، حيث انضم إليه بجيوشه ، وأمده بالقوات ، وحشد له عدداً كبيراً من الأكراد ، وما إن فشل الحصار وانسحب المسترشد عائداً إلى بغداد حتى بدأ زنكي هجومه على قلاع الحميدية ، فحاصرها ، وقاتلها قتالاً شديداً ، حتى إنه حمل بنفسه على حامية العقر ، وصعد في جبلها المرتفع إلى سورها فوصلت طعنته إليه[6] ، ثم ما لبث أن استولى عليها عام 527 هـ منهياً بذلك أسباب القلق والخوف التي كانت تسببها هجمات الحميديين على فلاحي الموصل[7] ، الأمر الذي أدى ـ ولا ريب ـ إلى عودة ازدهار الحياة الزراعية ، والتجارية في المنطقة[8]. ونتيجة لضمِّ قلاع الحميدية حقق عماد الدين زنكي هدفين:

الأول:

أمَّن المركز العسكري المسيطر على أمن الموصل بفعل ما كانت تشغله الإمارة الحميدية من موقع هام.

الثاني:

حصل على موطئٍ قد مهَّد الطريق أمامه للتوغل في بلاد الأكراد الجبلية[9].

3 . الأكراد الهكارية:

---

(1) الكامل في التاريخ (750/8) عماد الدين زنكي ص 78.

(2) عماد الدين زنكي ص 78.

(3) عماد الدين زنكي ص 78.

(4) المصدر نفسه ص 78.

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في ص 105.

(6) مفرج الكروب (55/1) عماد الدين زنكي ص 105.

(7) الباهر ص 48 ، عماد الدين زنكي ص 105.

(8) عماد الدين زنكي ص 105.

(9) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 106.

أدرك أبو الهيجاء الهكاري ، صاحب قلعة اشب ، مدى قوة عماد الدين زنكي ، وخطورة النصر الذي حققه على وضع الأكراد بعامة ، فاستعطفه بمبلغ من المال ، وتوسل إليه ألا يتعرض له ، ثم ما لبث أن قَدِمَ إلى الموصل لإعلان ولائه[1].

والجدير بالذكر: أنَّ طائفة من الأكراد الهكارية تقطن في المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال في نهر الخابور الذي يصبُّ في أعالي دجلة ، وكانت قلعة اشب مركزهم الرئيسي ، وتنتشر حولها عدَّة قرىً زراعية ترتبط بها وتؤمِّن لها التموين الغذائي. واستمرت العلاقات الجيدة بين عماد الدين زنكي وبين الهكاريين حتى عام (537 هـ/1142 م) إذ توفي في ذلك العام أبو الهيجاء ، فدبت الفوضى في إمارته بسبب النزاعات الأسرية ، وبرز في هذه الصراعات «باو ألا رجي» ، نائب أبي الهيجاء في حكم الإمارة الذي ساند الطفل علي بن الهيجاء ليهيمن من خلاله على شؤون الإمارة ، ويحكم باسمه في حين ساند عماد الدين زنكي أخاه أحمد[2].

ونجح عماد الدين زنكي في ضمِّ قلعة اشب بعد أن هزم باو وأنصاره ، ثم غادر المنطقة عائداً إلى الموصل بعد أن ترك فيها نائبه «نصر الدين جقر» ليتم ما بدأه بضمِّ منازل الهكارية ، فاجتاح هذا القائد القلاع المتبقية ، وسيطر على المنطقة[3] ، واستطاع عماد الدين زنكي بهذه الانتصارات أن ينهي أعمال الفوضى والفساد في المنطقة ، فحلَّ الأمن في ربوعها ، وعاد نفعه قبل كل أحدٍ على الأكراد أنفسهم ، الذين تخلصوا من المنازعات الداخلية على ما يظهر ، واتجهوا إلى الإنتاج ، ثم ما لبث عماد الدين زنكي أن أصدر أوامره ببناء قلعة العمادية ـ نسبة إلى اسمه[4] ـ على أطلال حصن قديم كان الأكراد قد خرَّبوه لعجزهم عن الدفاع عنه[5] ، ويبدو: أن زنكي أراد اتخاذ هذه القلعة قاعدة عسكرية للدفاع ، والتموين في حالات التمرد التي قد يقوم بها الأكراد ضد ممتلكاته هناك ، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة[6].

4 ـ الأكراد المهرانية:

بدأ عماد الدين زنكي هجماته على الأكراد المهرانية في عام 537 هـ/1142 م ، والجدير بالذكر: أنَّ هذه الفئة تَقْطُنُ عدداً من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن عمر ، وأهمها كواشي الواقعة في جبال الجودي ، شرقي نهر دجلة ، والزعفراني ، والشعباء وغيرها[7].

والواقع: أنَّ ضمَّ المنطقة الخاصة بالمهرانية يُعَدُّ خطوة متممة لضمِّ المنطقة الخاصة بالهكارية بفعل تجاورهما ، فبعد أن انتهى عماد الدين زنكي من ضمِّ المنطقة الثانية انتقل إلى ضمِّ المنطقة الأولى. واستطاع أن يفرض سيطرته على عدَّة

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 106.

(2) الباهر ص 64 عماد الدين زنكي ص 106.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 107.

(4) الباهر ص 64 عماد الدين زنكي ص 109.

(5) عماد الدين زنكي ص 109.

(6) المصدر نفسه ص 110.

(7) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 107 نقلاً عن الكامل في التاريخ.

قلاع ، منها المذكورة أعلاه ، وألقت هذه الانتصارات السريعة الرُّعب في قلوب حاميات القلاع الأخرى المجاورة ؛ مما دفعها إلى طلب الأمان ، وخضعت لحكم عماد الدين زنكي[1].

5 ـ الأكراد البشنوية:

التفت عماد الدين بعد ذلك إلى مناطق الأكراد البشنوية في بلاد الزوزان الواقعة في الأرض الممتدة من جبال أرمينية شمالاً ، حتى الموصل جنوباً ومن أذربيجان شرقاً ، حتى إقليم ديار بكر غرباً[2]، وكان أمراء البشنوية قد أنشؤوا عدداً من الحصون لعلَّ أهمها حصن فنك المطل على نهر دجلة ، واتخذوه مركزاً رئيسياً لهم نظراً لما يتمتَّع به من حصانة طبيعية ، ومتانةٍ ، وكان أميرهم آنذاك حسام الدين البشنوي قد اشترك مع عدد من الأمراء الأكراد القاطنين شمالي الموصل في إثارة الفتن ، والاضطرابات ضد إمارة عماد الدين زنكي ، فهاجمها هذا الأخير وأخضعها لسلطانه ، باستثناء حصن فنك الذي أوكل مهمة إخضاعه إلى قائده زين الدين علي كجك في حين توجه هو لحصار قلعة جعبر، وفرض كجك الحصار على الحصن ، وصادف أن اغتيل عماد الدين زنكي أثناء حصار قلعة جَعْبَر ، فاضطر كجك إلى فك الحصار ، والانسحاب إلى الموصل[3].

تلك هي الجماعات الكردية التي هاجم زنكي مواقعها ، واستطاع أن يضع يده على معظم ممتلكاتها ، وقواعدها المهمة، ويخضعها لسيطرته في أقل من عقد ونصف ، بفضل قدرته العسكرية ، وخططه السياسية البارعة؛ التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة وسط فئات لا تدين له بالولاء ، وقد تمكّن بذلك من تأمين إحدى الجهات الهامة لإمارته بعد أن كانت تشكل نقاط خطر عليه ، وأن يجعلها تستند إلى خطوط دفاعية يصعب اختراقها ، تحقيقاً لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه حول إمارته عندما قال يوماً: إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول[4].

خامساً: عماد الدين والإمارات المحلية في ديار بكر:

كان هدف زنكي ، بعد أن تمَّ له الاستيلاء على حلب ، واتخاذها قاعدة في بلاد الشام ، والسيطرة على المناطق الممتدة بينها وبين الموصل ، والتي كان يحكمها أمراء مستقلون ، عملاً بخطته القاضية: بألا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره حزماً منه واحتياطاً. ذلك: أنَّه كان يستهدف ـ كما ذكرنا ـ إنشاء إمارة موحدة قوية ، تمكِّنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضدَّ الصليبيين. وكان عليه ـ لتحقيق هذا الهدف ـ اكتساح عدد من الإمارات المحلية في منطقة ديار بكر ، والتي كانت تشكل خطراً على مواصلاته مع الشام ، سيما في حالات صدامه مع الصليبيين[5].

أ ـ ضمُّ نصيبين:

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 107.

(2) المصدر نفسه ص 107.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 108.

(4) مفرج الكروب (103/1) عماد الدين زنكي ص 116.

(5) عماد الدين زنكي ص 85.

بدأ عماد الدين زنكي حركته التوسعيّة الهادفة إلى توحيد الإمارات الإسلامية بالهجوم على نصيبين التابعة لإمارة ماردين ، وقد اختارها؛ أولاً بفعل كونها أقرب المواقع إلى الجهات التابعة لحكمه ، فضرب عليها حصاراً مركزاً ، فاستنجد حاكمها حسام الدين تمرتاش بداود بن لقمان صاحب حصن كيفا لصدِّه ، وإرغامه على فك الحصار عنها، فوعده بالمساعدة[1] ، كما بعث إلى أهاليها وحاميتها رسالة مستعجلة على جناح طائر يحثهم فيها على الصمود ريثما تصلهم النجدة الأرتقية خلال فترة لا تتجاوز الخمسة أيام ، إلاَّ أن الرسالة وقعت بيد زنكي واطَّلع على ما فيها ، ورأى أن ينتهز الفرصة لتدبير حيلة قد تساعده على تحقيق هدفه ، فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهل نصيبين بدلاً من الرسالة الأولى ، جاء فيها: «من حسام الدين تمرتاش ، إنني قد قصدت ابن عمي داود ، وقد وعدني بالنجدة والمسير بالجيوش ، وسوف لن يتأخر قدومه إلينا بأكثر من عشرين يوماً ، لذا أطلب منكم الثبات طيلة هذه المدَّة»[2] وبعث الرسالة على جناح الطائر نفسه ، ولم يشك النصيبيُّون لحظة واحدة بأنها وردت إليهم من أميرهم الأرتقي. فخافوا على نفوسهم ، وأيقنوا أنهم يعجزون عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة ، لذا أرسلوا إلى زنكي ، وصالحوه ، وسلَّموا مدينتهم إليه ، فبطل على حسام الدين وداود ما كانا قد عزما عليه[3] ، وبفتح نصيبين انفسح الطريق أمام زنكي لتحقيق أهدافه ضدَّ إمارات ديار بكر؛ إذ اتخذ من هذا الموقع قاعدة عسكرية في المنطقة للهجوم على المواقع المجاورة[4].

ب . معركة دارا:

مهَّد ضمُّ نصيبين الطريق أمام عماد الدين زنكي لتحقيق أهدافه في ديار بكر بعد أن تأكَّد من عجز الحكَّام المحليين عن مواجهته؛ إذ غدا هذا الموقع قاعدة انطلاق للانتشار في المنطقة.

ومن جهتهم أدرك أمراء هذا الإقليم مدى خطورة توسع عماد الدين زنكي على أملاكهم ، فتداعوا في عام (524 هـ/1130 م) إلى عقد حلف للوقوف في وجهه ، اشترك فيه الأميران الأرتقيان: حسام الدين تمرتاش ، وابن عمه ركن الدولة داود ، وانضمَّ سعد الدولة أبو منصور إيكلدي صاحب امد إلى الحلف ، بالإضافة إلى عدد كبير من أمراء التركمان الموالين لداود[5]، ولما سمع عماد الدين زنكي بحشود الأمراء؛ قرر مباغتة القوم قبل أن يتهيؤوا للقتال ، فانطلق على رأس أربعة الاف مقاتل ، والتقى بهم بالقرب من دارا[6] التابعة لتمرتاش ، وانتصر عليهم. كانت النتيجة الفورية للمعركة سيطرة عماد الدين زنكي على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجي[7] ودارا[8] ، وحتى يعرقل توغله في المنطقة ، قرر داود مهاجمة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل ، ممَّا دفع عماد الدين زنكي إلى ترك ديار بكر ، والتوجه إليه لإيقافه

---

(1) التاريخ الباهر ص 36.

(2) المصدر نفسه ص 36 . 37 عماد الدين زنكي ص 86.

(3) عماد الدين زنكي ص 87.

(4) عماد الدين زنكي ص 87.

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 110.

(6) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين.

(7) سرجي أو سرجة: حصن بين نصيبين ودُنسير ودارا.

(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 111.

عند حده ، لكنه لم يتمكَّن من التوغل بعيداً بسبب وعورة المسالك ، وانتشار التركمان في المنطقة، فاكتفى باستقطاب السكان في الجهات التي بلغها ، ثم قفل عائداً[1].

ج ـ أساليب سياسية من عماد الدين زنكي لإحداث انشقاق ، وتنافر في صفوف الأراتقة:

أدرك زنكي إثر هذه الأحداث مدى الخطر الذي يشكِّله التحالف بين أمراء ديار بكر ضدَّ مطامحه في المنطقة ، فرأى أن يلجأ إلى الأساليب السياسية علَّها تتيح له إحداث انشقاق ، وتنافر في صفوف أولئك الأمراء كي يسهل عليه ـ بعد ذلك ـ اقتطاع أراضيهم ، وممتلكاتهم. واعتقد: أنَّ خير ما يبدأ به خططه السياسية هو إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء ، والاستعانة به ضد الاخرين ، وكان من الصعب عليه تحقيق هذا التحالف مع غريمه اللدود ركن الدولة، لما كان يتميَّز به هذا من حقدٍ ، ورغبة بإنزال الضربات بعدوه ، وتحيُّن الفرص للانقضاض على ممتلكاته[2].

كما أنَّ زنكي لم يشأ أن يتخذ من صاحب امد حليفاً له لضعف إمكانياته ، وعدم قدرته على تقديم مساعدات مجدية في حالة نشوب قتال بين أمير الموصل والأراتقة ، ولم يبق أمامه إذاً سوى حسام الدين تمرتاش الذي كان أكثر مرونة من ابن عمه داود ، لذا أخذ يتقرَّب إليه ، وأوقف مهاجمته لممتلكاته ، وسرعان ما أحسَّ الأمير الأرتقي اتجاه زنكي الودَّ منه ، ورأى: أنَّ التضحية بابن عمه داود لا بد منها في سبيل كسب حليفه الجديد ، وائتمان جانبه ، والسعي ـ عن طريق هذا التحالف ـ للحصول على مزيد من المكاسب في المنطقة[3].

أ ـ مهاجمة حصن آمد:

شهد عام 528 هـ لقاء ودياً بين الحليفين ، انطلقا بعده مباشرة لمهاجمة الحصن المنيع امد ، وفرضا الحصار عليه ، فأرسل صاحبه سعد الدولة إيكلدي (503 هـ/536 هـ) يستنجد بداود الأرتقي ، وسرعان ما جمع هذا جيوشه ومتطوعيه من التركمان ، واتَّجه لفك الحصار عن امد ، وهناك عند أسوار هذا الحصن حدث اللقاء بين الطرفين في أواخر جمادى الاخرة من ذلك العام ، وانتهى القتال بهزيمة داود ، وأسر ولده ، ومقتل عدد من جنده ، بينما استمر حصار زنكي وحليفه لهدفهما المنيع ، وكي يلقيا الفزع ، واليأس في نفوس أصحابه قاما بتخريب واسع النطاق في البساتين ، والمزارع المجاورة ، إلا أنَّ امد صمدت ، وأقنعت المهاجمين بعدم جدوى البقاء طويلاً ، ورضي زنكي من صاحبها ـ لقاء فك الحصار ـ بتقديم مقدار من المال[4]. ثم اتجه الحليفان بعد ذلك إلى قلعة الصَّوْر[5] القريبة، وهي من ممتلكات داود، ويحكمها ابنه قرا أرسلان، فحاصراها، وأرغماها على الاستسلام، وأهداها عماد الدين زنكي لحليفه تقديراً لمساعداته، وتأكيداً لتحالفهما[6].

ب ـ اتساع شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود:

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 111.

(2) مفرج الكروب (52/1).

(3) عماد الدين زنكي ص 88.

(4) زبدة حلب (253/2) عماد الدين زنكي ص 89.

(5) الصَّوْر: قلع حصينة عجيبة على رأس جبل قرب ماردين بين الجبال من أعمال ماردين.

(6) الاعتبار لابن منقذ ص 199 ـ 201 تاريخ الزنكيين ص 112.

نتيجة لهذا الانقسام في الصف الأرتقي اتسعت شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود ، وبدت في الأفق السياسي بوادر نزاع مسلح بينهما في الوقت الذي ازداد فيه التحالف بين تمرتاش ، وعماد الدين زنكي متانة وصلابة. وقام الحليفان بشنّ هجوم مشترك على جبل جور[1] والسيوان في عام (530 هـ) وتمكّنا من ضمِّهما ، ومنحهما زنكي لحليفه تماشياً مع خطته في تقوية التحالف معه[2]، وأدت هذه الانتصارات السريعة إلى إلقاء الرعب في روع قرا أرسلان بن داود ، الذي أدرك: أنه أمام عدو صلب قوي وبالتالي عدم جدوى المقاومة ، فغادر المنطقة إلى قاعدة أبيه في حصن كيفا تاركاً مناطق ولايته لقمة سائغة في يد عماد الدين زنكي ، وحاول تمرتاش الإفادة من تحالفه مع عماد الدين زنكي في توسيع رقعة إمارته بضم بعض المواقع القريبة ، وتمكّن في عام (530 هـ/1136 م) من ضم قلعة الهتّاخ[3] ، وهي آخر الحصون المروانية في ديار بكر[4].

ج ـ تعرُّض التحالف الزنكي الأرتقي إلى الاهتزاز:

تعرَّض التحالف الزنكي ـ الأرتقي إلى الاهتزاز في عام (533 هـ/1138 م) ، وبدا في الأفق السياسي ما يشير إلى فتور في العلاقات بين الحليفين ، ويبدو: أنَّ مرد ذلك يعود إلى:

ـ التجاء الأمير أبي بكر نائب عماد الدين زنكي في نصيبين إلى حسام الدين تمرتاش بعد ما خرج عليه ، فرفض الأخير تسليمه إلى عماد الدين زنكي رغم إلحاحه ، وجرت بينهما منازعات طويلة بسبب ذلك ، فاضطر تمرتاش إلى تسليمه إلى السلطان مسعود الذي سلَّمه بدوره إلى عماد الدين زنكي لينال عقابه[5].

د ـ عودة الوئام بين تمرتاش وداود:

أدرك كلٌّ من تمرتاش ، وداود: أنَّ هذا الخلاف الذي اشتد بينهما ، واتسع إلى درجة الحرب ، والتخريب لن يفيد أيّاً منهما ، بقدر ما يعود بالمكاسب على زنكي الذي قد يستغله بشكل دائم لتحقيق مزيد من الانتصارات في المنطقة ، وبالتالي إضعاف قوى الأراتقة جميعاً ، كي يصبحوا بعد ذلك هدفاً سهل المنال ، لذا قام كلٌّ من الأميرين الأرتقيين بتبادل الرسل في مطلع عام 536 هـ ، وأسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهما ، وما لبث داود أن اتجه إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمِّه بعد سنين طويلة من العداء[6].

هـ ـ سعي عماد الدين زنكي في كسب حليف جديد:

لم يغب عن زنكي: أنَّ الصلح الذي تمَّ بين الأراتقة سيكون على حسابه للحد من مطامحه في المنطقة ، فسعى إلى اتخاذ إجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة ، واكتساب حليف جديد ضدَّ منافسيه في المنطقة من جهة أخرى، وقد تمكن ـ في أقل من عام ـ من تحقيق هذين الهدفين ، وذلك بأن أرسل إلى صاحب آمد[7] يتهدده إن استمر زنكي ،

---

[1] جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي إرمينية.

[2] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 112.

[3] الهتاخ: قلعة حصين في ديار بكر قرب ميافارقين.

[4] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 112.

[5] المصدر نفسه ص 113.

[6] عماد الدين زنكي ص 92.

[7] المصدر نفسه ص 92.

واستطاع أن يحصل على مركز قوي في ديار بكر ، وأنْ يستغل هذا المركز لمدِّ نفوذه هناك ، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الحصون الكثيرة المنتشرة في المنطقة ، والتابعة لعدد من الأمراء؛ كي يتسنى له بعد ذلك القيام بخطوته الحاسمة ، وهي الانقضاض لإسقاط حكم بني أرتق الذي يقف عائقاً دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل ، والجزيرة ، وشمالي الشام[1].

و ـ حملة عسكرية واسعة من عماد الدين زنكي:

وشهدت أواخر عام 537 هـ ومطالع العام التالي قيام زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر والتابعة لأمير يدعى يعقوب بن السبع الأحمر؛ الذي لم تشر المصادر ـ بوضوح ـ إلى تاريخه السياسي، وهويته ، وطبيعة علاقاته بأمراء ديار بكر[2]. وقد تمكن زنكي في حملته هذه من الاستيلاء على مدينة طنزة ، والسعرد، والمعدن[3] ، وحيزان[4] ، وحصن الزوق[5] ، وفطليس[6] ، وباتاسا[7] ، وحصن ذي القرنين[8] ، وأنيرون[9]، وقام بترتيب أوضاع هذه المواقع والحصون ، ووضع في كلٍّ منها حامية عسكرية لتدافع عنها ضدَّ هجمات الأعداء[10] وأسرع زنكي ـ بعد إنجازه هذه الانتصارات ـ بالتوجه إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة السرية التي رسمها مع شرف الدين حبشي وزير تمرتاش ، وعَسْكرَ بقواته الكبيرة ، في إحدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمي) أملاً أن يقوم حبشي ، المقيم في ميافارقين ، بفتح الأبواب لدخول قواته ، والسيطرة على المدينة ، والقلعة دون إراقة قطرة من دماء ، إلا أن الخطة اكْتُشِفَتْ ، واتفق رجلان من كبار أعيان البلد ومسؤوليه على اغتيال حبشي ، وإنهاء الخطر المحدق بميافارقين[11] ، فتسللا إلى خيمته ليلاً ، وضرباه بالسيوف ، ثم حملا رأسه إلى تمرتاش في ماردين ، وسرعان ما انتشر نبأ الحادثة ، فاضطرب جيش زنكي ، وعمَّته الفوضى ، واضطر قائده إلى الانسحاب ، حيث إنَّ مقتل حبشي المفاجئ جعل من الصعوبة بمكان الاستيلاء على ميافارقين ، فقفل عائداً إلى نصيبين[12].

وفي مطلع العام التالي (539 هـ) توفي داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ، فخلفه ابنه فخر الدين قرا أرسلان ، ويبدو: أنَّ هذا الأخير لم يكن يتمتع كأبيه بمقدرة سياسية ، أو عسكرية ، فرأى أن خير وسيلة لإيقاف عماد الدين زنكي هي إعادة التحالف القديم بين إمارتي حصن كيفا وماردين ، فقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل ، فصاهر

(1) عماد الدين زنكي ص 93.
(2) المصدر نفسه ص 94.
(3) تقع قريباً من منابع نهر دجلة سميت بذلك بسبب كثرة معدني الحديد والنحاس.
(4) بلد كثير الأشجار والبساتين.
(5) عماد الدين زنكي ص 94.
(6) المصدر نفسه ص 94.
(7) المصدر نفسه ص 94.
(8) المصدر نفسه ص 94.
(9) المصدر نفسه ص 94.
(10) المصدر نفسه ص 94.
(11) المصدر نفسه ص 94.
(12) عماد الدين زنكي ص 95.

تمرتاش[1] ، واستغل عماد الدين ضعف قرا أرسلان ، فتوسع على حسابه ، وضمَّ مناطق واسعة من إمارة الحصن ، وقد أدَّت العمليات العسكرية التي نفَّذها إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش وبخاصة: أنَّه هاجم قلعتي الجور ، والسيوان ، وضمهما إلى أملاكه بعد أن كان قد منحهما لهذا الأخير ، والواقع: أنَّ عماد الدين زنكي لم يأبه لهذا النزاع بعد أن أضحى مركزه قوياً في ديار بكر ، فقرَّر استئناف هجماته على الأملاك الأرتقية ، فاتجه إلى امد في محاولة لضمها ؛ إلا أنَّه انهمك بمهاجمة إمارة الرُّها الصليبية ، فأنقذ تمرتاش من هجوم جديد ضدَّ أملاكه[2].

و . موقف عماد الدين من إمارة أرمينية:

لا بدَّ قبل الانتهاء من سرد وتحليل علاقات زنكي بأمراء أرمينية المتاخمة لذلك الإقليم[3]؛ إذ أرسل في عام 528 هـ يطلب خطبة ابنه سمكان القطبي الذي كانت زوجته قد تولت الوصاية على شؤون الإمارة مُنذ وفاته عام 505 هـ وصادف في الوقت نفسه أن تقدم حسام الدولة بن دلماج أمير بدليس المجاورة يخطب هذه الفتاة لابنه ، الأمر الذي أغضب زنكي أشدَّ الغضب ، واعتبر الموضوع بمثابة تحدٍّ لرغبته ، فتقدم على رأس قواته إلى خلاط ، سالكاً بجنده الطرق الجبلية الوعرة ، غير المسلوكة من أجل أن يبلغ هدفه بأسرع وقت ممكن[4].

فكان الجيش بغير خيام ، وكلُّ جندي في موضعه من الطريق[5]. وعندما وصلوا خلاط ضربوا خيامهم قريباً منها ، واتجه زنكي مع كبار أفراد حاشيته إلى القلعة لكتابة المهر. وما إن أتم ذلك حتى قام بإرسال حاجبه الياغسياني إلى بدليس على رأس قسم من قواته لتأديب صاحبها ، إلا أن هذا استطاع إقناع قائد زنكي بالعودة إلى سيده مقابل مبلغ من المال[6]. وهكذا اعتمد زنكي رابطة الزواج لتعزيز علاقته بإمارة أرمينية وكسب بذلك صديقاً جديداً ، ربما حصل على مساعدته خلال عملياته العسكرية في المناطق القريبة من أرمينية ، أو ضَمِنَ حياده على الأقل ، سيما وأن هذه الإمارة كانت تجاور أعداءه في ديار بكر ، ومناطق الجبال الكردية ، مما كان يحتم إبعادها عن الدخول في الصراع إلى جانب هؤلاء الأعداء.

ولم يحاول زنكي . من جهة أخرى . أن يتوسَّع على حساب هذه الإمارة ، ربما لبعدها عن حدود ممتلكاته ، وعدم تشكيلها خطراً مباشراً عليه ، حيث يفصل بين الطرفين عدد من الإمارات والمواقع المستقلة في أقاليم الجبال ، وديار بكر ، امتصت معظم جهوده خلال صراعه الطويل مع أمرائها ، هذا إلى أن المنشور ، الذي منحه السلطان السلجوقي لزنكي ، نصَّ على توليته الموصل ، والجزيرة ، والشام دون أية إشارة إلى أرمينية ، وفضلاً عن هذا وذاك كان هدف زنكي الرئيسي العمل على توحيد المواقع الإسلامية التي تخدمه في صراعه ضد الصليبيين ، ولم تكن أرمينية ذات غناء كبير في هذا المجال ، وأخيراً لا بدَّ أن نلاحظ بُعْدَ نظر زنكي في سياسته التي استهدفت عدم إضعاف الإمارة المذكورة

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 115.

(2) المصدر نفسه ص 115.

(3) عماد الدين زنكي ص 96.

(4) المصدر نفسه ص 97.

(5) المصدر نفسه ص 97.

(6) المصدر نفسه ص 97.

التي كانت بمثابة حزام واقٍ ضد هجمات الخزر ، والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية من اسيا الصغرى وأرمينية ، أولئك الذين كانوا يشكلون خطراً على المناطق المجاورة[1].

سادساً: عماد الدين زنكي وأمراء دمشق:

1 . ضمُّ حماة:

أدرك عماد الدين زنكي: أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضمَّ دمشق ، والمدن المحيطة بها إلى أملاكه ، وأقام محور الموصل، حلب، دمشق؛ لأن قطع الشام عن الجزيرة كان يجعله محتاجاً إلى البقاع ، وحوران لتموينه بالحبوب ، بالإضافة إلى هدف سياسي يعود إلى وجود مملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب. والواقع: أن ممتلكات المسلمين في بلاد الشام كانت تتوزع آنذاك بين ثلاث قوى:

أ . محور بوري بن طغتكين أتابك دمشق الذي يسيطر على دمشق وحماة في الشمال ، وحوران في الجنوب. والجدير بالذكر: أنَّ آل طغتكين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية من سلاجقة الشام ، وكانت مشكلتا دمشق الرئيستان تتمثلان في تجنُّب قوة الزنكيين في الموصل ، وحلب ، وقوة الصليبيين في بيت المقدس ، والاحتفاظ بالسيطرة على السهلين الزراعيين ، البقاع في الشمال الغربي ، وحوران في الجنوب الشرقي؛ اللذين يؤمِّنان لها القمح والعلف.

ب . محور صمصام الدولة خير خان بن قراجا ، أمير حمص.

ج . محور سلطان بن منقذ ، الأمير العربي الذي يسيطر على شيزر.

وحتى يحقق هذا الهدف كان عليه أن يضمَّ حماة ، وحمص أولاً الواقعتين على الطريق المؤدي إلى دمشق ؛ نظراً لما يمنحه ذلك من قواعد عسكرية هامة ، ومراكز للتموين لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد المدينة الأخيرة ، أو فرض الحصار عليها[2].

ورأى عماد الدين زنكي أن يستعمل الأساليب ، والمناورات السياسية لضمِّ حماة ، وحمص ، ويتجنَّب ما أمكن استعمال القوة ، فأرسل إلى بوري بن طغتكين في دمشق يخبره بنيته في محاربة الصليبيين ، ويلتمس منه المساعدة ، فكتب بوري إلى ابنه سونج في حماة يأمره بالخروج من عسكره لنجدة عماد الدين زنكي ، كما أرسل من دمشق قوة عسكرية مؤلفة من خمسمئة فارس ، لتنضمَّ إلى القوات الإسلامية.

رحب عماد الدين زنكي بقدوم سونج ، وأحسن لقاءه ، لكنه لم يلبث أن قبض عليه ، وعلى عدد من أمرائه ، وقادته ، وأرسلهم إلى حلب ، ثم تقدم مسرعاً إلى حماة ، منتهزاً خلوها من الدفاعات ، ودخلها في شهر شوال عام 524 هـ/شهر أيلول عام 1130 م ، وسلَّمها لحليفه خير خان صاحب حمص الذي كان يرافقه في عملياته[3].

2 . محاولة ضمّ حمص:

---

[1] المصدر نفسه ص 98.

[2] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 116.

[3] زبدة حلب (440/2) تاريخ الزنكيين ص 116.

ويبدو أنَّ هذه الخطوة كانت خدعة من عماد الدين زنكي ليطمئن حليفه قبل أن يضربه ، وفعلاً انقلب عليه بعد ذلك ، فقبض عليه ، وأمره بمراسلة أهل حمص لتسليمه المدينة قبل أن يرسله إلى حلب ، ثم أسرع بمهاجمتها[1]. إلا أن أهالي حمص قاتلوا ببسالة كبيرة ، اضطرت زنكي ـ أخيراً ـ إلى فك الحصار والعودة إلى حلب[2]؛ حيث أرسل من هناك كلاً من خير خان ، وسونج وأمرائه لكي يعتقلوا في الموصل ، ثم ما لبث بوري أن أخذ يراسل زنكي مُلتمساً إطلاق سراح ابنه.

وأخيراً تمت موافقة أمير الموصل على إعادة المعتقلين إلى دمشق مقابل تسليمه دبيساً بن صدقة ـ أمير الحلة ـ الذي كان محتجزاً آنذاك في دمشق[3]. أما خير خان فقد بقي في السجن حتى مقتله عام 529 هـ[4]. ما لبث زنكي أن قام ـ في العام التالي ـ بهجومه الثاني على حمص ، لكنه جوبه بنفس المقاومة الشديدة ، فاثر الانسحاب انتظاراً لفرصة مواتية أخرى[5]، وفي السنة التالية توفي بوري حاكم دمشق ، فأعقبه في الحكم ابنه إسماعيل الذي كان أكثر طموحاً ، واندفاعاً من أبيه ، فعزم على مهاجمة حماة ، وتمكن من استردادها في شوال عام 527 هـ بعد أن أبدت حاميتها مقاومة عنيفة[6].

3 ـ محاولة التفاهم مع حكام دمشق:

حدث في شهر رجب عام 526 هـ/من شهر حزيران عام 1132 م أن توفي بوري بن طغتكين ، فخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي اتصف بالطموح والاندفاع الزائد ، ونجح هذا الحاكم الجديد من استعادة حماة في أول شهر شوال عام 527 هـ/شهر اب عام 1133م[7] مستغلاً انهماك عماد الدين زنكي بمشاكله مع الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية.

غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة ، وبالغ في ظلم الأهالي ، ومصادرة أموالهم ،كما أسرف في التخلص من معارضيه؛ حتى أضحى كل شخص يخشى على حياته ، فاضطربت أحوال دمشق ، وتألَّب الجميع عليه[8] ، وكان قد أدرك إصرار عماد الدين زنكي على مهاجمة دمشق، وصعوبة الصمود بوجهه، والنقمة تحيطه من كل مكان ، وقرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضدَّ خصومه الدمشقيين ، فكاتبه عام 529 هـ يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها إياه طوعاً ، وشرط عليه ـ لقاء ذلك ـ أن يمكنه من الانتقام من خصومه ، وأبلغه: أنه إن لم يسرع بتلبية طلبه؛ قام باستدعاء الصليبيين ، وسلمهم دمشق ، وكان إثم المسلمين في عنق زنكي. ثم ما لبث إسماعيل أن شرع بنقل أمواله ، وممتلكاته إلى صرخد استعداداً لتسليم دمشق لأمير الموصل. غير أن كبار أمراء دمشق وقادتها أوضحوا

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 117.
(2) عماد الدين زنكي ص 120.
(3) المنتظم (20/10).
(4) مفرج الكروب (71/1).
(5) عماد الدين زنكي ص 121.
(6) الاعتبار ص 97 ـ 98 عماد الدين زنكي ص 121.
(7) ذيل تاريخ دمشق نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 117.
(8) المصدر نفسه.

لوالدته ـ ذات النفوذ الكبير في الإمارة ـ العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء فأسرعت بتدبير قتله ، وأجلست مكانه في الحكم أخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس[1].

كان عماد الدين زنكي آنذاك قد خرج من الموصل ، وعبر الفرات في طريقه إلى دمشق ، وعندما بلغته أنباء التغييرات التي حصلت؛ لم يقطع أمله في إيجاد وسيلة التفاهم مع الحكام الجدد ، لذلك واصل سيره حتى بلغ أرباض المدينة ، وأرسل رسولاً إلى حكامها للتفاوض بشأن شروط التسليم اعتقاداً منه بعدم قدرتهم على المقاومة[2].

4 . حصار دمشق:

الواقع: أنَّ الدمشقيين رفضوا التفاوض معه، وأصروا على المقاومة. وأصرَّ هو من جهته على مهاجمة دمشق ، فضرب الحصار عليها في أوائل جمادى الأولى ونفَّذ غارات على أطرافها ، فردَّ عليه الدمشقيون بغارات مضادة ، وتزعَّم حركة المقاومة معين الدين أنر أحد مماليك طغتكين[3] ولما فشل في اقتحام المدينة ، اضطر تحت ضغط الظروف السياسية ، والعسكرية المستجدَّة إلى عقد صلح مع الدمشقيين في اخر شهر جمادى الأولى عام 529 هـ/شهر اذار عام 1135م، وقفل عائداً إلى حلب[4] والواضح: أن الظروف التي دفعته إلى فك الحصار تكمن في الأحداث التالية:

أ . قيام الدمشقيين بمضايقة جيشه في الوقت الذي أخذت أقواته في التناقص.

ب . تسلُّلُ بعض جنوده إلى دمشق ، وانضمامهم إلى الدمشقيين.

ج . بَعَثَ حكام دمشق إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله مبلغاً من المال ، قدره خمسون ألف دينار ، وطلبوا منه دفع عماد الدين زنكي عنهم ، وتعهدوا ، إذا نجح في ذلك ، بأن يرسلوا مبلغاً مماثلاً كل سنة ، فقبِل الخليفة هذا العرض وأرسل إليه يأمره بفك الحصار عن دمشق ، والتوجه على رأس قواته إلى بغداد لمعونته ضد السلطان مسعود[5]، وهكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضمِّ دمشق ، كما ظلَّت هذه المدينة أمداً طويلاً تمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام[6].

5 . تجدُّد الغارات على حمص:

تمكَّن عماد الدين أثناء عودته إلى حلب بعد أن فكَّ الحصار عن دمشق من إعادة ضمّ حماة إلى أملاكه ، كما هاجم حمص ، إلا أنه فشل في دخولها[7]، ويبدو: أن هذه المدينة ظلت طيلة السنوات الثلاثة التالية (530 . 532 هـ/1135 . 1137 م) عرضة لهجماته؛ إذ شهد عام 530 هـ/1135 م محاولة أخرى لضمها ، فوجد قريش بن جبرخان نفسه عاجزاً عن صدِّه ، فاستنجد بشهاب الدين محمود صاحب دمشق يلتمس منه إرسال من يراه كفؤاً لتولي شؤون الحكم فيها على أن يعوِّضه عنها بإحدى مدن إمارته ، وافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضمّ مدينة كبيرة

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 121.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 118.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 119.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 119.

(5) المنتظم (43/10) تاريخ الزنكيين ص 119.

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 119.

(7) زبدة حلب (451/2 . 452) تاريخ الزنكيين ص 119.

وهامة كحمص إلى إمارته ، فتسلَّمها في شهر ربيع أول عام 530 هـ/شهر كانون الأول عام 1135 م وأقطعها معين أنر[1].

لم يركن الزنكيُّون إلى الهدوء ، وتابعوا شن الغارات على حمص بقيادة سوار بن أيتكين ، غير أن المدينة صمدت ، وانتعشت بما كان يدخلها من الميرة والأقوات ، فاضطر سوار إلى طلب التفاوض ، واستقرَّ الصلح بين الطرفين على قاعدة عدم تعرض أي منهما للطرف الآخر[2]. آمن عماد الدين زنكي دائماً بأن قيام الجبهة الإسلامية المتحدة في بلاد الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية يتخذها ضدَّ الصليبيين ، فرفض من هذا المنطلق إقرار الهدنة التي عقدها نائبه في حلب ، وجدَّد الهجوم على حمص في شهر شعبان عام 531 هـ/شهر أيار عام 1137 م إلا أنه فشل في اقتحامها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها معين الدين أنر من جهة ، وظهور بوادر تحالف خطير بين الزعماء الصليبيين من جهةٍ أخرى؛ إذ قام فولك أنجو ، ملك بيت المقدس ، برفقة ريموند الثاني ، أمير طرابلس ، بنجدة المدينة[3].

6 . الهدنة مع حكام دمشق:

اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع حكام دمشق كي يتفرغ للتصدي للصليبيين الذين احتشدوا في حصن بارين المنيع ، فانتصر عليهم[4] ، وتهيأت له الفرصة مرَّةً ثانية لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين ، وتوحيد بلاد الشام ، فقام في أوائل عام 532 هـ/أواخر عام 1137 م بمهاجمة بعلبك إلا أنه قنع بما بذله له صاحبها[5] ، واتجه إلى حصن المجدل ، فاستولى عليه دون مقاومة تذكر ، وحين شعر إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس بضعف مركزه تجاه زنكي؛ راسله وأعلن دخوله في طاعته ، وعندما دخل الشتاء واشتد البرد؛ أوقف زنكي نشاطه في المنطقة[6].

7 . الحصار على حمص:

ومع بوادر الربيع انطلق على رأس قواته صوب حمص ، وفرض الحصار عليها. كان مركزه في المنطقة قد بلغ درجة كبيرة من القوّة أتاح لنفسه معها أن ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي ، كما أنه باستيلائه على حصن المجدل ، وفرض طاعته على صاحبي بعلبك ، وبانياس تمكن من السيطرة على معظم المواقع الغربية لإمارة آل طغتكين ، ولم يبق أمامه ، لاتخاذ طريقه صوب دمشق سوى مدينة حمص[7].

شدد عماد الدين زنكي الحصار على حمص ، وجمع عليها جموعاً كبيرة من مقاتلي التركمان ، واستقدم من حلب فرقة عسكرية متمرسة على أساليب الحصار ، وقام بشن هجماته على أنحاء المدينة مستخدماً هذه المرة مزيداً من أساليب العنف والإرهاب ، إلا أنه اضطر إلى فك الحصار ، وتوجه لمجابهة أخطار التحالف البيزنطي . الصليبي ، وقد تمكن في

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 120.

(2) المصدر نفسه ص 120.

(3) المصدر نفسه ص 120.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 120.

(5) عماد الدين زنكي ص 124.

(6) عماد الدين زنكي ص 124.

(7) المصدر نفسه ص 124.

فترة قصيرة من القضاء على هذا التحالف الذي انتهى بانسحاب إمبراطور الروم إلى بلاده[1] ، وعاد زنكي إلى حصار حمص من جديد ، محاولاً هذه المرة استخدام الأساليب السلمية لتحقيق هدفه مستغلاً مركزه القوي في المنطقة إثر الانتصارات الحاسمة التي حققها ضدَّ الصليبيين ، والبيزنطيين، فتقدم طالباً يد زمرد خاتون والدة شهاب الدين محمود حاكم دمشق ، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي ، فأجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة ، وتمت إجراءات العقد في السابع عشر من رمضان ، بعد أن تمكن من إقناع آل طغتكين بتسليمه حمصَ كجزء من الاتفاق ، على أن يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق؛ كبعرين ، واللكمة ، والحصن الشرقي، كما اشترط عليهم تزويج ابنته من شهاب الدين محمود . مستهدفاً من وراء ذلك . إقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب[2].

8 . تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على دمشق:

ظنَّ عماد الدين زنكي: أنَّ بهذا الرباط العائلي ستصبح دمشق في متناول يده إلا أنه لم يكسب شيئاً ، باستثناء الحصول على حمص فقط ، أما ضمُّ دمشق الذي كان هدفه الأساسي من هذا الزواج؛ فلم يتحقق.

ويقول ابن الأثير في ذلك: «إنما حمله على الزواج بها ما رأى من تحكُّمها في دمشق، فظن أنه يملك البلد بالاتصال بها، فلما تزوجها خاب أمله، ولم يحصل على شيء ، فأعرض عنها»[3] فما الذي تغيّر في الأوضاع السياسية في دمشق، وحال بين عماد الدين زنكي وبين تحقيق أهدافه؟ الواقع: أنه ما إن غادرت زمرد خاتون دمشق حتى فقدت مكانتها السياسية العالية التي كانت تتمتع بها ، حيث غدت الكلمة الأولى لابنها محمود ، وحاشيته[4].

وشكَّلت سنة (533 هـ/1139 م) نقطة تحول هام في تاريخ دمشق ، فقد هُوجمت هذه المدينة من اتجاهين متباعدين ، فقد هاجمها الصليبيون في بيت المقدس من الجنوب ، في حين هاجمها عماد الدين زنكي من الشمال ، ولم يدرك الدمشقيون أيَّ الخطرين كان أشدَّ على وضع مدينتهم ، إلا أن الجنوبية ، شهدت هدوءاً يكاد يكون تاماً بعد حملة عام 523 هـ/1129 م ، ثم تحقق السلام بين الجانبين في عام 528 هـ/1134 م والذي كان من الممكن أن يتجدَّد.

أما سياسة عماد الدين زنكي تجاه دمشق ، فقد اختلفت كلياً ، فإنه بوصفه المدافع الأول عن المسلمين فقد رأى توحيد صفوفهم تحت رايته ، ولكن دمشق وقفت عقبة أمام تحقيق ذلك ، فكان عليه تذليلها. وشهدت دمشق خلال (شهر شوال/شهر حزيران) تطوُّرات سياسية متسارعة أدَّت إلى مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله ، وتنصيب أخ له غير شقيق هو جمال الدين محمد صاحب بعلبك. والراجح أن معين الدين أنر كان وراء هذه الأحداث بهدف السيطرة على الحاكم الجديد ، والتفرُّد باسمه بالسلطة الفعلية.

---

(1) المصدر نفسه 125.

(2) مرآة الزمان (165/08) عماد الدين زنكي ص 125.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 122.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 122.

وفعلاً حقق أنر هدفه بعد أن فوَّض إليه الأتابك أمور المدينة ، وأقطعه بعلبك[1]. وهكذا أدّت تلك التطورات السياسية إلى ازدياد نفوذ أنر مما حمل ابن الأثير على وصفه بأنه صار هو الجملة والتفصيل[2] ، ولم تكن هذه التطورات في صالح عماد الدين زنكي ، كما عزَّ على زمرد خاتون التي كانت تقيم في حلب أن يُقتل ابنها ، ويحلَّ محله في حكم دمشق ابن ضرتها ، فأرسلت إلى عماد الدين زنكي ـ وكان في الموصل ـ تستدعيه طالبة الثأر لولدها والسيطرة على دمشق[3].

كما أنَّ الأمور لم تستتب للحكَّام الجدد بسهولة؛ إذ كان للأتابك جمال الدين محمد أخٌ يدعى بهرام شاه ، عزَّ عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين محمود ، فلجأ إلى حلب ، ومنها سار إلى الموصل ، طالباً مساعدة عماد الدين زنكي[4]، وبذلك تهيأت لعماد الدين زنكي فرصةٌ أخرى للتدخل في شؤون دمشق ، فأعدَّ جيشاً خرج على رأسه في (شهر ذي القعدة عام 533 هـ/شهر تموز عام 1139 م) قاصداً دمشق لاقتحامها قبل أن تستتب الأمور فيها ، ويبدو: أنه أدرك: أنَّ مهاجمة دمشق ليس بالأمر الهين ، هي المدينة التي أخلص أهلها لبيت بوري؛ إذ لم يكد سكانها يسمعون بأخبار الزحف باتجاه مدينتهم حتى صمَّموا على الدفاع ، والمقاومة انطلاقاً من هذا الواقع. ووضع خطة عسكرية من شقين:

ـ تنفيذ حصار شديد على دمشق وعزلها عن بقية ممتلكاتها.

ـ تكوين جبهة مناهضة لحكامها[5].

وتنفيذاً للشق الأول هاجم بعلبك ، التي كانت إقطاعاً لأنر ، ودخلها في شهر صفر عام 534 هـ/شهر تشرين الأول عام 1139 م ووضع يده عليها[6] ، والواضح: أنَّ ضمَّ بعلبك في هذه الآونة، وحمص، وحماة، وبانياس، والمجدل من قبل هيَّأ له تحقيق الشق الأول من خطته بعزل دمشق، ومنع حكامها من الاتصال ببقية أجزاء الإمارة لطلب المساعدة العسكرية والاقتصادية ، الأمر الذي سيضعف من مقاومتها إلى حدٍّ كبير[7].

وتنفيذاً للشق الثاني قام بجهود سياسية لتقوية موقفه ، فراسل رضوان بن الولخشي الوزير الفاطمي ، الذي كان في طريقه إلى دمشق هرباً من ثورة الجند عليه وأغراه بالانضمام إليه ، وفعلاً استجاب الوزير الفاطمي ، ومال إلى مساندته[8].

ويبدو أن أنر أدرك خطورة هذا التحالف على وضعه الداخلي ، فسعى لإحباطه وأرسل أسامة بن منقذ إلى رضوان ليقنعه بالعدول عن هذا التحالف ، وبذل له من الأموال ما أغراه[9]. وظلَّ عماد الدين زنكي قابعاً في بعلبك حتى (شهر ربيع الأول عام 534 هـ/شهر تشرين الثاني عام 1139 م) أعاد خلالها تنظيم أمورها الإدارية وعين عليها نجم الدين أيوب ، ثم زحف نحو دمشق ، وعسكر في سهل البقاع ، ورأى قبل أن يهاجمها استقطاب الأتابك جمال الدين

---

[1] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 123.

[2] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 123.

[3] زبدة حلب (462/2) تاريخ الزنكيين ص 123.

[4] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 123.

[5] المصدر نفسه ص 124.

[6] المصدر نفسه ص 124.

[7] المصدر نفسه ص 124.

[8] الاعتبار ص 37 ـ 40 تاريخ الزنكيين في الموصل ص 124.

[9] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 124.

لتسليمه المدينة مقابل منحه حمص ، وبعلبك ، إلا أن هذا الأخير رفض هذا العرض ، وسانده رجال دولته وعلى رأسهم معين الدين أنر[1] ، عندئذ اضطر إلى التقدم نحو المدينة ، وفرض الحصار عليها ، ودارت عدة اشتباكات بين الطرفين لم تكن حاسمة إنما جاءت لمصلحة عماد الدين زنكي؛ الذي أوقف القتال مدة عشرة أيام لإعطاء المحاصرين فرصة أخرى للتسليم[2].

ويبدو: أن جمال الدين محمد اقتنع أخيراً بعدم جدوى المقاومة ، وضرورة حقن الدماء ، إلا أنه جوبه بمعارضة أنر ، فوجد نفسه مضطراً لاستئناف القتال[3]. وفي شهر شعبان عام 534 هـ/شهر اذار عام 1140 م توفي جمال الدين محمد ، مما أتاح لعماد الدين زنكي في ظل النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق فرصة مؤاتية لتوجيه ضربة حاسمة ضد المدينة ، إلا أن أنر أسرع بتعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق ، فاضطر عماد الدين زنكي ، الذي ضعفت نفسه ، وضاق صدره إلى التراجع قليلاً بعدما رأى إصرار الدمشقيين على المقاومة ، لكنَّ حصاره استمرَّ أملاً في انهيار الحالة الاقتصادية في دمشق ، ومن استسلام المدينة[4].

9 . التحالف بين حكام دمشق والصليبيين:

وأمام استمرار الحصار ، واشتداد الخطر الزنكي رأى أن يستعين بالصليبيين ، فأرسل أسامة بن منقذ إلى فولك أنجو ملك بيت المقدس لإجراء مفاوضات معه تستهدف طلب المساعدة ، وأبدى استعداده بأن:

أ . يدفع عشرين ألف دينار كلَّ شهر ، وهي نفقات القوات الصليبية التي ستأتي لمساعدته.

ب . يعيد له حصن بانياس بعد انتزاعه من حاكمه التابع لزنكي.

ج . يسلمه عدداً من كبار أمرائه؛ ليكونوا رهائن ضماناً لحسن التنفيذ ، وأوضح له أنه إذا نجح عماد الدين زنكي في ضمِّ دمشق فإن مقدرات بلاد الشام ستصبح بين يديه ممَّا يشكل خطراً كبيراً على الصليبيين.

وفعلاً أدرك الملك فولك ومجلسه الاستشاري: أنَّ عماد الدين زنكي الذي بات يمتلك الموصل، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك لا ينبغي بأيِّ حال أن يمتلك دمشق ، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمالي العراق ستصبح واقعاً ، وهذا معناه طردهم من الشرق الإسلامي ، وأقنعتهم الظروف السياسية والعسكرية بضرورة التعاون المثمر مع أنر ، وساد بينهم الشعور بأنه لا بدَّ من قبول عرضه ، وبخاصة: أنهم كانوا يتطلعون إلى استعادة حصن بانياس[5].

وسرعان ما اتجه الصليبيون شمالاً بقيادة فولك لنجدة حليفهم. أما عماد الدين زنكي ، فظلَّ يراقب الوضع عن كثب، وفك الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكي الكماشة ، وأسرع للتصدي للصليبيين منفردين قبل أن يقتربوا من دمشق ، وعَسْكَرَ في إقليم حوران في شهر (رمضان/نيسان) بانتظار وصولهم ويبدو: أنَّ فولك ، الذي كان يتقدم بحذر ، فضَّل التوقف قرب بحيرة طبرية ، مما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق ، بيد: أنَّه ما لبث أنْ فكَّ الحصار

(1) المصدر نفسه ص 125.
(2) المصدر نفسه ص 125.
(3) المصدر نفسه ص 125.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 125 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(5) المصدر نفسه ص 126.

عندما سمع بتقدم الصليبيين لنجدة حلفائهم ، وعاد إلى حمص ، وتمكَّن الحليفان من الاستيلاء على بانياس في شهر (شوال/آيار) وتسلمها فولك وفقاً للاتفاق المبرم مع أنر.

والواقع: أنَّ التحالف بين دمشق ، وبيت المقدس أنقذ الأولى دون أن ينشب القتال ، وتخلَّص أنر من أخطر واخر محاولة جدّية من عماد الدين زنكي لضمِّها إلى أملاكه ، الأمر الذي أعاق جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام ، إلا أنه ظل على الرغم من ذلك يفكر طوال سنوات حكمه المتبقية بتحقيق هذا الهدف[1].

(1) المصدر نفسه ص 126.

المبحث الخامس : جهاده ضدَّ الصليبيِّين

أولاً: حال المسلمين والصليبيين قبل عماد الدين:

كان المسلمون في الشام متفرقين ، تكاد كل مدينة أن تكون دولة مستقلة ، وأقام الصليبيون في شمال سورية تسعة شهور بعد فتح أنطاكية قبل مسيرهم إلى بيت المقدس ، واستفادوا من هذه الفترة بالإغارة على المناطق الشمالية في سورية ، وأقاموا النفوذ الصليبي محل النفوذ الإسلامي دون أن يحتكوا بالبيزنطيين ، فأقاموا بذلك سداً في وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فكرت في مهاجمة أنطاكية ، أو غيرها من الإمارات الصليبية في المستقبل ، كما جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية متيسراً لتستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة إذا جد الجد ، وتعقدت الأمور.

وتقدم الصليبيون نحو الجنوب ، فأسسوا مملكة بيت المقدس مستغلين ضعف الدولة الفاطمية ودمشق عن حماية المنطقة والمدن الساحلية ، وبإنشاء إمارة طرابلس حدث توازن بين الصليبيين والمسلمين ، فأنطاكية تواجه حلب ، وطرابلس تواجه مدن وادي العاصي ، والرُّها تقع بين حلب والدولة الإسلامية في الشرق والغرب ، والقدس تقع بين دمشق ومصر ، ونقطة التوازن والسؤال المطروح: هل تنضم حلب إلى دمشق ، أو للموصل ، أو إلى الصليبيين[1].

لقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على سواحل سورية ، وفلسطين وتعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج وعلى سلسلة من القلاع الضخمة المبتدئة من ذغيرة في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ، ثم كرك ، وبيت جبريل ، والدروم. وكان خلف هذا الخط الأول توجد القلاع الممتدة من شقيق أرنون إلى صفد والقسطل ، وفي الشمال حصون عكا، والكرك، وبارين، ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة: أنطاكية، وطرابلس، وعكا، وصور، والمرقب، وبيروت، ويافا، وعسقلان، وهي أطراف القوى الصليبية من ناحية البحر. ويقابلها من ناحية البر: مرجعيون، وجسر يعقوب، وبيسان، وطبريا، وامتازت هذه الحدود الصليبية: أنَّ قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية ، من حيث ازدواج الأسوار، وتعدد الأبراج ذات الطابقين ، وكلِّ مستلزمات الحامية من ذخيرة، وتموين، ووسائل دينية، وصحية[2].

وأما خصائص الصليبيين الاستراتيجية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد امنة للتموين في سرعة ، ففي الشمال حلب وحماة ، وإلى الشرق الموصل وقلاع الجزيرة ، ولكنها مدن حصينة ، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب العربي والنوبة واليمن[3].

وبدأ المسلمون في مقاومة الصليبيين مُنذ اللحظات الأولى لقدومهم لكن كانت الكفة الراجحة للصليبيين ، فطمعوا في حلب ودمشق ، وفرضوا عليها الآتاوات ، ويصف الحال ابن الأثير[4] فيقول: لما ملك المولى الشهيد البلاد كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وامتدت إلى بلاد الشام أيديهم ، وضعف أهلها عن غارتهم. وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسجستان إلى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى امد ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، وأما الرقة

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 112.

(2) المصدر نفسه ص 112.

(3) صلاح الدين ص 310 قلعجي الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 113.

(4) المصدر نفسه ص 113.

وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة ويخاطرون بالقرب من القبائل العربية بأموالهم وأنفسهم ، ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً يأخذونه منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقتنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر البلاد النصارنية ، وخيَّروهم المقام عند أربابهم، أو العودة إلى أوطانهم، والرجوع إلى أهلهم وإخوانهم، وناهيك بهذه الحالة للمسلمين ذلة وصغاراً، وللكافرين قدرةً واقتساراً... وأما حلب؛ فإنهم ناصفوها أعمالها حتى الرُّها على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكانت حالها أشدَّ من هذين البلدين[1].

ثانياً: سياسة عماد الدين زنكي مع الصليبيين:

أدَّت مواقف عماد الدين زنكي من الصراع ضد الصليبيين دوراً بارزاً في تحديد مستقبله السياسي؛ إذ دفعت السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل ، والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام إثر وفاة واليها عز الدين مسعود البُرسُقي في عام 521 هـ/1127 م ، ويبدو: أن السلطان اقتنع بأنه الرجل الكفء الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه حكام الموصل من قبل ، مما يؤكد حرصه على الاستفادة من قدراته لصد الخطر الصليبي الجاثم على حدود العراق الغربية[2].

لم يمارس عماد الدين زنكي في بداية حكمه للموصل أيَّ نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يُثبِّت قدميه في إمارته الجديدة ، ويعزِّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ، ويوحِّد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحدِّ الذي يمكِّنه من التصدي لهم ، ولعل ما يدل على بُعد نظره في هذا الصدد: أنَّه وقَّع هدنة مع جوسلين الثاني أمير الرُّها لمدة سنتين أخذ أثناءها يوحِّد سلطانه في بلاد الشام[3]، ولم تشر المصادر إلى شروطها ، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمّت على ما اختاره عماد الدين زنكي ، ويبدو أن المشاكل التي جابهت صاحب الرُّها ، اضطرته إلى قبول هدنة لصالح عدوه المسلم. كان هدف عماد الدين زنكي من عقد الهدنة التفرغ لضمِّ حلب إلى أملاكه ، واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام[4] ، ونجح في تحقيق هذا الهدف ، وانطلق بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية ، منتهزاً فرصة الهدنة[5].

ثالثاً: مشكلة الوراثة الأنطاكية:

---

(1) المصدر نفسه ص 114.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 129.

(3) المصدر نفسه ص 130.

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 130

(5) عماد الدين زنكي ص 140.

وصادف عام 524 هـ أن اجتازت أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت تنتهي إلى سقوط هذه الإمارة في يد زنكي ، أو بخضوعها لطاعته على الأقل. ذلك أن أميرها «بوهيمند الثاني» قُتِلَ هذا العام على أيدي سلاجقة اسيا الصغرى ، فخلفته في الحكم زوجته «أليس» ابنة (بلدوين) ملك بيت المقدس.

وعندما استنجد الأنطاكيون بأبيها ، واتجه لإنهاء المشاكل هناك ، أسرعت ابنته وبعثت رسولاً إلى زنكي تعرض عليه إعلان طاعتها له مقابل إقرارها كأميرة على أنطاكية. لكنَّ الرسول ما لبث أن قتل على يد بلدوين ، الذي عُثِرَ عليه أثناء توجهه إلى أنطاكية ، إلا أن ملك بيت المقدس ما إن وصل إلى هناك حتى قامت ابنته بإقفال الأبواب في وجهه، ثم ما لبثت أن أعلنت ـ مضطرة ـ خضوعها له[1]، وهكذا خسر زنكي فرصة ثمينة لا تعوض ، كان ستتيح له ـ بلا شك ـ السيطرة على أهم إمارات الصليبيين في الشمال.

رابعاً: فتح الأثارب:

كان عماد الدين آنذاك قد أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر[2] ، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت ، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية ، مستهدفاً أشدَّها قرباً وخطراً على كيانه السياسي في حلب. ولم يكن غير حصن الأثارب المجاور هو ذلك الهدف ، بسبب ما كان يلحقه من أضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين ، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كافة أعمالها الغربية ، ويقومون بغارات مستمرة عليهم ، وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم ، نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة[3].

اتجه عماد الدين زنكي إلى هذا الحصن ، وفرض الحصار عليه ، فلما علم صليبيو الشام بذلك حشدوا قواتهم من كل مكان ، وشكلوا جيشاً ضخماً اتجَهوا به لقتال زنكي ، فاستشار هذا أصحابه وقادته فيما يعمل ، فأجمعوا أمرهم على الانسحاب ، وترك الحصن ، لأن لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة ، إلا أنه أجابهم: «إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من بين أيديهم ، طمعوا وساروا في إثرنا ، وخرَّبوا بلادنا ، ولا بد من لقائهم على كل حال»[4].

ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيداً عن الأثارب ، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين ، وقُتِلَ وأُسِرَ عددٌ كبيرٌ من الصليبيين. ثم ما لبث زنكي أن اتجه إلى الحصن ، وفتحه عنوةً ، وقتل وأسر معظم أفراد حاميته ، ثم أمر بتخريبه[5]. كيلا يكون عرضةً لتهديد مستمر من قبل الصليبيين ، وتقدَّم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق أنطاكية ، وضرب عليها الحصار ، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته ، فأجابهم إلى ذلك ، وقفل عائداً إلى حلب[6].

---

[1] عماد الدين زنكي ص 140.

[2] الباهر ص 39 عماد الدين زنكي ص 140.

[3] الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 140.

[4] عماد الدين زنكي ص 141.

[5] الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 141.

[6] عماد الدين زنكي ص 141.

وقد أشار ابن الأثير إلى نتيجة من أهم نتائج معركة الأثارب ، وهي أن الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاهاً جديداً لصالح المسلمين ، الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون: أنَّ عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم ، ويحوّلون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع ، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع[1].

خامساً: حصن بعرين أوبارين:

انهمك عماد الدين زنكي طيلة السنوات بين (525 . 528 هـ/1131 . 1134 م) بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، ولم يستطع أن يوجّه اهتمامه إلى الصليبيين على الرغم من المنازعات التي نشبت بينهم إثر وفاة الملك بلدوين الثاني[2].

وفي عام 529 هـ أُتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام ، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب ، والتي كانت تهددها باستمرار ، فضلاً عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين ، وتمكّن من الاستيلاء على خمسة منها: الأثارب ، زردنا ، تل أغدي ، معرة النعمان ، وكفر طاب[3].

أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام ، وإلى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه ، وراحوا يتحينون الفرصة المواتية لإنزال هذه الضربة ، وبعد عامين وحينما كان منهمكاً في حصاره لحمص ، قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه ، وكسب حكام دمشق إلى جانبهم. وعندما سمع بذلك سار للقائهم بعيداً عن حمص كيلا يوقع نفسه في شقي الرحى بينهم وبين الحمصيين ، ورأى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين إليه ، وتتيح له في نفس الوقت تولي زمام المبادرة بنفسه ، هو أن يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب.

وما إن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة كلٍّ من فولك ملك بيت المقدس ، وريموند كونت طرابلس ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين ، وقُتِلَ ، وأُسِرَ عددٌ كبيرٌ من جند العدو ، وأمرائه ، وقادته ، كان ريموند من بينهم ، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين[4].

وما لبث عماد الدين زنكي أن تقدم نحو الحصن ، وفرض عليه حصاراً شديداً ، بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين ، وأوروبا طالبين النجدة من أبناء العالم المسيحي وأمرائه قائلين لهم: أن زنكي إذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين ، سهلت عليه السيطرة على بقية الممتلكات الصليبية في الشام ، لعدم وجود من يدافع عنها، وأنَّ المسلمين لهم نية في قصد بيت المقدس. فجمع المسيحيون جيشاً كبيراً من الصليبيين ، والبيزنطيين ، وساروا لنجدة الحصن.

إلا أن زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي ومنع عنه تسلل الأخبار ، كما أن تشديده الحصار على هذا الموقع الهام أدى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه ، الأمر الذي اضطر أصحابه إلى طلب الصلح ، فأجابهم زنكي إليه ، بعد أن علم بتقدم الأعداء لنجدته ، واشترط عليهم ، فضلاً عن تسليم الحصن ، تقديم مبلغ قدره خمسون ألف دينار يستعين بها

---

[1] المصدر نفسه ص 141 نقلاً عن الكامل في التاريخ.

[2] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 133.

[3] زبدة حلب (259/2) عماد الدين زنكي ص 142.

[4] ذيل تاريخ دمشق ص 258 . 259 عماد الدين زنكي ص 142.

على نشاطه العسكري ، فلم يتردد أصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي ، بعد أن أيقنوا بعجزهم عن مقاومته ، والتمسوا منه إطلاق سراح أمرائهم، وكبار أسراهم، فأطلقهم، بعد أن عاملهم معاملة حسنة، وتسلم الحصن[1].

والواقع: أن ما اشتهر به عماد الدين زنكي من الجلد ، والصبر ساعده في تحقيق أهدافه ، وهو على يقين بما يفعله ، فلم تكن بارين قلعةً غيرَ ذات أهمية؛ إذ إن تملكها سوف يمنع الصليبيين من أن ينفذوا إلى أعالي وادي نهر العاصي ، كما أن موقعها الاستراتيجي يجعلها تسيطر على حماة ، وحمص ، ويُعدُّ فتحها بالغ الأهمية في مشاريعه المستقبلية[2].

1 . الشاعر ابن القيسراني يخلد انتصار عماد الدين في بارين:

قال عنه الذهبي في سيره: «سيد الشعراء ، أبو عبد الله ، محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني ولد بعكا ، ونشأ بقيسارية ، وسكن دمشق ، وامتدح الملوك ، وقرأ الأدب ، وأتقن علم الهيئة والهندسة». قال عنه السمعاني: «هو أشعر من رأيته بالشام ، ولد سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمئة ، وتوفي سنة ثمان وأربعين ، وخمسمئة»[3] ويعتبر القيسراني من أشهر شعراء العهد الزنكي ، وقد خلَّد انتصارات عماد الدين في بلاد الشام ، وشهد بأم عينيه البطولة الإسلامية وهي تحقق الانتصارات الرائعة على الصليبيين. وقد قال هذا الشاعر قصيدة مدح فيها عماد الدين زنكي وخلد انتصاره على الفرنجة في معركة بارين أمنع حصونهم سنة 534 هـ[4]:

حـــذارِ منَّـــا وأنـــَّى ينفـع الحَـــذَرُ	وهـي الصـــوارم لا تبقـــي ولا تَـــذَرُ
وأيـن ينجـو ملـوك الشّـرك مـن مَلِـــكٍ	مَـنْ خيلُـهُ النصـر لا بـل جُنـْدُهُ القَـدَرُ
سلُّـوا سيوفـاً كأغمـاد السُّيـوفِ بهـــا	صالـوا فمـا غَمَـدُوا نَصْـلاً ولا شهـروا
حتـى إذا مـا عمـاد الديـن أرهَقَهُـم	فـي مـأزق مِـنْ سَنـاه يَـبْرُقُ البَصَـرُ
وَلَّـوْا تضيـقُ بهـم ذَرْعـاً مسالكهـم	والمـوتُ لا ملجـأٌ منـه ولا وَزَرُ
وفـي المسـافـة مـن دون النَّجـاة بهـم	طُـولٌ وإن كـان فـي أقطارهـا قِصـرُ
وأصبـح الدِّيـن لا عينـاً ولاأثـراً	يخـاف والكُفْـرُ لا عيـن ولا أثـرُ
فـلا تخـف بعدهـا الإفرنـج قاطبـة	فالقـوم إن نفـروا أَلْـوى بهـم نَفَـرُ
إن قاتلـوا قُتلـوا أو حاربـوا حُرِبـوا	أو طـاردوا طُـرِدوا أو حاصروا حُصِـروا
وطالمـا استفحـل الخطبُ البهيـمُ بهـم	حتـى أتـى مَلِـكٌ اراؤه غُـرَرُ
والسيـف مُفْتـرِعٌ أبكـارَ أنفسهـم	ومـن هنالـك قيـل الصـارم الذَّكَـرُ
لا فارَقَـتْ ظِـلَّ محيـي العَـدْل لامعـة	كالصُّبْـح تطـوي مـن الأعـداء ما نَشَـروا
ولا انثنـى النَّصـرُ عـن أنصـار دَوْلتـه	بحيـث كـان وإن كانـوا بـه نُصِـروا
حتـى تعـود ثُغـورُ الشـام ضاحكـة	كأنـما حَـلَّ فـي أكنافهـا عمـر[5]

(1) عماد الدين زنكي ص 143.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 137.

(3) سير أعلام النبلاء (226/20).

(4) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص 25.

(5) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (132/1).

ويعتبر عماد الدين زنكي أول من مدحه ابن القيسراني من الزنكيين. وكان جمال الدين الأصفهاني وزير عماد الدين السبيل الذي أوصله إليه ، فنظم في جمال الدين القصائد ومدحه بمدائح كانت .كما يقول العماد . أجود ما سمع من منظومة في الأفاضل[1]. ومما قاله في مدح جمال الدين الأصفهاني:

وإذا الوفــود إلـــى الملـــوك تبـــــادرت فعلـــى جمـــال الديـــن وفـد محامــــــدي
يـــا حبـــذا هــــم إليـــك أصـــــارني وعزيمـــــة تقفــــــو رياضـــــة قائـــد
أنـــا روضـــةٌ تُزهـــى بكـــل غريبـــــة أفرائـــــدي مـــن لـم يَفُــــزْ بفرائـــدي
إن ساقنـــي طلـــبُ الغنـــى أو شاقنـــي حـــبُّ العـــــُلا فلقـــــد وَردتُ مـــواردي
ومتـــى عـــَدَّدْت إلى نــــداك وسائلـــي أعْـــدَدْتُ قصـــدي مـــن أجـــلِّ مقاصـدي
حتـى أعـود مـــن امتداحـك حاليـــــاً وكأننـــي قُلـــتُ بعــــض قلائـــــدي[2]

ومما قال فيه أيضاً:

ومـــروَّع سَكَنَـــتْ خـــوافقُ أمنـــــه لـــــولا جمـــال الديـــن عــــزَّ أمانـــــه
أمحمـــد بـــن علـــيٍّ اعتنـــق الأســـى فكــــري فضـــاق بفــــارس مَيدانُــــهُ
مـــا بـــال حـادي المجـد مغبـر المـــدى وأخــــو الهُوَينــــى روضــــةٌ أعطانُــــهُ
وأنـــا الـــذي لا عيـــب فيـــه لقائـــل مـــا لـم يقـــلْ هـــــذا الزمــــان زمانـــه
فهـــل المحامـد ضامنـــاتٌ عنـــكَ لـــي معنـــىً علـــى هـــــــذا البيـــانِ بيانُـــه؟
وهـــي القوافـــي مـا تناظـــر بالنــــدى إلا وقـــــــــام بفضلهـــــــا برهانُـــــهُ
مـــا كـــان بيـــتُ فضيلـةٍ فـــي فـــارس إلا ومـــــن عربيتــــــــي سلمانُـــــهُ[3]

وقد أورد الذين ترجموا لابن القيسراني طائفة مختارة من شعره ولا سيما العماد الكاتب في خريدته ، وياقوت في إرشاده، وقد درس مجموعة من الناقدين شعره ، ومن أشهرهم من المعاصرين الدكتور عمر موسى باشا ، وقد أشار إلى أن شعره تميز باتجاهات عامة ثلاثة: تصـور الأحداث الكبرى في بلاد الشـام ، والاتجاه التقليدي في المدح ، والتجديد في معاني الغزل والنســيب ، ونحن ندعو شــعراء اليوم للقيام بواجبهم في بث روح الجدِّ ، والعمل ، والجهاد في الأمة من خلال ملكة الشعر التي وهبها الله لهم.

أ . أحداث كبرى:

صور الشاعر الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير ، ووصف من خلال المدح الأبطال المسلمين وحروبهم ورسمها بدقة ، فكانت لنا صورة حقيقية عن الملاحم المشتجرة بين المسلمين والفرنجة. ونستطيع القول: إن المدح التقليدي المعروف خرج عن طوقه الاسر ، وتطرق إلى وصف هذه الأحداث خلال فترة مديدة من الزمن ، ولم يبق الشاعر كما كان كثيرٌ من سابقيه أسير المعاني التقليدية المعروفة: جودٌ ، وبأسٌ ، وحلمٌ ، بل وجد نفسه أمام صراع مرير تسترخص فيه المهج

[1] الأدب العربي في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص 177.
[2] الخريدة (104/1 ، 106) الأدب في بلاد الشام ص 177.
[3] الأدب العربي في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص 178.

، ويبذل له الأرواح في سبيل العقيدة ، وصون الأوطان ، وحماية الأعراض ، وطرد المغتصب ، فقد أدى الشاعر مهمته خير أداء ، فصور هذه الأحداث الجسام ونظمها في شعره ، وخلدها على توالي الأيام وتعاقب الدهور، شأنه في ذلك كأي مؤرخ[1] ، وقد تفاعل مع الأحداث ، ومما قاله في عماد الدين زنكي وجهاده:

فقـــل لملـــوك الكفـــر تُسلـم بعدهـــــا ممالكهـــــــا إنَّ البـــــــلاد بـــــــــلاده
كـذا عـن طريـق الصُّبح فلينتـه الدجـــــى فيـــا طالمــــا غـــــال الظـــــلام امتـــــداده
ولله عـــزمٌ مــــاءُ سيحـــــــان وردهُ وروضـــة قسطنطينـــــــــــة مستـــــــــــرداه[2]

ب . التجديد في معاني الغزل والنسيب:

درج الشعراء في معظم الأحيان على استهلال قصائدهم بالنسيب ، وعلى هذه السنَّة جرى ابن القيسراني في مطالع بعض القصائد ، وله في هذه المجال كلام يطول[3] ، وقد وصف العماد الكاتب في وصف إحدى قصائده: أنها «قطعة مجنسة في لطافة الهواء ، مالكة رق الأهواء ، خلصت من كلفة التكلف ، وصفا مشربها عن قذى التعسف ، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلما ينفق فيها الأبيات المطبوعة ، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر ، والفكر الحاضر ، والقريحة الصافية ، والآداب الوافرة الوافية ، وربما يندر للناظر مقطعات يرزق فيها القبول ، كهذه القطعة التي تسلب العقول»

ومما قاله في هذا الباب:[4]

سقى الله بالزوراء[5] من جانب الغــــــرب مهــــاً وردت عيــن الحيــاة مــن القلـــــب
عفائــــف إلا عـــــــن معاقـــــــرة الهـــــــــــــــــــــــــوى ضعائـــــفُ إلا فــــي مغالبـــــة الصـــــبِّ
عقائــلُ تخشاهــا عُقيـلُ بـــن عامــــر كواعـــب لا تعطـــى الدِّمـام علـــى كعـــب
إذا جاذبْهُـــــنَّ البـــــوادي مزيَّـــــــة مـــن الحســـن شبَّهـــن البراقـــع بالنقـــــب
تظلَّمـــت مـــن أجفانهـــنَّ إلــى النِّـــوى سفاهـــاً وهــل يعــدي البعــادُ على القُــرب
ولمـا دنـــا التوديـع قلــت لصاحبــــــي حنانيــك سربــي عـــن ملاحظـــة السِّـــرب
إذا كانـــت الأحـداق نوعـاً من الظِّبــــا فـلا شـك أن الحـظ ضـــرب مـــن الضـــرب
هبونـي تعشقــت الفـــراق ضلالــــــة فأصبحـت فـي شعـب وقلـبي فـي شِعْــــب
فمـــا لـي إذا ناديـت يـا صبرُ منجـــــداً خذلـت ، ولبـى إن دعـــا حرقـــةً لبِّـــــي
تقضَّـــى زمانـــي بيــن بيـــنٍ وهجـــــرة فحتـــامَ لا يصحـــو فـــؤاديَ مِـتنْ حـبِّ

[1] الأدب العربي في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص 178.
[2] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (37/1 ، 38).
[3] الأدب في بلاد الشام ص 189.
[4] الخريدة (98/1) الأدب في بلاد الشام ص 204.
[5] الزوراء: أي مدينة الزوراء ، وسميت دجلة بغداد الزوراء.

وأعجــب مــا فـي خمــر عينيــه أنهـــــا ... تضاعــف سكــــري كلمـــا قللـــت شـربـي

إذا لـم يكـن فـي الحـب عنـدي زيـــادة ... تُرجَّـى فمـــا فضـــلُ الزيـــارة عـن رغـب

فصـرت إذا مـا هزَّني الشـوق نحوهـــم ... أحلـت عذولي في الغـرام علـــى صحبـــي[1]

2 . ابن منير الطرابلسي يمدح عماد الدين في بارين:

شاعر الشام أبو الحسين ، أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي ، صاحب ديوان مشهور، وله نظم بديع، وكان يلقب بمُهَذَّب الدين، ويقال له: «عين الزمان»[2] قال ابن عساكر: «رأيته مرات ، وكان رافضيّاً ، خبيث الهجو والفُحش ، سجنه بُوري مدة . حاكم دمشق . وهمَّ بقطع لسانه ، ثم تَسَحَّبَ ، فلما ولي شمس الملوك عاد إلى دمشق ، فبُلِّغ شمس الملوك عنه أمراً ، وأراد صلبه ، فاختفى ، وهرب ، ثم قدم في صحبة نور الدين ، وتوفي في جمادى الاخر سنة ثمان وأربعين وخمسمئة بحلب ، وكان هو والقيسراني كفرسي رهان ، ولكن القيسراني سُنِّيٌّ دَيِّن»[3].

ولقد صوَّر ابن منير في مدائحه الزنكية كفاح المسلمين البطولي ضد الغازين الصليبيين ، ومما قاله في موقعة بارين:

فدتـــك الملـــــوك وأيَّامهـــــا ... ودان لنقضـــــك إبرامهـــــا

وزلَّـــــت لِعَيْنِـــــك أقدامُهـــــا ... وزال لبطشـــــك إقدامُهـــــا

ولـــو لـم تُسْلِـم إليـــك القلـــــوب ... هواهـــا لمـــا صــــحَّ إسلامهـــا

أيـــا محيـــي العـــدل لَمَّـــا نعـــاه ... أيامَـــــى البرايـــا وأيتامهـــا

ومُسْتنقِــذَ الدِّيــن مــن أُمّـــةٍ ... أزال المحاريـــب أصنامهـــا

دَلَفْـتَ لهـا تقتفيـــك الأســـود ... والبيـــض والسُّمـــر اجامهـــا

جَـــزَرْتَ جزيرتهـــا بالسيـــوف ... حتـــى تشاءمهـــا شامهـــا

وصـــارت عـــواريَّ أكنافـــه ... متـــى شئـــت أرخـــص مُسْتامُهـــا[4]

تصور هذه الأبيات حب الشاعر لعماد الدين ، وإعجابه به ، وشماتته بأعدائه الصليبيين ، فيفتتحها بالدعاء بأن يجعل الله ملوك الصليبيين فداء لعماد الدين وبأن يديم قدرته على نقض ما يبرمون ، ويرجو أن تزل أقدامهم أمام ثبات أقدامه ، وأن يزول إقدامهم أمام بطشه ، ويرى أن قلوب المسلمين لا يصح إسلامها إذا لم تسلم إليه زمامها ، وهو الذي أحيا العدل بعد أن بكت على فقده الأرامل والأيتام ، وأنقذ الدين من الصليبيين الذين أزالوا المحاريب ، وأقاموا مقامها الأصنام ، ثم يمدحه لفتحه الجزيرة بسيوفه حتى تشائم أهل الشام ، وتوقعوا أن يحل بهم ما حلّ بإخوانهم أهل الجزيرة[5].

سادساً: الإمبراطور البيزنطي يغزو بلاد الشام:

1 . ظروف قيام الحملة:

---

(1) الأدب في بلاد الشام ص 189.

(2) سير أعلام النبلاء (223/20).

(3) المصدر نفسه (224/10).

(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (132/1).

(5)الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.

ذكر ابن الأثير: «أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصار الملك فولك في بارين؛ أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي ، والغرب الأوروبي. فدخلت القسوس ، والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم: أنَّ زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج ، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها ، وأن المسلمين ليس لهم إلا قصد البيت المقدس ، فحينئذ اجتمعت النصرانية ، وساروا على الصعب والذلول ، وقصدوا الشام مع ملك الروم»[1].

والواقع: أنه إذا كانت الأميرة الأنطاكية أليس لم تنجح في الاتصال بعماد الدين زنكي لمساندتها في صراعها مع والدها، والنبلاء الاخرين ، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى هي الاتصال بالأمبراطور البيزنطي (يوحنا كومنين) تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستانس من ابنه مانويل[2] وقد صادف هذا العرض قبولاً حسناً من قبل الأمبراطور ، لأن ذلك يعني دخول أنطاكية في تبعيّةٍ بيزنطيَّةٍ ، وهي ما تسعى إليه جاهدة منذُ الحملة الصليبية الأولى ، وهو الأمر الذي لا يقرُّه بقية الزعماء الصليبيين ، لذلك سارعوا بتزويج كونستانس من ريموند دي بواتييه ، وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذي تمَّ دون استشارته؛ لأن أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية ، وبذلك أضحى الصدام وشيكاً بين يوحنا ، وريموند[3].

والحقيقة: أنَّ العداء قد اشتد بين البيزنطيين ، والصليبيين منذُ وصول هؤلاء إلى أطراف بلاد الشام ، والعراق ، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للأمبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلدات ؛ التي كانت فيما مضى من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية قبل أن يفتحها المسلمون ، وقد تركَّز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية ، لأن هذه الإمارة بالإضافة إلى إمارة الرُّها كانت تشكل أهمية دينية ، وعسكرية ، وتجارية في السياسة البيزنطية ، وعدَّت بيزنطة هذه البلدات جزءاً من ممتلكاتها ، والواضح: أن هذه البلاد كانت تتيح للأرمن الذين سكنوها منذُ أكثر من مئة عام التوغل داخل الأراضي البيزنطية ، وتهديدها ، ثم إن إقامة الصليبيين في بلاد الشام كان يعني: توطيد النفوذ اللاتيني المضر بالمصالح البيزنطية ، مما يعرِّض للخطر تجنيد المرتزقة الصليبيين ضمن إطار النظام العسكري البيزنطي.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ مدنها الرئيسية كانت تشكل رؤوساً للجسور التجارية البالغة الحيوية في التجارة البيزنطية؛ فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في بلاد الشام تطرفاً إلى جهة الشمال ، مما جعل حدودها تجاور الحدود البيزنطية في كيليكية[4] ، ويذكر: أن الأمبراطور يوحنا كومنين حدَّد السياسة البيزنطية في الشرق الأدنى عند اعتلائه العرش على الشكل التالي:

* إعادة الحدود الاسيوية للأمبراطور إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي.
* طرد سلاجقة الروم من الأناضول.
* طرد الأرمن من كيليكية.

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 138.
(2) معالم التاريخ الإسلامي الوسيط ص 205.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 138.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 139.

* إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الأمبراطورية.

* استعادة عدد من المواقع الإسلامية في شمالي الشام[1].

وحتى يؤمن مؤخرة جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام عقد يوحنا اتفاقيات أمنية مع سلاجقة الروم في الأناضول في عام 531 هـ. أما الداشمند في سيواس ، فقد انهمكوا في منازعات أسرية ، فلم يشكلوا أيَّ خطر جدِّيٍّ على الأمبراطورية، فأضحى بوسعه ذلك التدخل في أمور بلاد الشام وهو مطمئن[2].

2 . السيطرة على كيليكية وأنطاكية:

تقدم الأمبراطور البيزنطي للسيطرة على القلاع الأرمينية في كيليكية ، وتابع زحفه نحو الجنوب ، فاجتاز إسكندرونة ، وعبر الدروب الشامية إلى أنطاكية التي كانت الهدف الثاني لحملته بعد كيليكية ، فظهر أمام أسوارها ، وضرب الحصار عليها ، فاضطر صاحبها ريموند بواتيه أمام ضخامة ، وقوة الجيش البيزنطي من جهة ، وعدم

حصوله على مساعدات الصليبيين في الرُّها ، وبيت المقدس من جهة أخرى إلى الخضوع لإرادة الأمبراطور بعد حصوله على موافقة الملك فولك ، وتسلَّم الأمبراطور البيزنطي المدينة ، إلا أنه لم يُصرَّ على الدخول إليها ، غير أن العلم الأمبراطوري ارتفع بأعلى القلعة[3].

3 . زحف الحملة على حلب:

وجرت مباحثات بين الصليبيين ، والبيزنطيين أدَّت إلى ما يلي:

* قيام تحالف بينهم.

* توحيد الجهود العسكرية ، وتوجيهها للقيام بحملة نصرانية كبرى ضد مسلمي بلاد الشام بهدف تحطيم قوة عماد الدين في حلب.

* القضاء على إمارة بني منقذ في شيزر.

* إقامة إمارة صليبية تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب ، وشيزر ، وحماة ، وحمص.

* تعيين ريموند بواتييه أميراً على تلك الإمارة.

* ترك ريموند إقليم أنطاكية للأمبراطور البيزنطي.

* إنجاز هذا العمل التوسعي في الصيف القادم 1138 م[4].

دلَّت المفاوضات على ما يشعر به الصليبييون من الضيق ، والقلق نحو الأمبراطور البيزنطي؛ إذ إن موافقة الملك فولك أملتها ـ فيما يبدو ـ واقعية الظروف السياسية السيئة التي كان يمر بها الصليبيون؛ حيث كان يُدرك جيداً: أن عماد الدين زنكي هو العدو الأكبر للصليبيين ، ولذا لم يشأ أن يقاوم القوة البيزنطية وينهكها وهي الوحيدة القادرة على وقف تقدمه ، ومن جهته ، فإن يوحنا كومنين كان واقعياً في تفكيره السياسي ، فأدرك: أن مصلحة النصارى العامة تقضي بعدم

---

(1) المصدر نفسه ص 139.

(2) المصدر نفسه ص 139.

(3) الحروب الصليبية ، رنسيمان (341/2).

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 141.

طرد الصليبيين من أنطاكية دون أن يبذل لهم تعويض ، يضاف إلى ذلك: أنه أراد أن يقيم على امتداد الحدود إمارات تابعة يتحكم في سياساتها العامة ، وتتحمل في الوقت نفسه صدمات ، كما تجلّت أطماعه في أملاك المسلمين بالشام.
ويبدو: أنَّ أخبار هذا الاتفاق قد تسربت إلى أهالي حلب الذين الذين قاموا بأعمال التحصين ، وحفر الخنادق ، كما أن الأمير سوار قام بمهاجمة الجيش البيزنطي أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينية لقضاء فصل الشتاء ، وظفر بسريّةٍ وافرة العدد من عسكره ، فقتل ، وأسر ودخل بهم إلى حلب[1]، ورغم ما كان يضمره يوحنا من سوء النية ، وما كان يبيته من هجوم على حلب في العام التالي ، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين زنكي ، فأرسل إليه رسولاً أخبره بأنه ذاهب لقتال الأرمن ، وأن البيزنطيين ليسوا راغبين في أن يبادروا إلى مهاجمته. وهو بذلك ينوي خداعه حتى يطمئن إليه[2].
ثم ما لبث أن أصدر أوامره بإلقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة صوب الغرب ، كيلا تصل أنباء تحركات قوات المتحالفين إلى زنكي[3] ، ومن ثمَّ تقدم الإمبراطور يصحبه أميرا الرُّها ، وأنطاكية ، وبدؤوا بمهاجمة حصن «بزاعة» القريب من حلب ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه[4] ، وقد استطاع بعض أهاليه أن يفروا إلى حلب ، حيث أنذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر ، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية ، وأرسلوا إلى زنكي يطلبون نجدةً مستعجلةً ، فأمدَّهم بقوة من الفرسان ، كان لدخولها حلب تأثير كبير على رفع معنويات أبنائها.
وما إن وصل المتحالفون إلى حلب ، وفرضوا الحصار عليها ، حتى أدركوا مدى مناعتها ، وقدرتها الكبيرة على المقاومة، هذا إلى أن الحلبيين أخذوا يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم ، فاثروا الانسحاب ، ولما علم جند الأثارب بذلك ، خافوا من توجه المتحالفين إليهم ، فأحرقوا خزائن القعلة، وانسحبوا ، وقام الإمبراطور - أثر ذلك - بإرسال بعض قواته إلى هذا الموقع ، فتمكنت من الاستيلاء عليه. أما هو فقد تقدم على رأس القسم الأكبر من جنده إلى معرَّة النعمان ، واستولى عليها ، وتوجه من هناك إلى شيزر ، وفرض الحصار عليها ساعياً بذلك إلى وضع يده على موقع هام يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي ، ويقف سداً أمام مطامح وأهداف زنكي البعيدة في المنطقة[5].

4 . مناصرة عماد الدين زنكي لبني منقذ في شيزر:
أبدى أهالي حلب مقاومة عنيفة للقوات الغازية ، فضلاً عن وصول نجدة عماد الدين زنكي ، مما أقنع الإمبراطور بعدم جدوى الاستمرار لحصار المدينة ، فغادرها واتجه إلى حصن الأثارب ، وملكوه ، ثم احتلوا بعد ذلك معرة النعمان ، وكفر طاب ، واتجهوا إلى شيزر[6] - كما ذكرنا - وكانت حجم القوات الغازية مئة ألف راكب ، ومئة ألف راجل ، ومعهم من الكراع ، والسلاح ما لا يحصيه إلا الله ، وأمام هذا الخطر الكبير ما كان من حاكم شيزر أبو العساكر إلا أن يعزز

---

(1) المصدر نفسه ص 141.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 141.
(3) زبدة حلب (264/2) عماد الدين زنكي ص 144.
(4) عماد الدين زنكي ص 144.
(5) الباهر ص 55 عماد الدين زنكي ص 145.
(6) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري ص 156.

من استحكامات المدينة ، ويطلب النجدة من عماد الدين زنكي ، الذي أسرع بالقدوم إلى المنطقة ، ونزل حماة ، واتخذها قاعدة لقواته[1].

وشرع الأمبراطور في بادئ الأمر بمهاجمة حصن الجسر ، وتمكن من زحزحة المدافعين الذين انسحبوا عنه إلى داخل حصن شيزر ، واتخذ الإمبراطور من ذلك الحصن الواقع على الجهة اليمنى من نهر العاصي مقراً له ، ثم اندفع فرسانه إلى الجزء الذي عليه «البلد» وأظهر بنو منقذ مقاومة عنيفة في المعركة التي جرت بين الطرفين وجرح فيها أحد أمرائهم، وهو أبو المرهف نصر بن منقذ الذي توفي فيما بعد متأثراً بجروحه ، وتمكن عدد من المهاجمين من النفاذ إلى داخل القلعة من خلال إحدى الثغرات التي أحدثتها قذائف المنجنيقات ، إلاّ أن رجال بني منقذ تصدوا لهم وأجبروهم على الانسحاب من المدينة[2]. ولكن البيزنطيين ظلوا يحتفظون ببعض المواقع المتقدمة في ضواحي المدينة ، واستمرت غاراتهم مدة عشرة أيام ، ثم اقتصر القتال فيما بعد على ضرب المدينة بالمنجنيقات[3].

أ . توزيع القوات المهاجمة:

توزعت القوات المهاجمة في أثناء فترة القتال على النحو التالي: قوات ريموند حاكم أنطاكية الذي كان يتمركز في مسجد سمُّون الذي يقع بالقرب من باب المدينة ، وقوات حاكم الرُّها جوسلين الثاني الذي اتخذ موقعه في الساحة العامة المخصصة للصلاة ، أما الإمبراطور يوحنا فبعدما عجز عن تحقيق النصر في غارته على المدينة اختار مرتفعاً مقابلاً لشيزر يعرف باسم جبل جرجيس ، ونصب عليه ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب كانت تضرب على المدينة بشكل مباشر ، وتمنع المدافعين عنها من الوصول إلى النهر ، والتزود من مائه[4].

وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر أسامة بن منقذ: أنَّ جماعة من الراجلة من أهالي شيزر خرجوا لقتال المهاجمين ، ولكنهم قتلوا وأسر البعض منهم[5] ، وقد أثارت المنجنيقات التي جلبها البيزنطيون معهم الاستغراب ، والذعر لدى أهالي شيزر نظراً لضخامتها ، ولما ألحقته من خراب ودمار بالمدينة حتى وصفها أسامة بأنها: مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل ، وتبلغ حجرها ما تبلغه النشّابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً[6]، ويذكر أن إحدى القذائف أصابت منزلاً لصديق له يدعى يوسف بن أبي الغريب فانقلب رأساً على عقب ، وأن أخرى وقعت على القاعدة الحديدية التي أثبتت عليها السارية المرفوعة في دار عمِّه الأمير ، فكسرتها على أحد المارة فقتلته[7].

ب . موقف عماد الدين زنكي من هذه المجابهة:

وأما عن دور زنكي في هذه المجابهة فإنه لدى سماعه استغاثة أبي العساكر هرع بقواته ، واختار موضعاً بين حماة ، وشيزر على ضفاف نهر العاصي ، ولم يشأ أن يغامر بشن هجوم عام على البيزنطيين وحلفائهم نظراً لتفوقهم عليه عدَّةً، وعدداً.

(1) الباهر ص 55 ، أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص 158.
(2) الاعتبار ص 146.
(3) زبدة حلب (267/2) أسرة بني منقذ ص 158.
(4) أسرة بني منقذ ص 159.
(5) المصدر نفسه ص 159.
(6) الرطل: كان يعادل انذاك الكيلو ونصفاً الاعتبار ص 145.
(7) الاعتبار ص 145 . 146 أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص 160.

وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم[1] ، ويضيف ابن القلانسي: «إن عماد الدين زنكي كان يجول بخيله على أطرافهم ويفتك بمن يظفر به فضلاً عن قيامه بمساعدة بني منقذ بالرِّجال والسلاح ، كما أنه استطاع منع وصول المؤن إلى القوات المهاجمة»[2] ، فأثّر هذا في زيادة حراجة الموقف بالنسبة لهم ، ويؤيد لنا هذا «الرهاوي» بقوله: «وشرعت القوات تشعر بالنقص في المؤونة؛ لأن شعباً فقيراً كان معهم ، وكان عماد الدين زنكي بمهارته يمنع باحتراس وصول شيء إليهم»[3].

* أساليب الحرب النفسية:

ولجأ عماد الدين زنكي إلى اعتماد أساليب الحرب النفسية تجاه أعدائه ، فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يقول له: «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بي استرحتم ، وأخذتم شيزر وغيرها». ولم يكن له بهم قوّة ، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه[4] وعندما أشار الفرنجة على الإمبراطور بالاستجابة لمنازلة عماد الدين؛ قال لهم: «أتظنون: أنَّ معه من العساكر من ترون وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه ، إنما يريد أن تلقونه ، فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حدَّ له»[5].

* طلب النجدة من مختلف المناطق:

ومن الجدير بالذكر: أنَّ عماد الدين زنكي قد أرسل في طلب النجدة من مختلف المناطق ، فأرسل إلى القاضي كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري والي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، يستنجده ويطلب منه العساكر ، فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: «أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة علينا ، وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد؛ ملكوها». فقال عماد الدين: «إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلاماً وعلى كلِّ حالٍ فالمسلمون أولى من الكفار بها»[6].

وهذا الموقف درس عملي من عماد الدين للقادة السياسيين، والعسكريين في الولاء والبراء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة :51]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أوثق عرا الإيمان الموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، والبغض في الله»[7]. وكم ضاعَ من بلاد المسلمين قديماً ، وحديثاً بسبب ضياع هذا المبدأ العقائدي المهم في حياة الأمة! قال القاضي كمال الدين: «فسرت طالباً بغدادَ وجَدَدْتُ في السير ، فلما وصلت بغداد ، وحضرت قدَّام السلطان ، وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ، ولا أزد على الوعد

[1] الكامل في التاريخ (7396/87).
[2] الباهر ص 55 أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص 160.
[3] أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص 160.
[4] الكامل في التاريخ (750/8).
[5] الكامل في التاريخ (740/8).
[6] مفرج الكروب (79/1).
[7] صحيح الجامع الصغير (343/2) ج 2536.

شيئاً ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم؛ أحضرت فلاناً وهو فقيه كان ينوب عني في القضاء ، فقلت له: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد ، والأعاجم ، وإذا كان يوم جمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد: «وا إسلاماه؛ وا دين محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنساناً اخر فعل ذلك في جامع السلطان ، فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه ، وشقّ ثوبه ، وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى ، وبطلت الخطبة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، فاجتمع أهل بغداد وكلٌّ من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ، ويصرخون ، ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره.

وقال: ما الخبر؟ فقيل: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة فقال: أحضروا القاضي ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده؛ وأنا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه ، وقول الحق. فلما دخلت قال: يا قاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ، ولا شك: أنَّ السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو ، وإنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم في الفرات ، وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد! وعظم الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه.

فقال: خرجت إلى العامة ، ومن انضم إليهم ، وعرّفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا ، وتفرقوا ، وانتخبتُ من عسكره عشرة الاف فارس من خيار العسكر ، وكتبت إلى الشهيد أعرِّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير ، وأجدد استئذانه في ذلك ، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك ، وعبرت بالعساكر الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر.

فلما خاطبت السلطان في ذلك أصرَّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد ، وقصد بلاد الفرنج ، وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ، ويملكها ، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدتُ العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد»[1].

ويتضح لنا ممَّا تقدم مدى بعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور حوله ، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود ، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج له ، وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه ، فقد أنقذ عماد الدين زنكي من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذا وصلت عساكر السلطان إلى الشام في ذلك الوقت بعد رحيل البيزنطيين ، والصليبيين عن حلب.

ويكفي هنا أن نوضح أهمية وجود القاضي كمال الدين في دولة عماد الدين زنكي ، وأن نذكر تعقيب ابن الأثير على ما قام به هذا الفقيه مع السلطان مسعود؛ إذ يقول: «فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة الاف فارس ،

[1] مفرج الكروب (81/1 ، 80).

رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذا همة عالية ، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل ، ويرغبهم ويخطبهم في البلاد ، ويوفر لهم العطاء»[1].

إن عماد الدين زنكي ثبَّتَ الله ملكه بالعلماء ، فقد جاء إلى حكم الموصل بسبب آرائهم ، وأنقذه الله من انقلاب محقق على أيديهم ، وأبعد الله عنه أطماع السلطان مسعود بسبب حنكة العلماء وذكائهم من أمثال القاضي كمال الدين الشهرزوري ؛ ولهذا كانت لكمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين زنكي ، فقد قال عن جهوده وأعماله: «...إن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مئة ألف دينار»[2].

هذا وقد أرسل عماد الدين إلى سلاجقة الروم يشير عليهم بالإغارة على المواضع البيزنطية في اسيا الصغرى ، حتى ينصرف البيزنطيون عن القتال هناك[3] ، وصدق حدس الإمبراطور عندما وردته أخبار مفادها قدوم أرسلان بن داود ومعه عساكر بلغ تعدادها عشرين ألف فارس لنجدة شيزر[4].

* سهام الحيلة والدهاء يطلقها عماد الدين زنكي:

أدرك زنكي كنه العلاقة بين الإمبراطور والفرنجة ، فلجأ إلى اعتماد أسلوب الحيلة والخداع لتعميق الخلاف بينهما ، فراح يراسل إفرنج الشام ، ويحذرهم من ملك الروم ، ويحملهم: أنَّه إنْ ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم ، وكان يراسل ملك الروم يتهدَّدُه ، ويوهمه بأن الفرنج معه.

فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين[5] لا سيما وأن أميري الرُّها ، وأنطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الإمبراطور ، فضلاً عن اشتداد المنافسة بينهم ، وتخوف ريموند من انتصار الروم ، وبالتالي تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم ، والتي تجعله يقف وجهاً لوجه أمام قوات المسلمين بعيداً عن أنطاكية ، ولم يرغب أمير الرُّها ـ هو الآخر ـ في أن يكون منافسه ريموند قريباً منه في حلب ، في حالة انتصار المتحالفين وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم ، وقد عرقلت هذه العوامل جميعاً توحيد الجهود لفتح شيزر[6]. ووردت أنباء: أن أمير حصن كيفا الأرتقي أرسل ابنه على رأس جيش كبير من التركمان[7] ، وأن قوات دمشق تحركت لمساعدة زنكي[8].

ج ـ فك الحصار عن شيزر:

إزاء هذا، وذاك رأى الإمبراطور: أنَّ الانسحاب أصبح أمراً محتماً ، فأنهى حصاره لشيزر في التاسع من رمضان (532 هـ) ، بعد أن عرض عليه أميرها مبلغاً من المال[9]. وقال له: «أيها الملك إن الفرنج خدعوك؛ إذ دفعوك إلى محاصرة هذا الموضع ، بينما نحن لم نسئ إلى أحد قط ولم نضايق المسيحيين» فاستجاب الإمبراطور بسبب الضغوط الخارجة ، وأعلن

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 112.
(2) الباهر ص 63 نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 112.
(3) تاريخ الحروب الصليبية ، رنسيمان (346/2).
(4) أسرة بني منقذ ص 161.
(5) الباهر ص 56 عماد الدين زنكي ص 146.
(6) محاضرات عن الحروب الصليبية ، صالح أحمد العلي ص 235.
(7) زبدة حلب (8268/2).
(8) ذيل تاريخ دمشق ص 266 عماد الدين زنكي ص 147.
(9) عماد الدين زنكي ص 147.

الانسحاب ، وبادر بنو منقذ بإرسال هدايا إليه قوامها انية من الذهب والفضة وصلبان من الذهب مرصعة بالياقوت ، وهي بقايا الغنائم التي حصل عليها اباؤهم في أثناء مشاركتهم في معركة ملاذكرد[1].

وقاد يوحنا كومنين الإمبراطور البيزنطي القوات المسيحية في طريق العودة إلى أنطاكية ، وحينئذ انقضَّ عماد الدين زنكي على آلاتهم الحربية الثقيلة ومجانيقهم العظام فاستولى عليها ، ورفعها إلى قلعة حلب[2] ، كما أرسل بعض جنده في آثار قوات العدو المنسحب ، فقتلوا ، وأسروا عدداً كبيراً منهم[3] ، وفي أنطاكية حدث خلاف جديد بين الإمبراطور ، والصليبيين ، كاد أن ينتهي بفتنة واسعة بين الطرفين لولا إسراع كومنين بالرجوع إلى بلاده[4].

د . أسباب فشل الحملة: يمكن تحديدها فيما يلي:

* عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية ، وانصرافهم عن مساندة الإمبراطور[5].

* اشتداد المنافسة بين كلٍّ من ريموند بواتييه ، وجوسلين الثاني ، فخشي الأول أنه إذا سقطت شيزر بيد النصارى سيُجبر على أن يقيم بها ، وفقاً للاتفاقية المبرمة بين الحلفاء ، وهي تقع على الخط الأمامي للممتلكات النصرانية المواجهة للمسلمين وسيبتعد نتيجة ذلك عن أنطاكية ، ومباهجها. أما جوسلين الثاني الذي يكنُّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند بواتييه؛ فإنه لم يود أن يراه مستقراً في شيزر ، وفي حلب فيما بعد ، فحاول الإيقاع بينه وبين الإمبراطور ، ونجح في ذلك[6].

* انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد الإمبراطور يوحنا بعيداً عن الإمبراطورية ، وانشغاله بأمر الصليبيين، وعماد الدين زنكي ، فقام بمهاجمة مدينة أدنة ، ولا شك بأن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الإمبراطور؛ لأنه خرج بجيشه من أجل العمل على ضمِّ أنطاكية إلى أملاك بيزنطة ، لا من أجل فقدان بعض أملاك الإمبراطورية ، مما حمله على فكِّ الحصار ، وشرع في العودة إلى بلاده لحمايتها من السلاجقة[7].

* اتبع عماد الدين زنكي خطة عسكرية ذكية يمكن أن نطلق عليها الحرب النفسية؛ إذا جازت هذه التسمية في ذلك الوقت. ذلك: أنه راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم: «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرتم أخذتم شيزر ، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شرِّكم»[8].

---

(1) أسرة بني منقذ ص 163.

(2) زبدة حلب (268/2) الباهر ص 56.

(3) الباهر ص 56 عماد الدين زنكي ص 147.

(4) زبدة حلب (268/2) عماد الدين زنكي ص 147.

(5) الباهر ص 56 عماد الدين زنكي ص 147.

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 145.

(7) المصدر نفسه ص 145.

(8) المصدر نفسه ص 145.

وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الإمبراطور بالنزول إليه وقتاله. ولكن يوحنا خشي مغبَّة ذلك ، وأجاب: «أتظنون: أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حدّ له عليه».

وفي نفس الوقت كان يراسل صليبي الشام ، يحذِّرهم من إمبراطور الروم ، ويعلمهم: أنه إذا استولى على حصن واحد في الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم ، ويرسل من جهة أخرى إلى الإمبراطور يخوِّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه ، لتخلوا عنه.

فاستنفر كلٌّ طرف ضدَّ الطرف الاخر ، وسادت الشكوك بينهما ، وكان قد بلغ الإمبراطور: أنَّ قرا أرسلان بن داود الأرتقي قد عبر الفرات في جموع عظيمة في طريقه إلى شيزر ، مما كان دافعاً له على فك الحصار ، وعدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الإمبراطور[1].

هـ ـ النتائج التي أسفرت عن فشل حملة المسيحيين:

إنَّ أهمَّ النتائج التي أسفرت عن فشل حملة المسيحيين هذه هي تدهور العلاقات بين البيزنطيين ، والصليبيين ، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضدَّ نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية.

وفي الأيام التي أعقبت انسحاب المتحالفين استطاع صلاح الدين الياغسياني حاجب زنكي ، أن يستولي على كفر طاب بعد أن بلغه هروب الصليبيين منها[2]. كما سار زنكي إلى حصن عرقة ، فحاصره ، وفتحه عنوة ، وأسر من فيه من الصليبيين ، ثم أمر بتخريبه[3]. وما لبث أن اتجه في مطلع العام التالي 533 هـ إلى حصن بزاعة ، فاجتاحه عنوة ، وقتل معظم من فيه من قوات الصليبيين والروم ، ثم حاصر الأثارب ، وتمكن من فتحها ـ في صفر ـ وقفل عائداً إلى الموصل[4].

وانهمك زنكي في الفترة التالية بالعمل على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية؛ كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين ، وقام عام 533 هـ بعد مناورات وعمليات عسكرية وسياسية في بعض جهات الجزيرة مستهدفاً ضمها لإمارته[5].

ثم عاد ليستأنف السعي من أجل تحقيق هدفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية ، فاتجه إليها في أواخر العام نفسه ، وفرض حصاراً شديداً عليها كاد أن يسقطها في يديه ، لولا استنجاد أمرائها بصليبيي بيت المقدس ، واستجابة هؤلاء لهم ، رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يمثله وجود زنكي في المنطقة ، الأمر الذي اضطر الأخير إلى الانسحاب[6].

---

(1) الباهر ص 56 عماد الدين زنكي ص 147.

(2) زبدة حلب (268/2) عماد الدين زنكي ص 148.

(3) الباهر ص 57 عماد الدين زنكي ص 148.

(4) مفرج الكروب (83/1) عماد الدين زنكي ص 148.

(5) عماد الدين زنكي ص 148.

(6) عماد الدين زنكي ص 148.

وفي عام 538 هـ أتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر[1]، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرُّها الصليبية ، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين ، كجملين ، والموزر[2] ، وتل موزن ، وغيرها من حصون إقليم شيختان[3] ، وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين «قرا أرسلان الأرتقي» أمير حصن كيفا، وبين جوسلين أمير الرُّها ، بسبب تحالفهما ضده[4]. وبذلك تمهد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرُّها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضدَّ الصليبيين[5].

و . مبالغات عند الكتَّاب الأوروبيين متعلقة بشيزر:

عند الحديث عن حقيقة انسحاب الإمبراطور عن شيزر يلاحظ عنصر المبالغة الذي اتسمت به الكتابات الأوروبية ، وانساق وراءها مؤرخونا المحدثون مفيدةً: أن بني منقذ أعلنوا عند مفاوضاتهم مع الإمبراطور عن قبولهم بالتبعية ، والسيادة له ، ويبدو أن هذه الكتابات اعتمدت على بعض الروايات البيزنطية التي أرادت أن تغطي الفشل الذريع الذي واجهه الإمبراطور عند أسوار شيزر.

والذي يثبت عدم صحتها . كما نرى . هو أن الإمبراطور لم يكن في وضع يسمح له بأن يملي شروطه على بني منقذ للأسباب الآنفة الذكر؛ حتى إنه لم يمتلك الوقت عند انسحابه لحمل معداته الحربية ، أو تدميرها فتركها في أماكنها ، فأمر زنكي بحملها إلى حلب ، يضاف إلى هذا عجز قواته عن صدِّ الهجمات التي كانت تتعرض لها قواته من قبل زنكي بعد انسحابه عن شيزر[6] ، علاوة على أن المصادر العربية والسريانية التي عاصرت تلك الحملة لم تتطرق إلى هذ المسألة[7].

ز . من عجيب ما يحكى:

أنَّ ملك الروم لما عزم على حصر شيزر؛ سمع من بها بذلك ، فقال الأمير مرشد بن علي صاحبها؛ وهو ينسخ مصحفاً: «اللهم بحقِّ من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم؛ فاقبضني إليك!». فتوفي بعد أيام[8].

ح . ابن قسيم الحموي يمدح عماد الدين زنكي:

ولد شرف الدين أبو المجد ، مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم التنوخي الحموي أوائل القرن السادس الهجري بحماة 500 هـ ، وهو أحد شعراء العصر الزنكي الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني ، وابن منير ، نبغ في عصر شيخوختهما

---

(1) المصدر نفسه ص 148.

(2) يذكر ابن شداد أنها وجملين قلعتان لهما عمل متسع بين ديار بكر وديار مضر ، على مسيرة يوم جران.

(3) شيختان: هو أحد أقاليم ديار بكر عند منابع نهر الخابور.

(4) عماد الدين زنكي ص 149.

(5) المصدر نفسه ص 149.

(6) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري ص 164.

(7) المصدر نفسه ص 164.

(8) الكامل في التاريخ (742/8).

وبلغ إلى درجتهما[1] وأحرز ابن قسيم أول نصر أدبيٍّ له عام 532 هـ وكان ذلك في الثلاثينيات من عمره عندما هرع عماد الدين للدفاع عن المسلمين ضدَّ الأطماع الصليبية في شيزر ، وقد خلَّد الشعراء هذا الحدث الكبير.

وكانت قصيدة ابن قسيم الوحيدة التي اقتبسها المؤرخون في كتبهم دون سائر القصائد الأخرى ، وهي لأعلام شعراء عصر عماد الدين زنكي[2] ومما قاله من الشعر:

بعزمـــــك أيهـــا الملـك العظيــمُ ... تَـــذِلُّ لـــك الصِّعـــاب وتستقيـــمُ
ألـم تـر أن كلــب الــرُّوم لمـــا ... تبيّــنَ أنـــه الملـــك الرجيــمُ
فجـــاء يطبـــق الفلـــوات خيـــلاً ... كـــأن الجَحْفَــــل اللَّيْـــلُ البهيـــمُ
وقـد نــزل الزمـان علـــى رضـــاه ... فكـــان لِخَطِبِـــه الخَطْــبُ الجسيـــمُ
فحيـــن رَمَيْتَـــه بـك فـــي خميـــس ... تيقّـــنَ أن ذلـــــك لا يــــدوم
وأبصـــر في المفاضـــة[3] منـك جيشـــاً ... فأحـــرن[4] لا يسيـــــر ولا يقيـــم
كأنـــك فـي العجـاج شهـاب نـــور ... توقّـــدَ وهــــو شيطـــان رجيــــمُ
أراد بقـــاء مهجتـــــه فولّـــى ... وليـــس سـوى الحِمام[5] لـــه حميـــمُ[6]
يؤِّمــــلُ أن تجـــود بهــــا عليـــه ... وأنـــت بهـــا وبالدنيــــا كريــــم
أَيلتمــــس الفرنـــجُ لديــك عفـــواً ... وأنـت بقطـــع دابرهــــا زعيــم[7]
وكـــم جَرَّعْتَهـــا غُصَـــصَ المنايــــا ... بيــوم فيـــه يَكْتَهِـــلُ الفَطيـــــمُ[8]
ولمــــــا أنْ طلبتهُــــم تمنّــَـــى ... المنيـــة جُوسلينَهُــــمُ[9] اللئيـــــم
أقـــام يطـــوف الآفـــاق حينــــاً ... وأنـــت علـــى معاقلـــه مقيــــمُ
فســـار ومـا يعادلــــه مليـــــك ... وعـــاد ومـــا يعادلــــه سقيــم
إذا خطـــرت سيوفـــك فـــي نفـــوس ... فـــأوَّل مــــا تفارقهـــا الجســـوم[10]

سابعاً: فتح الرُّها:

---

[1] الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين ص 228.
[2] الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين ص 230.
[3] المفاضة: مكان واسع تندفع منه الغارة.
[4] فأحرن: في بعض النسخ فأحزن أي بمعنى الأرض الغليظة المرتفعة.
[5] الحمام: الموت.
[6] الحميم: صديق.
[7] زعيم: كفيل.
[8] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (174/1).
[9] صاحب الرها.
[10] كتاب الروضتين (124/1 ، 125).

كانت إمارة الرُّها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة 491 هـ/1097 م بزعامة بلدوين الأول ، الذي استمرَّ في حكم هذه الإمارة حتى سنة 494 هـ/1100 م حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة (جورفرى) ملك بيت المقدس[1].

وقد تميزت الرُّها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات ، حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ، ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق ، عقب وفاة السلطان ملكشاه 485 هـ/1092 م[2] ، ولم تقتصر أهمية الرُّها على موقعها الاستراتيجي وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، بل إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام واسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة[3].

وممَّا يوضح ذلك: أن الحملة التي قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة 491 هـ/1098 م نجدةً للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها في محاولة لانتزاعها من بلدوين الأول[4] ، وعلى الرغم من أن الرُّها لم تقع في نطاق الأراضي المقدسة في فلسطين ، فقد عدَّها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس، وأنطاكية، والقسطنطينية، فهي وفيرة الثروات ساعدت أمراء الرُّها على توسيع رقعتهم ، فامتدت إمارة الرُّها الواقعة على ضفتي نهر الفرات من راوندا وعين ثاب غرباً إلى مشارق شرقاً ، ومن بهنسي ، وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً[5].

واكتسبت الرُّها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوَّة ، والشجاعة ، واستطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية ، على الرغم من أن الرُّها كانت تعاني من نقطتي ضعف واضحتين؛ أحدهما الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة ، وثانيها عدم وجود تجانس بين سكانها؛ إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين «السريان ، والأرمن ، واليعاقبة» ومن الصليبيين الغربيين ، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا في مدن بكاملها كسروج ، والبيرة التي خضعت للصليبيين[6]. ولم تقتصر أهمية الرُّها على الجانب الصليبي ، بل كانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها ، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل ، وحلب ، ولهذا وصفها بأنها من الديار الجزرية عينها وخصها من البلاد الإسلامية ، مما جعل القوى الإسلامية سواء في العراق ، أو الشام ، أو الجزيرة ترغب في السيطرة عليها[7].

1 ـ أوضاع إمارة الرُّها الداخلية:

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 230.

(2) سلاجقة إيران والعراق ، عبد المنعم حسين ص 84.

(3) إمارة الرها ، علية الجنزوري ص 34 ، الجهاد ضد الصليبيين ص 230.

(4) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 230.

(5) الحركة الصليبية (424/1) سعيد عاشور ، الجهاد ضد الصليبيين ص 230.

(6) الجهاد ضد الصليبيين ص 231.

(7) التاريخ الباهر ص 66 ، 67 ، الجهاد ضد الصليبيين ص 231.

كانت ظروف الرُّها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي؛ إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية ، وانسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية ، وبعد نظر ، والواقع: أنَّ جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمنية بفعل أن والدته كانت منهم ، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية وفضَّلهم على النصارى الغربيين.

الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين، وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة، وعرف عن صاحب الرُّها: أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية ، حتى إنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب ، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكوِّن فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها.

ومن الجدير ذكره: أن هذه شكَّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب ، والموصل ، وبغداد ، وسلاجقة الروم في اسيا الصغرى ، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة[1] ، فكان فتحها ضرورةً سياسية ، وعسكرية ، واقتصادية ، ودينية[2].

2 . عمليات الفتح:

استغلَّ عماد الدين زنكي الظروف السابق ذكرها ، وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم: أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرُّها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها ، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته ، فاتجه إلى امد ، وأظهر أنه يعتزم حصارها ، وأنها هدفه دون غيرها ، وبث عيونه . في الوقت نفسه . ليطلعوه أولاً بأول على تحركات أميرها الذي ما إن رأى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر ، وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية؛ حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته[3]، بعد أن اتخذ إجراء احتياطياً بأن عقد هدنة مع قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته[4] ، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات ، كي يتخلص هناك من كل مسؤولية ، ويتفرغ لملذاته تاركاً حماية الرُّها لأهاليها من الأرمن ، والسريان ، والنساطرة ، واليعاقبة ، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال ، بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة[5].

وجاءت عيون عماد زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرق إليه ، فأسرع بالتوجه إلى الرُّها مستعيناً على السرعة بركوب نجائب الإبل مستنفراً كلَّ قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين ، فطوق بهم الرُّها من جهاتها الأربع. وحاول في البدء أن يتوصل بالطرق السلمية

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 149.

(2) المصدر نفسه ص 149.

(3) الباهر ص 67 عماد الدين زنكي ص 151.

(4) عماد الدين زنكي ص 151.

(5) المصدر نفسه ص 152.

علَّها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف ، فراسل أهالي الرُّها باذلاً لهم الأمان ، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء ديارهم ، إلا أنهم أبوا قبول الأمان[1].

وحينئذٍ اشتد زنكي في التضييق على الحصن مستخدماً الات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره ، دون أن تتاح الفرصة لتجمُّع الصليبيين ، والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير ، وأرسل جوسلين لدى سماعه نبأ الهجوم في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام ، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس ، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان[2] ، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة ، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها ، فحيل بينه وبين ذلك. وفي السادس والعشرين من جمادى الاخرة 539 هـ وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن ، إثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له ، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة[3] ، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين ، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرُّها لزنكي[4].

3 . سياسة عماد الدين زنكي في الرُّها: رأى عماد الدين زنكي بعد أن فتح الرُّها: أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله[5] ، وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب ، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم ، فأُعيدوا ولم يفقد إلا الشاذ النادر ، وأعقب ذلك بإصدار أمر اخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرُّها ، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ، ورتّب من راه أهلاً لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها ، ووعد أهلها بإجمال السيرة وبسط العدالة[6] مستهدفاً من وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك ، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية ، واحتفاظه بكنائس الشرقيين[7].

4 . العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرُّها: هناك العديد من العوامل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرُّها ، منها:

. تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره ، وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال ، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرُّها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك ، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثل موتٍ بطيءٍ لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

. ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين زنكي العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم ، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه ، وتصوروا: أنه لن يهاجم ، فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ، ووجه لها ضربته القاضية

[1] المصدر نفسه ص 152.

[2] الحركة الصليبية (605/2 ، 606) عاشور ، عماد الدين زنكي ص 152.

[3] ذيل تاريخ دمشق ص 279 . 280 عماد الدين زنكي ص 152.

[4] عماد الدين زنكي ص 153.

[5] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل 153.

[6] ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكي ص 153.

[7] عماد الدين زنكي ص 153.

التي انتهت بإسقاطها ، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير: أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم.

ـ زد على ذلك: أن الخلاف الواقع بين إمارتي الرُّها ، وأنطاكية أثَّر بدوره على إمارة الرُّها ، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً[1]، على نحو أثبت أن الخلافات التي كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية ، وها هي ـ لحسن الحظ ـ إمارة الرُّها تدفع الثمن بأن سقطت في قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامي في ذلك الحين.

ولا نغفل ـ من ناحية أخرى ـ شخصية أمير الرُّها جوسلين الثاني الذي لم يكن على نفسه القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التي اتصف بها والده جوسلين الأول ، وكان أميل إلى حياة الخلاعة ، والمجون ، والسعي الحثيث إلى الملذات ، بل إنه كثيراً ما غادر مدينة الرُّها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد ، ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية ، فأحسن قائدهم الإفادة منها ، وهاجم الرُّها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني ، فأصابها في مقتل[2].

ويبدو: أنَّ الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول ـ الذي أسس الكيان الصليبي وحافظ عليه ـ لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون ، بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاط به المسلمون من كل جانب ، وهكذا شارك جوسلين الثاني ـ دون أن يدري ـ في إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي[3].

وعلى أية حال: من الممكن أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرُّها ، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها ، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور العوامل الداخلية ، والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام 539هـ/1144م ومهما كان شأن عوامل «النحر والانتحار» الداخلية ونتائجها في الرُّها؛ فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي ، وجنوده من خلفه[4].

5 ـ موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرُّها وماذا جرى في صقلية: ورؤيا لعماد الدين بعد موته:

أ ـ موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرُّها: كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرُّها ، حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرُّها عام 539هـ/1144م فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً ، فخطرت بذهنه خطة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرُّها ، فقد نزل السوق ، واشترى ملابس الأرمن ، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون ، ويشكُّون في أمره[5]. فقال:

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 162.

(2) المصدر نفسه ص 162.

(3) المصدر نفسه ص 163.

(4) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 163.

(5) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 22.

«فنزلت السوق ، واشتريت لباساً من لباس الأرمن ، وتزينت في زيهم[1] ، ووصلت إلى البلد ، لأنظره وأكشف حاله ، فجئت إلى الجامع ، فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي: أصعد إلى المنارة أُؤَذِّن حتى يجري ما جرى ، فصعدت ، وناديت الله أكبر ، الله أكبر ، وأذنت ، والكفار على الأسوار ، فوقع الصياح في البلد بأن المسلمين قد هجموا على البلد من الجهة الأخرى ، فترك الكفار القتال ، ونزلوا عن السور ، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة»[2].

ب ـ ملك جزيرة صقلية: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرُّها ، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين ، وكان الملك يُحضره ، ويكرمه ويرجع إلى قوله ، ويقدِّمه على من عنده من الرهبان ، والقسيسين ، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرُّها سير هذا ملك الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية ، فنهبوا ، وأغاروا ، وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي ، وقد نعس؛ وهو شبيه النائم ، فأيقظه الملك ، وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت ، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرُّها ـ أي: أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتضاحك من عنده من الفرنج ، فقال لهم الملك: لا تضحكوا ، فو الله ما قال عن غير علم ، واشتدَّ هذا على الملك ، فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدَّة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر ، لعلوِّ منزلة الرُّها عند النَّصرانية[3].

ج ـ رؤيا للشهيد بعد قتله: ويحكى: أنَّ رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال ، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرُّها[4].

د ـ مؤامرة فاشلة من سكان الرُّها: ما لبث سكان الرُّها من الأرمن أن دبروا ـ في العام التالي ـ مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين ، وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين ، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة ، والقبض على مُدبريها ، وإعدامهم ، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف ، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين[5].

6 ـ نتائج فتح الرُّها: حقق عماد الدين زنكي بفتح الرُّها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه ، وكانت لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ، ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

أ ـ تأكد للمسلمين: أنَّ حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد ، وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحافاً بإنجازات القادة السابقين على زنكي ، ولا سيما مودود ، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم ، فإنها البداية ، واليوم إسقاط الرُّها ، وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل ، وهذا ما حدث فعلاً ، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء ، بل التقدم إلى الأمام بكلِّ ثقة ، وإباء ، وإنجاز.

ب ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة؛ لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي ، والعسكري الدخيل ، وبالتالي عاد التجانس

---

[1] المصدر نفسه نقلاً عن بغية الطلب في تاريخ حلب.

[2] بغية الطلب في تاريخ حلب (3851/9) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 122.

[3] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (141/1).

[4] المصدر نفسه (141/1).

[5] عماد الدين زنكي ص 157.

لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرُّها تمثل دور الفصل، والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كلٍّ من سلاجقة اسيا الصغرى ، وسلاجقة العراق ، وكذلك بلاد فارس[1].

ج ـ زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية في الشمال إلى أيلات (الرشراش) جنوباً ، ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامي باستثناء عسقلان؛ إذ إن صور سقطت بالفعل عام 1124م/518هـ/ بما اشتملته من إمارة طرابلس ، ومملكة بيت المقدس الصليبية ، فالمؤكد: أنَّ رأس الحربة الصليبية في الرُّها سقطت إلى غير رجعة ، والآن أصبح ذراعها قائماً في باقي الكيان الصليبي ، ولذلك ازداد الضغط العسكري عليه من قبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي ، كأن المعركة صارت ـ على المستوى الجغرافي ـ معركة بين الساحل ، والظهير ، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوربي في الأساس ، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

د ـ أدى إسقاط الرُّها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق ، والرحم الأم في الغرب الأوروبي ، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعةً قطعة ، بل لا بد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها ، وإجهاز فعاليات إمارة الموصل ، ومن ثم كان قيام حرب صليبية 1147 ـ 542/1149هـ 544 هـ التي اشتهرت بالصليبية الثانية ، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرُّها ، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامية حاربوا قوىً عالمية ، ولم تكن مجرد قوىً محلية محدودة التأثير والفعالية ، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاريٍّ ، أو عالميٍّ على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين ـ عامة ـ في عهد الحروب الصليبية.

هـ ـ ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز ارتفاع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد ، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية ، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية ، والسريانية ليعكس: أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني ، وبصورة غير مسبوقة ، أما بالنسبة للمسلمين ، فقد احتل مكانة بارزة[2]، فقد عزَّز فتح الرُّها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة ، (كالأمير المظفر ، ركن الإسلام ، عمدة السلاطين ، زعيم جيوش المسلمين ، ملك الأمراء ، أمير العراقين والشام)[3].

وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين ، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله ، ودارت في المحافل الإسلامية أحاديث تمحورت حول شخصه ، تصور لنا مدى التقدير ، والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير ، ومهد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة ، وفرض سيطرته التامة على

---

[1] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 164 ، 165.

[2] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 165.

[3] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 156.

أملاك أعدائه في المنطقة ، وأدَّى فتح الرُّها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها ، فأصبح أهلها بعد الخوف امنين[1] وهذا إن شاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

7 . رأي المستشرق جون لامونت في عماد الدين: يُعَدُّ المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضي ، وتعددت مؤلفاته في مجال الصليبيات ، ولا سيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية في مملكة المقدس ، غير أن له دراسة أخرى عنوانها (الحرب الصليبية والجهاد) ضمن كتاب التراث الإسلامي الذي نشره نبيه فارس ، وفي هذه الدراسة اتجه لامونت إلى تفنيده فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك ، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامي على أنه من خلال الدوافع السياسية ، والاقتصادية فقط ، وذكر بأن عماد الدين زنكي لا يعتبر بأي حال من الأحوال بطل الجهاد ، فإن عماد الدين وإن كان يطمع في استرجاع الرُّها مُنذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم ، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً ، وبعد أن حثه على ذلك أمير حرَّان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان الذي بيّن له سهولة احتلال المدينة[2]، ويستمرُّ في تصوره قائلاً: «الظاهر: أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرُّها خروجاً عن سياسته ، وعملاً قام به بناءً على تحريض الاخرين»[3] وذكر أيضاً: «أن استيلاء زنكي على حماة ، وحمص ، وحلب ، وحروبه ضدَّ الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى ، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رأى ذلك من مصلحته»[4]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

*كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرُّها متأخراً ، وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادي ، خاصة: أنَّه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها ، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبرغور دفاعاتها ، ومعرفة نقاط الضعف فيها ، وكذلك نقاط القوة ، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور: أنَّ نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرُّها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً لو لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك ، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت ، بل إنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين مُنذ أمد بعيد.

أما تعليل عدم تبكير زنكي بالاستيلاء عليها ، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة ، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرُّها .

على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية ، والسريانية ، والعربية . يعتبر بحق من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية.

يبدو: أن ادعاء «لامونت» بأن إسقاط الرُّها كان بعيداً عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الادعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها ، فمن المعروف: أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود ، وبنص عبارة ابن الأثير: «شهد معه حروبه»[5] ، ولا ريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرُّها ، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه مُنذ زمن بعيد ، والمتصور: أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل ، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي

---

[1] المصدر نفسه ص 156.

[2] الحروب الصليبية ، العلاقات بين الشرق والغرب ص 166.

[3] المصدر نفسه ص 166.

[4] المصدر نفسه ص 166.

[5] الباهر ص 17 الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 167.

الأقرب إلى الموصل ، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال الشام ، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة[1].

* إن افتراض «جون لامونت» بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية ، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية ، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في أتون جبهتين جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية ، وجبهة الصراع مع الصليبيين ، ثم إنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الاخرين من خلال مثل تلك الاتفاقات ، في حين كان يبطن النية للإجهاز على الرُّها ، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها[2].

* أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرُّها ، بل إنه كان يسعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين ، أو الصليبيين ، فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر الميلادين/السادس ، والسابع الهجريين ساهمت في قضية الجهاد ، وكان لديها طابع ما من الطموح السياسي ، وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها ، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي .كما أشرت من قبل . يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد ، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى بالعيش في ذلة وانكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى ، بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة ، غير أنها رفضت ذلك ، وقبلت التحدي الصليبي ، وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد[3].

* من المهم أن تعرف: أنه لا يخفى على دارسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية كيف أن قِطَّاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم ، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم ، كما أن هناك ثأراً ملازماً لذلك القطَّاع منهم ، ولا سيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضية للمسلمين؛ حتى لا يتبنوها في الحاضر ، والمستقبل.

وهكذا من الممكن التقرير . بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام . أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام؛ حيث إن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية ، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض ، فإذا ما أدركنا: أنَّ هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كبيرةً أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية[4].

---

[1] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 167.

[2] المصدر السابق نفسه ص 167.

[3] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 168.

[4] المصدر نفسه ص 168.

إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً ، ومن أشهر الكتب المعاصرة ، (كتاب الحرب المقدسة ، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم) قالت صاحبة الكتاب «كارين أرمسترونغ» عن عماد الدين زنكي : «لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى ، بل كان سكِّيراً عربيداً قلما يفيق من سكره ، كما كان قاسياً بطّاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره»[1]. وسيرة الرجل تكذب ما يقولون، ووصفه مؤرخونا بالشهيد، وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطى إلا لمن هو أهلٌ لهذا الوصف الكبير ، فقد قالوا في سيرته: من أحسن سير الملوك وأكثرها

حزماً للأمور ، وكانت رعيته في أمنٍ شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف[2]، وكان معظِّماً للشريعة ، ومقيماً لحدودها في دولته وقد كلَّف بذلك القضاة.

إنَّ من أهداف بعض المستشرقين:

* تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم ، وتنهض بالهمم.

* إضعاف روح الفداء ، والتضحية ، والشهادة، والجهاد في الأمة؛ حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.

* محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل ، فتستخرج منه الدروس والعبر.

*كانت كتابتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين ساهموا في إفشال المشروع الصليبي ؛ ولذلك حاول المستشرقين تشويه صورة عماد الدين زنكي.

* إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق وإلصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم ، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة ، والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر ، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

8 ـ مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرُّها: إن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية ، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط ، آخذين بأقوال واراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ ، وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها: رغبتهم في عدم إطلاعنا على وحشية الصليبيين ، وقسوتهم ، وحتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً ، وأتراكاً ، وأكراداً ـ يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام ـ مقاتلين ومجاهدين ، ومنتصرين ، يترفعون عن القوميات ، والوطنيات الجاهلية ، ويجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة ، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً؛ لأننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة ، وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ، ومديح الأبطال ، وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم[3] وهذه باقة طيبة من الأشعار متعلقة بفتح الرُّها ومدح عماد الدين زنكي ، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرُّها فقال:

بجيـــش جـــاش بالفُرســـــان حتـــــــى ظننـــت البـــرَّ بحـــراً مـــن ســــــــــلاح

[1] الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم ص 245.

[2] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (157/1).

[3] شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص 10.

وألسنة من العذبات حُمْر تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشَهُ ليلٌ بهيمٌ وغُرَّتهُ عمودٌ من صباح
صفوح عند قدرتهِ كريمٌ قليل الصفحِ ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً وهيبته جناحاً للجناح[1]

أ ـ القيسراني يمدح عماد الدين في فتح الرُّها ، قال الشاعر:

هو السيف لا يغنيك إلا جلادُهُ وهل طَوّق الأملاك إلا نجاده

ولقد كان هذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس ، وبفتح الرُّها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين ، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن ، ومما جاء في القصيدة:

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظُّبا سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ولم يك يسمو لولا عماده
وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمها عن الله مالا يُستطاعُ ذياده
لِيَهْنِ بي الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ رواسيه عزّاً واطمأنَّ مهاده
وفتحٌ حديثٌ في السمع حديثه سهيٌّ إلى يومِ المعَادِ مُعَادُه
أراح قلوباً طِرْن من وُكُناتِها عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّها دلالة على غير ما عند العُلُوجِ اعتقاده
يُرَجُّون ميلاد ابن مريم نصرة ولم يُغْنِ عند القوم عنهم ولاده
مدينة إفك مُنذ خمسين حِجَّة يفِلُّ حديد الهند عنها حداده
تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنها ترقت إليه خان طرْفاً سواده
وجامحةٌ عزَّ الملوكَ قِيادُها إلى أن ثناها من يعزُّ قياده
فأوسعها حرَّ القِراع مُؤيَّدٌ بصيرٌ بتمرين الألدِّ لِدَاده
كأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حوله شرارٌ ولكن في يديه زناده
فأضرمها نارين: حرباً وخدعة فما راع إلا سورُها وانهدادُهُ
فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افتضاضها وهيهات كان السيف حتماً سفاده[2]
فيا ظَفَراً عَمَّ البلاد صلاحه بمن كان قد عمَّ البلادَ فساده
فلا مُطْلَقٌ إلا وشدّ وثاقه ولا مُوثَقٌ إلاوحُلَّ صِفاده
ولا مِنبرٌ إلا ترنَّح عُودُه ولا مصحف إلا أنار مداده
فإن يثكل الإبرنز فيها حياته وإلا فقل للنجم كيف سُهادُهُ
وباتت سرايا القمص نقمص دونها كما يتترّى عن حريق جراده

---

[1] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (139/1).

[2] في رواية: نفاده.

إلى أين يـا أسـرى الضَّلالة بعدهـــــا لقـــد ذَلَّ غاويكــم وعَــــزَّ رشــــــــاده
رُوَيْدكُــمُ لا مانــع مـــــن مُظَفَّـــــر يعانِـــدُ أسبــاب القضـــاء عِنـــــــادُهُ
مُصيـبُ سهـام الـرأي لو أن عَزْمــــهُ رمـى سَـدَّ ذي القرنيـن أصمـى سَــــدادُهُ
وقـل لملـوك الكُفـر سلـم بعدهـــــا ممالكهـــا إن البـــــلاد بـــــــــلاده
كـذا عن طريـق الصُّبح أيتها الدُّجـــــى فيـا طالمـا غـال الظـــلام امتـــــــدادُهُ
ومـن كـان أمـلاك السَّمـواتِ جنـــــده فأيـــة أرض لم ترضهـــا جيــــــــاده
وللـــه عـزم مـــاءُ سيحــــان ورده وروضـــة قسطنطينـــة مستـــــــراده[1]

وله قصيدة هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرُزُوْري أَوّلُها: هي جنة المأوى فهل من خاطب. يقول فيها:

إن الصَّفائـح يوم صافحـت الرُّهــــا عطفـت عليهـا كـل أشـوس ناكـــــب
فتـح الفتـوح مبشِّـــراً بتمامــــــه كالفجـر فـي صـدر النَّهـار الآيـــــبِ
للـــه أيّـــة وقفـــةٍ بدريـــــــة نُصـــرت صحابتهـا بأيمـن صاحـــــب
ظفـرٌ كمـال الديـن كنـت لقاحَـــه كـم ناهـض بالحـرب غيـر محـــــارب
وأمدكـم جيـشُ الملائـك نصــــرةً بكتائـــب محفوفـــة بكتائــــــب
جنبـوا الدَّبـور وقـد تـم ريح الصــــا جنـدُ النبـوة هـل لهـا مـن غالــــب
أتـرى الرُّها (الورهاء)[2] يـوم تمنعـــت ظنـت وجـوب السـورِ سـورة لاعـــب
لا أيـن يـا أسـرى المهالـك بعدهـــا ضـاق الفضـاء علـى نجـاة الهـــارب
شـدا إلـى أرض الفرنجـــة بعدهـــا إن الـــدُّرُوبَ علـى الطريـق اللاَّحــب
أفغرَّكـم والثّــأرُ رهــنُ دمائكـــم مـا كـان مـن إطـراق لحـظ الطَّالـــب
وإذا رأيـت الليـث يجمـع نفســه دون الفريسـة فهـو عيـنُ الواثـــب[3]

ب. ابن منير يمدح عماد الدين في فتح الرُّها:

صفـاتُ مجـدِكَ لفـظٌ جـلَّ معنـــاه فلا استـردَّ الـذي أعطاكـــهُ اللـــهُ
يـا صارمـــاً بيميـــن قائمُـــــهُ وفي أعـالي أعـادي اللـــهِ حَـــدَّاهُ
أصبحـتَ دون ملـوك الأرض منفـرداً بـلا شبيـــهٍ إذ الأمـــلاكُ أشبـــاه
فـداك مـن حاوَلَـتْ مسعـاكَ همَّتـــهُ جهــلاً وقصَّـــرَ عـن مسعـاك مسعـــاه
قُـل للأعـادي أَلا موتـوا بـهِ كمـداً فاللـــهُ خيَّبَكُـــم واللـــهُ أعطـــاهُ
مَلِـكٌ تنـام عـن الفحشاء هِمَّتـــهُ تُقـىً وتسهـرُ للمعـروف عينـــاهُ

---

[1] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (143/1).

[2] الورهاء: الخرقاء.

[3] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (144/1).

مــــا زال يَسْمُــــكُ والأيــــامُ تخدمُــــــهُ فيمـــــا ابتـــــلاه وتُدْنـــــي ما توخّـــــــاه
حتـى تعالـــت عـن الشِّعْــرى مشاعـــــره قـــــدراً وجـــــاوزت الجـــــوزاء نعـــــلاه
وقـــد روى النـــاس أخبـــار الكرام مضــوا وأيـــــن ممـــــا رووه مـــــا رأينـــــاه
علـــى المنابـــر مـــــــن أنبائــــــه أرجٌ مقطوبــــــةٌ بفتيـــــق المِسْـــــك ريَّــــاه
فتـحٌ أعـــادَ علـى الإســـــلام بَهجَتــــــهُ فافتـــــــرَّ مبسمْـــه واهتـــــزّ عِطْفَــــــاه
يُهْــــدَى بمعتصــــمٍ باللـــه فتكتـــــــه حَديثهـــا نَسَـــخ الماضــي وأنســــــاهُ
إن الرُّهـــا غيـــر عمُّوريــــــــةٍ وكـــــــذا مَـــنْ رامهـــا ليـــس مَغْـــزَاه كمغـــــزاه
أخـــــتُ الكواكـــب عِـزًّا مـا بغى أَحــدٌ مـن الملـــوكِ لهـــا وَقْمـــاً[1] فواتـــــاه
حتـى دلِفـــتَ لهـــا بالعـــــزمِ يشحـــــذه رأيٌ يبيـــتُ فُوَيْـــقَ النَّجْـم مســــــراه
مشمِّـــراً وبنــــو الإســـــلام في شُغُــــلٍ عـــن بَـــدْءِ غــرْسٍ لهـم أثمارُ عقبـــــاه
يا مُحيـــي العَـــدْلِ إذ قامـــت نَوَادبُـــــه وعامـــر الجُـــودِ لمـا مـــحَّ [2] معنــــــاه
يا نعمـة اللــه يستضفـــي المزيـد بهـــــا للشاكـــرين ويستقنـــــي صفايــــــــاه
أبقـــاك للدّيـــن والدُّنيـــا تحوطُهمـــــا مـــن لـم يُتوِّجْـــك هـذا التَّـــاج إلاه[3]

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيـا ملِكـــاً ألقـى علـى الشِّـرك كلكـــلاً أنـاخ علـــى أُمَّاتِـــه كلْكَـــلَ الثَّكـــلِ
جمعـتَ إلـى فتـح الرُّهـــا ســـدَّ بابــــهِ بجمعـك بيـن النَّهْـب والأَسْـــر والقتـــل
هـــو الفتــــحُ أنسى كـلَّ فتـحٍ حديثُـــهُ وتـــوَّجَ مسطـــورَ الـــرِّوايــــة والنَّقْـــلِ
فضضــت بـــه نقـــشَ الخواتـــمِ بعـــــده جُزيـــتَ جـزاءَ الصـدق عـن خاتم الرسلِ
تجـــــردت للإســــــلام دون ملوكــــــه تُبتِّـــــكُ أسبـــاب المذلَّــــــةِ والخـــذل
أخـــو الحـــرب غَذَّتْــــهُ القـراع مفطَّمـــاً يشـــوب بإقـــدام الفتـى حُنْكَـة الكهـل

وقال أيضاً:

بعمـــاد الديـــن أضحـت عـروة الديــــن معصــــوباً بهـــــا الفتـــــحُ المبيــــنْ
واستـــزادت بقسيـــم الدَّولـــــــة الـ قســـمُ فـــي إدحـــاضِ كيـد المارقيــــنْ
ملـــكٌ أَسْهَــــرَ عينـــاً لــم يَــــزَلْ همُّهَــــا تشديـــد هَـــــمِّ الرَّاقديـــــن
لا خَلْـــت مـــن كحـل النَّصْـر فقــد فقــــأت غيظـــاً عُيــــون الحاسديـــن
كُــــــلُ يـــــومٍ مَــــرَّ مـــن أيامـــهِ فهــــو عيـــــدٌ عائِـــــد للمسلميـــنْ
لـــو جـــرى الإنصـــافُ في أوصافِــهِ كـــــان أولاهـــــا أميـــــــر المؤمنيـــــن

[1] وقماً: أي ذلاً.

[2] محّ: خلق ودرس.

[3] أماته: مفردها أم والجمع أمات أوأمهات.

مــــا روى الـــرَّاوون بــل مــا سطَّـــروا مثـــل مـــا خَطَّـــتْ لــه أيــدي السنيــن

إذا أنـــاخ الشـــرك فـــي أكنـــافـــه بمئـــة ألـــــفٍ تلاهـــــــا بمئيـــــن

وقعـــة طاحـــت بكلـــب الـــروم مـــن قطعـــــه التِّيــــن إلى قطع الوَتيــنْ[1]

إن حمـــت مصـــر فقـــد قـــام لهـــا واضـــحُ البرهـــان أنَّ الصِّيـــن صيـــنْ

والزُّهـــا لـــو لـــم تكـــن إلا الزُّهـــا لَكَفَـــتْ حَشْمَـــاً لشـــكِّ الممتريـــن

درج الدّهـــــر عليهـــــا مُعصِـــراً لـــم يُدنـــس بمـــــرام اللائميـــــن

هَـــمَّ قسطنطيـــــن أن يَفْرَعَهَـــــا ومضـــى لـــم يَحْـــوِ منهـــا قِسْـــطَ طيـــن

ولكـــم مِـــنْ مَلِـــــكٍ حاولهـــــا فتحلَّـــى الحيـــن وسمـــا فـــيَّ الجبيـــن

هـــي أخـــت النجـــمِ إلا أنّهـــا منـــه كالنجـــم لـــرأي المبصريـــن

مُنِيَـــتْ منـــه بليـــثٍ قائـــدٍ بِعـــران[2] الـــذُّلّ اســـاد العريـــن

زارهـــا يـــزأرُ فـــي أســـد وغـــىً تبـــدّلُ الأُســـدَ فـــي الزّئـــر الأَنيـــن

صولجـــوا البيـــضَ[3] بضـــرب نثـــر الهـــام فـــي ساحاتِها نثـــر الكُرِيْـــن[4]

يـــا لهـــا هِمَّـــةُ ثَغْـــر أضحكـــت مـــن بنـــي القُلْـــفِ[5] ثغـــور الشَّامتـــين

بَرْنَسَـــتْ رأسَ برنـــسٍ ذِلَّـــةً بعـــدمـــا جاســـت حوايـــا جوسليـــن

وســـروج مُـــذْ وعَـــتْ أسراجَـــهُ فَرَّقَـــتْ جُمَّاعهـــا عنهـــا عِضيـــن

تلـــك أقفـــالٌ رماهـــا اللـــه مـــن عزمـــه الماضـــي بخيـــرِ الفاتحيـــن

شـــامَ منـــه الشَّـــامُ برقـــاً ودْقُـــه[6] مؤمـــنُ الخـــوف مخيـــفُ الامنيـــن

كـــم كنيـــسٍ كُنِســـتَ قـــد رامهـــا منـــه بعـــد الـــرُّوحُ في ظـــلّ السَّفيـــن

إلى أن قال:

همـــة تمســـي وتضحـــي عزمـــةً ليـــس حِصـــنٌ إنْ نحَتْـــهُ بحصيـــن

قـــل لقـــومٍ غَرَّهُـــم إمهالُـــه ستذوقـــونَ شـــذاهُ بعـــدَ حيـــن

إنـــهُ المـــوتُ الـــذي يـــدركُ مَـــن فَـــرَّ منـــه مَشحـــاً للغافليـــن

وهـــو يُحيـــي مُمسكـــي عُروتـــه إنهـــا حبـــلٌ لمـــنْ تـــابَ متيـــن

مـــن يطـــع يَنْـــجُ ومـــن يَعصِ يكـــن مـــن غـــداةٍ عبـــرةً للآخريـــن

---

(1) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(2) العران: خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.

(3) أي جعلوا السيوف صوالجة ، مفردها: صولجان.

(4) مفردها كرة: وهي التي يلعب بها بالصولجان.

(5) القُلْف: أي الذين لم يختنوا ، ويعني: الصليبيين.

(6) ودقه: مطر.

أَقسَـم الجـــــدُّ بـــــأن تبقـــى لـــك تلـــــــك الأرض يمينــــــــاً لا يميـــنْ[1]

وتُفيـــض العــــدلَ فــــي أقطارِهـــا مُنْسِيـــاً مُؤلــــمَ عســــــفِ الجائريـــن

لا تـــزل دارُك كيـــــف انتقلـــت كعبـــــةً محفوفـــــــةً بالطائفيــــن

كـــل يـــوم يتحلَّـــى جيدُهـــا مـــن نظيـــمِ المــدحِ بالــدُّرِّ الثميـن

كلمـــا أَخلـــصَ فيهـــا دعـــوةً لـك قالـــت أَلسُـــنُ الخلْـــقِ اميـن[2]

ثامناً: الأحداث العسكرية بعد فتح الرُّها:

كان فتح الرها بداية لما بعدها؛ إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة ، فاستغل فرصة

تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة[3] ، واتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها ، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى[4] ، وجعل لا يمرُّ بعمل من أعمالها ، ولا معقل من معاقلها ، إلا سلّم إليه في الحال[5] ، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات ، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني ، وأشدها مناعة ، ففرض الحصار عليها ، وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت ، والميرة والمعونة؛ حتى أشرفت على الاستسلام.

وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه في الموصل، فاضطر إلى فك الحصار، والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها ، إلا أن صليبيي الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية ، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي، وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود. وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات[6]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر، ومرعش، ودلوك، وسميساط، وعينتاب، وعزاز[7] ، واستطاع نور الدين محمود ـ فيما بعد ـ اكتساحها جميعاً ، ومحو أوَّل الإمارات الصليبية من الوجود[8].

تاسعاً: من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين:

لم يقتصر عماد الدين زنكي في قتاله للصليبيين على الحروب النظامية فحسب؛ إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام ، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء ، وعدم تمكنه ـ بالتالي ـ من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في

---

(1) لا يمين: لا يكذب.

(2) كتاب الروضتين (149/1).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 156.

(4) ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكي ص 156.

(5) ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكي ص 157.

(6) مفرج الكروب (96/1) عماد الدين زنكي ص 157.

(7) عماد الدين زنكي ص 157.

(8) عماد الدين زنكي ص 157.

العراق ، والجزيرة ، وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات ، أي: الهجوم والانسحاب السريع ، سيما في فترات غيابه عن الشام ، ذلك: أنَّ هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة.

أولها: إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواهم ، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة ، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم ، والاحتفاظ بها.

وثانيها: إضعاف قوى العدو العسكرية ، والاقتصادية ، بما تحدثه ـ هذه الحروب ـ من قتل ، وأسر ، ونهب ، وتخريب.

وثالث تلك النتائج: قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام ، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضدَّ المسلمين[1].

وقد اعتمد عماد الدين زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان ، ومهَّد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم ، وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم ، وقد عمل زنكي على توفير القيادة الحاذقة من التركمان: إيتكين ، ولجَّة التركي ، والياروق وغيرهم ، والمحاربين الشجعان ، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات ، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء ، فهي تتوسط أنطاكية ، والرُّها الصليبيتين ، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما ، كما أنها تُعَدُّ خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين ، وقوافل إمدادهم وتموينهم.

وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضدَّ جيوش الأعداء ومعسكراتهم ، وقوافلهم ، ومراكز تجمعهم ، ولم تخل سنة من سني الصراع وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان ، ويلحقون ـ بفضلها ـ خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم.

ففي رجب من عام 524هـ على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية، وعاثت في بلاد جوسلين أمير الرُّها[2]، وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار ، وجوسلين شمالي حلب ، أسفر عن انتصار الصليبيين ، ومقتل عدد من المسلمين ، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب ، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيلهم ، ثم ما لبث بعد عام واحد 526هـ أن أوقع بصليبيي تل باشر ، وقتل منهم خلقاً كثيراً[3].

ولم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك ، وشهد صفر من عام 527هـ عدة اشتباكات بين الطرفين ، وقع أحدها بالقرب من قنسرين إثر قيام بلدوين بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب ، حيث تصدَّى له سوار ، وجماعة من جنده ، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب ، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية ، ووقع على طائفة منهم ، فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر ، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم ، وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى ، والأسرى وكان يوماً مشهوداً[4].

---

(1) عماد الدين زنكي ص 157.

(2) مفرج الكروب (4/1) عماد الدين زنكي ص 159.

(3) عماد الدين زنكي ص 160.

(4) ذيل تاريخ دمشق ص 240 ـ 241 عماد الدين زنكي ص 160.

ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرُّها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب ، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج ، وأوقع بهم على حين غرَّةٍ ، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم ، وأسر الباقين ، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى[1].

وفي جمادى الاخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على تل باشر ، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع ، إلا أنه تمكن من هزيمتهم ، وحصد رؤوس ألف رجل ، حملها معه إلى حلب[2].

وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين على رأس قوة من فرسان أنطاكية ، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار ، وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين ، واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم ، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سراياهم بهجوم سريع ، وتمكن من قتل معظم أفرادها ، ثم قفل عائداً إلى حلب ، فسرَّ الناس بذلك بعد مأساتهم.

ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرُّها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى المعسكرات الصليبية ، فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج ، وأباد عدداً كبير منهم ، بينما وقع معظم الباقين في الأسر[3].

ثم ما لبث سوار أن قام ـ في نفس العام ـ بغارة واسعة على المواقع الصليبية في منطقة (الجزر[4]، وزردنا) ، وأوقع بأعدائه عند حارم ، ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب[5].

وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً ، وشهد رجب من عام 530هـ محاولة واسعة قام بها سوار؛ إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أيَّ حساب ، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير ، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى ، والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم ، وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار ، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال نكبةً لم يُمْنَوْا بمثلها[6].

والواقع أن ما شاهدته أنطاكية خلال عامي 529هـ 530هـ من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين[7]، الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال.

وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد ، كانت تتقدم شرقاً ، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ، ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب[8]. ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام

---

(1) عماد الدين زنكي ص 160.

(2) المصدر نفسه ص 161.

(3) زبدة حلب (252/2).

(4) الجزر: إحدى كور حلب ، معجم البلدان (71/2).

(5) زبدة حلب (254/2) عماد الدين زنكي ص 161.

(6) ذيل تاريخ دمشق ص 255 ـ 256 عماد الدين زنكي ص 161.

(7) الحروب الصليبية ، العريني (510/1) عماد الدين زنكي ص 161.

(8) عماد الدين زنكي ص 162 زبدة حلب (263/2).

الصليبيون ، والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب ، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها ، وأوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سواراً ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية ، والبيزنطية ، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم ، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور ، وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها[1].

وفي عام 533هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم ، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به ، وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم ، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[2].

واستمرَّت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية ، وأصابها بعض الفتور خلال عامي 534 هـ 535 هـ. إثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق ، وتحالف الصليبيون ، والدمشقيون ضده إلا أن هذه المناوشات ما لبث أن استعرت من جديد في عام 536هـ والسنين التي تلته ، ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب ، ولدى تفرقهم أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين ، أغارت على المواقع الصليبية ، وتوغلت إلى أسوار أنطاكية ، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب[3].

وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال ، فساق وسبى وقتل ، وذكر: أن عدد القتلى بلغ سبعمئة رجل[4]. وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد ، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية ، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو ، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر ، وأسر الباقين[5].

وما لبث أمير أنطاكية أن خرج - في العام التالي - للإغارة على وادي بزاعة القريب من حلب ، فتصدى له سوار ، وأجبره على الانسحاب ، وتمكن جوسلين من اغتنام الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمئة رجل منهم ، ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها[6]، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب ، وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية في جمادى الأولى من عام 538هـ تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع؛ باغتها المسلمون ، وأوقعوا بها ، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها ، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 162.

(2) زبدة حلب (271/2) عماد الدين زنكي ص 162.

(3) زبدة حلب (275/2) عماد الدين زنكي ص 162.

(4) عماد الدين زنكي ص 163 زبدة حلب (275/2).

(5) زبدة حلب (276/2) عماد الدين زنكي ص 163.

(6) عماد الدين زنكي.

قيمة[1]. وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا ، وأبادوهم ، وأسروا صاحب باسوطا؛ حيث اعتقله سوار في حلب[2].

عاشراً: حصيلة الدور السياسي العسكري الذي لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي:

يمكن القول بأن عماد الدين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه ، وأن يكوِّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسيٍّ بارع، وعسكريٍّ متمكن، ومسلم واعٍ ، أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين ، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين ، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة، استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج؛ أي: تشكيل الجبهة الإسلامية، وضرب الصليبيين.

وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكي بالقوى الإسلامية كإمارات المدن ، والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية، والتركمانية مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة ، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي «محمود بن محمد بن ملكشاه» عام 522هـ منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل ، والجزيرة، والشام ، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا أنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية ، ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية ، والسياسية ، والجغرافية ، والاقتصادية ، والبشرية ، فكان لا بُدَّ لزنكي إذاً من إخضاع هذه العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة ، ومن اختيار أسلوب الهجوم مُنذ البداية بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار:

أولها: احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الأمراء العاديين ، وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقة.

وثاني تلك الأخطار: عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره ، أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم.

إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار ، وراح يهاجم الأمراء المحليين مُنذ البداية ، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية ، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له ولمواقفه السابقة تجاه الصليبيين قبل أن يتولى الحكم في الموصل ، كما ساعده على ذلك منشور السلطان ، آنف الذكر بتسلم الموصل ، والجزيرة ، والشام ، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها ، والتوصل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف[3].

لكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية ، وعسكرية ، وما تميز به من نظر بعيد؛ ذلك: أنه عرف ـ مُنذ البدء ـ أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين؛ فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل

---

(1) ذيل تاريخ دمشق ص 278 زبدة حلب (277/2 ـ 278).

(2) زبدة حلب (278/2) عماد الدين زنكي ص 163.

(3) عماد الدين زنكي ص 165.

عوامل خطر ضد إمارته لقربها منها ، ولاستراتيجية مواقعها؛ إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة ، انحدارها باتجاه الموصل ، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية ، وأنهار متشابكة ، وحصون منيعة.

كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق ، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف ، هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة ، المبعثرة ، في جبهةٍ إسلاميةٍ موحدةٍ تستطيع أن تُوْقِفَ الزحف الصليبي ، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين.

هذه العوامل التي دفعت زنكي إلى اتّباع سياسة الهجوم ، والتي تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمرُّ فيه ، وفي نفس الوقت عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق ، والشمال الشرقي؛ حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته ، لا سيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية ، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل[1].

ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي؛ إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي؛ الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي ، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين 502 ـ 507 هـ وإيلغازي ، وبلك الأرتقيين 512 ـ 518هـ وآق سنقر البرسقي 518 ـ 520هـ[2].

ومن المرجح: أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق ، وإنجاز محاولته لتوحيد الشام ، ولو لم يقتل ـ وهو في قمة انتصاراته ضدَّ الصليبيين ـ لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه ، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي ، وهو دور فاصل تتضح خطورته إذا عرفنا: أن نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى إتمام العمل ، الذي بدأه عماد الدين زنكي ، وفي نفس الطريق[3].

الحادي عشر: الأيام الأخيرة من حياة عماد الدين زنكي:

1 ـ تهنئة عماد الدين بالشفاء من مرض عرض له: في عام 540هـ أنشد ابن منير بالرقة في عماد الدين زنكي قصيدة يهنّئه بالعافية من مرض عرض له في يده ، ورجله قال فيها:

يا بــدرُ لا أَفْــلٌ ولا مُحَــاقُ [4] ولا يَــرِ [5] ممشـــرقـك الإشـــراق

(1) المصدر نفسه ص 166.

(2) عماد الدين زنكي ص 166.

(3) المصدر نفسه ص 166.

(4) لا أفق ولا مجال ، وهو وهم.

(5) لا يَرِم: يبرح.

بالـدِّين والـدُّنيـا الـذي تشــكو هول يــهــتــز فــرعٌ لم يُــقــمــه ســــاق
لـن تُـورِق القُضْــــب ويجري مـاؤهـا فــيـــهـــا إذا الــتــاثــت الأعـــراق
إن الرَّعـايا مـا ســـلمـت في حمىً لــلــخــطــب عــن طُــرُوقــه إطــراق
غـرســـــت بالـعـدل لهـم خمـائـلاً تــرتــع في حـــديــقــهـــا الجِــداقُ
يا هضــــبـة الـديـن الـتي عـاذ بهـا فـــعــــاد لا بـــغـــت ولا إرهـــاق
لــو لم تَحُــطْـه راحــلاً وقــافــلاً أصـــــبـــح لا شــــام ولا عِــراق
عــمــاد الــديــن مُــذْ أقـام زيـغَـهُ حـــيَّ ومـــات الشِّـــــركُ والــنــفــاق
يا محـيـي الـعـدْل الـذي في ظـلِّـة تســــربَــلَــتْ زيــنــتَــهـــا الآفــاق
يَـفـديـك مـن لان مِـهـاد جـنـبـه لهـــا نـــبـــا بجـــنـــبـــك الإقـــلاقُ
من بِشَــبَا ســيفـك[1] أنبطـت[2] لـه الــعــذْب ومـــاء عـــيشـــــه زُعـــاقُ[3]
تجـرَّع السُّـــمَّ ولــو لم تحــمــه بحـــدِّه لـــعـــزه الـــدِّرياق[4]
مــلـوك أطـراف حمـى أطـرافـهـا عــزمــك هــذا الــلاَّحــق السَّـــبَّـاقُ
لـو لم تـرق مـاءَ كـرى الـعـين لمـا ســـــاغـــت بأفـــواهـــهـــم الأرياق[5]
شـــقـقـتَ مـن دونهـم مـوج الـرَّدى وشـــــقَّ أكـــبـــادَهُـــمُ الشـــــقـــاق
أقســـم لـو كلَّفـتهـم أن يســـمعوا حـــديـــث أيامـــك مـــا أطـــاقـــوا

---

[1] أي بحد سيفك.

[2] أنبطت: أي استخرجت.

[3] ماء زعاق: مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته.

[4] الدِّرياق: لغة في الترياق فارسي معرب وهو يستعمل لدفع السم.

[5] الأرياق: مفردها ريق وهو اللعب.

لما اشــتـكيــت دبَّ في أهـوائـهـم　　تــوجُّــسٌ لــلسَّـــمــع واســتِراق
تــطــاولــوا لا عــدمــت امــالُهــم　　قصـــراً ولا جــانــبــهــا الإخــفــاق
تــوهَّمُــوهــا غَسَـــقــاً ثم انجـلــت　　والصَّـــفـو من مشـــربهم غَسَّـــاق[1]
لــئـــن ألمَّ ألمٌ بـــقـــدمٍ　　خَـدُّ السُّـــهـا[2] لـنـعـلـهـا طـراق
أو كـــان مــدَّ يَــدَهُ إلى يــدٍ　　تجــري بهــا الاجــال والأرزاق
فــالنَّصْـــل يُعْلَى صَـــدَأً وتحتــه　　حـــدُّ حســـام وســـنــا رقــراق
رمى الصَّــليبَ بصـليب الرَّأي عن　　زوراء أوْفى[3] نــزعــهــا الإغــراق
ونـوم مـنْ خـلـف الخـلـيـج سَـــهَـرٌ　　والـعـيــش في فــرنجــةٍ ســـيــاق[4]
مــاتــوا فــلا همــسٌ ولا إشـــارة　　خـــوف همـــوس زأره إزهـــاق
لا سَــلَبَتْ منك اللَّيالي ما كســت　　ولا عَــرَا[5] جــدَّتَـك الإخــلاق[6]

2. مقتله: 541هـ: تجمع المصادر على أن زنكي اغتيل ليلة الخامس من ربيع الاخر عام 541هـ خلال حصاره لقلعة جعبر ، عندما انقض عليه - وهو نائم - غلام أو عدة غلمان من مماليكه المقرَّبين ، الذين كانوا يقومون على حراسته أثناء نومه ، وإنهم هربوا - بعد قتله - إلى القلعة ، ونادوا أصحابها بحقيقة الأمر ، ففتحوا لهم الأبواب ، وإنه ما إن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب ، وتشتت ، وسادته الفوضى ، فلم يرَ قادته بُداً من فك الحصار والرَّحيل[7] ، قال ابن الأثير: «..ختم الله بالشهادة في أعماله».

لاقـــى الحِمـــام ولـــم أكـن مُستَيقنــاً　　أنَّ الحِمـــام سَيُبْتَلَـــى بحِمــــام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل ، وتخلَّى عنه العبيد والخول ، فأيُّ نجم للإسلام أفل ، وأيُّ ناصر للإيمان رحل ، وأيُّ بحر ندى نضب ، وأيُّ بدر مكارم غرب ، وأيُّ أسدٍ أُفْتُرِسَ ، ولم يُنْجِه قُلَّةُ[8] حصنٍ ، ولا صهوةُ فرسٍ، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أدَّبها[9] في حفظه وحراسته.

فأتاه مبيد الأمم ، ومقسيها في الحَدَث والقدم ، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهوراً ، وبعد وثير المضاجع في التراب معفراً مقبوراً ، رهين جَدَثٍ لا ينفعه إلا ما قَدَّم ، قد طُوِيَتْ صحيفةُ عمله ، فهو موثوق في صورة مستسلم[10].

---

(1) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغُسالتهم.
(2) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى.
(3) في النسخ الخطية: أوهى.
(4) السياق: نزع الروح عند الموت.
(5) في الأصل: عرق.
(6) أخبار الروضتين في أخبار الدولتين (153/1).
(7) ذيل تاريخ دمشق ص 284 عماد الدين زنكي ص 183.
(8) القلة: أعلى الجبل ، وقلة كل شيء أعلاه.
(9) كتاب الروضتين أخبار الدولتين (154/1).
(10) المصدر نفسه (155/1).

وقد اختلفت المصادر في تفاصيل عملية القتل، وهوية القاتل، وسبب القتل، فمن حيث تفاصيل عملية القتل؛ يشير العماد الأصفهاني إلى أنَّ عماد الدين زنكي إذا نام ينام حول سريره عدد من خدمه ، يشقون عليه في حالتي يقظته، ومنامه، ويذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه ، ويزورونه زور الخيال في أحلامه ، وهو يحبُّهم أعمق الحب ، ولكنه مع الوفاء منهم يجفو فهم أبناء الفحول القروم من الترك، والأرمن، والروم ، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير؛ أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده وخصاه.

فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص ، فنام تلك الليلة وحوله مماليكه ، فانتبه وهم قد شرعوا في اللعب ، وأخذوا في الطرب ، فزجرهم ، وتوعدهم وهم ساكتون ، لكن كبيرهم المدعو «يرنقش» أسرَّ ذلك في نفسه ، وراح ينتظر الفرصة للأخذ بثأره ، وما إن عاد سيده إلى النوم ثانية حتى أسرع إليه ، وبرك عليه ، وذبحه ، واستطاع . بعد ذلك . أن يتسلل من المعسكر إلى أسوار جعبر ، دون أن يشكَّ أحد فيه باعتباره كبير حراس زنكي ، وهناك أخبر أهل القلعة وحراسها بما أقدم عليه ، وأراهم الأدلة ، والعلامات[1] ، فأسرعوا بإشاعة الخبر في داخل القلعة ، وبين صفوف قواته؛ كي يشيعوا الاضطراب فيها ، ويجبروها على الانسحاب ، وقد نجحوا في ذلك[2].

ويتفق كلٌّ من ابن القلانسي ، وسبط ابن الجوزي ، مع العماد الأصفهاني في هذه الرواية مع اختصار وحذف بعض التفاصيل[3].

وأما ابن العديم فإنه يذكر: أنَّ زنكي تهدد يرنقش خلال النهار ، فخاف الأخير منه، وأسرع باغتياله ليلاً[4]. وأما من حيث هوية القاتل؛ فيشير كلٌّ من ابن القلانسي، ورنسيمان ، وأليسييف إلى أن القاتل كان من أصل إفرنجي.

أما حسن حبشي فيقول: «ولعل القاتل كان باطنياً»[5]. ومن حيث سبب القتل فيبدو أن صاحب قلعة جَعْبَر هو الذي حرَّض على قتله كي يتخلص من الحصار ، وأنه كان على صلة بالقاتل ، بدليل ما أورده ابن العديم من أن حساناً البعلبكي صاحب منبج تقدم إلى أسوار القلعة ، ونادى على ابن مالك ، وقال له: «يا أمير علي! أيش بقى يخلصك من أتابك؟».

فقال له: «يا عاقل! يخلصني الذي خلَّصك من حبس بلك». يعني حين قُتل بلك على منبج ، وخلص حسان ، يضاف إلى ذلك أن يرنقش التجأ إلى القلعة بعد حادثة الاغتيال[6] ، والراجح أن يرنقش نفَّذ عملية الاغتيال مدفوعاً لثلاثة عوامل: شخصية ، ونفسية ، وسياسية[7].

أما العامل الشخصي: فيتمثَّل بتهديد عماد الدين زنكي له ، وخشيته عاقبة هذا التهديد ، فأسرع باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه.

---

(1) عماد الدين زنكي ص 183 تاريخ دولة ال سلجوق ص 190.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 160.

(3) المصدر نفسه ص 160.

(4) زبدة حلب (281/2 . 282) عماد الدين زنكي ص 184.

(5) نور الدين والصليبيون ص 40 تاريخ الزنكيين ص 184.

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 160.

(7) المصدر نفسه ص 160 عماد الدين زنكي ص 184.

ويتجلى تأثير العامل النفسي في انزعاج يرنقش من معاملة عماد الدين زنكي القاسية له ، وزجره إياه ، ثم شعوره العميق بما أصابه من ظلم[1] ، ولعب إحساسه بمرارة الإهانة دوره ، فاندفع لحماية كرامته ، وذبح سيده ، ويصور الأصفهاني حركات يرنقش أثناء الاغتيال بالشكل الذي يبرز أثر الانفعال النفسي فيها: «فأسرع إلى زنكي ، وبرك عليه وذبحه في نومه»[2].

وأما الدافع السياسي للاغتيال: فيقوم على وجهين: أولهما: اتفاق يرنقش . سراً . مع أصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم ، وإنهاء أزمتهم بعد أن كاد حصنهم يوشك على الاستسلام ، ويدخل ضمن هذا الاحتمال كون يرنقش ذا ميول باطنية ، وربما تسلل إلى خدمة زنكي مُنذ زمن بعيد لتحقيق هدفه هذا ، كعادة الباطنية في التستر ، والانتظار الطويل لتنفيذ اغتيالاتهم ، لكبار الشخصيات السياسية السنية ، التي كانت تشكّل خطراً على دعوتهم ، خاصة إذا ما عرفنا العطف ، الذي كان يبديه أمراء جعبر تجاه الباطنية. أما ثاني الاحتمالات السياسية: فكون يرنقش ذا أصل «إفرنجي». كما أكّد ابن القلانسي ، وابن واصل ، ورنسمان ، ويحتمل أن يكون قد أقدم على فعلته؛ إما باتفاق سري مع الصليبيين ، أو بدافع شخصي مرتجل؛ يعود إلى حرصه على مصالح قومه ، التي بدأ زنكي يوجه إليها ضربات حاسمة.

ولا نستطيع الجزم بأيٍّ من هذه الدوافع الثلاث لاغتيال زنكي ، ذلك أن المصادر .كما رأينا . لم تعطِ القول الفصل في هذا المجال ، ومن الخطأ الاعتقاد بأن يرنقش ذا الأصل الفرنجي اغتال سيده وهو في قمة انتصاره على الجبهتين الصليبية والإسلامية بدافع شخصيٍّ ، أو نفسيٍّ محض ، ولا ريب أن وراء هذا الاغتيال الخطير في هذه المرحلة الصعبة دوافع سياسية أبعد مدىً ، وأشد خطورة ، ربما تعود إلى الأصل الفرنجي للقاتل ، أو إلى ميوله الباطنية ، وربما تعود إلى اتفاقه سراً مع أمراء قلعة جعبر لقاء ما منّوه به إذا أتم تخليصهم من عماد الدين زنكي ، الذي غدا قاب قوسين ، أو أدنى من اجتياح حصنهم.

واتجه القاتل بعد أن اغتال زنكي ، إلى أسوار قلعة جعبر بسكينه الملطخ بالدم ، وصاح في الحرس: شيلوني ، فقد قتلت زنكي. فلم يصدِّقوه ، فأراهم السكين ، وعلامة أخرى ، كان قد أخذها من سيده ، وعند ذلك أصعدوه إلى القلعة ، وتحققوا صدق ما كان يقول[3]. وعندما بُشِّرَ صاحب جعبر بالنبأ؛ لم يصدقه أوّل الأمر ، واوى يرنقش إلى القلعة ، وأكرمه ، وعرف حقيقة الأمر ، فسرَّ بذلك ، واستبشر بما أتاه من الفرج بعد الشدَّة الشديدة[4].

ويشير ابن العديم إلى ردِّ الفعل الذي أحدثه القاتل في أهل القلعة ، فعندما ناداهم: إني قتلت زنكي؛ أجابوه: اذهب إلى لعنة الله ، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله[5].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 161.

(2) تاريخ دولة ال سلجوق ص 189 . 190 عماد الدين زنكي ص 185.

(3) عماد الدين زنكي ص 186.

(4) عماد الدين زنكي ص 186.

(5) المصدر نفسه ص 186.

ولم يقبض القاتل ثمناً لخيانته إلا المطاردة والخوف ، ذلك أن حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه إليهم ، ولم يكافئوه على عمله؛ ربما خوفاً من قيام نور الدين محمود زنكي أمير حلب بالانتقام منهم لأبيه. وأخيراً تمَّ إلقاء القبض على القاتل ، وأرسل مخفوراً إلى الموصل حيث قتل هناك[1].

وعندما انتشر خبر اغتيال زنكي في معسكره انقسم إلى قسمين: اتجه أحدهما إلى حلب بقيادة نور الدين محمود، واتجه القسم الاخر إلى الموصل بقيادة جمال الدين الأصفهاني، حيث قام هو وكبار الأمراء بتنصيب سيف الدين غازي أميراً على الموصل[2]. وحملت جثة زنكي إلى الرقَّة حيث دفنت هناك ، في منطقة قبور شهداء صفين[3].

3. ما قيل في مقتل عماد الدين زنكي من شعر:

اضطربت الأمور بعد مقتل عماد الدين ، واختلت المسالك بعد الهيبة المشهورة ، والأمنة المشكورة ، وانطلقت أيدي التركمان ، والحراميَّة في الإفساد في الأطراف والنواحي ، وقال أبو يعلى التميمي في صفة هذا الحال أبياتاً:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت ... سعادته عنه وخرَّت دعائمه
وكم بيت مال من نُضارٍ وجوهر ... وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كلِّ حصن مصونةً ... يحامي عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كلُّ مُطهَّم ... يروع الأعادي حَليُه وبراجمه
فلو رامتِ الكُتَّاب وصف شياتها ... بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه ... وشامخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت ولاة الأرض فيها لأمره ... وقد أمَّنتهم كُتْبُه وخواتمه
وأمَّن من في كل قطر بهيبة ... يُراع بها أعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يُذكر عَدْلُه ... فقد زال عنهم ظُلْمُه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه ... وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الأملاك بأساً وسطوة ... ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله ... وراعت وُلاةَ الأرضِ منه لوائمه
أتاه قضاء لا تُردُّ سهامه ... فلم تُنْجِه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حِمامهُ ... وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مُجدَّلاً ... صريعاً تولَّى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللُّهام[4] مبيته ... ومن حوله أبطاله وصوارمُه

---

(1) عماد الدين زنكي ص 187.

(2) عماد الدين زنكي ص 187.

(3) المصدر نفسه ص 187.

(4) اللُّهام: أي الكثير ، كأنه يلتهم كل شيء.

وسُمْـرُ الـعـوالي حَـوْلَـهُ بأكُـفِّـهـم تـذود الـرَّدى عـنـه وقـد نام نائـمـه
ومن دون هـذا عُصـبـةٌ قـد ترتَّبـت بأسـهـمـهـا بُرْدى من الطير حـائمـه
وكـم رام مـن الأيام راحـة سـرِّهِ وهمّـتُـه تـعـلـو وتـقـوى شـكـائـمـه
وكـم مَسْـلـكٍ أمّـن سُـبْـلَـه ومسـرح حَـيٍّ أن تـراع سـوائـمـه
وكم ثغرِ إسـلام حماه بسـيفـه مـن الـروم لمـا أدركـتـه مـراحمـه
فـمـن ذا الـذي يأتي بهـيـبـة مـثـلـه وتـنـفـذ في أقصـى الـبـلاد مـراسِمُـه
فلو رُقيـت في كـلِّ مصـر بـذكره أراقـمـه ذلَّـتْ هـنـاك أراقِـمُـه[1]

فمن ذا الذي ينجو من الدَّهر سـالماً إذا مـا أتاه الأمـر والله حـاتِمُـه
ومن رام صـفواً في الحيـاة فمـا يرى لـه صَـفْوُ عَيْشٍ والحِمَـامُ يحـاومـه
فـإيَّاك لا تـغـبـط مـلـيـكـاً بملـكـه ودعـه فـإن الـدهر لا شـك قـاصـمـه
وقـل للـذي يبني الحصـون لحفظـه رُويـدك مـا تـبـني فـدهـرك هـادمـه
وفي مـثـل هـذا عـبرة ومـواعـظ بهـا يتنـاسـى المرء مـا هو عـازمـه[2]

وقال الحكيم أبو الحكم المغربي قصيدة في رثاء عماد الدين جاء فيها:

عـينٌ لا تـدخـري الـدمـوع وبَـكّـي واسـتهـلِّي دمـاً عـلى فقـد زنكي
لم يَهَـب شـخصـه الرَّدى بعـد أن كـانـت لـه هيـبـة عـلى كـل تُركي
خـيرُ مَـلْـكٍ ذي هـيـبـة وبهـاء وعـظـيـم بـين الأنام بُـزُزكِ
يَـهَـبُ المـال والجـيـاد لمـن يمَّـمَـه مـادحـاً بـغـير تَـلَـكِّـي
إنَّ داراً تمـدُّنا بالـرَّزايا هـي عـنـدي أحـقُّ دار بـترك
فـاسْـكُبـوا فـوق قـبره مـاء وَرْدٍ وانضـحُـوهُ بـزعـفـران ومسـك
أيُّ فـتـكٍ جـرى لـه في الأعـادي بعـد مـا اسـتفتح الرُّهـا أيَّ فتـكِ
كـل خـطـب أتـت بـه نُـوَبُ الـدهر يسـيرُ في جنب مصـرع زنكي
بـعـد مـا كـاد أن تـديـن لـه الرُّوم ويحوي البلاد من غير[3] شـكِّ

4 ـ فوائد متنوعة من البداية والنهاية في عهد إمارة عماد الدين زنكي:

---
(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (165/1).
(2) المصدر نفسه (166/1).
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (167/1).

1 . في سنة 523هـ قال ابن كثير: في هذه السنة قتل صاحب دمشق من الباطنية ستة الاف ، وعلّق رأس كبيرهم على باب القلعة ، وأراح الله أهل الشام منهم ، وفيها حاصرت الفرنج مدينة دمشق ، فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وبعث أهل دمشق عبد الوهاب الواعظ ومعه جماعة من التجار إلى بغداد يستغيثون بالخليفة ،

وهمّوا بكسر منبر الجامع ، حتى وعدوا بأنهم سيكتبون إلى السلطان ليبعث جيشاً كثيفاً نصرة لأهل الشام فلم يبعث إليهم جيش حتى نصرهم الله من عنده ، فهزمهم المسلمون ، وقتلوا منهم عشرة الاف ، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً ولله الحمد والمنة ، وقتل بَيْمَنَدْ الفرنجي صاحب أنطاكية[1].

2 . وفي أحداث عام 524هـ: فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق ، تهدمت بسببها دور كثيرة ببغداد ، ووقع بأرض الموصل مطر عظيم ، فسقط بعضه ناراً تأجَّجُ ، فاحترقت دُورٌ كثيرة من ذلك ، وتهارب الناس. وفيها وجد ببغداد عقارب طيّارة لها شوكتان ، فخاف الناس منها خوفاً شديداً. وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة ، ومن بلاد الفرنج ، وجرت له معهم حروب طويلة ، وخطوب جليلة ، ونُصر عليهم في تلك المواقف كلِّها ، ولله الحمد والمنة ، وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا إلى الشام ، ومدحه الشعراء على ذلك[2].

3 . وفي عام 524هـ توفي إبراهيم بن عثمان ، أبو إسحاق الكَلْبِيُّ هو من أهل غزَّة ، وقد جاوز الثمانين من عمره ، وله شعر جيد. ومن شعره في الأتراك قوله:

في فتنة من جيوش التركِ ما تركت ... للرَّعْدِ كَرَّاتُهُمْ صوتاً ولا صِيتا

قوم إذا قُوبلوا كانوا ملائكة ... حُسناً وإنْ قُوتِلُوا كانوا عفاريتا[3]

وله أيضاً:

إنَّما هذه الحياةُ متاعٌ ... والسَّفيهُ الغَوِيُّ من يصطفيها

ما مضى فات والمؤمَّلُ غَيْبٌ ... ولك الساعة التي أنت فيها[4]

وفي سنة 525هـ توفي أحمد بن محمد ، أبو نصر الطوسي ، سمع الحديث وتفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، وكان شيخاً لطيفاً عليه نورٌ ، قال ابن الجوزي: أنشدني:

فإن نلت خيراً نِلْتهُ بعزيمة ... وإن قصَّرت عنك الخطوب فعن عُذرِ[5]

قال: أنشدني أيضاً:

لبستُ ثوب الرَّجا والناس قد رَقدُوا ... وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلتُ يا عُدَّتي في كلِّ نائبة ... ومن عليه لكشف الضُّرِّ أعتمدُ

وقد مددت يدي والضُّرُّ مُشتملٌ ... إليك يا خير من مُدَّت إليه يدُ

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (167/1).
(2) البداية والنهاية (284/16).
(3) المصدر نفسه (285/16).
(4) المصدر نفسه (286/16).
(5) المصدر نفسه (286/16).

فـلا تَــرُدَّنَّهَــا يا رَبِّ خــائــبــةً فـبـحـرُ جُـودِك يـرْوِي كـل مـن يَـرد[1]

5 . وفي سنة 527 هـ اقتتل الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً ، فمحق الله منهم خلقاً كثيراً ، وغزاهم فيها أيضاً عماد الدين زنكي ، فقتل منهم ألف قتيل وغنم أموالاً جزيلة ، ويقال لها: غزاة أسوار[2]. وفي نفس السنة توفي محمد بن أحمد بن يحيى ، أبو عبد الله العثماني الدِّيباجي ، وكان ببغداد يُعرف بالمقدسي ، وتفقه ووعظ الناس ببغداد. قال ابن الجوزي: سمعته ينشد في مجلسه قوله:

دعْ جـفـوني يَحِـقُّ لي أن أَنُـوحَـا لم تَـدَعْ لي الـذنُوبُ قلباً صـــحيحـا

أخْلَقَـتْ بهجتي أكف المعـاصـــي ونَعـاني المشـــيـب نعياً فصـــيحـا

كـلـمـا قُـلـتُ قـد بَـرا جُـرحُ قـلـبي عـاد قـلـبي مـن الـذنـوب جَـريحـا

إنمـا الـفـوز والـنـعـيـمُ لـعـبـد جـاء في الحشـــر امنـاً مُســتَرِيحـا[3]

وفي سنة 533هـ توفي علي بن أفلح الكاتب ، وقد خلع عليه الخليفة العباسي المسترشد ، ولقَّبه جمال الملك ، وأعطاه أربعة دور ، وكانت له دار إلى جانبهن فهدمهن كلَّهنَّ، واتخذ مكانهن داراً هائلة طولها ستون ذراعاً في عرض أربعين، وأطلق له الخليفة أخشاباً واجُرَّاً، وذهباً فبناها ، وغرم عليه ابن أفلح مالاً جزيلاً، وكتب على أبوابها وطرازاتها أشعاراً حسنة من نظمه ، ونظم غيره فكان على الطُّرُزِ مكتوب[4]:

ومــن المـروءة لــــــــــــــــــلـفـتى مـــا عـــاش دار فـــاخـــرة

فـــاقـــنـــع مـــن الـــدنـــيـــا بهـــا واعـــمـــل لـــلـــدار الاخـــرة

هـــاتـــيـــك وافـــيـــة بمـــا وعـــدت وهـــذي ســـاحـــرة[5]

وفي موضع اخر مكتوب:

ونادٍ كــأنَّ جــنَــانَ الخــلــود أعـادتـه مـن حُسْــنِـهـا رَوْنَـقَـا

وأعــطــتــه مــن حــادثات الــزمــان أن لا تُـلِـمَّ بــه مــوتِــقــا

فـأضـــحـى يـتـيـه عـلـى كـلِّ مـا بُـني مـغْـرِباً كـان أو مشـــرقـا

تــظــلُّ الــوفــود بــه عُــكَّــفــاً وتُمســـي الضـــيـوف بـه طُـرَّقـا

بــقــيــتَ لــه يا جمــال المــلــوك والــفـضـــل مـهـمـا أردت الـبـقـا

وســالمــه فــيــك ريــب الــزمــان ووُقِّــيــت مــنــه الــذي يُــتَّــقَــى

---

[1] البداية والنهاية (289/16).

[2] البداية والنهاية (289/16).

[3] المصدر نفسه (298/16).

[4] المصدر نفسه (323/16).

[5] المصدر نفسه (323/16).

فما صدقت هذه الأماني ، بل عمّا قريب ـ بعد نيلها ـ اتُّهم الخليفة ابن أفلح بأنه يكاتب دُبَيساً ، فأمر بتخريب هذه الدار ، فلم يبقَ فيها جدار ، وصارت خرابة بعد ما كان قد حَسُن منها المقام والقرار ، وهذه حكمة من يقلِّبُ الليل والنهار ، وتجري بمشيئة الأقدار[1].

وفي سنة 535هـ توفي محمد بن الباقي بن محمد بن كعب بن مالك الأنصاري ، وكان مشاركاً في علوم كثيرة وقد أُسِرَ في صغره في أيدي الروم ، فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر ، فلم يفعل ، وتعلَّم منهم خط الروم ، وكان يقول: «من خدم المحابر خدمته المنابر» ومن شعره الذي أورده ابن الجوزي وسمعه عنه قوله:

احفظْ لسانك لا تَبُحْ بثلاثة ... سنٍّ ومال ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تُبْتَلى بثلاثة ... بمُكفِّرٍ وبحاسد ومُكذِّب

ومن ذلك قوله:

لي مُدَّة لا بُدَّ أُبلغها ... فإذا انقضت وتصرَّمت مِتُّ

لو عانَدَتني الأسدُ ضاربةً ... ما ضرَّني ما لم يَجِي الوقت[2]

ومن ذلك قوله:

بغدادُ دارٌ لأهل العلم طيبةٌ ... وللمفاليس دار الضَّنْك والضِّيقِ

ظللت حيران أمشي في أزقتها ... كأنني مصحفٌ في بيت زنديق[3]

قال ابن الجوزي: بلغ من العُمر ثلاثاً وتسعين سنة لم تَتَغيَّر حواسه ، ولا عقله ، وكانت وفاته ثاني رجب من هذه السنة ، وحضر جنازته الأعيان ، والناس ، ودفن قريباً من قبر بشر[4].

---

(1) المصدر نفسه (324/16).

(2) البداية والنهاية (329/16).

(3) المصدر نفسه ص (330/16).

(4) المصدر نفسه (330/16).

الفصل الثاني

المبحث الأول : اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم

هو نور الدين زنكي ، صاحب الشام ، الملك العادل ، ناصر أمير المؤمنين ، تقي الملوك ، ليث الإسلام ، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد ـ عماد الدين ـ زنكي بن الأمير الكبير آق سنقر التركي ، السلطاني الملكشاهي.

مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمسمئة[1]. وهم ينتسبون إلى قبيلة ساب يو التركية ، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه ، ولكنها جميعاً تؤكد: أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده ، وأن والده كان يقدمه على إخوانه ، ويرى فيه مخايل النجابة[2].

ولما جاوز الصبا؛ لزم والده حتى مقتله 541هـ/1047م[3]، وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه الموصل من 521هـ 541هـ مدرسة عليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية: في مجالات العلوم السياسية ، والإدارية ، والعسكرية ، بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية ، وقد جمعت مدرسة الحياة الكبرى التي عاش فيها نور الدين بين الأسلوب النظري ، والتطبيقي[4].

وقد تزوج نور الدين عام 541هـ الزواج الذي لم تكن من وراءه جارية، ولا سُرِّيَّة، من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق ، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين ، واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وتأكدت الأمور على ما اقترح كلٌ منهما ، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال. وما إن تمَّ إعداد الجهاز؛ حتى قفل الوفد عائداً وبصحبة ابنة معين الدين[5]، وخلَّف نور الدين من زوجته هذه ابنةً واحدة ، وولدين هما الصالح إسماعيل ، الذي تولى الحكم من بعده. وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر من جراء مرض ألم به عام 577هـ ، وأحمد الذي ولد بحمص عام 547هـ ثم توفي في دمشق طفلاً[6].

وقد ذكر ابن منير في أشعاره تهنئته لنور الدين بمولوده الجديد ، فقال:

وجئت بأحمد فملأت حمداً ... موارد كان معدنها عذابا
تهلل وجه مُلك يوم أهدت ... قوابله لك الملِك اللبابا
شبيهك لا يغادر منك شيئاً ... سنا وحياً وبذلاً واستلابا
قسيم الحمدِ إلا أنَّ حرفاً ... من اسمك زاد للمعنِي منابا
ألا لله يوم فُرَّ عنه ... وركب نصَّ بالبشرى الرِّكابا[7]

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته ، وابنه الأكبر ، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل ، ونامت ليلة عن وردها ، فأصبحت؛ وهي غضبى ، فسألها نور الدين عن أمرها ، فذكرت نومها الذي فوَّت عليها وردها ، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السَّحر ، لتوقظ النائمين حينذاك للقيام ، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً[8].

---

(1) سير أعلام النبلاء (531/20).

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص 73.

(3) المصدر نفسه ص 73.

(4) المصدر نفسه 88 . 89.

(5) ذيل تاريخ دمشق ص 288. 289 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 48.

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 418.

(7) كتاب الروضتين (221/1).

(8) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 49.

وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء ، وأعفهن ، وأكثرهن خدمة ، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ، وكانت لها أوقاف ، وصدقات كثيرة، وبر عظيم[1]، وقد ذكر ابن كثير في أحداث عام 563هـ: «وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكي إلى بغداد ، تريد أن تحجَّ من هناك ، وهي السِّتُّ عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر ، فتلقاها الجيش؛ ومعهم صندل الخادم ، وحملت لها الإقامات ، وأكرمت غاية الإكرام»[2].

وعرف عن الصالح إسماعيل تقواه العميقة ، والتزامه الأخلاقي المسؤول ، حتى رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما ألحَّت عليه علة القولنج ، التي أودت بحياته. وقال: لا. حتى أسأل الفقهاء ، فلما أفتوه بالجواز؛ لم يقبل ، وسأل كبيرهم: إنِ الله تعالى قرَّب أجلي؛ أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا. فأجابه: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرَّم علي[3].

أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكي:

عندما قتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيماً بشهرزور ، وهي إقطاعةٌ من قبيل أبيه. بينما كان نور الدين محمود وهو الابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر. وبعد أن شهد مصرع أبيه؛ أخذ خاتمه من يده ، وسار ببعض العساكر إلى حلب ، فملكها هي وتوابعها في ربيع الاخر سنة 541هـ/1146م[4] ، وكان عمره ثلاثون سنة. كما كان مع زنكي أيضاً على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي ، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه مُنذ سنة 521هـ/1127م ، حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود[5].

وقد ذكر المؤرخون: أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد ، وأن يبعد أولاده عنها ، فجمع العساكر ، وأعدَّ العدة للتوجه إلى الموصل ، بقصد الاستيلاء عليها ، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني[6] ، قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة الزنكية ، وإبقائها في أيدي أولاد صاحبه ، وولي نعمته عماد الدين زنكي.

فما أن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياغسياني ، حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهما من خلاف ، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي ، وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي[7] عنها ، حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى صلاح الدين الياغسياني يقول له: «إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقاً يبقى فيه الملك في أولاد صاحبنا ، ونجهز بيته جزاءً لإحسانه إلينا ، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد ، واجتمعت عليه العساكر ، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ، ونتداركه في بدايته؛

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 49.
(2) البداية والنهاية (425/16).
(3) الباهر ص 182 نور الدين محمود ص 49.
(4) زبدة حلب (285/2) الحياة في العهد الزنكي ص 42.
(5) الباهر ص 71 ، 72 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 42.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 42.
(7) نهاية الأرب نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 43.

ليتسعن الخرْق ، ولا يمكن رقعه» ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف كلُّ واحد منهما لصاحبه[1]، وكان أول عمل قام به جمال الدين ، وصلاح الدين أنْ أرسلا رسولاً على وجه السرعة إلى زين الدين علي كُجَك نائب زنكي في الموصل ، يخبراه بما حصل لزنكي فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها ، وتسلمها قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها[2].

أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفَّل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومخادعته ، ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل ، وظلَّ يتنقل من مكان إلى اخر في الجزيرة ، حتى تفرق معظم أصحابه عنه ، ثم اتجه إلى الموصل فقُبض عليه ، وأودع السجن ، ولم يأت له ذكر بعد هذا التاريخ[3].

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين ، بين ولديه سيف الدين غازي ، الذي حكم الموصل، والجزيرة ، ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب ، وما جاورها من مدن الشام. أما أخوهما نصرة الدين أمير أميران[4] ، فقد حكم حرَّان تابعاً لأخيه نور الدين محمود ، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود ، لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل. وكان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين ، وأدَّى الوضع الجغرافي الشرقي إلى أن:

. يرث غازي الأول المشاكل الداخلية مع كلٍّ من الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية في العراق:

أ . يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.

ب . يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم ، والداشمنديين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي؛ فقد ورث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين الممثلتين بأتابكية دمشق ، والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي:

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكيين في كلٍّ من الموصل ، وحلب علاقات وثيقة ، بفعل الروابط الأسرية من جهة ، واشتراك ال زنكي عامة بهدف واحد ، وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام. وكانت حلب تشكل بالنسبة للموصل خط الدفاع الأول وصمَّام الأمان ضدَّ أيِّ خطر تتعرض له ، فنشأت نتيجة لذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول ، صاحب الموصل ، وأخيه نور الدين محمود ، صاحب حلب ، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول.

إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً ، كان لا يلبث أن تتلاشى لتعود المحبة والألفة[5] ، فبعد استقراره في الموصل ، والجزيرة ، وبعض مناطق بلاد الشام كحمص ، والرحبة،

(1) الباهر ص 84 ، 85.

(2) تاريخ دولة ال سلجوق ص 191 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 44.

(3) مفرج الكروب (109/1).

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 44.

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 168 ، 169.

والرقة ، كان على سيف الدين غازي الأول أن ينسّق مع أخيه نور الدين محمود في حلب ، ويتعاون معه لاستكمال سياسة والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين ، مُدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لمهاجمتها ، بالإضافة إلى الظهور ، بمظهر القوة أمامهم ، لذلك رأى ضرورة الاجتماع بأخيه بين وقت واخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية ، بسبب توزيع الإرث الزنكي.

ويبدو: أن العلاقات بين الأخوين تعرضت لأزمة عابرة ، عقب وفاة والدهما بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه نور الدين محمود يدعوه للحضور إليه ، إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معلِّلاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين[1]، وقد كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت في الفتور في العلاقة بين الأخوين ، وهي:

أ ـ رأى سيف الدين غازي الأوّل: أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه ، عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لخضة سياسية ، أثارها الملك ألب أرسلان السلجوقي بهدف الاستيلاء على السلطة ، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد ، ثم يستأذنه في العودة إلى بلاد الشام.

ب ـ عدَّ سيف الدين غازي الأول ، تصرف أخيه نور الدين محمود ، بعد مقتل والدهما أمام قلعة جَعْبَر خروجاً على التقاليد الأسرية ، عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للابن الأكبر[2].

ج ـ رأى سيف الدين غازي الأول ، في تصرُّف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية؛ لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب ، يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل[3].

دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نور الدين محمود للاجتماع به ، وتسوية الأمور بينهما ، وقد تصرَّف صاحب الموصل بحكمة لإزالة أسباب التوتر ، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرُّها ، التي كانت تدخل في منطقة نفوذه ، بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في أواخر عام541هـ/ربيع الثاني 1147م والواقع: أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرُّها المهدَّدة ، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها[4]. وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابور. وفي هذا الاجتماع ، اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور ، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهته[5] ، ولشدة حذر نور الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كلٍّ منهما خمسمئة فارس ، فقبل سيف الدين ، وخرج نور الدين؛ ومعه خمسمئة فارس ، فرأى أخاه سيف الدين وليس معه إلا خمسة فرسان فتأكد من حسن نيته ، واقتربا ، وتعانقا ، وبكيا. وقال له سيف الدين من لي غيرك يا نور الدين ، ولمن أدخر الخير إن أسأت إلى أخي ، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة ، وصفت الأمور بينه وبين أخيه[6] ، وسكن روعه ، وعاد إلى حلب[7] ، حيث جمع عساكره ، وتجهَّز، ثم عاد

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 170.

(2) المصدر نفسه ص 170.

(3) المصدر نفسه ص 170.

(4) الباهر ص 87 ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 170.

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 170.

(6) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (172/1).

(7) الباهر ص 87 ـ 88 تاريخ الزنكيين في الموصل ص 171.

للاستقرار في كنف أخيه ، ووضع نفسه تحت تصرفه ، إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده ، وقال له: «لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنا». فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه ، وعاد كل واحد منهما إلى بلده[1].

1 . وفاة سيف الدين غازي الأول: استطاع سيف الدين ، ونور الدين أن يحلا المشاكل ، التي بينهما ، وتعاونا على البر والتقوى ، وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل جنباً إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين ، وذلك في الدفاع عن دمشق ضدَّ الصليبيين؛ الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام 543هـ/1148م ، ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق.

ومن مظاهر التعاون أيضاً: اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة ، وطرد الصليبيين منه، كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنِّب ، وفي فتح أفامية سنة 544هـ/1149م[2].

إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادى الاخرة من سنة 544هـ/1149م بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ، ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل[3] ، وكان رحمه الله جميل الصورة ، وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة ، وخلَّف ذكراً رباه عمه نور الدين محمود وزوَّجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي ، ثم توفي ولد سيف الدين شاباً ، وانقرض عقبه[4].

وكان سيف الدين غازي جواداً، كريماً، شجاعاً، وهو الذي بنى المدرسة الأتابكية بالموصل ، وقفها على الفريقين: الحنفية ، والشافعية ، وبنى رباطاً للصوفية ، وكان مقصداً للشعراء ، فقصده شهاب الدين الحيص ، وامتدحه بقصيدة قال فيها:

أتابكُ إن سميت في المهد غازياً ... فسابقة معدودة في البشائر
وَفَيتَ بها والدِّين قد مال روْقه ... وصدَّقتها والكفر بادي الشعائر

وقد أجازه سيف الدين بألف دينار أميري ، سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب[5]. وعزَّى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه سيف الدين بقصيدة ، منها:

وكان نظيرك غارَ الزمان ... من أن يرى لك فيه نظيرا
فدتك نفوسٌ بك استوطنت ... من الأمن نوراً وقد كُنَّ بورا
بقيت مُعزَّاً من الهالكين ... توقَّى الرَّدَى وتوقَّ الأجورا
وما نقص الدَّهرُ أعدادكم ... إذا شفَّ قطراً وأبقى بحورا
ولو أنصف المجد موتاكم ... لَخَطَّ لهم في السَّماء القبورا

---

(1) الباهر ص 92 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 47.
(2) مفرج الكروب (116/1).
(3) مفرج الكروب (116/1).
(4) مفرج الكروب (116/1).
(5) كتاب الروضتين (228/1 . 229).

حـيـاتـك أحـيـت رمـيـم الحـيـاة وأَمْـطَـتْ مـن الجـود ظـهـراً ظـهـيرا[1]

وأما القيسراني فقد قال قصيدة في تعزية نور الدين:

مـا أطرق الجـوُّ حتى أشـــرق الأُفُـق إن أُغمد السـيف فالصَّـمصـام يأتلق

دون الأســى منك نور الدين في حلب مُـلَّـك ينجلي عن وجهـه الغَسَـقُ

كنت الشـقيق الشـفيق الغيب حين نوى أراق مـاء الكَرَى من جفنـك الأرَقُ

تلقى الأسـى في لباس الصـبر في جُنَنٍ[2] حصـينـة تحتهـا الأحشـاء تحترق

ومـدة الأجـل المحـتـوم إن خـفـيـت فـإنَّ أيامـنـا مـن دونهـا طُـرُقُ

وإنمـا نحـن في مضـمـار حـليـتـهـا خيـل إلى غـايـة الأعمـال تسـتبق

إلى أن قال:

مـا دام شمسـكَ فـينـا غـير آفـلـةٍ الـدِّيـن منـتظم والملـك مُـتَّسِـقُ[3]

2 . تَوَلِّي قطب الدين مودود زنكي إمارة الموصل: اتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني ، وزين الدين علي كُجك أمير الجيش على أن يخلف قطب الدين أخاه على الموصل ، فأحضراه ، وحلَّفا له الأمراء ، والعساكر في الموصل ، وتسلَّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل[4].

وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة ، كادت تؤدي إلى اندلا ع الحرب بين الأخوين ، لولا أن قطب الدين تدارك الأمر ، ووضع حدّاً لنزاعه مع أخيه نور الدين ، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى أن بعض الأمراء في الموصل ، وأعمالها . وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنجار . راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سناً من أخيه قطب الدين[5].

ويضيف ابن الأثير سبباً اخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم ، وحسدهم للوزير جمال الدين ، ولأمير الجيش زين الدين علي كجك ، للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل[6]. وقد لقيت هذه المبادرة قبولاً طيباً عند نور الدين ، وطمع في ضم بلاد الجزيرة ، والموصل تحت ملكه ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادةٍ موحدة ، وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين.

فجدَّ نور الدين في السير ، وقطع الفرات متجهاً إلى سنجار فاستولى عليها[7]، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار؛ إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون وعدُّوا ذلك اعتداءً مباشراً عليهم على اعتبار أن

---

(1) المصدر نفسه (230/1).

(2) مفردها جُنَّة: وهي الدرع.

(3) كتاب الروضتين (230/1).

(4) الباهر ص 94 زبدة حلب (296/2).

(5) الباهر ص 95 زبدة حلب (296/2) الحياة العلمية ص 48.

(6) الباهر ص 95 الحياة العلمية ص 48.

(7) الباهر ص 95 ، 96 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 48.

سنجار تابعة لهم ، فتجهز قطب الدين ، وخرج بعساكره نحو سنجار ، فنزل بتل يَعفُر[1] ، وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على أخذ سنجار ، واعتداءه على أملاك أخيه قطب الدين مودود ، وهدداه بقصده؛ إن هو لم يرحل عن البلد ، ولكن نور الدين لم يلتفت لتهديدهما وردَّ عليهما بقوله: «إنني أنا الأكبر ، وإني أحق أن أدبِّر أمر أخي له منكم ، وما جئت إلا لما تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم ، فخفت أن يحملهم الغيظ ، والأنفة على إخراج الأمر من أيدينا ، وأما تهديدكم إياي بالحرب ، والقتال ، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم»[2].

أدرك الوزيران جمال الدين محمد ، وزين الدين علي ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار ، فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه ، والتنازل عن بعض المواقع في الشام ، والتي كانت تتبع للموصل مثل حمص ، والرحبة ، والرقة[3]، مقابل انسحاب نور الدين من سنجار ، والعودة إلى حلب. فوافقهما قطب الدين ، وتمَّ الاتفاق بين الأخوين ، وانسحب نور الدين من سنجار محملاً بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار في أيام أبيه[4].

وقد بلغت العلاقات بين الأخوين درجة من التحسُّن جعلت نور الدين يقوم في عام (554هـ/1159م) على اختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده ، عندما أحسَّ بضعفه ومرضه ، وقد أوفد نور الدين إلى أخيه قطب الدين وفداً يخبره بالموقف ، وباتفاق الأمراء على توليته العهد بعده ، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام ، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه من الموصل؛ وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين ، وقيامه من مرضه ، فأقام قطب الدين حيث هو ، وأرسل وزيره جمال الدين محمد لمقابلة نور الدين محمود ، والوقوف على تطورات الموقف هناك فوصل الوزير دمشق في صفر سنة (554هـ/1159م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين ، ووضع إمكانياته في خدمته ، فشكره نور الدين على ذلك ، وعبَّر له عن شكره لمشاعر أخيه قطب الدين مودود[5].

وعلى العموم كانت صلة نور الدين بإخوانه وثيقة. يقول ابن الأثير في حقهم: «إن الله سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال ، ومحاسنها ، وحسن السيرة وعمارة البلاد ، والرفق بالرعيّة إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها». ويقول: أظن: أنَّ القائل أرادهم بقوله:

هيِّنون لَينون أيسارٌ بنو يسرٍ ... سُوَّاسُ مكرمةٍ أبناءُ أيسار

لا ينطقون على العوراء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكبار[6]

---

[1] تل يعفر: ويقال أعفر: وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل.

[2] الباهر ص 96 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 49.

[3] الرّقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران مسيرة ثلاثة أيام.

[4] الباهر ص 96 . 97 ، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص 49.

[5] كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 50.

[6] الباهر ص 15 نور الدين زنكي في الأدب العربي ص 51.

المبحث الثاني : أهمُّ صفات نور الدين زنكي

إنَّ مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤولية ، وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين ، وخوفه من محاسبة الله له ، وشدَّة إيمانه بالله وباليوم الاخر ، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاب في شخصيته ، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام ، وتعبُّد الله بتعاليمه ، وتميَّزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة ، والتي من أهمها:

أولاً: الجدية والذكاء المتوقد:

مُنذ البداية ، والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسدِّ أيِّ فتقٍ ، أو اعتداء من قِبل الأعداء.

فلما قُتِلَ عماد الدين زنكي 541هـ يقول ابن الأثير: «كان جوسلين الفرنجي في ولايته غربي الفرات ، (تل باشر وما جاورها) فراسل أهل الرُّها ، وكان عامتهم من الأرمن ، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك فسار في

عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجدَّ في قتالهم. فبلغ الخبر إلى نور الدين، فسار مجداً إليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرُّها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها ، فلم يبق منهم إلاّ القليل ، وأجلى من كان بها من الفرنج»[1].

وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام 539هـ ، وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النَّهب ، والسلب ، والتخريب ، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة ، وحمى كنائسهم وممتلكاتهم ، في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز ، والتفرقة الدينية. أما وقد تآمروا ـ ثانية ـ في آخر عهد زنكي ، وثالثة بعد مقتله لإعادة الرُّها إلى السيطرة الصليبية منها يجيء الرد بمستوى الجد الذي يقتضيه الوقت إذا ما أُريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً ، وألاَّ يعود ثانية إلى قبضة الغزاة[2].

وفي عام 567هـ هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملوءين بالأمتعة مكتظين بالتجار ، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم ، فنكثوا ، فلما سمع الخبر؛ استعظمه ، وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه ، فغالطوه ، فلم يقبل مغالطتهم ، وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته كما يقول ابن الأثير؛ إذ ما لبث أن جمع عساكره ، وبثَّ سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية ، وطرابلس ، وقام بحصار حصن عرقة ، وتخريب ربضه ، والاستيلاء على حصني صافيتا ، والعزيمة الشمالي ، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين ، يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين ، وتجديد الهدنة بين الطرفين ، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسَّة ـ كما يبدو ـ إلى هدنة كهذه[3].

ويوم بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح ـ الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين ـ إلى حميه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم. فقام نور الدين ، وقعد ، وهجر الراحة للأخذ بثأره ، فأذكى العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان ، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً ، أو أسراً؛ لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج ، وحَذِرَ ، وامتنع ، فأخلد إلى إعمال الحيلة[4].

وكان نور الدين ـ كما يقول ابن الأثير: «إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين ، خوفاً من نصرةٍ تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء»[5].

وهكذا ترتبط جدِّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه ، الذي حقق له الكثير من المكاسب ، والمنجزات ، والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل ، كان كما يقول ابن الأثير: «يكثر إعمال الحيل ، والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به».

ويضرب على ذلك مثلاً في سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن في بلاد الأناضول ، فإنه ما زال يخدعه ، ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ، وكان يقول: «إنما حملني على استمالته: أنَّ بلاده حصينة

---

[1] الباهر ص 86 ـ 87 نور الدين محمود زنكي ص 12.

[2] نور الدين محمود ص 12.

[3] الباهر ص 154 ـ 155 نور الدين محمود ص 13.

[4] زبدة حلب (301/2 ـ 302) نور الدين محمود ص 13.

[5] الباهر ص 103 نور الدين محمود ص 13.

وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها ـ إذا أراد ـ فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طُلب انحجر فيها فلا نقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا؛ بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التالف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج» وحين توفي نور الدين وسلك مَنْ بعده غير هذا الطريق؛ ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم ، وخرق واسع لا يمكن رقعه[1].

وفي محاولته فتح دمشق أدرك: أنَّ اعتماد العنف سيستفز حكَّامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين ، والاستعانة بهم ، فعمد إلى أعمال الحيلة والسياسة ، فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ، ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ، ويظهر له المودة حتى وثق إليه ، وأخذ نور الدين يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه ، وإنهم بصدد الاتصال به ضدَّ ملكهم ، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه ، فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها؛ انتقل نور الدين خطوة أخرى ، فاتصل بأحداث دمشق (أي: حرسها الشعبي) وجماهيرها ، واستمالهم ، فأجابوه إلى تسليم البلد ، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق ، وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء[2]. فحقق بذلك الهدف الكبير ، الذي طالما سعى له أبوه قبل ذلك ، وحينما بعث إليه الفاطميون ـ كما سيأتي بيانه بإذن الله ـ يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لانشغالهم عن مهاجمة مصر ، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة: «إن أهل دمشق أعداءٌ ، والإفرنج أعداء ، ما امن منهما إذا دخلت بينهما»[3].

ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين؛ حيث أغار على طبرية ، وجمع بعض أعلام الصليبيين ، وشيئاً من ملابسهم ، وسلاحهم ، وسلَّمها إلى أحد جنده قائلاً: «أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس ، وتخبر أسد الدين شيركوه ، المحاصر هناك ، بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام ، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس ، فإنَّ ذلك مما يفتت في عضد الكفار ، ويدخل الوهن عليهم». ففعل أسد الدين ما أُمر به ، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا ، وخافوا على بلادهم ، وسألوا حليفهم شاور ـ الوزير المصيري ـ الإذن بالانفصال[4].

كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصن المنبطرة بالشام 561هـ ، فهو لم يحشد له، ولا جمع عساكره؛ وإنما سار إليه في سريّة من الفرسان على حين غرة من الصليبيين ، حيث أدرك: أنه بجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم ، وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت ، وبعد قتال عنيف سقط الحصن. ولم يجتمع لدفعه إلاَّ وقد ملكه ، ولو علموا: أنه في قلةٍ من العساكر؛ لأسرعوا إليه ، إنما ظنوه أنه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا ، وأيسوا من ردِّه[5] ، فهذه الأحداث ، تظهر صفة الجدِّية ، والذكاء المتوقد في شخصية نور الدين.

---

(1) الباهر ص 169 نور الدين محمود ص 13.

(2) الباهر ص 107 ـ 108 زبدة حلب (303/2 ـ 305).

(3) الاعتبار ص 14 نور الدين محمود ص 14.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 15.

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين ص 15.

ثانياً: الشعور بالمسؤولية:

تولَّد عن ورع نور الدين وتقواه إحساس شديد بالمسؤولية ، وظهر في جميع أعماله وحالاته ، فالخشية من الله تعالى تجعله دائماً في موقع المحاسب لنفسه ، المراقب لها ، حتى لا تتجاوز إلى ما يغضب الله ، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق برعيته ، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ، ودمائهم ، وحقوقهم ، حتى لو كانوا من غير رعيته ، فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو؛ مسؤول إذا قصَّر في تقديم هذه المساعدة.

يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية[1] في رسالة نور الدين محمود إلى إيلدكز أمير أذربيجان، وأرمينية، وهمذان، والري جواباً على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل ، ويتهدده بأن لا سبيل له إليها. قال نور الدين للرسول: «قل لصاحبك: أنا أرحم ببني أخي (يعني: سيف الدين غازي) منك ، فلمَ تدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام ، وأهملت الثغور حتى غلب الحرج عليها ، وقد بليت أنا وحدي ، بأشجع الناس الفرنج ، فأخذت بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم عن المسلمين»[2].

كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباءً ، والدم المسلم من أن يُهدر ، والكرامة الإسلامية من أن تهان ، والأرض الإسلامية من أن تُغزى ، وتُقتطع[3]. فحينما علم في عام 544هـ/1149م بتحالف الصليبيين قال: «لا أنحرف عن جهادهم».

إلا أنه مع ذلك كان يكفُّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع ، ويحسن الرأي في الفلاحين ، ويعمل على التخفيف عنهم ، الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها ، فراحت تدعو له بالنصر. وكتب إلى زعماء دمشق: «إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين...بأن الفلاحين أُخِذَتْ أموالهم وسُبِيَتْ نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم ، فلا يسعني مع ما أعطاني الله ـ وله الحمد ـ من الاقتدار على نصرة المسلمين ، وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم ، والذبِّ عنها ، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي ، وبَذْلُكُمْ لهم أموال الضعفاء ، والمساكين من الرعبة ظلماً لهم ، وتعدياً عليهم ، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ، ولا أحداً من المسلمين»[4].

وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق ، وكثير من أجنادها بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين ، والتقى بعدد من الطلاب ، والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحداً من قاصديه[5]. وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية على عدم القيام بهجوم على البلد تحرُّجاً من قتل المسلمين ، وقال: «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً

---

[1] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص 132.

[2] زبدة حلب (332/2 . 333) نور الدين محمود ص 17.

[3] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 407.

[4] دمشق ص 308 . 309 لابن القلانسي نور الدين محمود ص 16.

[5] ذيل تاريخ دمشق ص 310 نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 17.

، وأنا أُرفِّههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»[1]. فهو يعلم جيداً: أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو ، وإذا قدرت على حماية دمها؛ بذلته رخيصاً في مجاهدة هذا العدو.

معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم ، وانتصاراتها على السواء[2].

ومن ثم كانت عادة نور الدين كما يقول أبو شامة: «إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، إما ليستعين على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ، ومصر ، وغيرها»[3]. لقد كان الدم عنده عظيماً ، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل[4].

ثالثاً: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث:

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل ، والأحداث ، واضعاً عينيه على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب. ففي عام 552هـ شهدت الجهات الوسطى ، والشمالية من بلاد الشام زلازلاً عنيفةً ، تتابعت ضرباتها القاسية ، فخرَّبت الكثير من القرى والمدن ، وأهلكت حشداً لا يحصى من الناس ، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع ، فما كان من نور الدين إلاَّ أن شمَّر عن ساعد الجدِّ ، وبذل جهوداً عظيمةً في إعادة إعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته. فعادت البلاد كأحسن مما كانت ، ولولا أن الله منَّ على المسلمين بنور الدين ، فجمع العساكر ، وحفظ البلاد؛ لكان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار[5].

وفي عام 565هـ ضُرِبَتْ بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل ، لم تقلَّ هولاً عن سابقتها ، خرَّبت الكثير من المدن ، وهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحدِّ ، والإحصاء ، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك ، لإعادة إعمار ما تهدَّم من أسوارها وقلعتها ، ولم يجأر إلى الله بالشكوى ويعلن أن الظلم قد فشا ، وإن هذا عقاب الله فقط ، أو إنه إشارات الساعة ، قد لاحت في الأفق القريب ، وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد ، وهلاك كثير من أهليها ، فرتَّب في بعلبك من يحميها ويعمرها ، وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ومنها إلى حماة ، فبعرين.

وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ، لا سيما قلعة بعرين فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب ، فلما شاهد ما صنعته الزلازل بها ، وبأهلها؛ أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد ، وجوامعها ، وأخرج من المال ما لا يقدَّر قدره[6].

إنَّ الكوارث ـ التي يبتلي الله بها عباده ـ تأتي بمثابة تحديات دائمة ، تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز ، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم والتجارب السياسية والحضارات خطوات إلى الأمام.

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 17.

(2) المصدر نفسه ص 17.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 17.

(4) الباهر ص 107 نور الدين محمود ص 17.

(5) الباهر ص 110 ـ 112 نور الدين محمود ص 18.

(6) الباهر ص 45 ، نور الدين محمود الرجل والتجربة.

والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ، ويصيبها بالعجز والشلل والجمود ، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول ، وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة ، وواصل الطريق[1].

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال؛ كانت في الموصل خرابة واسعة في وسط البلد أشيع عنها: أنه ما شرع أحدٌ في عمارتها إلاَّ من ذهب عمره؛ ولم يتم على مراد أمره. فأشار الشيخ عمر الملاء أحد صالحي المدينة ، وشيوخها الورعين بابتياعها ، وبناء جامع كبير فيها ، تقام فيه الصلوات ، وتخطب الجمع ، وتدرس العلوم ، ففعل نور الدين ، وأنفق فيه أموالاً كثيرةً[2].

وعلَّق الدكتور عماد الدين صاحب كتاب (نور الدين محمود الرجل والتجربة) على هذه الحادثة ، فقال: «لم يضرب نور الدين الخرافة ، والشائعة بالكلمة ، ولكنه ضربها بالفعل ، وبالإنجاز ، وزالت الخرافة» ، ولكن المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها ظلَّ حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين ، والدارسين[3].

رابعاً: نزعته للبناء والإعمار:

إنَّ الحاكم الناجح في نظره هو ذلك يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران ، والتحضر بأقل قدر من الزمن[4] ، فقد بنى نور الدين المساجد ، والربط ، والزوايا للتعبد ، وتربية الروح ، كما أنشأ المدارس ، ودور الحديث للتعليم وتربية العقل ، وشجّع أعمال الفروسيّة ، وسائر النشاطات الرياضية ، لكسب المزيد من المهارات القتالية ، وتنمية الجسد ، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين ، والمارستان لمعالجة المرضى ، وأقام الجسور ، والقناطر ، والحدائق ، والقنوات ، والأسواق ، والحمامات ، والمخافر ، وشقَّ الطرقات العامة ، فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية ، والعمرانية[5].

ولم يغفل نور الدين ـ وهو بصدد البناء والإعمار ـ عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع. ورجلٌ كنور الدين خرَّجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون والشكل في الوقائع والجماليات وجهين لعملة واحدة[6] ، فقد أوقف بستان الميدان ، والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ، ومدارسها ، لكي يظل هواؤها معبقاً بالروائح الطيبة والشذا العبق.

وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث إنه حدَّد مصارف وقفه المذكور: نصفه على تطييب جامع دمشق ، والنصف الاخر يقسم عشرة أجزاء ، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفيَّة، والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب

---

(1) الباهر ص 45 ، نور الدين محمود الرجل والتجربة.
(2) نور الدين محمود ص 19.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 19.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 19.
(5) نور الدين محمود ص 19.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 21.

المساجد التسعة في دمشق وأطرافها[1]. وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب من مدينة أفامية مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف ، الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرُّخام[2] ، ولما دخل قلعة دمشق عام 549هـ أنشأ بها داراً عامة ، في غاية الحسن سمَّاها دار المسرَّة[3]، وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة ، وأقام ميداناً «خضَّره بالحشيش» وسمي الميدان: الميدان الأخضر[4].

ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات؛ حيث أمر في عام 552هـ نور الدين بزينة قلعته، ودار مملكته بحيث حلَّى أسوارها بالآلات الحربية، من الجواشن، والدروع، والتروس ، والسيوف ، والرماح ، والطوارق ، والإفرنجية ، والأعلام ، والطبول ، والبوقات ، وأنواع الملاهي المختلفات ، وهرعت الأجناد ، والرعايا ، وغرباء البلاد لمشاهدة الحال ، فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام[5].

لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته ـ إذا صح التعبير ـ مناسبةً تماماً لمدينة كدمشق ، تتزعم حركة الجهاد ، وتقف في قلب التحدي. وتبدو نزعة نور الدين للإعمار ، والتحضر أكثر ما تبدو في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية ، وجعلها تمارس حياة الاستقرار ، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام ، والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج[6]، ونقل أعراب بني عباد من البلقاء ، والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق ، ورغم: أن هذه الخطوة انصبت على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبي المنطقة: وإرشادهم على الطرق ، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم ، كما أشارت الرواية المذكورة[7] ، إلا أنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً[8].

وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير ، الرحَّالة الذي زار دمشق ، ووصف معالمها بعد سنوات ، فحسب من وفاة نور الدين ، ولا شك ، أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي نتحدث عنه ، لأن تغييرات جغرافية المدن ، لا تقاس بالسنين المحدودة ، بل بعقودها على أقل تقدير.

يقول الرجل ، مشيراً إلى الاتساع العمودي لدمشق: «وبناء البلد ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن ، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً ، وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها ، وبدمشق ما يقرب من مئة حمَّام فيها وفي أرباضها ، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب؛ لأن المرافق بها كثيرة .. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً»[9].

---

(1) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 21.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص21.

(3) المصدر نفسه ص 21.

(4) مراة الزمان (306/8) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 22.

(5) المصدر نفسه.

(6) مراة الزمان(306/8) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 22.

(7) البرق ص 125 ـ 126 نور الدين محمود ص 22.

(8) المصدر نفسه.

(9) المصدر نفسه ص 24.

وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه .كما سنرى في الفصول التالية . فراحوا يتسابقون في بناء المدارس ، والمساجد ، ومؤسسات الخدمات الاجتماعية ، وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد ، ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود ، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك[1].

خامساً: قوة الشخصية:

كان نور الدين محمود قوي الشخصية ، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة ، والشدة واللين ، والعنف والرحمة[2] ، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان: «مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته ، وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة شديداً في غير عنف ، رقيقاً في غير ضعف»[3]. ويصف مجلسه ، فيقول: «وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء ، لا تؤبن فيه الحرم ، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدَّى هذا».

وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي: «كنا نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل:

كأن على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم؛ أنصتنا ، وإذا تكلمنا؛ استمع لنا[4]. وقال ابن كثير: «لم يُسْمَعْ منه كلمة فحش قط في غضبٍ ، ولا رضاً ، صموتاً وقوراً»[5].

وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه ، ويلزمهم بوظائف الخدمة ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب...وكان مع هذه العظمة ، وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه ، أو الصوفي ، أوالفقير؛ يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه ، وإذا أعطى أحداً منهم؛ أعطاه شيئاً كثيراً ، وقال: «هؤلاء جند الله ، وبدعائهم ننتصر على الأعداء ، ولهم في بيت الله حقٌّ أضعاف ما أعطيهم ، فإذا رضوا منا ببعض حقهم؛ فلهم المنَّةُ علينا»[6].

سادساً: محبة المسلمين له:

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة 552هـ قال: «وفيها مرض نور الدين ، فمرض الشام بمرضه ، ثم عوفي ، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً»[7]. وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمئة: «وفيها كبست الفرنج نور الدين وجيشه ، فانهزم المسلمون لا يلوي أحدٌ على أحدٍ ، ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشِّبحة[8] في رجله فنزل رجلٌ كرديٌّ ، فقطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا ، وأدركت الفرنج الكرديَّ فقتلوه[9].

---

(1) المصدر نفسه ص 24.
(2) المصدر نفسه ص 24.
(3) المصدر نفسه ص 24.
(4) الباهر ص 173 نور الدين محمود ص 24.
(5) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 24.
(6) الباهر ص 172 . 173 تاريخ الزنكيين ص 409.
(7) البداية والنهاية (382/16).
(8) الشبحة التي تربط بها يد الفرس من لباد ونحوه.
(9) البداية والنهاية (406/16).

وفيما ذكره ابن كثير ، يظهر الحبَّ العميق ، الذي تكنه الأمة لنور الدين ، وهذا الحب الربَّاني كان نابعاً من القلب ، وبإخلاص ، لم يكن حب نفاق. وما أبلغ تعبير ابن كثير: «مرض نور الدين ، فمرض الشام بمرضه» فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن ، ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية ، فهو يسهر؛ ليناموا ، ويتعب؛ ليستريحوا ، وكان يفرح لفرح المسلمين ، ويحزن لحزنهم ، وكان عمله لوجه الله. نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً. وصدق الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي عندما قال:

فـــإذا أحـــب اللـــه باطـــن عبـــده ظهـــرت عليـــه مواهـــب الفتـــــاح
وإذا صفـــت لله نيــــــة مصلــــــح مـــال العبـــاد عليـــــه بـــالأرواح[1]

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيء ، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها ، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود ، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع اللهُ له قبولاً عظيماً بين أمته ، أحبته الجماهير لجهاده ، وإخلاصه ، وتفانيه في خدمة الإسلام ، وامتدَّ هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته ، وحصونها ، وقراها إلى ما وراء الحدود ، وكسب جماهير خصومه من الداخل ، وهز عروشهم ، وقطع جذور مواقعهم من الأعماق ، وأزاحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها، دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيماً ، وليست تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد ، فمُنذ عام 543هـ حينما تقدم على رأس قواته ، للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق: شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه[2] ، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً[3] وأخذ يخرج إليه خلال المراحل التالية من الحصار. عدد كبير من الطلاب، والفقراء، والضعفاء، ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقائه الحقيقيين ، كما سيتبين لنا «فما خاب قصده» كما يقول ابن القلانسي[4].

أما فلاحو المنطقة؛ فكانت قلوبهم معه؛ لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم ، وأعلن: أنه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الصليبيين[5] ، وفي عام 547هـ عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادِّ المخلص ضد الصليبيين ، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر ، والأحداث[6] ، للخروج إلى قتاله. لم يخرج إلا القليل ، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج.

---

(1) الحركة السنوسية للصَّلاَّبي (7/2).
(2) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 25.
(3) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 308. 309 نور الدين محمود ص 25.
(4) ذيل تاريخ دمشق ص 310 نور الدين محمود ص 26.
(5) زبدة حلب (304/2. 305)نور الدين محمود ص 26.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 26.

وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ، ولا زحف خوفاً على المسلمين[1]. وقد عزَّز بذلك محبة الدمشقيين له ، فكانوا يدعون ليلاً ونهاراً أن يبدِّلهم الله سبحانه بالملك نور الدين[2]، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ، ويستميلهم. وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل ، والديانة ، والإحسان ، فوعدوه بالتسليم[3].

وقد دخل نور الدين دمشق عام 549هـ في فتح أبيض لم تُرَقْ فيه دماء ، وما ذلك إلا ـ بتوفيق الله ـ ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله مُنذ سنوات وسنوات. يقال: إن امرأة كانت على السور ، فدلت حبلاً ، فصعدوا إليه ، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ، ونصبوا علماً ، وصاحوا بشعار نور الدين[4]. وبعد أقل من ثلاث سنين ، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو ، خرج كلُّ قادر على حمل السلاح من أهل دمشق ، وتَبِعَ نور الدين في حملته تلك: فتيان البلد من الأحداث ، والغرباء ، والمتطوعة ، والفقهاء، والصوفية ، والمتدينين العدد الكثير[5].

وهناك رواية لابن الأثير تناقلها كثير من المؤرخين ، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع: طلب نور الدين عام 559هـ نجدات من أمراء الأطراف ، لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة ، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي ، حاكم حصن كيفا في ديار بكر ، فبلغني عنه: أنه قال له ندماؤه ، وخواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود ، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي بنفسه والناس في المهالك ، فكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر ، بالتجهيز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حالٍ نرى الان ضدها!! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً ، إن لم أنجده خرج أهل بلادي على طاعتي ، وأخرجوا البلاد من يدي ، فإنه كاتب زُهَّادها ، وعبَّادها ، والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل ، والأسر ، والنّهب ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ، ويبكون ، ويلعنوني ، ويدعون عليَّ ، فلا بد من إجابة دعوته ، ثم تجهز هو «أيضاً» وسار إلى نور الدين بنفسه.

إن نور الدين يتعامل مع الجماهير ، وأعيانها ، ورموزها ، وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها ، وتأييدها ، ومحبتها ، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة ، فإن تردد الحكام والأمراء ، أو جبنوا ، أو بخلوا؛ فإن بمقدور القواعد الأكثر ثقلاً وتأثيراً يومذاك أن ترغمهم على الطاعة ، وإلاّ عصفت بهم ، وأخرجت البلاد من أيديهم ، وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ، ودفعها إلى ساحات الجهاد[6] ، وما من شكٍّ في أن انسجاماً

---

[1] مراة الزمان (209/8 . 210) نور الدين محمود ص 26.

[2] البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 26.

[3] زبدة حلب (304/2 . 305).

[4] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود 26.

[5] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 27.

[6] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 28.

عميقاً ، يتحقق بين القيادة والقواعد ، ومحبة واعية تسود العلاقة بين الرجل ، والجمهور ، وتعاطفاً مخلصاً من أجل الأهداف الكبيرة. وما من شكٍّ: أن هذا ، وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته[1].

سابعاً: اللياقة البدنية العالية:

تطلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل ، والجهاد المضني ، جسداً قوياً قادراً على تحمُّل الأعباء ، والمشقات ، ولا يتمّ بناء الجسم القوي إلا بممارسة الرياضة ؛ ولذلك كان نور الدين مواظباً على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه ، بما يتعلق بالفروسية ، وأعمال القتال ، وكان بشكل خاص مولعاً بلعبة الكرة أو الصولجة ، التي تدعى في هذه الأيام بلعبة البولو[2].

ويصفه ابن الأثير بقوله:«من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها ، ولم يُر جوكانه يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة ، فتعلو ، فيجري الفرس ، ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى اخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب»[3]، وعندما احتجَّ عليه أحد الزاهدين من أصحابه؛ لأنه يلهو، ويعذب الخيل لغير فائدة دينية؛ قال: «والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو، والبطر، وإنما نحن في ثغر ، والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس؛ إذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً؛ إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضاً ، بسرعة الانعطاف في الكرِّ ، والفرِّ في المعركة ، فنحن نركبها ، ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها ، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة»[4].

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسيراً إسلامياً رائعاً في جوابه على اعتراض أحد إخوانه الزُّهاد عندما كتب له[5] ، ففي هذا التفسير المنطقي والتحليل التفصيلي للعبة البولو كشفٌ ، وتوضيحٌ لنفسية نور الدين ، فهو لا يلعب الكرة للعبث ، وإهدار الوقت ، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد ، وتحضير للجهاد ، تحضير لأجسام اللاعبين ، ولأجسام خيولهم ، وإشغال: أوقات الفراغ ، بما هو مفيد إضافةً إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية ، واستجمام ، وصفاء التفكير ، وذهاب الهمِّ للجنود والقادة ، وفي هذا الجواب لصاحبه الزاهد تظهر روح نور الدين الريّاضية في أعلى درجاتها ، فهو يخاطب الزاهد حسب مستواه من العلم ، والمعرفة ، ويأتيه من الباب الذي يقنعه ، دون أن يجرح شعوره باتهامه بقلة المعرفة ، أو التزمت ، أو التعصب[6].

وبهذا الموقف يبيّن لنا نور الدين فهمه للإسلام بالمنظور الشمولي الذي كان عليه رسول الله وأصحابه ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ، ومعاذ إلى اليمن ، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أوَّل الليل ، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحتسب نومتي كما

---

(1) المصدر نفسه ص 28.

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 134.

(3) الجوكان هو العصا التي تضرب بها الكرة.

(4) الباهر ص 168 . 169.

(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 33.

(6) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص 134.

أحتسب قومتي[1]. وفي كلام معاذ ـ رضي الله عنه ـ دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شؤون الحياة كلها ، وكلُّه حرص على إتقانها لكونها عبادة[2] لله.

إن من أخطر الانحرافات ، التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين ، انحرافهم عن تصور مفهوم العبادة ، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق ، الذي كان يمارسه نور الدين ، وانعكاسه على جنوده وشعبه ودولته ، والمفهوم الهزيل الضئيل ، الذي تفهمه الأجيال المعاصرة؛ لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض ، الذي نعيشه اليوم ، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها؛ لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

إن من شروط النهوض ، التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حسّ جيلنا: أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله ، كما نفهم من قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56] وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله تحققت انجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة النورية.

قال ابن الأثير: «في حديثه عن نور الدين محمود: وكان ـ رحمه الله ـ لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة ، ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرتُها انفاً ، ثم علق ابن الأثير بعد نهاية القصة ، فقال: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقلُّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة؛ حتى يصير من أعظم العبادات ، وأكثر القربات ، يقلُّ في العالم مثله ، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين»[3].

والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين ، وامتثالاً ، وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام :162]

إن من أسباب ضياع الأمة ، وضعفها ، وانهزامها أمام أعدائها فقدَها لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ، ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح[4].

وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ، ولعبه ، وجده ، وكان يمارس ألعاب أخرى تشبه في مغزاها وفائدتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ، ورمي القبق[5] فكانت رحلات الصيد الممتعة من رياضته الأخرى ، تحمل من الجدّ جنب متعتها البريئة ما يجعلها من بين المهارات الفروسية ، التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس ، والمجاهد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ٦٠

---

[1] البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعثة أبي موسى الأشعري رقم 42.

[2] فقه النصر والتمكين ص 197.

[3] عيون الروضتين (360/1).

[4] فقه النصر والتمكين ص 190.

[5] القبق: لعبة القبق عبارة عن خشبة عالية في أعلاها خشبة مستديرة ، توضع الخشبة في أرض مستوية ويتم رمي السهام عليها.

﴾ [الأنفال :60] ألا إنَّ القوة الرمي ، ألا إنَّ القوة الرمي[1] ، ألا إنَّ القوة الرمي». وقال: «من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا[2]».

وليس مهارات الصيد ـ في نظر نور الدين محمود زنكي ـ سوى محاولة من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي ، وحمايتها من التبدد والنسيان. وحكى أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد: وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد ، ويتعشق لعب الكرة ، والرماية؛ حتى مرضه الأخير ، الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل ، الذي قرّر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل حيث أقيمت الاحتفالات ، ورددت الأناشيد ، وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية ، كطعن الحلق ، ورمي القبق ، كما يقول العماد الأصفهاني. فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألماً حاداً ، وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل[3].

ثامناً: تجرُّدُهُ وزهده الكبير:

فهم نور الدين محمود زنكي ـ رضي الله عنه ـ من خلال معايشته للقران الكريم ، وهدي النبي صلى الله عليه وسلم ومن تفكره في هذه الحياة؛ بأنَّ الدنيا دار اختبار ، وابتلاء ، وعليه فإنَّها مزرعة للآخرة ، ولذلك تحرَّرَ من سيطرة الدنيا بزخارفها ، وزينتها ، وبريقها ، وخضع ، وانقاد ، وأسلم نفسه ظاهراً وباطناً ، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء ، أو عابري سبيل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل»[4].

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها ، ولا قيمة عند رب العزَّة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء[5] ، ألا إنَّ الدُّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله ، وما والاه ، أو عالماً ، أو متعلّماً[6]».

* وأنَّ عمرها قد قارب على الانتهاء؛ إذ يقول صلى الله عليه وسلم : «بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه: السبابة ، والوسطى»[7].

* وأن الاخرة هي الباقية ، وهي دار القرار ، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾ [غافر: 39 – 40][8]. كانت هذه الحقائق

---

(1) مسلم رقم 1917.
(2) مسلم رقم 1919.
(3) البرق ص 150 ـ 154.
(4) سنن الترمذي ، كتاب الزهد رقم 2333 وهو حديث صحيح.
(5) المصدر السابق رقم 2320.
(6) المصدر السابق نفسه 2322 حسن غريب قاله الترمذي.
(7) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة رقم 867.
(8) من أخلاق النصر في جيل الصحابة د.السيد محمد نوح ص 48 ، 49.

قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، فترفَّع ـ رحمه الله ـ عن الدّنيا وحطامها ، وزهد فيهما ، وإليك شيئاً من مواقفه:

1 ـ قال ابن الأثير: «وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري ، وكان خصيصاً بخدمة نور الدين ، قد صحبه من الصبا ، وأنس به ، وله معه انبساط ، قال: كنت معه في الميدان بالرُّها؛ والشمس في ظهورنا ، فكلّما سرنا تقدمنا الظل ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يتلفت وراءه وقال لي: أتدري لأيِّ شيءٍ أجري فرسي ، وألتفت ورائي؟ قلت: لا ، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها قلت: رضي الله عن مَلِك يفكِّر في مثل هذا ، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى ، وهما:

مثـــلُ الـــرزق الـــذي تطلبـــــــه مثـــــل الظـــــل الـــذي يمشـــي معـــك
أنـــت لا تدركـــــــه متبعـــــــاً وإذا ولَّيـــت عنـــــه تبعـــــــــك[1]»

2 ـ تشبَّه نور الدين محمود بعمر بن عبد العزيز في زهده ، وقد كان الأخير حاكماً لأقوى دولة على الأرض في زمنه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه ، ولا على أهله ، إلا من مُلكٍ اشتراه من سهمه من الغنائم ، وكان يُحضر الفقهاء ، ويستفتيهم فيما يحلُّ له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، فيأخذ ما يفتونه بحله ، ولم يتعداه إلى غيره البتة[2].

قال العماد الأصفهاني: «كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمَّة مبلغ ألفي قرطاس[3] ، يصرفه في كسوته ، ونفقته ، ومأكوله ، ومشروبه ، وحوائجه المهمة ، حتى أجرة خياطه ، وطباخه ، ومن ذلك المقرر المعين النزر ، ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ، ويفضه على المساكين ، وأهل الفقر[4]».

3 ـ وأما ما يهدى إليه من الثياب ، والألطاف ، وهدايا الملوك من المناديل ، والسكاكين ، والمهاميز ، والدبابيس ، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه ، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصِّل أثمانها الموفورة ، ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة[5].

4 ـ ولم يلبس قط ما حرَّمه الشرع من حرير ، أو ذهب ، أو فضة[6] ، وحكي لي عنه: أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهَّبةٌ ، فلم يحضرها عنده ، فوصفت له ، فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه في حديثها؛ إذ قد جاءه رجلٌ صوفي فأمر له بها ، فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له ، فقال: أعطوها له ، فإني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمئة دينار ، أو سبعمئة ، وأنا أشك: أنها كانت تساوي أكثر[7].

---

(1) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (261/1).

(2) الباهر ص 164 دور نور الدين محمود في نهضة الأمة 128.

(3) الكواكب ص 53 ـ 54 نور الدين محمود ص 39.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 39.

(5) البرق ص 143 ـ 144 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 40.

(6) الباهر ص 164 نور الدين محمود 40.

(7) الباهر ص 165 نور الدين محمود ص 40.

5 ـ قال رضيع الخاتون «زوجة نور الدين»: إنها قلَّت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قد قرّره لها ، فأرسلتني إليه ، أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية) فلما قلت له ذلك؛ تنكَّر ، واحمرَّ وجهه ، ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي؛ فبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ، ومرصدة لمصالحهم ومعدَّة لفتقٍ ـ إن كان ـ من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها! ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين مُلكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها. وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين دينارا[1].

6 ـ قال ابن كثير: «كان نور الدين عفيف البطن ، والفرج ، مقتصداً في الإنفاق على أهله ، وعياله في المطعم ، والملبس؛ حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه ، من غير اكتنازٍ ، ولا استئثار بالدنيا[2].

وكان عمر الملاّء رجلاً من الصالحين الزاهدين ، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه ، وكان يرسل له بفتيت ، ورقاق فيفطر عليه[3]. وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمدّ يده إليها إنما يأكل في طبق خاصٍّ فيه طعام بسيط[4].

* وأما مقرُّ سكن حاكم الجزيرة ، والشام ، ومصر ، واليمن؛ فكان داراً متواضعة ، تطلُّ على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، ألحق بها صُفَّةً يخلو فيها للعبادة ، فلما ضربت الزلازل دمشق ، بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب. فهو يبيت فيه ويصبح ، ويخلو بعبادته ، ولا يبرح[5]. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب[6].

7 ـ زهده في الألقاب: عندما تَفْقُدُ قيادةٌ ما القدرةَ على الإسهام الجادّ في حركة التاريخ؛ يتحوّل همها إلى منح النياشين ، والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وانكماشها ، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه المنح خوفاً أن يكون في طياتها الكذب ، والمبالغة ، والزيف ، وخوفاً أن تقوده إلى نوع من الاعتداد ، والغرور ، كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون ، أما نور الدين الذي علّمه التجرد كيف يكون الرفض؛ فإنه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله.

تلقَّى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ، ومعها «قائمة» بألقابه التي كان يُذْكَر بها على منابر بغداد:...اللهم أصلح المولى ، السلطان ، الملك ، العادل ، العالم ، العامل ، الزاهد ، العابد ، الورع ، المجاهد ، المرابط ، المثاغر نور الدين ، وعدَّته ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، رضيَّ الإمامة وأثيرها ، فخر الملَّة ومجدها ، وشمس المعاني وملكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين.

---

(1) الباهر ص 164 نور الدين محمود ص 40.

(2) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 41.

(3) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 41.

(4) مراة الزمان (315/8) نور الدين محمود ص 41.

(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 41.

(6) البرق ص 153 . 154 كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين ص 410.

لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب ، وطرح دعاءً واحداً يقول: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي[1]. وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأضواء عن الموضع ، وتتضمن كلمات وجملاً من إنشاء نور الدين نفسه..روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني . بعد أن استفزته كثرة الألقاب . يأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ، ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: «اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود زنكي».

فكان جواب نور الدين: هذا لا يدخله كذب ولا تزيُّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي ألاَّ يكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل؟ والتفت إلى وزيره قائلاً: الذي كتبت به جيد ، اكتب به نسخاً إلى البلاد[2].

ثم أضاف ثم يبدؤون بالدعاء: اللهم أَرِهِ الحق حقاً اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفقه..من هذا الجنس[3].

إن القيادة التي تريد أن تنهض بالأمة ، وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمِّي روح النفاق ، والتزلف للمسؤولين؛ لأن ذلك يوفر النقد البنّاء ، وحرية الرأي ، للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم ، فيصلحوها في حركته النهضوية ، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها ، وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا ، وما فيها من ملذات ، وشهوات ، ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات ، ولقد مدح ابن القيسراني نور الدين في زهده ، فقال:

يغشى الوغى أفرس فرسانها ... وفي التقى أزهد زُهَّادها[4]

ويقول أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زهدا[5]

ويصوره ابن منير من الصالحين الأبرار ، الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا ، فيقول:

لا زلت تقفو الصالحين مسابقاً ... لهُم وتَطلعُ خلفك الأبرار

نفس السيادة زهد مثلك في الذي ... فيه تفانت يَعْرُب ونزار[6]

تاسعاً: شجاعته:

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده ، عماد الدين زنكي ، الذي يضرب بشجاعته المثل ، فقد شارك نور الدين في كافة المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه (521 . 541هـ) ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده ، يشارك جنوده ، ويتقدَّم الصفوف ، ويعرض نفسه للشهادة.

---

(1) الكواكب ص 68 . 69 نور الدين محمود ص 42.
(2) مراة الزمان (322/8 . 323) نور الدين محمود ص 43.
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 274.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي ص 64.
(5) المصدر نفسه ص 64.
(6) ديوان ابن منير ص 192 نور الدين في الأدب العربي 65.

وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله: «وأما شجاعته، وحسن رأيه؛ فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ، ولا يتزلزل. وبلغني: أنه في الحرب رابط الجأش ، ثابت القدم ، صليب الضرب ، يقدم أصحابه عند الكرة ، ويحمي منهزمهم عند الفرَّة»[1].

وعندما فاجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام 558هـ/1163م ، ولم يتمكن هو ومن كان معه من الثبات ، انسحب باتجاه حمص مسافة اثنتي عشر كيلو متراً ، وتوقف حتى تجمَّع عنده من نجا من المعركة ، وأرسل في طلب الخيام ، والسلاح ، والمؤن من حمص ، وحلب ، وأقام معسكره في نفس المكان ، فنصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفاً من متابعة الفرنجة لهم ، فأجابه: إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلوا أم كثروا ، والله لا أستظل بجدار؛ حتى اخذ بثأر الإسلام وثأري[2]! ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوّات الكافية ، فتوجه بها نحو حارم؛ حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبرَّ نور الدين بقسمه[3]. وقد تحدَّث الشعراء عن صفة الشجاعة ، وشبهوا نور الدين بالأسد ، بل هو يأسر الأسود ، ويتغلب عليها ، يقول ابن القيسراني:

من باتــت الأُســد أســرى فـي سلاسلـــه ... هــل يأســر الغلــب إلا مــن لــه الغلــــــب[4]

ويقول أيضاً:

أنـــت حينـــاً تقـــــاس بالأســــــد ... الـــورد وحينـــاً تُعـــدُّ فـــي الأوليـــــاء[5]

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك ، ويصيد الأسود ، وهو فارس الفرسان ، ويسلب التيجان من الملوك الاخرين ، ويجوز الفخار لشجاعته وبطولته ، يقول العماد في مدحه:

يــا غالــب الغلــب الملــوك وصائـــــد ... الصِّيـــد الليـــوث وفـــارس الفرســـان

يــا سالــب التيجــان مــن أربابهـــا ... حــزت الفخــار علــى ذوي التيجـــــان[6]

وقال ابن قسيم الحموي:

تبــدو الشجــاعة مــن طلاقــة وجهـــه ... كالرُّمـــح دلَّ علـــى القســـاوة لينـُـــهُ

ووراء يقظتـــه أنـــاة مُجـــــرِّب ... للــــه سطــوة بأســـه وسُكُونـــــه[7]

وقال ابن منير:

---

(1) الباهر ص 168 دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 125.

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 125.

(3) الباهر ص 117 . 118 دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 126.

(4) كتاب الروضتين (154/1).

(5) المصدر نفسه (245/1).

(6) ديوان العماد ص 410 نور الدين في الأدب العربي ص 69.

(7) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي ص 70.

مـــلأ البـــلاد مواهبـــــاً ومهابـــــــــــة حتـــى استرقـــت آيـــة أحرارهـــــــــــــــــا[1]

وقال أيضاً:

متهلـــــل والمـــــوت في نبراتـــــــــــــه يُرجـــى ويرهـــب خوفـــه وعقابـــــــــــــــه[2]

عاشراً: مفهومه للتوحيد ، وتضرعه ، ودعاؤه:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ، ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة[3] ، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح ، وحقق الإيمان بكل معانيه ، والتزم بشروطه ، وابتعد عن نواقضه.

وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا: قال له قطب الدين النيسابوري ـ الفقيه الشافعي ـ مرَّةً: «بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم»[4] فقد نصحه بعدم الاشتراك بالقتال ، والمخاطرة بنفسه؛ حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، ومن ثم تؤخذ البلاد[5]. فقال نور الدين: يا قطب الدين اسكت؛ فإن قولك هذا إساءة أدب على الله ، ومَنْ محمود؛ حتى يقال له هذا؟! قبلي من حفظ البلاد ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو! فبكى من كان حاضراً[6].

وهذا الذي قاله نور الدين ـ رحمه الله ـ يدخل في صميم مفهوم التوحيد ، فالله هو الأول والاخر ، والظاهر والباطن ، وما الناس ابتداء من أصغر جندي فيهم ، حتى أكبر قائد إلا أدوات «فاعلة» في يده يحرِّكها وفق مشيئته ، وإرادته لتحقيق كلمته في الكون ـ الله عز وجل ـ وكفى[7]. هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله ، وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ؛ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء[8].

وفي ساحة الحرب ، حيث الموت على بعد خطوات ، وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة كان نور الدين يذوب تواضعاً ، وإشفاقاً ، وتصفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله ، حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر ، والحجب ، التي ظل يكافح من أجل تمزيقها؛ لكي يقف نقياً.

فعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين ، الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً ، انفرد نور الدين تحت تلّ حارم ، وسجد لربه عز وجل ومرَّغ وجهه ، وتضرع ، وقال: «يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيش فضول محمود في الوسط؟».

---

(1) ديوان ابن منير ص 217 نور الدين في الأدب العربي ص 70.

(2) نور الدين في الأدب العربي ص 70.

(3) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (359/1).

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 339.

(5) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 128.

(6) الباهر ص 169 ، الكواكب الدرية ص 30.

(7) الباهر ص 169 ، الكواكب الدرية ص 30.

(8) الباهر ص 169 ، الكواكب الدرية ص 30.

يقول أبو شامة: يشير نور الدين هنا إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وبلغني: أنه قال: اللهم انصر دينك ، ولا تنصر محموداً مَنْ الكلب محمود؛ حتى ينصر[1]؟!

وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمسمئة ، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين ، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة ، وطائفة يسيرة ، واقفاً على تلٍ يقال له: تل حبيش ، وقد قَرُبَ عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجَّالة المسلمين ، مع رجالة الكُفَّار ، فوقف الملك العادل بحذائهم مولّيا وجهه إلى قبلة الدُّعاء ، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه بسرِّه يقول: «يا رَبَّ العباد ، أنا العبد الضعيف ملَّكتني هذه الولاية ، وأعطيتني هذه النيابة ، عمرت بلادك ، ونصحت عبادك ، وأمرتهم بما أمرتني به ، ونهيتهم عما نهيتني عنه ، فرفعت المنكرات من بينهم ولا أملك إلا نفسي هذه ، وقد سَلَّمتها إليهم ذاباً عن دينك ، وناصراً لنبيك».

فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وأوقع في قلوبهم الرُّعب ، وأرسل عليهم الخذلان ، فوقفوا في مواضعهم ، وما جسروا على الإقدام عليه ، وظنوا: أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة ، وأن عسكر المسلمين في الكمين ، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمين ، فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا ، وما أقدموا عليه[2].

ومن خلال المواقف السابقة لا يبدو نور الدين فدائياً فحسب ، ولكن فقيهاً بقدر الله متبصراً بدور الإنسان في حركة التاريخ ، عالماً: أنَّ إرادة الله إذا شاءت تهيّأت لها الأسباب ، ولن يعجزها شيء؛ ولو مات ، أو قتل عشرات القادة والمجاهدين ، فإنَّ اخر رجل منهم سيحمل المهمة ، ويواصل الطريق ، ومن ثم يستوي ـ عبر هذه الرؤية ـ هذا القائد ، أو ذاك[3].

وكان نور الدين محمود في الليالي يصلِّي ، ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها ، وأركانها ، وركوعها ، وسجودها[4]. وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممَّن دخلوا ديار القدس للزيارة حكايةً عن الكفار: أنهم يقولون: «ابن القسيم ، له مع الله سرٌّ ، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدُّعاء وصلاة الليل ، فإنه يصلي بالليل ، ويرفع يده إلى الله ويدعو ، فالله سبحانه يستجيب دعائه ، ويعطيه سُؤله ، وما يَرُدُّ يده خائبة ، فيظفر علينا! فهذا كلام الكفَّار في حقه»[5].

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر ، ومهما أعدَّ المسلمون من أسلحةٍ، وعدَّةٍ، وعتادٍ، فإنهم يظلون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط ، إذا امتنعوا عن استخدام هذا السلاح ، أو أساؤوا

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 180.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (377/1 ، 378).

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 44.

(4) عيون الروضتين (255/1).

(5) عيون الروضتين (255/1).

استخدامه[1] ، ولذلك استخدمه بنفسه ، وطلب من الزهَّاد ، والعباد ، والعلماء ، والفقراء ، والفقهاء كذلك ، وكان مستوعباً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هل تنصرون إلا بضعفائكم»[2].

فالدعاء لله ، والتعلُّق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين مخُّ العبادة[3] ، لا بل هو سيد العبادات، وأقربها ، وأحبُّها إلى الله تعالى ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

«الدعاء هو العبادة[4] ، ومفتاح الرحمة ستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تنقطع بهم الأسباب»[5].

أيها الأخوة الكرام المهتمون بنهضة أمتهم ، والتمكين لدين الله تعالى في الأرض عليكم بالدعاء؛ فإنه كنزٌ حقيقي من جملة الكنوز التي تنطوي عليها الشريعة الإسلامية ، فالله تعالى يحض عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف: 55]. وفي مثل قوله تعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾ [فاطر: 60] وغالباً ما تحدث الإجابة عاجلاً أم اجلاً:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ١٨٦﴾ [البقرة : 186]

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي ، استيعابه العميق لفقه الدعاء ، ومقدرته على استخدامه كسلاح فتَّاك ضد الأعداء ، وحسن تضرعه ، وانكساره بين يدي المولى عز وجل.

الحادي عشر: محبته للجهاد والشهادة:

كان نور الدين محمود الشهيد ، من محيي عبادة الجهاد في سبيل الله ، ويجد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الثغور، قال العماد الأصفهاني: «حضرت عند نور الدين بدمشق . في شهر صفر . والحديث يجري في طيب دمشق ، ورقة هوائها ، وأزهار رياضها ، وكل منا يمدحها ، ويطريها ، فقال نور الدين: إنما حبُّ الجهاد يسليني عنها ، فما أرغب فيها»[6].

---

[1] مقومات النصر في ضوء القران والسنة (241/1).

[2] البخاري في كتاب الجهاد ، الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص 6.

[3] سنن الترمذي رقم 3368.

[4] صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، المستدرك (491/1).

[5] سنن الترمذي رقم 3368.

[6] البرق ص 126 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 45.

ومرة أخرى نلتقي به ، وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إياها عام 566 هـ فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها ، ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو ، وملازماً للجهاد[1].

وأما حبه للشهادة ، فقد قال عنه أبو شامة: كان في الحرب ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب الضرب ، يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ، وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السِّباع ، وحواصل الطير[2] ، كانت عقيدة الشهادة تحركه ، وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للموت ، فأسقطوا الدول ، وغيروا الخرائط ، وسحقوا العروش ، ومرغوا الأنوف ، ولم يموتوا ، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين ، وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها[3].

إن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، تربى على كتاب الله ، وهدي النبي صلى الله عليه وسلم فقد خص الله الشهيد بالذكر في القران الكريم في مواضع منها؛ قال تعالى:﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

[آل عمران: 140] . وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله عز وجل لبعض عباده الأخيار ، وأنَّ الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس ، فالله سبحانه وتعالى يكرِّم بها من يشاء من خلقه[4].

والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:69] في هذه الآية يبيّن الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه: أنهم مع النبيين والصديقين ، ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة.

ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة يوم يؤتى بهم مع النبيين ، ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله ، وذلك شرف عظيم ، وموقف عظيم نالوه بالشهادة ، يقول الله عز وجل في هذه الآية: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩﴾ [الزمر:69].

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة ، والنعيم الأبدي ، ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلى الشهادة ، وترغب لتفوز بالأجر العظيم[5] قال تعالى:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾

---

(1) الباهر ص 153 . 154 نور الدين محمود ص 45.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (35/1).

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 31.

(4) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القران والسنة ص 95.

(5) المصدر نفسه ص 96.

[عمران: 169. 170] . وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة : 154] .

وورد في السنة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم : «إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطَّلع إليهم ربهم اطّلاعة ، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، فعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكوا»[1].

فالشهيد فضله عظيم ، ومكانته رفيعة ، فإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ فضل المجاهدين على القاعدين ، فالشهداء أكثر فضلاً ، وأعظم تشريفاً[2]. ولقد قاتل نور الدين الأعداء ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى استحق لقب [3]، تشريفاً وتكريماً من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر: عبادته:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلي أكثر الليالي ، ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ، ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها ، وأركانها ، وركوعها ، وسجودها[4]، ويحافظ على الجماعة ، وكان كثير الابتهال إلى الله ـ عز وجل ـ في أموره كلها[5]. وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح[6].

وقال ابن الأثير: «حدثني صديق لنا بدمشق ـ كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين ـ فقال: كان نور الدين يصلّي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل ، وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة ، ثم يظهر للركوب ، ويشتغل بمهام الدولة»[7].

وقال ابن كثير: «كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعاً للآثار النبوية ، محافظاً على الصلوات في الجماعات ، كثير التلاوة ، صموتاً وقوراً[8]. كان نور الدين كثير الصيام ، وله أوراد في الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده»[9].

وعبارة: «فكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده» هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التعبد ، الذي هو غاية الخلائق ، ممارسة إيجابية ، تضرب في أعماق الناس ، فتغيِّر نفوسهم ، وتمتد إلى حركة التاريخ ،

---

(1) مسلم ، كتاب الإمارة (1502/3).
(2) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القران والسنة ص 97.
(3) نور الدين في الأدب العربي ص 48.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين الرجل والتجربة ص 46.
(5) البداية والنهاية (490/16).
(6) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 46.
(7) الباهر ص 164 ، نور الدين محمود ص 46.
(8) الكواكب ص 54 ، نور الدين محمود ص 46.
(9) الكواكب ص 54 نور الدين محمود ص 54.

فتصوغ مسيرته ، كانت طبيعةُ تعبُّد نور الدين تدفعه إلى المسؤولية ، وتجعله في قلبها ، وهو أعمق وعياً ، وأشد خشية، وأمضى عزيمة ، وأقدح ذكاء[1].

لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل ، وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستواه الشخصي والشعبي، وعلى دولته ، وتحقيق العبادة من شروط التمكين قال تعالى: وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧ [النور55 - 56] . فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه ، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه ، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر ، وتحقيق العبودية الشاملة ، ومحاربة الشرك بكافة أشكاله وأنواعه وخفاياه ، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم[2].

الثالث عشر: إنفاقه وكرمه:

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع ، والكرم العظيم ، وكانت له أوقاف عظيمة ، قال العماد: «وكلف نور الدين بإفادة الألطاف ، والزيادة في الأوقاف ، وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى ، وإغناء فقراء الرعية، وإنجادها بعد إعدامها ، وصون الأيتام والأرامل ببذله ، وعون الضعفاء وتقوية المقوّين بعدله ، وعمارة المساجد المهجورة ، وتعفية اثار الآثام ، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام ، فما أبقى الجزية والخراج ، وما تحصل من قسم الغلاّت على قويم المنهاج قال: وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور ، وحسبنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فزاد على ثلاثين ألف دينار ، وكانت عادته في الصدقة: أنَّه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محله ، ويسألهم عمَّن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتهم.

وكان يرسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ، ونفقته ، وحوائجه المهمَّة حتى أجرة خياطه ، وجامكية طباخه ، ويتفضَّل منه ما كان يتصدق به في اخر الشهر ، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير ، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصِّل ثمنه ، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من ذلك ، فأناف على مئة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كلِّه ، وعين له وقوفاً»[3].

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه ، وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب ، ولم أبلغ إلى أمره ، ومشاهدة أبنيته الدَّالة على خلوص نيَّته ، تغني عن خيرها بالعيان ، ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط ، والمدارس ، على اختلاف المذاهب ، واختلاف المواهب ، وفي شرح طوله طول ، وعمله لله مبرور مقبول»[4].

وأدرَّ على الضعفاء والأيتام الصدقات ، حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين ، وأقام لهم الأطباء والمعالجين ، وكذلك على جماعة من العلماء ، ومعلمي الخط والقران ، وعلى ساكني الحرمين ، ومجاوري المسجدين ، وجهز عسكراً يحفظ

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 46 ، 47.

(2) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 161.

(3) عيون الروضتين (346/1).

(4) المصدر نفسه (346/1).

المدينة ، وأقطع أمير مكة ، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس ، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج ، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستخراج العين التي بأحُد ، وكانت قد دفنتها كثرة السيول ، وعمّر الربط ، والخانقاهات ، والبيمارستانات ، وبنى الجسور في الطرق والخانات ، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين ، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم ، بقدر كفايتهم ، وكذلك صنع لما ملك سنجار ، وحرَّان ، والرقة ، ومنبج ، وشيزر ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وصرخد ، وتدمر ، فما من بلد منها إلا وله فيه حُسْنُ أثر ، وحصل الكثير من كتب العلوم ، ووقفها على طلاّبها[1].

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير:

يــا أيهـــا الملـــكُ المنـــادي جـــــودهُ	فــي سائـــر الآفــاق: هــل مــــن مُعْسِـــرِ
ولأنــــــت أكــرم مـــن أنـــاسٍ نوَّهـــوا	باســـــم ابـن أوسٍ واستخصُّـــوا البحتـــري
ذلَّـــت لدولتـــك الرقــاب ولا تـــــزل	إن تغــــز تغنـــم أو تقاتـــل تظفـــــرِ[2]

كان نور الدين كما يصفه كثير من المؤرخين قليل الابتهاج بالشعر[3]، لا عن نفور من الشعر ذاته ، وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب ، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق ، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل[4].

إن نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبد العزيز ، لا في كراهيته للتجربة الشعرية ، ولكن بتوجُّسه من ملق الشعراء ، وضعفهم ، ومزايداتهم ، ومن ثم فإن نور الدين ـ كسلفه ـ لم يكن يُشْرِعُ الأبواب في وجوههم ، بل لم يكن يعطيهم ، وقد سئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين ، فأجاب في إحدى مقاماته: «وهو سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد مجاهد ، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب ، فليس لشاعر عنده من نعمة تجزى»[5].

وعبارة ـ غير أنه ـ ترد بعد عبارات المديح ، تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضيًّاً عنه من الجميع ، فهناك دائماً من يريد أن يأخذ على حساب أيِّ شيء في كل عصر ، كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة «أعطوه ألف دينارٍ» أو عبارة: سل ما شئت. ومن بين هؤلاء الشعراء: أسامة بن منقذ ، الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء:

سلطاننـــا زاهـــد والنـــاس قـــد زهـــدت	لـــه فكـل علـــى الخيـــرات منكمـــــش
أيامـــه مثـــل شهـــر الصـــوم طاهـــــرة	مـن المعاصـــي وفيهـــــا الجـــوع والعطـــش

لكن أبا شامة المؤرخ الدمشقي ، يتصدى بنفسه للردِّ على الرجلين: صاحب المقامة ، وصاحب القصيدة؛ ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء ، ولبيان حقيقة الموقف العظيم ، فيقول: «ما كان ـ نور الدين ـ يبذل أموال

---

(1) المصدر نفسه (351/1).

(2) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص 170.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 135.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 136.

(5) كتاب الروضتين نقلاً عضن نور الدين محمود ص 137.

المسلمين إلا في الجهاد ، وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز . وهو من سادات التابعين في الشام .: أنه كان جواداً حيث يحبُّ الله ، وبخيلاً حيث تحبُّون ، وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به ، فهو القائل في مدح نور الدين:

فــي كــلِّ عــامٍ للبريَّــة ليلـــــةٌ ... فيهـا تَشُــبُّ النـــارُ بالإيقـــادِ
لكــن لنـورِ الديـن مـن دون الـورى ... نـاران: نـارُ قِـرى ونـار جهـادِ
أبـداً يصرِّفُهـا نـداه وبأسـه ... فالعـام أجمـع ليلـة الميـلادِ
مَلِـكٌ لـه فـي كـل جيـدٍ منَّـةٌ ... أبهـى مـن الأطـواق فـي الأجيـادِ
أعلـى الملـوكِ يـداً وأمنعهـم حمـىً ... وأمدُّهـم كفـاً ببـذل تـلادِ
يعطـي الجزيـلَ مـن النَّـوال تبرُّعـاً ... مـن غيـرِ مسألـةٍ ولا ميعـادِ
لا زال فـي سعـدٍ وملـكٍ دائـمٍ ... مـا دامـت الدنيـا بغيـر نفـادِ[1]

وعندما أسر الفرنج أخا أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد؛ طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الإعانة في فكاكه ، فلم يفعل ، قال أسامة: «وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه ، وحسن ذكره للملك العادل نور الدين ، رحمه الله تعالى ، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوية يقال له المشطوب ، قد بذل الإفرنج فيه عشرة الاف دينار ، فاستخلص به أخاه من الأسر»[2].

والملاحظ: أنَّ نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني ، وابن منير ، والعماد الأصفهاني ، وغيرهم ، ويبدو: أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع التكسُّب أو توخي التزلُّف[3]. يقول الدكتور محمود إبراهيم، في حديثه عن علاقة ابن القيسراني بنور الدين ومدحه له: «ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين: أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني ، قيلت في أشخاص اخرين في مناسبات قديمة. ولعلَّ هذا مما يعزز الاعتقاد بأنَّ شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثِّل إعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي ، وأنَّ هذا الشعر لا يُتَرْجِمُ مشاعر ابن القيسراني وحده ، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك»[4].

وكان نور الدين يحبُّ الشعر ، ويعجب به؛ لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور ، وتحريكه ، ولاسيما شعر الجهاد ، ووصف المعارك ، أما كونه لا يبتهج بالمدح؛ فهذا تواضع منه؛ لأنه لا يحب مبالغات الشعراء ، ومزايداتهم بالمدح ، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين ، فلا يأخذه بهرج القول[5]، فنور الدين لم يكن في حالة خصام مع الشعر ، بل كان يحب الشعر الملتزم ، فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه ، فقال:

للغـزو نشاطـي وإليـه طربـي ... ومالـي فـي العيـش غيـره مـن أربِ

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين زنكي في الأدب العربي ص 197.

(2) كتاب أخبار الدولتين (358/1).

(3) نور الدين في الأدب العربي ص 195.

(4) صدى الغزو الصليبي ص 159 . 160.

(5) نور الدين في الأدب العربي ص 197.

بالجـــدّ وبالجهـــاد نجـــح الطلـــــــبُ والراحـــة مستودعـــــة فــــي التَّعـــــبِ
لا راحـــة فـي العيــش ســوى أن أغـزو سيفـــي طربـــاً إلـــى العـــلا يهتـــــزُّ
فـــي ذل ذوي الكفـــر يكـــون العـــزّ والقـــدرة فـــي غيـــر جهـــاد عجـــزُ[1]

ويقول الأصفهاني في موضع اخر: كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضدَّ الصليبيين عند طبرية ، فسألني: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها:

عُقِـــدت بنصـــرك رايـــةُ الإيمـــــان وبـــدت لعصـــرك آيـــةُ الإحســـــانِ[2]

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء ،كان يقف في قمتهم ابن القيسراني ، والعماد الأصفهاني ، وابن منير ، وابن الدهان الموصلي ، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر؛ الذي طرق أبواباً واسعة ، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ، ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة ، لولا أن لقوا من نور الدين إعجاباً ، وتوافقاً ، وانسجاماً[3].

وأما ما تضمنه قول الوهران ، وقول ابن منقذ من إشارة إلى بخل نور الدين ، أو حرصه على المال ، فهذا أمر مستبعدٌ، وفيه كثير من المبالغة ، ولو كان نور الدين كما يقولان؛ لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ، ويسجلون انتصاراته ، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود ، حتى أسامة بن منقذ نفسه ، وَلِمَا اختصَّ بمدحه بعض الشعراء ، ولا زموه فترات طويلة[4].

ومما له علاقة بالكرم والإنفاق في سيرة نور الدين: حضر صبيٌّ ، وبكى عند نور الدين ، وذكر: أنَّ أباه محبوس على أجرة حُجرة من حجر الوقف . يعني وقف الجامع . فسأل عن حاله؟ فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي ، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف ، وليس له قدرة على الأجرة ، وقد حبسه وكيل الوقف ، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة ، فسأل: كم أجرة السنة؟ قالوا: مئة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته، وطريقته، وفقره، فرقَّ له ، وأنعم عليه، وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة، ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنَّ الإنعام كان في حقه[5].

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد ، رحمه الله! قال فيه ابن عساكر «... ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها ، وشرحت من دقها ، وجلِّها ، فهو حسن الخط بالبنان ، متأتٍّ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان ، حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن ، مقتنٍ لها بأوفر الأعواض والثمن ، كثير المطالعة للعلوم الدينية ، متتبع للآثار النبوية ، مواظب على الصلوات في الجماعات ، مراعٍ لآدابها في الأوقات ، مؤدٍّ فروضها ومسنوناتها ، معظِّم لقدرها في جميع حالاتها ، عاكف على تلاوة القران على مرِّ الأيام ، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام ، كثير الدعاء والتسبيح ، راغب في صلاة التراويح ، عفيف البطن والفرج ، مقتصد في الإنفاق والخرج ، متحَرٍّ في المطاعم ، والمشارب ، والملابس

---

[1] نور الدين الرجل والتجربة ص 138.

[2] نور الدين الرجل والتجربة ص 138.

[3] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 139.

[4] نور الدين محمود في الأدب العربي ص 198.

[5] عيون الروضتين (357/1).

، متبرّىءٌ من التمادي ، والتباهي ، والتنافس ، عريٌّ عن التجبُّر والتكبُّر ، بريء من التنجيم والتطيُّر ، مع ما جمع الله له من العقل المتين ، والرأي الثاقب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء والصالحين ، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم ، والاتِّباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء، والتحدُّث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كمن جاء في الحديث ، فمن رآه شاهدَ من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره ، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيَّره ، ولقد حكي لي عنه من صحبه في حضره وسفره: أنه لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا ضجره ، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها ، أو إرشاد إلى سنة يتبعها ، يحبُّ الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم ، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم ، وزوج ذكرانهم بإناثهم ، ورزقهم ، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته؛ أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المرتبة ، والعزل.

فلما جمع الله له من شريف الخصال ، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال ، وسهَّل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكَّن له في البلدان والبقاع ، حتى ملك حصن شيزر ، وقلعة دوسر ، وهما من أحصن المعاقل والحصون ، واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمة من دم في طلبهما ، ولا قتل أحداً من المسلمين بسببهما ، وأكثر ما أخذه من البلدان بتسليمه من أهله بالأمان ، ووفي لهم بالعهود ، والأيمان ، فأوصلهم إلى مأمنهم في كل مكان. وإذا استشهد أحد من أجناده؛ حفظه في أهله وأولاده ، وأجرى عليهم الجرايات ، وولى من كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحاً ، وزاده ولاية؛ أسقط عن رعيته قسطاً ، وزادهم رعاية ، حتى ارتفعت عنهم الظلامات ، والمكوس ، واتضعت في جميع ولايته الغرامات ، والنحوس ، ودرَّت على رعاياه الأرزاق ، ونفقت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العناد، والشقاق.. إلى أن قال: فالله يحقن به الدماء ، ويسكن به الدهماء ، ويديم له النعماء ، ويبلغ مجده السماء ، ويرجي الصالحات على يديه ، ويجعل منه واقية عليه ، فقد ألقى أزمَّتنا إليه ، وأحصى علم حاجتنا إليه ، ومناقبه خطيرة ، وممادحه كثيرة ، ذكرت منها غيضاً من فيض ، وقليلاً من كثير ، وقد مدحه جماعة من الشعراء ، فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف آلائه ، بل قصروا ، وهو قليل الابتهاج بالشعر ، زيادة في تواضعه لعلوِّ القدرة ، فالله يديم على الرعية ظله ، وينشر فيهم رأفته وعدله ، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله ، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله ، فهو بالإجابة جدير ، وعلى ما يشاء قدير»[1].

إنَّ ما ذكرته من صفات للملك العادل نور الدين ثمرات زكية لإيمانه العميق على تحقيق ما عجز عنه غيره ، ممَّن كانت بلادهم ، وثرواتهم تزيد أضعافاً على ما كان عليه ، فقد امتلأت نفسه بمبادئ الإسلام على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام ، وهذا الإيمان هو الذي حوَّله من أمير إلى مجاهد ، ومن حاكم سياسي إلى زاهد ، وهو الذي أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتغلب عليها رغم قلة الموارد ، ولم يعرف عنه تعصب ، وكانت نفسه سمحةً اكتسبها من طبيعة الإسلام السمحة ، إنه حارب الصليبيين

---

[1] تاريخ دمشق الكبير (122/60 ، 123).

على أنهم أجانب مغتصبين ، لا على أنهم نصارى ، ومن هنا فإنه لم يمس النصارى الوطنيين بسوء ، وكان لهم عنده حق الرعاية الكاملة ، فلم يهدم في حياته كنيسة ، ولا اذى قساً ، أو راهباً ، على عكس الصليبيين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها المسلمين جميعاً. وقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين ، فكانوا على عداوتهم له يحترمونه، ويعترفون له بالامتياز عليهم ، حتى إنَّ المؤرخ وليم الصوري ـ الذي أفاض في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين ـ لم يستطع إلا أن يعترف بفضله ، وعدله ، وصدق إيمانه[1].

المبحث الثالث : أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدى بها في دولته ، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، لكي يستفيد منها نور الدين في إدارة دولته، ولقد اتت معالم الإصلاح ، والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية ، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي ، وتمكينه في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة ، وتسلمها القيادة ، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول ، وتجديد معاني الإيمان في الأمة ، ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة؛ لكي يقتدي برجالها.

قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين «... علماً منه الاقتداء عن سلف الفضلاء العقلاء ، يكمل الأجر ، ويبقى الذكر ، واتباع سنن المهديين الراشدين ، يصلح السريرة ، ويحسن السيرة ، وإن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بسلفه من الأنبياء ، فقال عز من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[الأنعام :90] وقال تعالى:﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود:120] فلذلك اشتد حرصه ـ أدام الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة، والاثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقاً على بذل الوسع في مساعدته ، واستنفاذ القوة في معاضدته ، بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء ، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ والتجأت إلى الله الكريم ـ

[1] تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (742/2).

جل اسمه ـ أن يحسن معونتي ، ويُيسِّر ما صرفت إليه عزيمتي ، فحين شرح الله صدري لذلك؛ ولاحت إمارات المعونة ، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة معاونة على البر والتقوى[1].

لقد قدَّم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز ، فبنى دولة العقيدة ، وحكَّم الشريعة ، وقمع البدع ، وأقام العدل ، ورفع الضرائب ، والمكوس عن الأمة ، وعمل على إحياء السنة ، وعمَّق هوية الأمة ، وفجَّر روح الجهاد فيها ، ونشر العلم ، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء ، وكان نسيج وحدِه ، في زهده وورعه وعبادته وصدقه ، واهتم بالإدارة والاقتصاد والقوات المسلحة ، والمدارس العلمية ، والمؤسسات الاجتماعية ، وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء.

يقول شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي: «... فأطربني ما رأيت من اثاره ، وسمعت من أخباره ، مع تأخر زمانه ، وتغير خِلانه ، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سَيِّد الملوك بعده ، الملك الناصر صلاح الدين ، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين ـ رضي الله عنهما ـ في العدل والجهاد ، واجتهدا في إعزاز دين الله أيَّ اجتهادٍ ، وهما مَلِكا بلدتنا وسُلطانا خُطَّتنا ، خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما ، فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيفٍ يتضمن التقريظ لهما والتعريف ، فلعلَّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك ، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين ، وذكرى منه سبحانه ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون نحن في الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير ، فكان فيما قدّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجَّة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم ، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد؛ إن وفق الله تعالى الكريم[2]... هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين ، فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة ، وجميل السريرة ، وهما حنفي ، وشافعي ، شفى الله بهما كلَّ عِيٍّ ، وظهرت من خالقهما العناية... والفضل للمتقدِّم ، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله ، والإرشاد إلى عظيم محلِّه ، فإنه أصل ذلك الخير كله، مَهَّد الأمور بعدله ، وجهاده ، وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق ، واتساع الخرق ، وفتح من البلاد ، ما استعان به على مداومة الجهاد ، فهان على من بعده على الحقيقة ، سلوك تلك الطريقة[3]... فما أحقهما بقول الشاعر:

وألبـــس اللــــه هاتيـــك العِظــــامَ وإن ... بَلِيــن تحــــت الثـرى عفــواً وغفرانـــــا
سقــــى ثــــرى أُودِعُــوه رحمــةً مـــــلأتْ ... مثــوى قبورهــــم روحـــــــاً وريحانــا[4]»

وإليك أخي أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته:

أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة:

---

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/1) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص 356. [1073].

(2) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 19.

(3) المصدر نفسه (27/1).

(4) المصدر نفسه (28/1).

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة ، كما هو الحال في كثير من الدول ، والحكومات ، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين ، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية «براغماتية» لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب ، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير ، وقيماً ومبادئ أبعد مدىً كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة ، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدماً صوب افاقها الرحبة الشاملة.

إن تنفيذ شريعة الإسلام ، وقيمه ، ومبادئه في واقع الحياة ، وبعث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود ، فهي إذاً دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية ، وكسب ، واحتراف ، وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة ، وحشد لها الكثير من الأقوال ، والتأكيدات ، والتصريحات، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى . فعلاً . إلى أن تنتقل هذه الدعوة . رغم المصاعب، والعقبات . من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق[1] قال: «ونحن نحفظ الطرق من لصٍ ، وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منها قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل[2]؟!

وقال: «نحن شحن[3] للشريعة نمضي أوامرها»[4]. وقال مخاطباً أحدَ ولاته: «انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي ، وميز بين المحاسن والمساوي ، وأحمل الأمور فيها على الشريعة»[5].

وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: «والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين، فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي، وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله. فباللهِ عليكم... وإلا فخبزي عليكم حرام ، لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إليَّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها ، وارفعاها إليَّ[6]. وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: «إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع»[7].

وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام ، وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض[8].

يقول ابن الأثير: «كان نور الدين يعظِّمُ الشريعة المطهَّرة ، ويقف عند أحكامها»[9]. ويقول في مكان اخر: «وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتِّباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فوقف

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 86.

(2) الباهر ص 173 . 174.

(3) شحن: أي الشرطة: أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة.

(4) الباهر ص 166 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 86.

(5) البرق ص 146 . 147.

(6) الكواكب ص 25 نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 86.

(7) كتاب الروضتين (36/1 . 37).

(8) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 86.

(9) الباهر ص 166 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 86.

مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه»[1].

ويقول أبو شامة: سمعت أبا شداد يقول: أمَّا فكره ففي إظهار شعائر الناس ، وتأسيس قاعدة الدين»[2]. ويقول في مكان آخر: «كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها ، أو إرشادٌ إلى سنة يتبعها»[3].

ويقول ابن كثير: «كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة ، واتِّباع الشرع المطهّر... وأظهر ببلاده السنة ، وأمات البدعة»[4]. ويقول ابن قاضي شهبة: كان نور الدين . لما صارت له الموصل . قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي ، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء . أحد شيوخ الموصل الصالحين . وعندما حضر والي الموصل ، وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر؛ لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً ، يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها ، وعدم ارتداعهم . وكانت أوامر نور الدين بأن تكون العقوبات مطابقةً لما ورد بأحكام الشريعة ، بدون زيادة ونقصان . ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب ، وأعتقد: أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ، ربما نجح بالمطلوب ، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: «إن الزُّعار ، وقطَّاع الطرق ، والمفسدين قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة ، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتلٍ ، وصلبٍ ، وضرب ، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد به؟[5]

فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن الله تعالى خلق الخلق ، وهو أعلم بمصلحتهم ، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة؛ لشرعه لنا ، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى ، فمن زاد؛ فقد زعم: أن الشريعة ناقصة ، فهو يكملها بزيادته ، وهذا من الجرأة على الله ، وعلى شرعه ، والعقول المظلمة لا تهتدي ، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب ، وإلى الصراط المستقيم[6].

فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه ، وجواب نور الدين عليه قائلاً: «انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك ، إلى الزاهد»[7].

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات ، ولا يمكِّنُ أحداً من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقدم على ذلك أدَّبه بما يناسب بدعته[8] ، وكان لا يقدم على إجراءٍ ما عامٍّ ، أو شخصي إلا بعد أن يستفتي الفقهاء ، الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي ، أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء ، بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عملٍ ، أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة ، وعقيدتها ، وشريعتها[9].

---

[1] الباهر ص 165 . 166.

[2] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 87.

[3] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 87.

[4] البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 87.

[5] عيون الروضتين (276/1).

[6] المصدر نفسه (276/1).

[7] المصدر نفسه (276/1).

[8] الكواكب ص 25 ، 32 . 33 نور الدين محمود ص 87.

[9] مراة الزمان (247/8) نور الدين محمود ص 87.

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته ، وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج؛ وفي الداخل يعشش الخراب ، والتفكك ، والعفن، فيدمر الإنسان المسلم ، ويفتت العلاقات الاجتماعية ، ويستنزف القدرات الجهاديّة الخلاقة للأمة المسلمة ، والتي بدونها كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار ، والذلة ، والهزيمة. لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ ـ برهان الدين البلخي ـ وجهاً لوجه أمام نور الدين: «أتريدون أن تُنْصَروا وفي عسكركم الخمور ، والطبول ، والزمور؟ فلا والله!»[1].

وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ، ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد ، وتقود إلى مزيد من الإنجاز ، الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة ، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش ، وشرب الخمور ، أو بيعها في جميع بلاده ، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام ، وتصفية آثار الآثام ، وإراقة الخمور ، وإزالة كل ما يمدُّ الظلام ، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره ، وكل الناس عنده فيه سواء[2].

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله ، وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حداً في غاية الروعة والجمال ، وشدة المحبة لرسول الإسلام ، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث ، فمرَّ أثناء الحديث: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً ، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه ، وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف!! يشير إلى التعجب من عادة الجند؛ إذ هم خلاف ذلك؛ لأنهم يربطونه بأوساطهم ، فلما كان من الغد مرَّ؛ وأنا تحت القلعة ، والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر إليه ، فخرج من القلعة ، وهو متقلِّد السيف ، وجميع عسكره كذلك[3]. رحم الله الملك العادل نور الدين ، الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة ، بل لما بلغته رجع بنفسه ، وردَّ جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم فما الظن بغير ذلك من السنن[4]. وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

ذو الجهاد من عدوٍّ ... فهو طول الحياة في هيجاءِ
أيها الملك الذي ألزم الناس ... سلوك المحجة البيضاءِ
قد فضحت الملوك بالعدل ... لما سرت في الناس سيرة الخلفاءِ
قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التقى على الأتقياءِ[5]

وقال فيه ابن منير:

عفَّى جهادك كلَّ رسم مخوفة ... وعفت بصفوة عدلك الأكدار
ومحا المظالمَ منك نظرةُ راحم ... لله في خطراته أسرار

---

[1] زبدة حلب (215/2) نور الدين محمود ص 88.

[2] نور الدين محمود الرجل التجربة ص 88.

[3] عيون الروضتين (384/1 ، 385).

[4] الكواكب نقلاً عن نور الدين محمود ص 89.

[5] كتاب الروضتين (285/1 ، 286).

غضبان للإسلام مال عموده فلنوره مما عراه نوا

لم يَبْقَ ما كسٌ مسلم سلفاً ولا ساعٍ لمظلمة ولا عشَّارُ

همدوا كما همدت ثمود وقادهم لخسارهم مما أتوه قدارُ

العار في الدنيا شقوا بلباسه ولباسهم يوم الحساب النار

كم سيرة أحييتها عمريَّة[1] رفعت لها في الخافقين منار

ونوافل صيَّرتهن لوازماً بأقلها تستعبد الأحرار[2]

أما نهارك فهو ليل مجاهد والليل من طول القيام نهارُ[3]

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود اثار تحكيم شرع الله تعالى من التمكين ، والأمن ، والاستقرار ، والنصر ، والفتح المبين ، والعز ، والشرف ، وبركة العيش ، ورغد الحياة في عهده ، وانتشار الفضائل ، وانزواء الرذائل... إلخ وسوف تتضح بإذن الله تعالى هذه الاثار في هذا الكتاب.

إنَّ اثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفَّذت أوامر الله ونواهيه ، ظاهرة بيّنة لدارس التاريخ ، وإنَّ تلك الاثار الطيبة قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين ، ودولة عمر بن عبد العزيز ، ودولة نور الدين زنكي ، ودولة يوسف بن تاشفين ، ودولة محمد الفاتح ، وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير ، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل ، والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها ، مستوعبة لسنن الله في الأرض؛ فإنها تصل إليه ، ولو بعد حين، وترى اثار ذلك التحكيم على أفرادها ، ومجتمعاتها ، ودولها ، وحكَّامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم ، وعلمهم ، وتربيتهم ، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله ، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية ، والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة. إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يديْ من أخلص لربه ودينه ، وأقام شرعه ، وقصد رضاه ، وجعله فوق كل اعتبار[4]. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النساء:65]

قال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ ﴾[النور :55]

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

(1) عمريّ: قصد ابن عمر بن الخطاب.

(2) عيون الروضتين (393/1).

(3) عيون الروضتين (393/1).

(4) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص 357

كان نور الدين رجل عقيدة ، وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق ، قال عنه ابن كثير: «... كان مجاهداً في الفرنج ، امرأً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، صحيح الاعتقاد ، وكان قد قمع المناكر وأهلها ، ورفع العلم والشرع ، وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله»[1].

وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة ، وقمع البدعة. قال عنه ابن كثير: «أظهر نور الدين ببلاده السنة ، وأمات البدعة ، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده ، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل؛ لأن شعار الرفض كان ظاهراً»[2].

وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات: قيل: إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه ، فأُركب على حماره ، وأمر بصفعه ، وطيف به في البلد ، ونفاه إلى حرّان[3]. وكان نور الدين يتحرى السنة في أموره كلها ، ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية ، وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية ، التي أرسلها نور الدين محمود[4]؛ حتى خلص المسلمين من شرورها ، وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية، وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية ، يتلخص في رسالته للخليفة العباسي ، وهو يبشره بفتح مصر ، وسقوط دولة الإلحاد ، والرفض ، والبدعة[5].

يقول فيها: «وطالما بقيت 280 سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، واجتمع فيها داءان: الكفر ، والبدعة ، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض ، ومن إقامة الفرض»[6]، وسيأتي الحديث عن أساليب ومنهج نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

دور نور الدين في دعم المذهب السني:

مهدت مدارس نظام الملك ـ رحمه الله ـ السبيل ، ويسرته أمام نور الدين ، والأيوبيين ، فأضحى الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظاميات من أجله؛ وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ، ودعم المذهب السني ، وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ، ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي ، والذي كان محصوراً في حلب ، ودمشق ، ومصر ، وبذل جهوداً كبيرة ليمكّن لمذهب السنة إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث. وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[7]:

1 ـ جهود نور الدين في حلب: أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (333 ـ 356 هـ / 944 ـ 967) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية ، فيسَّروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ، ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة ، وإحلال شعائر الشيعة محلها ، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (356 ـ 381 هـ / 967 ـ 991 م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام 367 هـ / 977 م ، وزاد

---

[1] البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 330.
[2] المصدر السابق ص 330.
[3] كتاب الروضتين (24/1) الجهاد والتجديد ص 330.
[4] الجهاد والتجديد ص 331.
[5] المصدر نفسه ص 331.
[6] كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 331.
[7] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 206.

فيه: حيَّ على خير العمل محمد وعلي خير البشر[1]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كال مرداس ، والعقيليين ، حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً[2].
إلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ، ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق ، ويساعدوه في أخذ دمشق منه ، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ، ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن ، ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب.
ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين ، فقد كان المذهب الشيعي متغلغلاً في حلب[3] ، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية ، واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة؛ ففي رجب من عام 543 هـ / 1148 م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب ، رأيناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الأذان ، وينكر عليهم إنكاراً شديداً ، ويمنعهم من سَبِّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحذرهم من مغبة العودة إلى ما نُهوا عنه ، فعَظُمَ هذا الأمر على الإسماعيلية ، وأهل التشيُّع ، وضاقت به صدورهم ، وهاجوا ، وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة ، والهيبة المحذورة[4].
كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب ، ممن كان يخشى خطرهم ، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي[5] ، وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة؛ وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: إحداهما للحنفيّة ، وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته 543 هـ / 1148 م ، وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي ، حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء، وألقى بها الدروس على الفقهاء ، وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ، ونصرة الكتاب والسنة.
فيذكر بعض المؤرخين: أن البلخي جلس تحت منارة المسجد ، وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان ، وقال لهم: «من لم يؤذّن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه ، فأذنوا الأذان المشروع[6]. وكانت المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النفريَّة النورية ، وقد أنشأها سنة (544 هـ / 1149 م) لتدريس المذهب الشافعي ، وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري ت 578 هـ ، 1182 م ، أحد أساتذة نظامية نيسابور ، وقد كان حضر إلى دمشق في عام 540 هـ / 1145 م ، وأقام بها يعظ ويعلِّم ، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب ، وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة[7] ، ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذيّة بهذه المدرسة من قبيل المصادفة ، فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة ، والمنطق ، وعلوم الكلام ، ويملك من القدرات العقلية

(1) زبدة تاريخ حلب (172/1).
(2) البداية والنهاية نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 207.
(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 207.
(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (202/1).
(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 85.
(6) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 209 نقلاً عن زبدة حلب.
(7) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 209.

والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية ، وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ، ودرسوا في المدارس النظامية ، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ، ومحاربة التشيّع الباطني المتسلِّح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[1].

أ ـ الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب: كان نور الدين محمود يتّبع مذهب الإمام أبي حنيفة، إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفريَّة ، والعصرونيّة ، والشعيبيّة، وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرَّجت نظاميّة بغداد، وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشىء فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة ، وهي الحلاوية السالفة الذكر. لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية؛ لهم القدرة على الإحياء السني ، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم ، وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي ، وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين ، إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي ، والإحياء السني الكبير ، ولأنَّ البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة ، والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق ، بعد أن استولى عليها؛ إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر ، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: النورية الكبرى ، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى.

وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين[2]. ويبدو: أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين بدراسة الجدل ، وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية ، تشدُّ من أزر المواجهة السياسية ، لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ، ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها ، والإشراف عليها ، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق؛ حيث النفوذ السني غالب ، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه ، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها[3].

ب ـ الاستفادة من جهود علماء السنة: لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية، والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي ، والتمكين لمذهب السنة ، ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة ، وفقهائهم ، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب ، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة ، والأخرى للمالكية ، وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة[4]، وتوحيدها في جبهة واحدة ، ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي[5].

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 209.

(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق ص 210.

(3) المصدر نفسه ص 211.

(4) المصدر نفسه ص 211.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 87.

ج ـ دعم التصوف السني: اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية ، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة ، وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاهاً له نفوذه ، وسيطرته ، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي ، وسيأتي الحديث ـ بإذن الله ـ عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة ، وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب ، وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً ، فقد كانت الصوفية في ذلك العصر محل تقدير الحكام واحترامهم وخاصة نور الدين ؛ الذي كان يستفيد منهم في الدعاء ، وجمع المعلومات على الأعداء ، وفي الجهاد ، وكان يرحب بهم في بلاطه ، ويتواصل مع شيوخهم ، ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته ، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق: اثنتان منها للرجال ، وواحدة[1] للنساء.

واستطاعت الدولة النوريّة التأثير على التصوف السني ، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية ، ومدِّ نفوذه في أنحاء بلاد الشام ، ومصر ، مع توسع الدولة النورية خارجياً ، والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السني ، لمقاومة المذهب الإسماعيلي ، والتيار الفلسفي ، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً ، ولذا كان اتّساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين ، والمماليك[2].

د ـ دور تدريس الحديث: اهتمَّ نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف ،وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ، ومناهضة الفكر الشيعي ، ذلك أنَّ الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت ، وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف ـ المجانب للحق والعدل والصواب ـ إلى الطعن في صحاح السنة ، ويضاف إلى ذلك: أنَّ العناية بالحديث الشريف ، وتشييد معاهد دراسيَّة خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة ، التي حكم فيها نور الدين ، والأيوبيون ، ذلك: أنَّ الظروف التي أحاطت بالشام ، ومصر في تلك المرحلة ، عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية ، ومن أثر ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي، تمثَّل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام ، من بينها القدس الشريف.

فكان على هذه المدارس أن تعبئ الناس للجهاد ، وتحيي فيهم روح البطولة ، والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث، والعناية به ، خاصةً ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله ، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث ، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته.

هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها[3].

هـ ـ موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية: لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها ، وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه كبيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة.

وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام 552 هـ / 1157 م ، عندما مرض نور الدين بحلب؛ حتى أرجف بموته، ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته ، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها ، فتجمع حوله أحداث

---

(1) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني ص 212.

(2) في الصراع الإسلامي الصليبي ص 185.

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 212.

الشيعة ، وأبدوا استعدادهم لنصرته ، شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين ، فوعدهم بذلك ، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة ، والشيعة ، وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية ، وغيرها من دور أهل السنة ، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ، ويصلي بالناس ، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه ، فشرع المؤذنون في الأذان السني ، فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير ، فخرج إليهم القاضي ، وحذرهم ، وبيَّن لهم أن نور الدين قد عوفي ، وأنه هو الذي أمر بهذا! فانصرفوا وسكتت الفتنة[1].

و ـ وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام 564 هـ / 1169 م عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع ، وكان يُتَّخذ مكاناً للدرس إلى جانب العبادة ، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية ، والحنابلة ، وعلماء الحديث ، فأعاد نور الدين بناء الجامع ، ووسعه ، وخصص له أوقافاً كثيرة[2].

ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت ردّ فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الاخر من هذا العام؛ إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماضٍ في تضييق الخناق على الشيعة ، وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر ، والشام[3].

كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة ، تدل على وعي ، وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة ، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين بن الداية ، بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ، ودحض البدع من هذه البلدة ، وإظهار الدين»[4] كما كان نور الدين ـ رحمه الله ـ يدرك قيمة العلم كسلاحٍ ، يواجه به العدو ، كما يواجهه بالقوة العسكرية ، ولا شكَّ: أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن[5]، فالتصدي للغزو الباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية ، واقتصادية ، وسياسية ، وفكرية ، وإعلامية تتوازن ، وتتعاون ، وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة ، والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحفة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب ، وتسابق أمراؤه ، وأعيان دولته ، وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية ، حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً ، مركزاً من مراكز الثقافة السنية ، بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة ، وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد ت 684 هـ / 1285 م مدارس حلب في أيامه ، فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة ، موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة ، منها: إحدى وعشرون للشافعية ، واثنتان وعشرون للحنفية ، وثلاث للمالكية ، والحنابلة ، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[6].

---

[1] زبدة حلب (308/2 ـ 310) التاريخ السياسي والفكري ص 213.

[2] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 213.

[3] المصدر نفسه ص 213.

[4] كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 213.

[5] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 213.

[6] المصدر نفسه ص 214.

وقد اتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة؛ إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام 600 هـ / 1203 م ، وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم؛ حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون ، وبأفعال السنة يتظاهرون ، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: «أن الشيعة انقرضوا من المدينة ، وتلاشوا بالمرة ، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض ، والتشيع ، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة ، وموافقة السنة[1] ، وذلك بفضل الله ، ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه ، الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها ، والإنفاق عليها بسخاء؛ حتى تراجع التشيّع من هذه المدينة ، وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة[2]، وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية ، والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

2 . جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق: استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام 549 هـ / 1154 م ، ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية ، وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية ، حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة ، وأخطرها شأناً ، ولذا فإن المنهج الذي سلكه نور الدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا بدَّ أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائدي ، تنطلق منه جهود علماء السنة ، للقضاء على المذاهب المنحرفة ، وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني . الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية[3].

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية ، وَرُبُطِ الصوفية ، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين الحنفي ، والشافعي ، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر ، استجابة لميل طبيعي إلى هذا المذهب ، الذي كان يعتنقه دون تعصب ، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى ، وجعلها وقفاً على الحنفية ، وأول من درَّس بها شيخ الحنفية بدمشق: بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة (ت 1199/596 م) ، ووصف ابن حبير هذه المدرسة عندما زارها في عام (580 هـ/1199 م) بأنها «من أحسن مدارس الدنيا منظراً... وهي قصر من القصور الأنيقة»[4] ، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة ، وهي المدرسة النورية الصغرى[5].

وأما المدارس الشافعية ، التي نُسِبَ إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها ، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تعنى بتراث الإمامين العظيمين ، فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الاخرين إهمالاً تاماً ، بل وقف على زاوية المغاربة . وهم مالكية . بالجامع الأموي ، ما يعينهم على تحصيل العلم ، ويوفر لهم حياة كريمة[6] ، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية ، فشيد لهم خانقاه خارج المدينة ، وصفها ابن جبير بقوله: من أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضعٌ يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم ، مستقل في الهواء ، في أعلاه مساكن لم

---

(1) نهر الذهب في تاريخ حلب (191/1 . 193) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 214.

(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 214.

(3) المصدر نفسه ص 215.

(4) رحلة ابن جبير ص 231.

(5) الدارس في تاريخ المدارس (648/1).

(6) رحلة ابن جبير ص 231 . 232 التاريخ السياسي والفكري ص 216.

يُرَ أجمل إشراقاً منها[1] ، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر رُبُطِهِمْ ، وزواياهم ، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويه[2].

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً ،ومن ثم بنى أكبر دار للحديث في دمشق ، ووكَّل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره ، وهو الحافظ الكبير: تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر (ت 571 هـ / 1175 م) وكان عمدة في الحديث، والفقه، وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه: «من أعيان الفقهاء والشافعية ، ولكن غلب عليه الحديث ، فاشتهر به»[3] وهذه العلوم الثلاثة؛ أعني: الحديث، والفقه ، وعلم الكلام كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ، ولذلك قرَّبه نور الدين منه ، وأدناه من مجلسه ، واستمع إليه ، وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف ، والتدريس بدار الحديث النورية.

وعناية نور الدين بالحديث الشريف ـ على هذا النحو ـ تُعبِّر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس ، وإعدادهم للجهاد في سبيل الله ، وحثهم عليه في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو ، الذي يحتل مقدسات المسلمين ، ويتربص بهم الدوائر ، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف؛ تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية.

فقد شارك العلماء في هذا الميدان، فحدَّث بحلب، ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث ، منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[4].

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية ، فإن نور الدين بنى في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة ، كما خصص للأيتام الذي يقرؤون القران ـ بالمساجد التي شيدها ـ أوقافاً معلومة[5]. يذكر ابن كثير: «أن نور الدين وقف وقفاً ، على من يعلم الأيتام الخط والقراءة ، وجعل لهم نفقة وكسوة»[6]. وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية ـ على اختلاف أنواعها ـ الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلاَّبها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم ، وتعليمه ، حتى إن ابن الأثير ذكر: أنه بلغه من خبير بأعمال الشام: أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام 608 هـ/1211 م تسعة الاف دينار كل شهر[7] ، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء ، والفقهاء ، والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس ، والرُّبُط وترتيب أمورهم[8]. ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي 572 هـ / 1176 م النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق:

---

[1] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 216.

[2] مراة الزمان (272/8) التاريخ السياسي والفكري 216.

[3] وفيات الأعيان (471/2 ـ 473).

[4] الباهر ص 165 ، كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي ص 217.

[5] الباهر ص 172 التاريخ السياسي والفكري ص 217.

[6] البداية والنهاية نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 217.

[7] الباهر ص 172 التاريخ السياسي والفكري ص 218.

[8] كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري 218.

كانـــت جنـــةُ الخلـــدِ دانيـــــــــة　　قصورهـــا فتحـــت منهـــا المقاصيـــــرُ
فـي كـل قطـر بهـا للعلـم مدرســــةٌ　　وجامـعٌ جامـــعٌ للديـــــن معمــــــورُ
يتلـــى القــرآن بــه فــي كـل ناحيـــةٍ　　والعلـــم يذكــر فيـــه والتفاسيــــــرُ
تكامـل الحســـن فيــه مثـل ما كملـت　　أوصـاف مولـى بنشـــر العــدل مشهــور
الملـــك والديـــن والدنيــــا بأجمعهـــا　　وللخليفـــة مـــن أنـــواره ســــور[1]

3 ـ دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني: لم يُقدَّر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً ، ومن ثم لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية ، تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم ، وتنتشله من مستنقع البدع والضلال ، وتعيده إلى رجال السنة مرة أخرى ، فالمؤسسات العقائدية السنية ، التي قامت في مصر حُسِبتْ كلها في رصيد الأيوبيين ، حتى ما أنشئ منها في حياة نور الدين ، وكان له فيها أثر غير مباشر. ذلك: أن الأيوبيين قُدّر لهم أن يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته ، فنسبت معظم الجهود ـ إن لم يكن كلها ـ إليهم.

ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة ، وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه ، فما ينسب إليهم؛ لا بدَّ أن نلمس فيه أثره ، ونلمح فيه توجيهاته ، وذلك علاوة على الدور الكبير ، الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: في أيِّ الجوانب إذاً تركَّز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة[2]؟ يذكر المقريزي: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر ، عقب مقتل الخليفة «الظافر» في المحرم سنة 549 هـ/1154 م وتولية ابنه: «الفائز» وكان طفلاً صغيراً ، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة، ويزحف على الساحل الشامي ، ومصر ، ويأخذها من أيدي الفاطميين ، وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في حسن المحاضرة[3]. ويفهم من الروايتين: أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر ، وأنه شجعه على ذلك ، وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني[4].

ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة ، التي قام بها الخليفة المقتفي ، ووزيره يحيى بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين ، إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيارٌ استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس ، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي ، وهذه الحقيقة عبَّر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته ، عندما أرسل إليه صلاح الدين ـ من مصر ـ هدايا وتحفاً ، فقال: «والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل ، وقلع الكفار منه»[5] وكلمة ـ تطهير الساحل ـ لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر السني ، لكي يطهر البيت المقدس ، وبلاد الشام من الصليبيين ، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا ، تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي ، مع قطع

(1) التاريخ السياسي والفكري ص 218.
(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 218.
(3) حسن المحاضرة (3/2) اتعاظ الحنفا (223/3).
(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 219.
(5) مراة الزمان نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 219.

الإمدادات ، أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام ، وهذا لا يكون إلا بضم مصر ، وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين ، الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون ، كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركيٌّ سنيٌّ ، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة ، الذين تمنَّوا فتح مصر ، وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني ؛ لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته ، ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية ، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى.

ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين ، التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء ، يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: «ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها»[1]. كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقائدي من الفاطميين بقوله عن مصر: «... وبقيت مئتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين ، مملوءة بحزب الشياطين؛ حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض ، وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة ، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك»[2].

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة ، التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء ، وطمع الصليبيين فيها ، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، حتى تمَّ الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة ، وذلك في ربيع الاخر سنة 564 هـ / 1169 م ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر ، لكنه ما لبث أن توفي ، وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة ، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم[3].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هامين:

الأول: تغيير النظام القضائي بها ، بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني ، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون.

يذكر أبو شامة: أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه ، وكان بحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر؛ ليتولى قضاءها ، ومما قاله نور الدين للشيخ: «أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها ، فهي من الفتوحات الكبار ، التي جعلها الله دار إسلامٍ بعد أن كانت دار كفر ، ونفاق...إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل ، وبها النجاة ، وأنت تعلم: أنَّ مصر ما هي قليلة ، وهي خالية من أمور الشرع.. والان قد تعين عليك وعلي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها ، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد ، وتتولى قضاءها ، وتعمل ما تعلم: أنَّه يقربك من الله»[4].

---

[1] كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 220.

[2] المصدر نفسه ص 220.

[3] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 220.

[4] كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 220.

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر ، فما إن استقرت عساكر نور الدين فيها؛ حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر ، ثم لما ولي «المستضيء» في عام 566 هـ / 1170 م كرر هذا الطلب ، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة؛ حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً ، لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب ، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج ، فسيؤول أمره إلى الفساد ، وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية ، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي ، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام 567 هـ/1171 م ، وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر ، وبموته سقطت الدولة الفاطمية[1]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل رسالة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير ، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها ، وقرأ فيها هذه البشارة؛ حتى وصل إلى عاصمة الخلافة ، فخرج الموكب لتلقيه ، ونثرت عليه الدنانير ، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين ، وصلاح الدين[2].

وبذلك قُدِّرَ لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين ، الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني ، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني ، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية ، وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية[3].

وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب، ودمشق، ومصر، فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه ، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها ، وشيّد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس ، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب ، وحمص ، وبعلبك[4].

ويقول ابن خلكان عن نور الدين: إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام ، مثل: دمشق ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، ومنبج ، والرحبة ، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري ، ورتب له ما يكفيه ، كما بنى جامع حماة ، وجامع الرُّها ، وجامع منبج[5].

4 . عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي: إنَّ جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية ، فانتفع بما حققته من نتائج ، وفي مقدمتها: تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني ، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى ، واستطاع نور الدين أن يستغل ذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ، ويستعين بهم في دعم المذهب السني ، وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها ، فمن أبرز صفاته: أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة، ولا يسمح لأحد أن يتناول واحداً منهم بمقالة سوء ، فازدادت منزلة العلماء سمواً ، وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين،

---

(1) التاريخ السياسي والفكري ص 221.

(2) التاريخ السياسي والفكري ص 221.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 221.

(4) الدارس في تاريخ المدارس (401/1).

(5) وفيات الأعيان (272/4).

وتقديرهم ، كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سمحت له ظروفه بهذا ، ويواظب على عقد مجالس الوعظ ، ويستمع ـ مع الناس ـ للحافظ ابن عساكر ، ولقطب الدين النيسابوري ، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي[1].

كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المدُّ الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة ، والاستمرار في المقاومة للصليبيين ، ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية ، التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي ، والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر ، والعلم ، والثقافة ، والسياسة ، والقوة. وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل ، فقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني ، لأن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم ، اللاهين في ملاذهم ، وشهواتهم ، الغارقين في مظالمهم.

وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أنَّ الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، يستدرجون بهذا المحرومين ، والمسحوقين ، حتى يجذبونهم إلى صفوفهم ، ويدخلونهم في دعوتهم ، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه ، وحسن سياسته في رعيته ، ثم بجهوده الفكرية الرائعة[2].

إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين ، هي ما كان منبعها كتاب الله ، وسنة رسوله، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها ، أو جزئية من جزئياتها ، ثم إن السلف الصالح ، الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال ، فلذلك عمل على معرفتها، وتعليمها ، وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة ، فالطريق للنهوض لابد فيه من وحدة الصف ، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح ، والإسلام الصحيح مصدره القران والسنة ، والطريق لفهم القران والسنة هي طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ، والتابعين بإحسان ، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى:﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: 100] فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم ، ووعد متّبعهم بالجنة والرضوان[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته»[4].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: (اتبعوا ، ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم)[5]. وعنه ـ رضي الله عنه ـ: (من كان متأسياً فليتأسَ بأصحاب رسول الله ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 224.

(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 225.

(3) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 263 ، 264.

(4) مسلم ، كتاب الصحابة رقم 2533.

(5) رواه مالك في الموطأ رقم 1619.

حالاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه، فاعرفوا له فضلهم، واتّبعوهم في اثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[1]. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إنَّ من أهداف الحكم الإسلامي الحرصَ على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ، ومن أهم هذه القواعد: العدل ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل :90] . وأمرُ الله بفعلٍ .كما هو معلوم . يقتضي وجوبه ، وقال تعالى:﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء :58] .

وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء :135]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر»[2]. والعدل أساس الحكم[3]، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي يُعدُّ من أقدس الواجبات ، وأهمّها ، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[4] ، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله ، أسر القلوب ، وبهر العقول ، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس ، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير ، حتى اقترن اسمه بالعدل ، وسمي بالملك العادل ، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية، والصليبيين إقامته للعدل في الرعية، وإيصال الحقوق إلى أهلها ، فالعدل في الرعية ، وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ، ويولد جيلاً محارباً ، وأمةً تحرر إرادتها بدفع الظلم عنها ، ورعيةً تحب حكّامها ، وتطيعهم؛ لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم ، وأقاموا العدل على غيرهم.

وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والاخرة ، وهو يؤذن بزوال الدول ، وقد حرم الله الظلم على نفسه. فقد قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[5]. وقال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢﴾ [الصافات : 22] وقال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل : 52] .

---

(1) حلية الأولياء (379/1).

(2) الجامع الصغير للسيوطي رقم الحديث 1050.

(3) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (481/1).

(4) فقه التمكين في القران الكريم للصَّلاَّبي ص 455.

(5) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم 1828.

وقد سجَّل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته[1] ، وتمَّ إيصال حقوق الناس إليهم ، فنشطوا في الجهاد، والدفاع عن دينهم ، وعقيدتهم ، وأوطانهم ، وأعراضهم ، ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية: إقامته للعدل في دولته[2]. وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً ، وجعلها في قمة أجهزته الإدارية ، وخوَّل القضاة على اختلاف درجاتهم في سلَّم المناصب القضائية صلاحيات واسعة . إن لم نقل مطلقة . ومنحهم استقلالاً تاماً ، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادئ الحق والعدل ، وتحويل قيم الشريعة ، ومبادئها إلى واقع ملتزم ، وتوِّجت جهوده بإنشاء دار العدل ، التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ، وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء، أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر[3].

وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: «حرامٌ على كلٍّ من صحبني ألا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليَّ»[4]. ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي . الذي كان أحد نوابه في حلب . هذه الحادثة ، ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: «كنت يوماً أنا ورجلٌ واقفين على رأس نور الدين ، وقد صلى المغرب ، وجلس ، وهو يفكِّرُ فكراً عظيماً ، وجعل ينكش بإصبعه الأرض ، فعجبنا من فكره ، وقلنا: في أي شيء يفكر؟ في عائلته؟ أو في وفاء دينه؟ وكأنه فَطِنَ بنا ، فرفع رأسه ، وقال: ما تقولان؟ فأجبناه بعد تردُّد. فقال: والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين ، فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي ، وأعواني ، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله ، فبالله عليكم... وإلا فخبزي عليكم حرام ، لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إليَّ ، أو تعلمان مظلمةً إلا وأعلماني بها ، وارفعاها إلي[5].

وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: «كان يتحرَّى العدل ، وينصف المظلوم ، من الظالم كائناً من كان ، القوي والضعيف عنده في الحقِّ سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف ذلك بنفسه ، ولا يَكِلِ ذلك إلى حاجب ، ولا أمير ، فلا جرم إن سار ذكره في شرق الأرض وغربها»[6].

1 . دار العدل أو المحكمة العليا: كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق، لكشف المظالم سمَّاها (دار العدل) ، وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ، ثم عُمِّمَتْ صلاحياتها ، فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة ، وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد عددٍ من كبار الأمراء في دمشق ، وبخاصة أسد الدين شيركوه ، وتماديهم في اقتناء الأملاك ، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الاخر ، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري ، فأنصف بعضهم من بعض ، لكنه لم يقدر على الإنصاف من شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأصدر أمره حينئذٍ ببناء دار العدل[7].

---

[1] دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 205.

[2] أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 98.

[3] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 75.

[4] الكواكب لابن قاضي شهبة ص 25 نور الدين محمود 75.

[5] الكواكب ص25 نور الدين محمود الرجل التجربة ص 75.

[6] الباهر ص 166.

[7] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 76.

يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك؛ أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم: اعلموا: أنَّ نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنّه ، فامضوا إلى كلّ من بينكم وبينه منازع في ملكٍ ، وافْصِلوا الحال معه ، وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتى على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعينٍ أني ظالمٌ ، أو يساوي بيني وبين أحد العامة في الحكومة (أي: القضاء) ، فخرج أصحابه من عنده ، وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم ، فلما وخمسمئة[1] ، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين ، فإنهم لم يمسُّوا بأذى . رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي . وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ، ولم يُعْرَف عنه[2]: أنه هدم في حياته كنيسة ، ولا اذى قساً ، أو راهباً ، وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً ، قتلوا جلَّ أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك ، وعاملهم بالمثل؛ لقام له في ذلك عذر ، ولكنه كان إنساناً عظيماً ، لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا؛ حتى إلى نصارى البلاد ، فظلت الكنائس في بلاده عامرةً بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفَّس نصاراه الصعداء ، وأمنوا إلى عدله وإنصافه[3].

2 . استجابته للقضاء: طُلِبَ مرة من قبل أحد المدعين ، فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً ، وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم ، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته ، وقال: تستهزئ لطلبي إلى مجلس الحكم؟ وأردف: يُحْضَرُ فرسي؛ حتى نركب إليه ، السمع والطاعة ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور:51] .

ثم نهض ، وركب؛ حتى دخل باب المدينة ، واستدعى أحد أصحابه وقال له: امضِ إلى القاضي ، وسلِّم عليه ، وقل له: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[4].

ويوماً كان يلعب الكرة . هوايته المفضلة . في دمشق ، فرأى رجلاً من أتباعه ، يحدِّثُ اخر ، ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فأعلمه: أن له على نور الدين خصومة حول بعض الأملاك ، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة ، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين ، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكَماً ، فاسلك معي ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه ، وحين لم يثبت ضدَّه شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم: أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت لئلا يظنَّ أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أنَّ الحق؛ لي وهبته إياه[5].

---

(1) المصدر نفسه ص 78.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 78.

(3) نور الدين محمود حسين مؤنس ص 367 . 368.

(4) الباهر ص 166 . 167.

(5) الباهر ص 166 . 167.

وتلك غاية العدل والإنصاف ، بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الذكية الطاهرة المنقادة إلى الحق ، الواقفة معه ، كما علّق ابن الأثير[1].

وفي عام 558 هـ 1162م ادَّعى رجل على نور الدين أنّ أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق ، وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك ، فإن كان لك بَيِّنَةٌ تشهد بذلك؛ فهاتها ، وأنا أرد إليك ما يخصني ، فإني ما ورثت جميع ماله ، فقد كان هناك ورثة غيري ، فمضى الرجل ليحضر البينة[2].

3 . لا عقوبة على الظنة والتهمة: لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية؛ عاقبه العقوبة العادلة من غير تعدٍّ[3] ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة ، والمبالغة في العقوبة ، والأخذ بالظنة ، وأمنت بلاده مع سعتها ، وقلَّ المفسدون ببركة العدل ، واتِّباع الشرع المطهر[4].

4 . من عدله بعد موته: ومن عدله أيضاً بعد موته ، وهو من أعجب ما يحكى: «أنَّ إنساناً كان بدمشق ، استوطنها، وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ـ رحمه الله ـ فلّما توفي تعدَّى بعض الجنود على هذا الرجل فشكاه ، فلم يُنصف ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ، ويبكي ، وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين ، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم؛ لرحمتنا ، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ، ومعه من الخلق مالا يحصى وكلّهم يبكي ، ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيب قلبه ، ووهبه شيئاً ، وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدلٍ فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق ، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلَّمناه»[5].

5 . رقبتي دقيقة لا أطيق حملها والمخاصمة عليها بين يدي الله تعالى: قال ابن الأثير: «وحكى لي من أثق به: أنَّه دخل يوماً إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالاً أنكره ، فسأله عنه: فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ، فردَّه إلى الخزانة ، وقال: إذا سألكم الملك العادل عنه؛ فقولوا له عنّي: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى ، فرآه ، فأنكر على النُّواب قال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين ، فردَّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حملها ، والمخاصمة عليها بين يدي الله تعالى! يُعاد قولاً واحداً»[6].

6 . رجال القضاء في دولة نور الدين: اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاتاً ، عرف كيف ينتقيهم ، بعد أن رأى فيهم من الفقه الواسع ، والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده ـ كما رأينا ـ قمة

---

(1) الباهر ص 167 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 79.

(2) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 80.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 80.

(4) عيون الروضتين (1 / 364).

(5) المصدر نفسه (1 / 365).

(6) عيون الروضتين (1 / 364).

مؤسسات الدولة ، وحظي باستقلال تام ، وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع ، بما فيهم السلطان نفسه ، وكبار أمرائه ، ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري ، وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري ، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء ، وما قبله ، وبرعوا فيها[1].

أ . القاضي كمال الدين الشهرزوري: حدث في مطلع عام 555هـ/1160م أن تقدم قاضي دمشق ، زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي ، برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء ، فأجابه إلى طلبه ، وولى قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري ، وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له: «المشهور بالتقدم ، ووفور العلم ، وصفاء الفهم ، والمعرفة بقوانين الأحكام ، وشروط استعمال الإنصاف والعدل ، والنزاهة ، وتجنب الهوى والظلم ، وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في حالة غيابه ، أو اشتغاله بمهمة ما ، فإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه[2]».

كان كمال الدين قد ولد عام 491هـ /1097م ، وتفقَّه ببغداد ، وسمع الحديث من كبار المحدثين[3] وقد تخرَّج من النظامية[4]، وكان يتردد إلى بغداد ، وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي ، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين[5]، وأصبح بعد أقل من عامين (557هـ 1161م) قاضياً لقضاة الدولة كلها ، وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه ، وهناك من يقول أن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام 555هـ / 1160م وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين ، ومهما يكن من أمر؛ فإن كمال الدين ، تمكّن من منصبه ، وأصبح في دمشق كما يقول العماد: الحاكم المطلق[6]. وأصبحت دولته نافذة الأوامر ، منتظمة الأمور[7].

وورد عنه كذلك: أنه ارتقى إلى درجة الوزارة ، فكان له الحل ، والعقد في أحكام الشام[8]. وكان له من صفاته الشخصية ، وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء[9] ، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية ، ولم يكتفِ كمال الدين بمهامه القضائية ، بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار ، فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ، ومدارسها ، ومارستاناتها[10]. وقد فوَّضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب ، وأوقاف الدولة ، وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار ، وحفظ الثغور ، فأنجز مهمته على خير وجه[11]. كما أولى عنايةً خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق ، والإنفاق عليه بسخاء[12]. وزاد نور الدين على ذلك كله ، فاعتمده

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 82.

(2) المصدر نفسه ص 82.

(3) المصدر نفسه ص 83.

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 222.

(5) قضاة دمشق ص 47 . 48.

(6) البرق ص 222 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 83.

(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 83.

(8) الخريد قسم الشام ص 246 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 83.

(9) البرق ص 222 . 224.

(10) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 83.

(11) البرق ص 146 . 147.

(12) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 84.

مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد[1] ، كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضاء حلب ، والبلدان التابعة لها ، فضلاً عن النظر في أمور ديوانها ، وكان محيي الدين هذا ـ كما يصفه العماد ـ: «من أهل الفضل، وله نظم ، ونثر ، وخطب ، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة 535هـ 1140م[2] ، كما اعتمد في حماه وحمص قضاة اخرين من بني الشهرزوري أنفسهم[3]. وعندما دخل الموصل عام 566هـ 1170م أقرَّ على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري»[4].

ب ـ الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون: تولى قضاء سنجار ، ونصيبين ، وحرَّان ، وغيرها من مدن ديار بكر ، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ، ينوب عنه في سائر المدن نُوَّاب أشرفَ على تعيينهم بنفسه[5]، فقد ولد بالموصل سنة 492هـ أو 493هـ 1099م ، وتفقَّه على جماعة من العلماء ، وانتقل إلى حلب سنة 545هـ 1150م ، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام 549هـ 1154م ودرَّس في جامع دمشق ، وتولى أوقاف المساجد ، ثم رجع إلى حلب ، وأقام بها ، وصنَّفَ كُتُباً كثيرةً في الفقه ، والمذاهب ، ودَرَسَ على يديه عددٌ كبيرٌ من التلاميذ وانتفعوا به ، وكان فقيهاً من الطراز الأوَّل ، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره ، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك ، وكان متوحِّداً في العلم والعمل ، وسرعان ما تقدم عند نور الدين ، فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب ، وحمص ، وبعلبك ، وغيرها ، ثم ما لبث أن ولاَّه قضاء ديار بكر ومنحه ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ صلاحيات واسعة[6]. كما اعتمده عام 566هـ 1170 رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد[7]. وقد توفي عام 585 هـ 1189م[8].

7 ـ رفع الضرائب والمكوس: لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ، ولا مَكْسَاً ، ولا عُشْراً إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة ، وديار مصر ، وغيرها مما كان تحت حكمه ، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون ديناراً؛ أي 45% وهذا منه إلغاء للمكوس ، لم تتسع له نفس غيره[9]. وكان رحمه الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس ، فقد روى أبو شامة: أن «الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ، ويبكي ، ويتضرع ، ويقول: اللهم ارحم العشَّار المكَّاس... وكان قد دعا أحد معاونيه ـ موفق الدين خالد ـ وقال له: اقعد واكتب بإطلاق المؤمن ، والمكوس ، والأعشار ، واكتب للمسلمين: أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم ، وأثبت ما أثبته الله عليكم»[10].

وقد أمر بقراءة المناشير في مساجد الأقاليم جميعها على الناس. روى أبو شامة: «أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة 566هـ ، أمر بإسقاط جميع المكوس ، والضرائب ، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه: (وقد قنعنا

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص 84.

(2) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 84.

(3) قضاة دمشق ص 47 ـ 48 نور الدين محمود ص 84.

(4) البرق ص 97 نور الدين محمود ص 84.

(5) البرق ص 100.

(6) وفيات الأعيان (3 / 53 ـ 56).

(7) مراة الزمان (8 / 283).

(8) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 85.

(9) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1 / 362).

(10) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 327.

من الأموال باليسير من الحلال ، فسحقاً للسحت ، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت ، وبعداً لما يبعد من رضا الرب ، وقد استخرنا الله ، وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة ، في كلِّ ولاية لنا بعيدة ، أو قريبة ، ومحو كل سنة سيئة شنيعة ، ونفي كل مظلمة فظيعة ، وإحياء كلِ سنة حسنة... إيثاراً للثواب الاجل على الحطام العاجل)[1].

وقرأ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام 567هـ بعد صلاة الجمعة عند السلطان صلاح الدين في أيام نور الدين امراً له ، جاء فيه: «وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر ، والقاهرة ، وأن نتجرد فيها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة ، ونطهِّر منها مكاسبنا ، ونكفي الرعية ضرهم... ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد يد حاسب ، ولا قلم كاتب»[2].

وهدد من لا يطيق ذلك من المسؤولين: ومن أزالها زلَّت قدمه ، ومن أحلَّها حلَّ دمه ، ومن قرأه أو قرأ عليه فليتمثل ما أمرنا به ، وليمضه مرضياً لربه ، ممضياً لما أمر به[3].

ولم تَرُقْ هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة ، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات من أين تعطيهم أرزاقهم؟ أيْ: رواتبهم ، فأجابه نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات أي من هذه الموارد: نتركها ، ونقعد ، ولا نخرج[4]! ولم يكتف نور الدين بذلك ، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس، أن يسامحوه فيما جبي منهم قبلاً من هذه الضرائب ، وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق ، وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعَّاظ بأن يستحلوا من التُّجَّار ، ومن جميع المسلمين له في حلِّ ما كان قد وصل إليه ، يعني من أموالهم ، فتقدَّم بذلك ، وجعل الوعَّاظ على المنابر ينادون بذلك[5].

وعندما خرج لأخذ شيزر؛ خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته ، فأمره نور الدين ـ رحمه الله ـ بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ، ودمشق ، وحمص ، وحَرَّان ، وسنجار ، والرحبة. وعزاز ، وتل باشر ، وعداد العرب ، فكتب عنه توقيعاً نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه سامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار ـ أبادهم الله ـ عند استيلائهم على البلاد ، وظهور كلمتهم في العباد ، رأفة بالمسلمين المثاغرين[6] ، ولطفاً بالضعفاء المرابطين ، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد ، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد ، اختباراً لصبرهم ، وإعظاماً لأجرهم ، فصبروا احتساباً ، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر : 10] وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه ، من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها ، من الفتوح العمريَّة ، وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين ، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين ، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر ، وهدم أركان التعدِّي ، وأقرَّ الحق مقرَّه ، لقوله تعالى:﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ

[1] كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 328.
[2] المصدر نفسه ص 328.
[3] المصدر نفسه ص 238.
[4] كتاب الروضتين (1 / 67).
[5] كتاب الروضتين (1 /69).
[6] المثاغرين: سكان الثغور.

﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[الأنعام:160] ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة:262]. ثم لما أعانه الله بعونه وأيَّده بنصره ، وقمع به عادية الكفر ، وأظهر بهمته شعائر الإسلام ، وأظفره بالفئة الطّاعنة ، وأمكنه من ملوكها الباغية ، فجعلهم بين قتيل غير مقاد ، وهارب ممنوع الرُّقاد»: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ [ص :38. 40] ، علم: أن الدنيا فانية ، فاستخدمها للآخرة الباقية ، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدَّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمعاد ، فالتقوى مادة دارَّة؛ إذا انقطعت المواد ، وجادّة واضحة حين تلتبس الجود: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار :19] فصفح لكافة المسافرين ، وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس ، وأسقطها من دواوينه وحرَّمها عل كل متطاول إليها ، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها ، واكتساباً لثوابها ، فكان مبلغ ما سامح به ، وأطلقه وأنفذ الأمر فيه . تباعاً لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين ألف دينار»[1] ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك: أَنْ نشط الناس للعمل ، فأخرج التجار أموالهم ، ومضوا يتاجرون ، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام ، بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (165000) مئة وخمسة وستين ألف دينار[2].

يقول ابن خلدونٍ: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها ، واكتسابها لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت اىالهم في اكتسابها ، وتحصيلها؛ انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ، ونسبته يكون انقباض أيديهم[3] عن المكاسب ، فكسدت أسواقُ العمران ، وانتقضت الأحوال. ويقول: العدوان على الناس في أموالهم ، وحرمهم ، ودمائهم ، وأسرارهم، وأعراضهم... يفضي إلى الخلل، والفساد دفعةً، وتنتقص الدولة سريعاً[4].

وكانت هناك أمور عديدة ساعدت نور الدين على إلغاء المكوس ، وأهمها على الإطلاق توفيق الله له ، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه: أنه يغسل ثيابه ، وقصَّ ذلك عليه ، ففكر ساعة ، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس ، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجُّده يقول: ارحم العشَّار المكّاس ، وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حِلّ ما أُخذ منهم ، وقال: والله ما أخرجناه إلا في جهاد عدوّ الإسلام! يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم[5].

ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم ، والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي ، فقد قال قصيدة في نور الدين ، وقدمها له ، جاء فيها:

مثِّـــــلْ وقوفــك أيهـــا المغــــــــــرور ... يـــوم القيامـــةِ والسمــــــاء تمـــــــــــور

[1] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1 / 70).

[2] الجهاد والتجديد ص 329.

[3] المقدمة ص 286 معوقات الجهاد (1 / 422).

[4] المقدمة ص 290.

[5] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1 / 54).

إن قيــل نـور الديـن رحـت مسلَّمـــاً فـاحـذر بـأن تبقـى ومالـك نـــور
أَنَهَيْـتَ عـن شـرب الخمـور وأنت مـن كـأس المظـالـم طافـحٌ مخمـــورُ
عطَّلْـتَ كاسـاتِ المُـدامِ تعففـاً وعليـكَ كاسـات الحـرام تـدورُ
مـاذا تقـول إذا نُقلت إلى البِلـى فـرداً وجـاءك منكـرٌ ونكيـر
وتَعَلَّقـتْ فيـك الخصـوم وأنـت فـي يـوم الحسـاب مُسَحَّـبٌ مجـرورُ
وتَفَرَّقَـتْ عنـك الجنـودُ وأنـت فـي ضيـق اللُّحـود مُوَسَّـدٌ مقبـورُ
وَوَدِدْت أنـك ماوَلِيْـتَ ولايـة يوَمـاً ولا قـال الأنـام أميـرُ
وبقِيْـت بعـد العـزِّ رَهْـنَ حُفيـرة فـي عالـم الموتـى وأنـت حقيـر[1]
وَحُشـرتَ عُريانـاً حزينـاً باكيـاً قَلِقـاً ومالـك فـي الأنـام مُجيـر
أَرضِيـتَ أن تحيـا وقَلْبُـك دارسٌ عافـي الخـراب وجسمـك المعمـورُ
أرضيـت أن يحظـى سـواك بقُربـه أبـداً وأنـت مُبَعَّـدٌ مهجـور
مهِّـد لنفسـك حُجَّـةً تنجـو بهـا يـوم المِعـاد لعلـك المِعْـذُورُ

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار ، فلما سمعها نور الدين؛ بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده[2].

فرحم الله الواعظ والمتعظ ، ووفق من أراد الاقتداء بهم!

8 . وما قيل من الشعر في عدله:

قال ابن منير:

بنـور الديـن رُوض كـلُّ مَحْـلٍ مـن الدنيـا وجُـدِّد كُـلُّ بـالِ
وَصَـوَّب عَدْلُـه فـي كُـلِّ أوبٍ فعـوَّض عاطِـلاً منـه بحـالِ
ويُنكـي رأيُـهُ رأي المحامـي ويَقْتُـلُ خوفـه قبـل القتـالِ
لقـد أحصـدَت للإسـلام عِـزاً يفـوت سَنامـه يَـدَ كُـلّ قـالِ[3]

وقال أيضاً:

وانْتـاش ديـنَ محمـدٍ محمـودُهُ مـن بعـد مـا عَلَـق دمـاً عَبَراتُـهُ
رددتَ علـى الإسـلام عصـرَ شبابـهِ ثباتـه مِـن دونـه وثباتُـهُ
أرسـى قواعـده ومَـدَّ عِمـادَهُ صُعُـداً وشيَّـدَ سـوره سوراتُـهُ
وأعـاد وجـه الحـقِّ أبيـض ناصعـاً إصلاتُـهُ وصِلاتُـهُ وصَلاتُـهُ[4]

---

(1) أخبار الروضتين (1 / 56).
(2) البداية والنهاية (16 / 489).
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن شعر الجهاد الشامي ص 167.
(4) شعر الجهاد الشامي ص 168.

وقال أيضاً:

لا تأمنوا فـي اللـه بطشـة ثائـرٍ ... للـه مـلءُ سريـره أسـرارُ
صـافٍ إذا كُـدِرَ المعـادِنُ عـادِلٌ ... إن خـاف حُكّـام الملـوك وجـاروا[1]

وقال أيضاً:

أَوَلَسْتَ مَـنْ مـلأ البسيطـة عَدْلُـهُ ... واجْتَـبَّ بالمعـروف أنـف المنكـرِ
حـدبُ الأب البـرِ الكبيـرِ ورأفـة ... الأم الحفيـة باليتيـم الأصغـرِ
يا هضبـة الإسـلام مـن يعصم بهـا ... يأمَـنْ ، وَمَـنْ يَتَـولَّ عنهـا يَكْفُـرِ[2]

وقال أيضاً:

لا مُلْـكَ إلا مُلْـكُ محمـود الـذي ... اتَّخَـذَ الكتـاب مظاهـراً ووزيـرا
تمشـي وراء حـدودِه أحكامُـهُ ... تأْتَمُّهَـنَّ فيحكـم التقديـرا
يقظـان ينشـر عَدْلَـهُ في دولـة ... جـاءت لِمَطْـوي السمـاح نشـوزا[3]

وقال أيضاً:

يـا سائلـي عـن نهـج سيرتـه ... هـل غيـر مفـرق هامِـة الفجـرِ
عـدلٌ حقيـقٌ مـن تأملُـهِ ... أن يحيـي العمريـن بالذكـر[4]

وقال أيضاً:

ثنـى يـده عـن الدنيـا عفـاف ... ومـال بهـا عـن الأمـوال زهـدُ
رأى حـطَّ المكـوس عـن الرعايـا ... فـأهـدر مـا أنشـاه بعـد
ومـدَّ لهـا رواق العـدل شرعـاً ... وقـد طُـوي الـرواق ومـن يمـدُّ[5]
وبـات وعنـد بـاب العـرش منهـا ... لدولتـه دعـاء لا يـردُّ[6]

وقال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيـيَ العـدل الـذي فـي ظلـه ... مـن عدلـه رعـت الأسـود مـع المهَـا
محمـودٌ المحمـودُ مِـن أيامـه ... لبهائِهـا ضحـك الزمـان وقهقهـا[7]

---

(1) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص 170.
(2) المصدر نفسه ص 170.
(3) المصدر نفسه ص 171.
(4) عيون الروضتين (1 / 386 ، 287).
(5) المصدر نفسه (1 / 388).
(6) عيون الروضتين (1 / 388).
(7) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص 174.

إن الملك العادل نور الدين زنكي ، حَرِصَ على بناء مجتمع العدل ، والقوة ، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية ، ولا شكَّ: أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف ، فهي جانب من جوانب المدنيَّة المتكاملة ، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى ، لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي ، والأمن الغذائي ، والأمن الصحي[1] ، وهذه الأمور عَمِلَ نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه ، بإذن الله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحجر: 25] . فهذه الآية الكريمة توضِّح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضِّر، يقوم على العدل ، والقوة ، فالكتاب والميزان لإقامة العدل ، والحديد لإيجاد القوة ، التي تحمي العدل ، وتكفل استمراره ، ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا: إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضِّر ينبغي أن تتوفر له الإيدلوجية الصالحة ، زائد التكنيك المتقدِّم ، فالإيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة ، بعيدة عن التجزئة والتشرذم ، وتمنحها الأهداف ، ووحدة الحركة ، والتصميم ، والإرادة ، وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة ، والفكر ، والتنظيم الاجتماعي ، والاقتصادي ، والتكنيك يمنحها فُرَصَ التقدُّم على الاخرين ، علمياً وصناعياً ، ليس من أجل إذلالهم ، واستعمارهم ، فالإيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك ، بل لإقامة العدل في الأرض ، بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ، ثم لضمان استمرار العدل ، الذي أرسل الله تعالى الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لبيانه ، ووضع الموازين الحق له ، فنزول الكتب السماوية ، وخاتمها القران الكريم ، يهدف إلى تثبيت موازين العدالة ، وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها ، فالناس يقومون بالعدل ، ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن، وينتفعون بالعمل والإنتاج[2].

إنَّ العدل الشامل لا يتحقَّق ، إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح ، للكتاب والسنة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية ، وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى ، وهو أمر لايتحقَّق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين[3].

رابعاً ـ مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي: أنَّ من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية ، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة ، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية ، فهم قلبُها ، وعقلها المفكِّر ، فنور الدين زنكي يعرف: أنَّ تحرير الأرض ، وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب ، بل إنه أوسع من ذلك بكثير ، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني ، والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها ، والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني ، أي: بين أمة وأمة ،

---

(1) الإسلام والوعي الحضاري د. أكرم العمري ص 115.

(2) الإسلام والوعي الحضاري ص 117.

(3) المصدر نفسه ص 117.

وإنه وبدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة ، فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتةَ مُعَرَّضة دوماً للمد والجزر ، وللتغيير والتبدُّل كما كان يحدث دائماً.

وما يقتضيه هذا الموقف ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن ، إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي ، وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت ، أو تضيع ، وحينذاك سوف يتحوّل كل عنصر عسكري ، أو كسب سياسي ، إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً ، لا مجرد تكديس شيء لا يشدُّه الرباط: تكديسٌ كميٌّ يَثْبُتُ للضربة والضربتين ، ولكن بالثالثة ، أو الرابعة ينهار ، فتذهب مع انهياره جهود السنين الطوال ، وعرقها ، ودماؤها هدراً[1].

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً ، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة ، لكنَّه «تصميمٌ هادفٌ» يسعى إلى عملية «التأصيل العقائدي» من خلال نشاط ثقافيٍّ وتربويٍّ واسع النطاق ، يرتبط به الفكر بالسلوك ، والعلم بالعمل ، وتزول حواجز الفصل والازدواج ، وتنمحي الثنائيات ، ويبرز إلى حيِّز التاريخ «الإنسان» المتوازن الذي أراده الإسلام ، و(الجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله[2] ، وهذا الإنسان المتوازن لا بدَّ أن يشرف على إخراجه قيادةٌ ربانية ، على رأسها العلماء الربانيين.

وقد كان نور الدين نفسُهُ عالماً قبل أن يكون حاكماً ، وكان هذا نقطة البدء ، وحجر الزاوية[3] فقد كان يعشق العلم، ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبُّه بالعلماء والصالحين ، والاقتداء بسيرة مَنْ سَلَفَ منهم[4]، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى ، والمحلِّ العظيم[5]، يُحْضرهم إلى مجلسه ، فيدنيهم ، ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذ تقع عينه عليه ، ويجلسه معه ، ويقبل عليه بكلِّيته تعظيماً ، وتوقيراً ، واحتراماً[6]، وكان مجلسُه ندوةً كبيرة يجتمع إليها العلماء ، والفقهاء للبحث والنظر[7]. وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة ، ملتزماً به من غير تعصّبٍ منه ، ولا تحيُّزٍ ، فالمذاهب عنده ـ كما أجمع المؤرخون كافةً ـ سواءٌ ، والإنصاف سجيته في كل شيء[8].

سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يُسْمِعَه للآخرين... ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي ، والعسكري، محاولة منه في تعزيز مكانة (السنَّة) ونشرها بالحفظ ، والأداء ، والتحديث[9]، كما ألَّف كتاباً في الجهاد[10] ، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه ، وكان حسن الخط ، كثير المطالعة للكتب الفقهيَّة متميزاً

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 139.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 130.

(3) المصدر نفسه ص 131.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 35.

(5) مفرج الكروب (1 / 283) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 35.

(6) الباهر ص 171 . 171 نور الدين محمود ص 36.

(7) الباهر ص 171 . 173 نور الدين محمود ص 36.

(8) الباهر ص 165.

(9) الكواكب ص 56 . 57 الباهر ص 165 . 166.

(10) مراة الزمان (8 /313) نور الدين محمود ص 36.

بعقله المتين ، ورأيه الثاقب الرزين[1]. ولا شك: أنَّ هذا التوجه العلمي عند نور الدين أثَّر على سياسته التعليمية ، والتربوية التي شهدتها دولته[2].

إنَّ أمةً يسوسها العلماء ، والمتخصِّصون يمكن أن تينع ، وتزهر فيها شجرة المعرفة ، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل ، وتذوي ، وتنفضَّ عنها أوراقها الصفراء؛ فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنةً من الجهلاء.

إنَّ جهود نور الدين محمود في دعم العلماء ، واحترامهم ، وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز ، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز دولة العلماء ، كما أنَّ في دولة نور الدين مكانة للعلماء ، غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة ، أو الحكام الذين حوله.

1 ـ تقديمه للعلماء على الأمراء: كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء ، والفقهاء على مكانتهم عنده ، فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: «هؤلاء جند الله ، وبدعائهم ننتصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم ، فإذا رضوا منا ببعض حقهم؛ فلهم المنة علينا»[3].

وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين، والعلماء عند نور الدين، فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ، ويقول لهم: من المعصوم؟ ويكفينا هنا أن نذكر ردَّه على بعض أكابر الأمراء ، عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري[4] ، وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه ، والإحسان إليه ، فقال نور الدين له: «يا هذا! إنَّ ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زلةٍ تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، لو عقلت؛ لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا ـ إن صحَّت ـ مع وجود حسناته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكره ، أو غيره بسوء؛ لأوذينَّك! فكف عنه»[5].

2 ـ البذل والعطاء للعلماء: لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي ، والعلاقة الودية ، والكلمة الطيبة ، ولكنه تجاوز هذا ـ على أهميته ـ إلى البذل والعطاء ، فكان يمنحهم بسخاء؛ لأن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب، وألا تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل، فتحني رأسها ، وتلوي فكرها ، أو تتملق ، وتداهن ، وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة ، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال[6].

إنَّ أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخل عليهم بما يسدُّ حاجتهم الضرورية ، ويفيض عليها لكي لا تشدَّهم إلى أسفل ، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق ، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة ، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم ، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 36.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 39.

(3) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 122.

(4) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 123.

(5) الباهر نقلاً عن نور الدين محمود ص 134.

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 140.

يقول: «هؤلاء جند الله ، وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم ، فإذا رضوا منا ببعض حقهم؛ فلهم المنَّة علينا»[1] ، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس ، وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

وقد وسَّع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ، ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء ، ومكَّنَ العلماء بما خصصه لهم من أعطيات ، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية[2] ، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز ، فقد وضع قانون التفرُّغ للعلماء ، والدعاة ، والمفكرين؛ كي يتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكريَّة دعويَّة ، تلك التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة ، فأجرى الأرزاق على العلماء ، ورتَّب لهم الرواتب؛ ليتفرغوا لنشر العلم ، ويكفوا مؤونة الاكتساب[3] ، وهذا الفعل من نور الدين محمود ، وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية ، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة ، وجهود ضخمة ، وهمم عالية ، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوّع والتكامل؛ حتى تسدَّ كل الثغرات التي تحتاجها ، ولا يقع تركيزٌ على جانب فيتضخم بينما تهمل الجوانب الأخرى ، ولا بد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع؛ لأنها من أعظم القربات إلى الله ـ تعالى ـ كما يجوز أخذ مال الزكاة، أو الصدقة، أو الوقف، أو الوصية، أو الهبة، أو الهدية لسدِّ هذه الثغرات المهمة ، وينبغي أيضاً توفير كل ما يحتاجه المتفرّغ وذويه من الأجر الكافي؛ حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف، والبذخ ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرّغ ، بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، دون محبة لعمرٍو ، أو زيد[4] ، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾[القصص : 26] .

3 ـ اهتمامه بعلماء المدارس النظامية: من أهم العوامل التي يسَّرت أمام نور الدين سبيل النجاح: أنه لم يبدأ من فراغ ، وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية ، التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير ، وقد تحدَّثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي: (دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي) ، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود ، بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهرة ، والتي في مقدمتها تخريج جيلٍ يعي حقيقة الصراع ، والأخطار المحيطة به من باطنية ، وصليبية ، وهو مؤهل بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له والدفاع عنه ، وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء ، الذين تخرجوا من النظاميات ، ومنهم: «القاضي كمال الدين الشهرزوري ، والذي كان بمثابة وزير له ، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون ، الذي أنشأ له نور الدين عدَّة مدارس في أماكن مختلفة ، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرِّساً في بعض مدارس دمشق ، إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات ، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية ، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها ، وعبد

[1] الباهر ص 173 البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص 141.

[2] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 141.

[3] الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص 265.

[4] أولويات الحركة الإسلامية ص 193 فقه النصر والتمكين ص 272.

الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت 563 هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ، ودرّس ببعض مدارس دمشق»[1].

وأصبحت الشام في عهد نور الدين ، والأيوبيين مركزاً لهجرة كثيرٍ من العلماء ، من أنحاء شتى من العالم الإسلامي ، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين ، وهو يمكّن لمذهب أهل السنة[2].

4 ـ هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود: شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين ، نشاطاً عالمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً ، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ، ودمشق من أطراف الأرض ، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة[3]؛ حتى إن بلاد الشام كانت ـ كما يصفها أبو شامة ـ «خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرّاً للعلماء ، والفقهاء ، والصوفية[4] ، فالدولة التي تهيئ الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي ، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ ، وتنشىء المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان ، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية ، فعمل بنفسه على توسيع نطاقها ، وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة ، ويستقدمهم إليه ، ويبالغ في إكرامهم ، والإحسان إليهم[5] ، وقد استقدم على سبيل المثال:

أ ـ برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (548 هـ / 1153م) وهو من علماء الأحناف ، فقد أُستُقْدِمَ من دمشق حال استكمال بناء المدرسة الحلاوية ، في حلب لغرض التدريس فيها ، وكان قد تفقه فيما وراء النهر ، وبغداد، والحجاز ، ثم قدم دمشق عام 519هـ وجلس للوعظ ، وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس ، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا ، وُقفت عليه الأوقاف الكثيرة ، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها[6]، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيُّع بحلب[7].

ب ـ الفقيه أبو العباس السلفي: فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية ، باستدعاء الفقيه برهان الدين أبي العباس أحمد السلفي ـ من دمشق أيضاً ـ ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم ، فسَيَّر إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ، ويشدِّد عليه في الطلب ، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته ، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً ولم يزل ـ الأخير ـ مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب ، وما لبث أن توفيَ عام 548هـ. وحلَّ محله في التدريس عبد الرحمن بن محمود بن محمد الغزنوي ، حتى وفاته سنة 564هـ[8] ، ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى[9].

---

[1] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 222.

[2] المصدر نفسه ص 223.

[3] الباهر ص 171 ـ 172 نور الدين محمود الزنكي ص 144.

[4] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود زنكي ص 144.

[5] زبدة حلب (2 /293 ـ 294) مفرج الكروب (1 /283).

[6] زبدة حلب (2 / 293 ـ 294) مفرج الكروب (1 / 283).

[7] مراة الزمان (8 / 219 ـ 220) نور الدين محمود ص 145.

[8] نور الدين محمود ص 145.

[9] المصدر نفسه ص 145.

ج ـ عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي: تعاقب على المدرسة الحلاوية مدرسون من جهات شتى ، وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) ، وكان في لسانه لكنةٌ غير عربية ، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي ـ وكان في الموصل ـ يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة، وعُيّن في المدرسة الحلاوية حتى وفاته عام 581هـ أو 582هـ بينما أقرَّ علاء الدين على التدريس في الحلاوية ، وظلَّ هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام 587هـ أي: بعد ثمانية عشرة عاماً ، وقد وصفه ابن شداد بأنه: «كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة ، والكتب التي سارت في الافاق ذكرها»[1] تفقَّه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي ، وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه بابنته فاطمة ، الفقيهة العالمة ، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع ، وصنَّف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[2]. وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى ، تفقهت على يد أبيها ، وحفظت مصنفه التحفة ، وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً ، وكان زوجها ربما يهمُّ بالفتوى فترده إلى الصواب ، وتعرفه وجهة الخطأ ، فيرجع إلى قولها ، وكانت تمارس الإفتاء ، وكان زوجها يحترمها ، ويكرمها ، وكانت الفتوى تخرج بخطها ، وخط أبيها ، وزوجها ، وهي التي سنَّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب[3].

د ـ الإمام شرف الدين بن أبي عصرون: عندما تمَّ استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام 550هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار ـ غربي الموصل ـ الشيخ الإمام شرف الدين بن أبي عصرون الذي كان ـ بحق ـ من أعيان فقهاء عصره ، وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى ، فبنى له مدارس عدَّةً: في منبج ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، ودمشق ، وفوَّضه أن يولي التدريس فيها من يشاء ، ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة ، وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة 570هـ[4].

هـ ـ قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام 544هـ تمَّ بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي ، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور: قطب الدين مسعود النيسابوري ، مصنف كتاب (الهادي) في الفقه[5] ، وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ، ومرو ، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ ، وقرأ القران، والأدب على والده ، والتقى بأبي نصر القشيري ودرَّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني ، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ ، والكلام في المسائل ، فلقي هناك قبولاً حسناً ، وغادرها إلى دمشق عام 540هـ ، فدرّس في مدارسها ، ووعظ في مساجدها ، فأقبل الناس عليه ، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة ، وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير[6]. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: (فقيه عصره ، ونسيج وحدِه)[7] ، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة 568هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك ، فدرَّس في زاوية الشافعية

---

(1) نور الدين ص 146.

(2) تاريخ حلب (4 ـ 305 ـ 308) نور الدين محمود ص 146.

(3) نور الدين محمود ص 146.

(4) زبدة حلب (2 / 293 ـ 294) نور الدين محمود ص 147.

(5) زبدة حلب (2 / 293 ـ 294) نور الدين محمود ص 147.

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 147.

(7) البرق ص 134 ـ 135 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 147.

بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي ، واجتمعت طلبة العلم عليه ، ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية ، يتولى الرجل التدريس فيها ، وقد شرع بالبناء فعلاً ، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها[1] ، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين 578هـ[2].

و . سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري: المتوفى سنة 560هـ والذي درس الحديث ، وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ، ورحل إلى بغداد مراراً وحدَّث بها عند جماعة من الشيوخ ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس ، فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته ، ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده؛ لم يسمح له نور الدين، وأمسك به ، وأنزله الخانقاه ، والسميساطية ، وجعله شيخها ، فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدِّث الشهير أبو القاسم بن عساكر[3] ، ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[4].

ز . الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني: وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني؛ الذي قدم إلى دمشق عام 562هـ ، وقد قدَّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنورِ الدين ، فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية ، والسياسية ، والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية ، والتدريسية ، حيث ولي المدرسة النورية التي سميت . بعدئذ . بالمدرسة العمادية نسبة إليه ، وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ ، والأدب ، والشعر ، والتي تم إنجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه: الخريدة ، البرق الشامي ، تاريخ دولة ال سلجوق ، زبدة النصرة ، الفتح القسي ، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيٍّ من المعاصرين الكبار كابن القيسراني ، وابن منير[5].

ح . الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي: ملك النحاة كما يسميه سبط ابن الجوزي ، ولد ببغداد سنة 489هـ وقرأ النحو ، وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ، ثم دخل الشام ، واستوطن دمشق ، وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي صلى الله عليه وسلم وكان يضمُّ يده على المئة والمئتين ، ويمسي وهو صفر اليدين وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات ،وكان يكتب إليه[6].

ط . أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه: كان معيداً بالنظامية ، سافر إلى دمشق ، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه (الروضتين)[7].

ي . أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ... ورد أربل ، ووعظ بها ، وكان له قبول عظيم لدى الناس ، وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد ، وأنفذ له الأخير جملة من المال ، لم يقبلها وردَّها عليه[8].

---

(1) مراة الزمان (8 / 294).

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 147.

(3) الدارس في تاريخ المدارس (2 / 153).

(4) المنتظم (10 / 249) نور الدين محمود ص 148.

(5) الدارس في تاريخ المدارس (1 /408 . 411).

(6) مراة الزمان (8 / 295 . 297).

(7) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص149.

(8) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص150.

ك ـ شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حمويه: وفد إلى الشام عام 563هـ ، وكان كبير الشأن في ميدان التصوُّف ، لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ ، فأقبل عليه نور الدين ورغَّبه في المقام بالشام ، وأحسن إليه ، وأمر بإصدار منشور يعيِّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام[1].

وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة ، أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين ، والذين تدفقوا على حواضرها ، وملؤوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية ، وإدارتها كذلك ، حتى صارت بلاد الشام في عصره مهجراً لكبار عقول الأمة.

5 ـ ابتعاد نور الدين عن التعصب: لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنيّة لكي يسعى ـ من خلال نشاطه المدرسي هذا ـ إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب ، وإلى تعزيز مواقع فقه ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية ، كما يحدث في عصور التقليد والتَّيبُّس الفكري ، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير: (العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة ، وشموليتها الَّتي تتسع لكل فكرٍ إسلامي مُبدع) ، واجتهاد خلاَّق ، إنَّ الرجل يطلُّ على المسألة الفكرية من فوق ، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري ، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمَّة المسلمة ، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض ، ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد ، وصهيونيته لتحقيقه ، وصراعٌ من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه ، وهذا هو الأخطر والأهم ، ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوبَ مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية ، والعقد التاريخية صوب ما هو أعمّ وأشمل وأبعد مدىً. وثمة حادثة من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون ، تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال[2]: «في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب انقسم هؤلاء إلى قسمين ، كلٌّ يريد مذهباً من المذاهب ، ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس ، وتطوَّر الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين ، فلما سمع نور الدين بذلك؛ استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب ، وخرج إليهم نائبه ـ مجد الدين بن الداية ـ وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ، ودحض البدع من هذه البلدة ، وإظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ، ولا يليق ، ثم أعلمهم: أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين ، وتولية كلٍّ منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب»[3].

لقد وسَّع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة ، واستطاع أن يَرُصَّ الصفوف ، ويوحِّد الجهود أمام الأخطار الداخلية ، والخارجية ، وحقق الأجواء الصالحة ، لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبنَّاه.

إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني ، وهما من أهم العوامل التي أدَّت إلى انتشار البدع ، والأهواء بين الناس ، ففشت في أوساطهم ، وحالت بينهم ، وبين سماع الحق والهدى ، وتركوا بسببها

---

(1) البرق ص 135 نور الدين محمود ص150.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 165.

(3) تاريخ حلب (2 / 68) نور الدين محمود ص 165.

طريق الكتاب الكريم ، والسُنَّة المطهَّرة ، والتعصب والتقليد يؤديان إلى مهاوي الردى ، ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية ، والضلال ، ويصدان عن اتباع النور والهدى ، فتكون النتيجة تخبطاً ، وانتكاساً في الدنيا ، وهلاكاً ، وخسراناً في الآخرة[1].

لقد انتشر مرض التعصب ، والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية ، لاسيما في العصور المتأخرة ، وأصبح هو الأساس ، والأصل ، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة ، وخطيرة ، من أشدِّها: عدم قبول الحق ، وردِّه إذا جاء من المخالف[2]. وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب ، وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة ، وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض ، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة ، من التعصُّب ، وغيرها ، التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً ، وأحزاباً.

6 ـ أثر العلماء في دولة نور الدين: كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم ، والتربية ، والوعظ ، والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين ، تمثل في الاتي:

أ ـ الجهاد ضد الصليبيين: فقد كان عماد الدين ، وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم؛ حيث كانت لهم الكلمة النافذة، والمكانة المرموقة، والحظ الوافر في كلٍّ من الموصل، وبلاد الشام في ذلك العهد[3] ، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين ، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة 571هـ / 1176م ، ومن أعماله التي قام بها لينضم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضدَّ الصليبيين ، باعتباره شيخاً لأوّل دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق ، فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد ، والحث على فضائله ، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به ، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزءٍ واحد دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد ، والاستشهاد في سبيل الله[4] ، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة 597هـ / 1201م دور بارز في الجهاد ضد الصليبيين ، فقد انتقل إلى دمشق 562هـ /1166م في أيام الملك نور الدين محمود ، وكان سنداً لنور الدين؛ حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة ، مكَّنته من الإسهام بالمشورة ، والتدريس ، والتأليف ، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[5].

ب ـ السفارات بين الدولة: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية ، أو الدولة المعاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين ، أو لقضاء مصلحة بين الدولتين ، ومن سفراء الاستنجاد ومن طلب المعونة ضد الصليبيين: القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى 572هـ /1176م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه؛ ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (530 ـ

---

(1) في ظلال القران (2 /991) فقه النصر والتمكين ص 259.

(2) فقه النصر والتمكين ص 260.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 183.

(4) معجم البلدان (13 /78).

(5) معجم البلدان (19 /14) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 184.

555هـ / 1135 . 1160م) والسلطان السلجوقي مسعود (527 . 547هـ / 1133 . 1152م) عام (532هـ / 1137م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام[1] ، وقد مرَّ تفصيل ذلك.

كما واصل القاضي كمال الدين القيام بهمة السفارة بين الدولتين الزنكية ، والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود؛ إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيء (566 . 575هـ / 1172م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ، ومصر ، والجزيرة ، والموصل) ، وبما في طاعته كديار بكر ، وما يجاوز ذلك كخلاط ، وبلاد أرسلان. يقول ابن الأثير: (فأكرم الخليفة كمال الدين إكراماً لم يُكرمه رسول قبله ، وأجيب إلى ما التمسه)[2]. كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب ، والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد اخر الحكام البوريين (534 . 549هـ / 1139 . 1154م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة (546هـ / 1151م) وقد تولى المهمَّة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة (548هـ /1153م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدين أيوب ، وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما[3].

ج . تولي بعض المناصب المهمة في الدولة: كالقضاء، وقد تمَّ الحديث عن ذلك، وكتابة الإنشاء[4]، وغير ذلك من المناصب التي يأتي بيانها بإذن الله في هذا الكتاب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمورٌ ، منها:

* أنَّ نور الدين . رحمه الله . قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم ، رغم أنّه كان حنفي المذهب ، فارتفع فوق عصبية المذهب ، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أنَّ عصر الملك العادل كان حافلاً بالحركة العلمية، مزدهراً بالعلماء، والفقهاء، والقضاة من ذوي العلم الغزير ، والعاملين بعلمهم ، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها ، وكان يناقشهم فيها[5]: ويعود ذلك إلى ذكاء لماح ، ونية حسنة ، وعلم غزير ، مما مكَّنه من حل مشكلات عصره ، بينما عجز عنها قبله الفحول.

* أنَّ التعاون بين السلطان والعلماء العاملين قد أدى إلى تغيُّر الأوضاع المتردية ، وتجديد أحوال الأمة ، والارتقاء بها نحو الأفضل مع إقامة العدل ، وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[6].

وسيأتي الحديث . بإذن الله . في مبحث قادم عن دُوْرِ التعليم ، ووظائفها في العهد الزنكي ، والمدرسون والطلاب ، ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي ، وميادين العلوم ، وأبرز أعلامها ، وأهم المراكز العلمية.

خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود:

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 185.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 185.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 186.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 178 ، 189.

(5) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص 313.

(6) المصدر نفسه ص 313.

اهتمَّ الملك العادل ، نور الدين محمود زنكي بالشورى ، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة ، وأمنها ، واستقرارها ، والأهم من ذلك كله: أن الله جعل فيها سورة من سور القران الكريم ، حملت اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القران الكريم، وهو يمثل أرقى أشكال التعاون قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ [الشورى:38]

. كما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ١٥٩﴾ [عمران: 159] .

وقال الشاعر:

إذا بلـــغَ الــــرأيُ المشــورة فاستعـــن ... بـــرأي لبيــــبٍ أو مشـــورة حـــــازمِ

ولا تجعــل الشـــورى عليــك غضاضـــةً ... فــإن الخوافـــي قـــوةٌ للقـــــوادمِ[1]

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية ، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء ، والفقهاء ، فلا يحلُّ للحاكم أن يتركها ، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى ، كما لا يحلُّ للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك ، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ، ويستبد بالأمر دون أن يشاركها فيه[2]، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض ، والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع.

ولقد اعتمدها نور الدين محمود ، ولم ينفرد باتخاذ القرارات ، بل تبادل الآراء في كلِّ أمور الدولة ، فكان له مجلس فقهاء ، يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية ، يبحث في أمور الإدارة ، والنوازل ، والميزانية.

1 . الشورى في القضايا العامة: وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك ، كانت قد أُدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي ، بدمشق ، وسعى نور الدين إلى فصلها ، وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة ، وبخاصة مسائل الدفاع والأمن ، وقد تمثَّلت في تلك الوثيقة بوضوحٍ الرغبة الجادة لدى نور الدين في الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق[3].

ففي التاسع عشر من صفر سنة أربع وخمسين وخمسمئة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ، ومشايخ العلم ، والرؤساء[4] ، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها ، وقال لهم: (ليس العمل إلا ما تتفقون عليه ، وتشهدون به ، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم ، يجتمعون ، ويتشاورون في مصالح المسلمين ، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره ، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره ، والساكت منكم مصدِّق للناطق ، ومصوِّبٌ له.

فشكروه على ما قال ، ودعوا له ، وفصلوا له المصالح من الوقف ، فقال نور الدين: إنَّ أهم المصالح سدُّ ثغور المسلمين ، وبناء السور المحيط بدمشق ، والفصيل ، والخندق لصيانة المسلمين ، وحريمهم ، وأموالهم ، ثم سألهم عن فواضل

---

(1) مقومات النصر في ضوء القران والسنة (1 /422).

(2) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 454.

(3) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 454.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 80.

الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار ، وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين[1] فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ، ومنهم من روّى في مهلة النظر ، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي: (لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره ، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة ، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك؛ فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين ، فيصرفه في المصالح ، ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك). ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: (هل أُنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق ، وعلى بناء بعض العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟) فقال نور الدين: (لم ينفق ذلك ، ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به)[2].

2 . مجالس متخصصة: كان مجلسُه ندوةً كبيرةً ، يجتمع إليها العلماء ، والفقهاء للبحث والنظر[3] ، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجيةً للوقت ، وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول ، وترفاً فكرياً... إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل ، والتجارب المتجددة المتغيِّرة ، بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهه الواسع الكبير ، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافةً وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ، ورؤياه لموقع الإنسان في العالم... ومن ثم فإنَّ ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة ، تجتمع بين الحين ، والحين لحلِّ مشكلة ما ، أو استعدادُ تشريعٍ ، أو إقرارُ قانونٍ.

ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسَّع الذي مرَّ ذكره مع حشد من العلماء ، الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة ، من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة[4]. وقد شبَّه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء ، لا تؤبن فيه الحرم ، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا[5]... وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء ، واستفتائهم في أخذ ما يحلُّ له من: (الغنيمة ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين ، فأخذ ما أفتوه بحلِّه ، ولم يتعده إلى غيره ألبَتَّةَ)[6].

فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغرّاء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان ، سواء كان في القمة أم في القاعدة ، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين. وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته. ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة ، ويبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ، ومشرعي قوانينهم ، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان

---

(1) كتاب الروضتين (نقلاً عن نور الدين محمود ص 81).

(2) المصدر نفسه ص82.

(3) الباهر ص 171 . 173 ، نور الدين محمود ص 133.

(4) نور الدين محمود ص 133.

(5) الباهر ص 173 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 133.

(6) الباهر ص 164.

الاستشارية ، والتشريعية ، والبرلمانية ، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين ، وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء[1].

وكان يكاتب العلماء للاستشارة ، فقد ذكر ابن الجوزي: أنَّ نور الدين كاتبه مراراً[2]. وكان نور الدين يسأل العلماء ، والفقهاء عمّا يَشْكُل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء ، والفقهاء: (بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه ، وأشركونا في الثواب. فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله ، ولم يترك لأحد بعده فعل خيرٍ ، إلا وقد سبقه إليه)[3].

3 . فراسته في معرفة العلماء: لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة ، كما يقولون ، حيث يختلط الفقيه بالجاهل تحت ستار العلم ، ويضيع الجيد بالرديء ، وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل ، أو اثنان ، أو أكثر ، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ، ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه؛ لكي يزيّفوا حقيقةً ، أو يلبسوا باطلاً بحق ، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

إن الرجل يرفض الكذب؛ الكذب على الله ، وعلى الناس ، وعلى الحقيقة ، وبالتالي فهو يرفض الغش ، والتزوير ، والتضليل ، والخداع ، وهو . من الجهة الأخرى . يملك من الذكاء ، وعمق النظر ، وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة ، كدقة الموازين ، (فهو كما قال عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . متحدثاً عن نفسه: لست بالخبِّ[4] ، ولا الخبُّ يخدعني) ، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن يعبر على بداهة نور الدين ، وتفحصه الذكي للرجال؛ حتى لو تدثَّر بألف رداء علمي ، واختبأ خلف ستار.

فهذه الحادثة ، التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علميَّة الرجل ، ورفضه للخرافة ، وفهمه العميق للرجال: (في رجب . يقول العماد . فوَّضَ إليَّ نور الدين إحدى مدارسه ، وعوَّل عليَّ في التدريس ، والنظر في أوقافها ، وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي ، فلما توفي سنة 562هـ خلَّف ولدين ، واستمرَّا فيها على رسم الوالد ، ثم خدعهما رجل مغربيٌّ ، استهواهما بعمل الكيمياء[5]، ونهج بهما سبيل الإغواء ، فصاهراه ، وظاهراه ، فغاظ نور الدين هذا المعنى ، وأحضرهما ، واستوفى عليهما أنواع التوبيخ ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمعٌ ، فقال لي: تسلَّم الموضوع ، ورتبني فيها مدرساً ، وناظراً)[6].

والمقصود من كلامي: أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته ، وكانت له مجالس شورية ، يلتقي فيها القادة العسكريون ، والإداريون مع العلماء والفقهاء ، فكلُّ حاكم يريد لحكمه أن يستمر ، ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده ، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

---

[1] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 134.

[2] المنتظم (10 / 249).

[3] عيون الروضتين (1 / 374).

[4] الخب: الخادع.

[5] يوم كان الكيمياء دجلاً وشعوذة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين.

[6] البرق ص 119 . 120.

ومع تطور أمور الحياة ، لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ، ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى ، وفق نظام ، أو منشور ، أو قانون يعرِّف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ، ومتى؟ وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذي تتمُّ به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي[1]، فأشكال الشورى، وأساليب تطبيقها ، ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد ، وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بنهج واحد في كل العصور والأزمنة ، وإنما هي متروكة للتحري ، والاجتهاد ، والبحث ، والاختيار ، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله ، أو إهماله؛ لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدةٌ ، ومجدية ، والدكتاتورية ، أو حكم الفرد في جميع الأمكنة ، والأزمنة كريهةٌ ، ومخربة[2].

إن شؤون الحياة متعددة ، ولكل شأن منها أناس ، هم المختصون فيه ، وهم أهل معرفته ، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه ، ففي الأمة جانب القوة ، وفي الأمة جانب القضاء ، وفض المنازعات ، وحسم الخصومات ، وفيها جانب المال، والاقتصاد ، وفيها جانب السياسة ، وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية ، وفيها جانب الفنون الإدارية ، وفيها جانب التعليم والتربية ، وفيها جانب الهندسة ، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية ، وفيها غير ذلك من الجوانب، ولكل جانب أناس عُرِفوا فيه ، بنضج الآراء ، وعظيم الاثار ، وطول الخير والمران ، هؤلاء هم أهل المشورة في الشؤون المختلفة ، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم ، وتمنحهم ثقتها ، وتنيبهم عنها في الرأي ، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم ، واستشارتهم ، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام ، لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها ؛ مما لم يرد في المصادر الشرعية ، ويحتاج إلى اجتهاد[3].

ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص ، والخبرة في المسائل المعروضة ، التي تحتاج إلى نوع من المعرفة: ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين ، وفي شؤون العمران والهندسة يستشار المهندسون ، وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة ، وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة ، وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا.... وهنا لابد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري ، أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون ، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[4]. لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته ، سواء من الإداريين ، أو السياسيين ، أو العلماء ، أو الفقهاء ، أو الأعيان ، وسنرى ذلك في هذا الكتاب . بإذن الله تعالى ..

المبحث الرابع : النظام الإداري عند نور الدين

(1) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 464.

(2) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 465.

(3) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص 57.

(4) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص 58 ، 59.

إنَّ من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد: أنَّ الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ، ومتفرغاً له طول حياته دون غيره من المجالات ، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذَّة في بناء قيادات إدارية ، تُحْسِن تنفيذ الخطط المرسومة ، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال الأكفَّاء ، فكان يختارهم بعناية فائقة ، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ومن بعد ذلك يراقبهم ، ويشرف عليهم؛ حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم ، فإذا تحقَّق من ذلك؛ وثق بهم ، وخوَّلهم الصلاحيات؛ التي يحتاجونها لتنفيذ أعمالهم ، فيباشرون وظائفهم؛ وهم يرون فيه قدوتهم في الالتزام بالشرع ، والإخلاص بالعمل ، والإحساس بالمسؤولية ، والعدل ، والبساطة في العيش ، والحرص على الأموال العامة ، فتتحقق الإدارة الناجحة ، وينعكس ذلك على الشعب بالرخاء ، والأمن ، والازدهار. وصدق فيه قول المؤرخ «ستيفن رنسيمان» في هذا المجال ، عندما وصفه بقوله: (التزم البساطة في حياته ، وحمل أسرته على أن تسير على نهجه ، واثر أن ينفق موارده على أعمال البر والإحسان ، كان إدارياً حازماً يقظاً ، ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه له سيفه من مملكة)[1].

أولاً: حسن اختياره للرجال:

اعتمد نور الدين نفس النظم الإدارية المعمول بها في عصره، والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون، والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج ، والتخصص ، والشمول ، لكن نور الدين أكَّد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة ، ذلك هو أن كفاءة أجهزتها ، وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز ، أو تركيب المنصب نفسه بقدر اعتمادها على الرجال أنفسهم؛ الذين يعهد إليهم بتسييرها ، ومن ثم فإننا نجد نور الدين يملأ بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال؛ الذين كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي ، والجغرافي ، والاجتماعي ، ولكنهم ـ في الأغلب ـ يجتمعون على تلك الميزات ، التي لا تستقيم بدونها إدارة ما[2]:

1 ـ أسد الدين شيركوه وبنو أيوب: عندما قتل عماد الدين زنكي عام 541هـ 1146م والد نور الدين محمود؛ وجد نور الدين في بعض رجالات والده ، المتقدمين في ميادين الإدارة المدنية والعسكرية ساعده الأيمن ، الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب ، وتثبيت أركان إمارته الفتية هناك ، اتصل به أسد الدين شيركوه ، عم الناصر صلاح الدين. وقال له: (اعلم: أن الوزير جمال الدين الأصفهاني ـ أكبر وزراء زنكي ـ قد أخذ عسكر الموصل ، وعمل على تقديم أخيك سيف الدين غازي ، وتمليكه الموصل ، وقد انضوى إليه جلُّ العسكر ، وقد أنفذ إليَّ يغريني على اللحاق به ، فلم أستجب لطلبه ، وقد رأيت أن أصيِّرك إلى حلب ، فتجعلها كرسي ملكك ، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام ، وأنا أعلم أن الأمر يصيَّر جميعه إليك ، لأن من ملك الشام ملك حلب ، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق. فما كان من نور الدين إلا أن أصدر أمره بأن ينادى ليلاً في عساكر الشام للاجتماع ، وانطلق من ثم إلى حلب ، فدخلها في السابع من ربيع الأول ، واعتمد أسد الدين شيركوه ، الذي أصبح أشبه بوزيره الأول[3] ، ومع الوقت استمرت علاقة أسد الدين مع نور الدين في القوة والانسجام ، وأخذت تزداد مع الأيام ، حتى بلغت قمتها في ترشيح

[1] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 170 تاريخ الحروب الصليبية (4 /614).

[2] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 54.

[3] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 54.

أسد الدين لقيادة الحملة النورية على مصر ، في رحلاتها الثلاثة ، كما اعتمد نور الدين على أسد الدين ، للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق ، والتمهيد لدخولها سِلْماً بعد أن تبيَّن استحالة أخذها عنوة.

وقد توِّجَتْ هذه الاتصالات الناجحة بدخول نور الدين دمشق عام 549هـ 1154م بمعونة الأخوين: نجم الدين ، وأسد الدين ، حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً، وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين ، وهما: الناصر صلاح الدين ، وتورانشاه ، كأميرين متقدمين في الدولة. وقد قال أبو شامة: (كان لأسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق ، فولاه نور الدين أمرها ، وردَّ إليه جميع أحوالها[1] ، وزاد على ذلك فأقطعه الرحبة[2]. ويواصل أبو شامة حديثه فقال: (وتوسَّط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين ، فأقطعه إقطاعاً ، وسيَّره إلى دمشق ، فأقام فيها ، وردَّ نظر دمشق إليه ، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق ، فساسها أحسن سياسة ، ولم يزل بها إلى أن أُستبدل بأخيه صلاح الدين[3].

وكان صلاح الدين قد فارق أباه نجم الدين مُنذ عام 546هـ 1151م، وانتقل إلى خدمة عمِّه أسد الدين في حلب، فقدَّمه بين يدي نور الدين ، فقبِله ، وأقطعه إقطاعاً حسناً. واستخصَّ صلاح الدين، وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر[4]. ويذكر ابن الأثير كيف أنَّ كلاًّ من نجم الدين ، وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق في أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين ، إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك ، كما يحدثنا كيف: أن أسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين مُنذ أيام والده زنكي... وبعد أن تولى إمارة حلب راح يقربه ، ويقدمه ، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها ، فزاده حتى صار له حمص ، والرحبة ، وغيرهما ، وجعله مقدّم عسكره[5].

2 . مجد الدين ابن الداية وإخوته: لم يشأ نور الدين أن يجعل جل اعتماده على العناصر الإدارية المخضرمة ، ورأى أن يطعِّمها بعناصر جديدة أكثر ملاءمة وفهماً لأهدافه أسوة بما يفعله مؤسسو الدول في إعادة تنظيم أجهزتهم الإدارية ، وترشيح العناصر الأكثر تقبّلاً للوضع الجديد ، وتجانساً معه[6].

وقد كان مجد الدين محمد أبو بكر بن الداية ، شقيق نور الدين في الرضاعة ، وإخوته: شمس الدين علي ، وسابق الدين عثمان ، وبدر الدين حسن ، وبهاء الدين عُمر ، الذي لم يبرز في ميدان الإدارة كما برز إخوته لربما لصغر سنه.

ويتحدَّث العماد الأصفهاني عن المكانة العالية ، التي بلغها مجد الدين ، وإخوته في إمارة نور الدين، فيقول: (كان مجد الدين رضيع نور الدين ، قد تربَّى معه ، ولزمه ، وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ، ففوض إليه نور الدين جميع مقاصده ، وحكمه في الملك ، فلا يحلُّ ، ولا يعقد إلا برأيه. وكان يسكن قلعة حلب. وقد سُلِّمت قلعة جعبر ، وتل باشر لأخيه الأصغر سابق الدين عثمان ، وحارم لأخيه الثالث بدر الدين حسن. وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز،

---

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) المصدر نفسه ص 58.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 58.

(4) المصدر نفسه ص 59.

(5) المصدر نفسه ص 59.

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 55.

وعين تاب ، وغيرهما ، كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه[1] ، وعندما هدمت الزلازل شيزر عام 552 . 1157م واستولى عليها نور الدين من بني منقذ سلَّمها إلى مجد الدين[2].

ويؤكد سبط ابن الجوزي: أن مجد الدين وإخوته: (كانوا أعزَّ الناس على نور الدين، كان قد أسكنهم معه في قلعة حلب ، لا يصدر إلا عن رأيهم)[3]. ويكاد المؤرخون يجمعون على أنَّ مجد الدين أحسن تدبير المهمة التي عهدت إليه، وأنه كان عند حسن الظن ، وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبَّته ، وتفويضه الأمور في قاعدة ملكه حلب. وقد امتاز الرجل بشجاعته ، وتديُّنه ، وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية. وعندما توفي عام 565هـ 1169م في نفس السنة التي توفي فيها نائبٌ كبير آخر في دولة نور الدين، يدعى: العمادي محمد؛ حزن نور الدين حزناً عميقاً ، وقال وهو يبكي: (لقد قُصَّت جناحاي) وسرعان ما عهد بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الدين علي ، الذي غدا بمرور الوقت أكبر الأمراء النورية في حلب.

وأما أخوه الآخر سابق الدين عثمان؛ فقد جعله مقدَّم عساكره وفي عام (569هـ 1173م) السنة التي توفي فيها نور الدين .كان بنو الداية قد تمكَّن نفوذهم في حلب تماماً ، وأصبح أمرها إليهم ، وعساكرها معهم ، في حياة نور الدين ، وبعده[4].

وكان شمس الدين علي قد عهدت إليه أمور الجيش، والديوان، وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدر الدين حسن، وكان بين هؤلاء الأخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب[5]، وكان هناك أسماء أخرى برزت طيلة العهد النوري ، لم تكن لتقلَّ عن بني الداية شهرة وإنجازاً[6].

3 . العماد الأصفهاني: غادر بغداد ميمماً شطر الشام ، فوصل إلى دمشق في شعبان سنة 562هـ 1166م ، وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري ، وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية ، وسرعان ما توثَّقت العلاقة بينه وبين بني أيوب: نجم الدين ، وأسد الدين ، وصلاح الدين ، ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري أن قدَّمه في أواخر السنة إلى نور الدين ، ونوَّه بشأنه ، فرتَّبه نور الدين في ديوانه ، منشئاً في مطلع عام 563هـ ، 1167م ، وصار رئيس ديوان الإنشاء ، وكاتب السر ، ومُدبّج الوثائق الرسمية ، حتى وفاة نور الدين ، وكان يتلقى من بني أيوب في مصر ، تقارير مفصَّلة عما يستجد فيها من أحداث ، فيقرؤها على نور الدين ، ويكتب أجوبتها ، وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب . كما يذكر هو نفسه . بعد استعفاء أبي اليسر بن عبد الله من الخدمة في ديوان الإنشاء ، واعتكافه في بيته.

وهو يذكر أيضاً: أنه وجد من نور الدين مُنذ ذلك الوقت «الإعزاز والتمكين على الأيام» وقد اعتمده نور الدين فضلاً عن ذلك في عددٍ من السفارات: إلى شاه إرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة 564هـ 1168م ، وإلى الخليفة

---

[1] المصدر نفسه ص 56.

[2] المصدر نفسه ص 56.

[3] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 56.

[4] مراة الزمان (8 /324 . 325).

[5] الباهر ص 163 نور الدين محمود ص 57.

[6] كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 57.

العباسي في أوائل سنة 566هـ 1170م ، كما فوّضه الإشراف على المدرسة النورية في دمشق ، والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية نسبة إليه في رجب سنة 567هـ 1171م ، وأصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها، إضافة إلى مهمته في ديوان الإنشاء ، والإشراف ، وهو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين ، فكان المشرف وهو المفتش العام للحكومة[1]. (فجمعتُ . يقول العماد .: بين المنصبين ، وقسّمت زماني على النصيبين ، فمرة للكتب ، والمناشير ، وتارة للإثبات في الدّساتير[2] ، ولم أثق بنائب ، وباشرت العمل بنفسي[3]).

وبعد توجه الموَفَّق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه ، وصار مستوفي المملكة ، وأصبح بذلك الرجل الأوّل في الدولة ، وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته؛ إذ أصبح العماد بمناصبه الثلاثة تلك المسؤول الأول عن الكتابة ، والإشراف الإداري ، والمالي[4]].

ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرص الأخير على تجاوز (الروتين) الإداري ، فيقول: (... وقد مال إليَّ نور الدين ، وعوَّل في مناصبه عليَّ ، وطالعته كل يوم بمرافق عملي ، ومنافع شغلي ، فما أتحف بتحفة ، ولا أخص من أحد يعطيه ، إلا أطالعه به وأطلعه على سببه ، فكان يعجبه مني تلك الشيمة، ويقول: تصرف فيه تصرفك في مالك[5]) ، ويمضي العماد إلى القول: (ثم اعتمد علي اعتماداً كلياً، وجعلني له نجياً، وإذا أراد أن يكتب إلى أحدٍ منهم يقول: اكتب إليه من عندك، ومن جملة ذلك: أنَّ سعد الدين كمشتكين . نائبه في الموصل . أخذ من رجل ألف دينار بعلَّةٍ عللها، فجاء الرجل، وتظلَّم، فأمرني نور الدين بأن أكتب إليه بردِّها عليه. فقال: إنك كاتبي، وأميني، وصاحبي، ولا تكتب إلا بأمري، فإن خالف كتابك إليه؛ قلعت عينيه!! فمضى إليه بكتابي، فسارع إلى طاعته، وردَّ عليه الألف في ساعته[6]).

ومما لا شك فيه: أنَّ العماد الأصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الإدارية ، الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة ، وجعله يظفر سريعاً في مدى لا يتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة ، وأعلاها: (الكتابة ، والإشراف الإداري ، والاستيفاء المالي). وإذا صحَّ مايقوله الرجل عن نفسه . وهو الأرجح ، لما سبق وأن ذكرناه . فإن نور الدين كان قد اعتمده إلى حدِّ تفويضه الأمر كاملاً في مناصبه تلك ، رغم ذلك فإن العماد ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد أن يُطْلِعَ سيده عليها... وقد عمق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين ، تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين[7].

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 57.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة 60.

(3) الدستور: هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم.

(4) البرق ص 120 . 122 نور الدين محمود ص 60.

(5) البرق المقدمة ص 10 . 11 نور الدين محمود ص 60.

(6) البرق ص 61 نور الدين محمود ص 61.

(7) البرق ص 132 . 133 نور الدين محمود ص 61.

وتلا هذه الأسماء في ميدان الإدارة (أي:بنو الداية، وبنو أيوب، والعماد الأصفهاني) أسماء أخرى أقل منها أهمية ، وإن كان بعضها قد بلغ القمة ، التي بلغها أولئك الرجال ، رغم أن المصادر لم تشر إليها إلا عرضاً ، ولم تقدم لنا الشيء الكثير[1].

4 . خالد بن محمد القيسراني: مستوفي المملكة حتى عام 568هـ 1172م ، والذي يصفه العماد بأنه كان عند نور الدين في مقام الوزير ، وله انبِساط زائد[2] ، ويُذْكَرُ في الخريدة: أنه لما وصل الشام؛ وجد القيسراني في صدر مناصبها، وبدرِّ مراتبها ، وكان نور الدين قد رفعه ، واصطنعه ، وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه ، ولقد كان حقيقاً بذلك[3]. ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد ، فيقول: كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية ، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها ، وكتابة الإنشاء ، وإمرة مجلسه ، وهو المشير والوزير ، والأمور كلها عائدة إليه[4]. وواضح: أنَّ عمله في كتابه الإنشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الأصفهاني[5].

5 . محمد العمادي: صاحب نور الدين ، وأمير حجابه ، وأحد كبار نوابه في حلب ، وصاحب بعلبك وتدمر[6]. ويصفه سبط ابن الجوزي: (كان عزيزاً عند نور الدين) ، ومن أعظم أمرائه[7].

6 . الشيخ الأمير مخلص الدين أبو البركات: عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي ، الأمين على خزائن أموال نور الدين ، كان كاتباً بليغاً ، حسن البلاغة نظماً ونثراً ، مستحسن الفنون من التذهيب البديع ، وحسن الخط ، المحرَّر على الأصول القديمة المستطرفة ، مع صفاء الذهن ، وتوقد الفطنة والذكاء[8].

7 . أبو سالم بن همام الحلبي: وَلِيَ الإشراف على الديوان بدمشق ، حتى عام 551هـ 1156م حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة ، فألقي القبض عليه ، واعتقل ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس ، وعقابه عقاباً قاسياً ، والطواف به في الأسواق ، حيث كان المنادي يصيح: هذا جزاء كل خائن. وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً؛ أمر نور الدين بنفيه إلى حلب ، فغادر دمشق: (على أقبح صفة من لعن الناس ، ونشر مخازيه)[9].

ثانياً: أهم الإدارات والوظائف في دولة نور الدين:

---

[1] نور الدين محمود ص 61.
[2] المصدر نفسه ص 61.
[3] البرق ص 116 نور الدين محمود ص 62.
[4] نور الدين محمود ص 62.
[5] مفرج الكروب (1 / 270) نور الدين محمود ص 62.
[6] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 62.
[7] مراة الزمان (8 / 280) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 62.
[8] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1 / 360).
[9] نور الدين محمود ص 63.

كانت دولة نور الدين مقسّمة إلى عدة أقاليم: حلب شمال بلاد الشام ، وإقليم دمشق وسط بلاد الشام ، وإقليم الموصل في منطقة الموصل والجزيرة الفراتية ، وإقليم مصر ، وإقليم اليمن ، وإقليم الحجاز[1]، وكان لكل إقليم إدارته المحلية ، التي تتألف من عدة موظفين يعينهم نور الدين ، وكانت جميع هذه الأقاليم تتبع السلطة المركزية للدولة في دمشق ، التي يشرف عليها نور الدين وجهازه الإداري المركزي. أما الوظائف التي تتألف منها الإدارة المركزية؛ فهي:

1 ـ النائب: هو الذي ينوب عن نور الدين في الإقليم ، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه ، ومن صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات ، وترشيح أسماء نوابه في المدن الأخرى التابعة للإقليم ، والإشراف على تنفيذ قوانين ضمن منطقة مسؤوليته ، ويرأس اجتماعات ديوان الجيش في الإقليم ، وقيادة الفرق العسكرية الموجودة في الإقليم.

وكان مجد الدين بن الداية ، من أشهر نواب نور الدين ، فقد ظل خمسة عشر عاماً نائباً لنور الدين في حلب[2].

2 ـ الوزير: هو رئيس الجهاز الإداري المركزي ، ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين ، والسجلات المتعلقة بالجند ، والبريد ، والخزينة[3]، ويقدم النصح والرأي في الأمور السياسية ، والإدارية ، والعسكرية ، وكانت وظيفة الوزير أهم وظائف الدولة قبل استحداث وظيفة النائب[4] ، فقد كان الوزير في بداية عصر السلاجقة ، هو المدبِّر الوحيد ، والحقيقي لجميع شؤون الدولة ، ولكنَّ صلاحياته تقلَّصت بعد استحداث وظيفة النائب ، الذي كان يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ، ضمن منطقة مسؤوليته ، ويرتبط بالسلطان مباشرة ، وقد حصل تداخل في الواجبات والصلاحيات بين وظيفة الوزير ، ووظيفة الناظر (ناظر الديوان) ، الذي كان يعتبر مسؤولاً عن الدواوين.

وكان عمل الوزير يقتصر ـ في بعض الأحيان ـ على تقديم المشورة في الأمور الهامة ، وبسبب التداخل المذكور[5] ، لم يكن هناك وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها ، فكان الأمر في الحقيقة يعتمد على كفاءة من يتولى المنصب وشخصيته ، كما حدث مع كمال الدين الشهرزوري ، فقد كان قاضي القضاة في كل مملكة نور الدين ، وكان يكلِّفه بكثير من المهام الأخرى غير القضاء ، ويستشيره في الأمور الهامة[6] ، حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه أصبح في دمشق: (الحاكم المطلق ، وأنه ارتقى إلى درجة الوزارة ، فكان له الحل ، والعقد في أمور الشام)[7] ، ومثال ذلك أيضاً ثقة نور الدين في العماد الأصفهاني كما مرَّ معنا.

3 ـ المستوفي: هو المسؤول عن موازنة الدولة جميعها من حيث تقدير الأموال المستحقة ، وجمعها من مصادرها ، وحفظها ، وتخصيص الأموال اللازمة للجند ، وغيرهم من أجهزة الدولة ، ومؤسساتها ، ويكون له نوَّاب في الأقاليم ، يقومون

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 170.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 171.

(3) المصدر نفسه ص 171.

(4) المصدر نفسه ص 172.

(5) المصدر نفسه ص 172.

(6) المصدر نفسه ص 172.

(7) المصدر نفسه .

بالواجبات نفسها ، ويعملون بإمرته ، وكذلك يكون له عدد من الكتبة المساعدين في الإدارة المركزية ، يعملون معاً تحت إمرته في ديوان يسمَّى ديوان الاستيفاء[1].

ووظيفة المستوفي أهم الوظائف في الإدارة المركزية بعد وظيفة الوزير ، ويتبع المستوفي موظف اخر ، هو المشرف الذي يرأس ديوان الإشراف ، ويعتبر عمله مكمِّلاً لعمل المستوفي ، ومهمته تدقيق الحسابات ، والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة ، ويشبه عمله إلى حد ما عمل المفتش في هذه الأيام[2].

4 . الأمير الحاجب: هو المسؤول عن ديوان الجيش من حيث حفظ السجلات؛ التي تحتوي أسماءهم ، ووظائفهم ، ورواتبهم ، وإقطاعاتهم ، ويقوم بحلّ مشاكلهم ، وتقديم صورة واضحة عن أحوالهم إلى السلطان ، أو النائب ، كما يقوم بالإشراف على سلاح الجند ، وخيولهم ، ويساعده في ذلك عدد من الكتبة ، والموظفين ، يشكلون معه ديوان الجند الذي يتولى . كما ذكرت . كلَّ ما يتعلق بشؤون الجند ، من خيل ، وسلاح ، ورواتب ، وإقطاعات ، وسجلات[3].

كان محمد العمادي صاحب نور الدين ، وأمير حاجبه ، وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك ، وتدمر.

أما الحاجب ، فهو الذي يتولى تنظيم مقابلات السلطان ، والدخول عليه في مجلسه ، ومع أن بعض المراجع تذكر: أن وظيفة الحاجب اختلفت عمّا كانت عليه ، قبل عصر السلاجقة ، وأصبحت مهمة الحاجب: إبلاغ السلطان حالة الشعب ، وكشف مظالمهم أمامه ، وإطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة ، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى ، فالحاجب . إذاً . يشبه وزير الداخلية حالياً[4] ، إلا أنه ورد في مراجع أخرى كثيرة: أن نور الدين كان يأمر بإزالة الحاجب ، والبواب ، عندما يجلس في دار العدل للقضاء ، ليسهل دخول الضعفاء من الناس عليه[5]، مما يدل على أن وظيفة الحاجب ظلَّت حتى عصر نور الدين تشمل واجب تنظيم الدخول على السلطان ومقابلته[6].

5 . الوالي: تغير مفهوم وظيفة الوالي عما كان قبل دولة السلاجقة ، فقد كان الوالي يمثِّل الخليفة ، أو السلطان في ولايته ، ويعتبر مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية ، والعسكرية فيها. أما في عهد السلاجقة ، والدولة الزنكية؛ فقد أصبح النائب هو الذي يتولى الصلاحيات المذكورة، بينما يكون الوالي مسؤولاً عن مدينة، أو بلدة، أو قلعة في الولاية، أو الإقليم الذي يحكمه النائب باسم السلطان ، أي: أنَّ النائب في عهد السلاجقة ، وعهد الدولة الزنكية حلَّ محل الوالي في مركزه وصلاحياته[7].

أما واجبات الوالي في المدينة؛ فهي واجبات إدارية ، تشمل تنفيذ الأحكام ، ومراقبة الأسواق ، ومحاسبة المخالفين للقانون ، وتفقّد أبواب المدينة وأسوارها ، وإطلاع النائب أو السلطان على الأوضاع العامة في المدينة[8] ، بينما تختلف

---

(1) نور الدين محمود وتجربته الإسلامية ص 82 ، 83.

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 174.

(3) المصدر نفسه ص 174.

(4) المصدر نفسه ص 174.

(5) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود ص 174.

(6) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 174.

(7) الباهر ص 168 عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 174.

(8) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 175.

واجبات والي القلعة ، فهو يعتبر قائد الحامية ، ويكون مسؤولاً عن أبواب القلعة ، وصيانتها ، وإدارة حاميتها، فهو قائد عسكري ، وله واجبات إدارية ضمن القلعة نفسها[1].

6 . الشحنة: الشحنة ، أو الشحنكية كلمة تركية ، تعني: قائد الحامية ، أو الحاكم الإداري للمدينة ، المسؤول عن الأمن ، والنظام فيها ، يعيّن من قِبل السلطان ، ويعمل بإمرته رجال الشرطة ، أو الحامية ، ويقوم بملاحقة اللصوص ، والخارجين عن القانون ، ويلاحظ: أن هناك تداخلاً بين واجبات الوالي ، والشحنة في المدينة.

ولا تذكر المصادر والمراجع حدوداً فاصلة بين واجبات مختلف الوظائف الإدارية في تلك العصور، ويظهر: أن واجبات كل وظيفة، كانت تتحدد في ضوء قوة شخصية من يشغلها ، فإذا كانت شخصيته قوية؛ زادت صلاحياته ، واتسعت لتشمل واجبات لوظائف أخرى، كما حصل مع كمال الدين الشهرزوري ، الذي كان قاضياً في دمشق، ثم صار قاضياً للقضاة في مملكة نور الدين كلها ، وكان نور الدين يكلِّفُه بأعمال كثيرة ، غير القضاء ، حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان في مقام الوزير ، وتشير بعض المراجع إلى تعيين السلطان السلجوقي محمود المير اق سنقر البرسقي شحنة في بغداد عام 516هـ / 1122م ، كذلك تشير المراجع نفسها إلى تعيين السلطان نفسه لعماد الدين زنكي شحنة في بغداد عام 520هـ /1126م ، والمعروف: أنَّ آق سنقر البرسقي كان يقود الجيش وهو في الوظيفة المذكورة ، ويدافع عن بغداد ، ويتصرف كنائب للسلطان ، وكذلك كان من بعده عماد الدين زنكي في هذه الوظيفة[2]، وتشير المراجع ذاتها إلى تعيين نور الدين محمود توران شاه بن نجم الدين أيوب شحنة في دمشق ، ومن بعده أخوه صلاح الدين يوسف في الوظيفة نفسها ، وكانت واجبات الأخوين في هذه الوظيفة لا تتعدى الأمور الإدارية[3]، مما يعني: أنَّ مفهوم وظيفة الشحنة كان يتغيَّر من ظرف إلى اخر ، ومن مكان إلى مكان[4].

7 . القاضي: حظي القضاء برعاية نور الدين واهتمامه أكثر من أية وظيفة أخرى ، ويرجع السبب في ذلك إلى تركيزه على إقرار العدل ، وإشاعته في دولته ، فقد كان يختار لهذه الوظيفة أشهر العلماء ، والفقهاء المعروفين بالتقوى والاستقامة ، ويعطيهم كامل الصلاحيات في تنفيذ أعمالهم وأحكامهم ، فكان القضاء يتمتع باستقلال تام[5] ، وكان هو أوَّل من أنشأ محكمة عليا سمَّاها دار العدل ـ كما مرَّ معنا ـ للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة ، عندما لاحظ تهيُّب القاضي طلب بعضهم للمحاكمة ، فكان يجلس فيها للقضاء ، ومعه الفقهاء ، والعلماء ، والقاضي ، ليستشيرهم فيما يعرض عليه من قضايا ، ثم جعل من نفسه قدوة لرجال دولته ، عندما ذهب إلى مجلس القضاء ، وطلب من القاضي أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة[6]، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء ، والقادة ، وكبار موظفي الدولة على مخالفة الشريعة ، أو ظلم أحد من الرعية؛ لأنه علم: أن العقاب لابدَّ أن يقع عليه.

[1] عماد الدين زنكي نقلاً عن دور نور الدين محمود ص 175.
[2] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 175.
[3] المصدر نفسه ص 175.
[4] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 176.
[5] الكواكب الدرية ص 147 دور نور الدين ص 176.
[6] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 176.

وكان كمال الدين الشهرزوري أشهر القضاة في دولة نور الدين ، الذي كان يجلُّه ويقدره ، فجعله قاضياً للقضاة في الدولة كلها ، بحيث يكون القضاة في الأقاليم نوّاباً عنه ، وكلَّفه بأعمال مهمة غير القضاء ، كالإشراف على دار الضرب ، وأوقاف الدولة، وبناء أسوار دمشق ، ومدارسها ، ومارستانها ، حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق ، وأنه: (ارتقى إلى درجة الوزارة ، فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[1]. ومن القضاة الآخرين؛ الذين اشتهروا في دولة نور الدين: شرف الدين بن أبي عصرون ، الذي وصف بأنه من أفقه أهل عصره[2].

ثالثاً: صبغ الإدارة الزنكية بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكرية:

حرصت القيادات السياسية ، والإدارية ، والعسكرية ، على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها ، وممارساتها ، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية ، وإلى شخصية نور الدين ، فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً ، وعده بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكَّام ، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ، ويكثر من الصلاة في الليل إلى وقت السحر إلى أن يركب.

وكان محدِّثاً بعلم الحديث ، وأسمعه ، وأجمعه له! وكان حنفي المذهب ، عارفاً بمذهب أبي حنيفة ، ولكن دون تعصُّبٍ على أحد ، فالمذاهب عنده سواء ، ولا تعدو عن كونها مدارس في الفقه[3].

نور الدين ذو تأثير كبير على رجاله ، ومعاونيه ، وقادة جيشه ، وأصبح بعضهم على مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتديُّن ، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، الذي قَدِمَ من بغداد إلى دمشق ، فقد كان فقيهاً أصوليّاً ، شَغَلَ مناصب مختلفة ، كالسَّفارة ، والوزارة ، وناظرٍ للأوقاف ، وناظرٍ للمالية ، والقضاء ، واستمرَّ على ذلك حتى قيادة صلاح الدين[4].

ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم من نور الدين. فقد أظهر هذا الرعيل من المهارات في التخطيط والتنفيذ ، وحشد مقدرات الأمة ، وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل ، والخارج[5]. ومن أمثلة هذه المهارات ، والمزايا ما يلي:

1 ـ تكامل القيادات الفكرية والسياسية: فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال ، أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر ، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصِّين ، فكان لدى نور الدين مجلسٌ دوريٌّ يلتقي فيه القادة، والعسكريون مع العلماء المختصين، حيث يحتلّ العلماء المنزلة الأولى فيه[6]. وكان نور الدين يمنع الأمراء من اغتياب العلماء ، وقد مرَّ ذلك في قصة أحد الأمراء مع قطب الدين النيسابوري ، ودفاع نور الدين عنه.

---

[1] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 176.

[2] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 176.

[3] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 362.

[4] المصدر نفسه ص 164.

[5] الكواكب الدرية ص 38 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 264.

[6] الكواكب الدرية ص 38 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 264.

2 . اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات: فقد تميَّزت إدارة نور الدين ، بالشورى ، وتبادل الآراء في كل أمور الدولة ، فكان له مجلس فقهاء ، يتألف من ممثلي سائر المذاهب ، والصوفيّة ، يبحث في أمور الإدارة والميزانية ، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها ، أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين؛ جمع أعضاء هذا المجلس ، وشاورهم فيه ، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه ، ولا يتعدى الرأي الذي يُتفق عليه[1] ، ما دام يحقق المصلحة العامة. وقد مرَّ بعض الممارسات الشوريّة في حديثنا عن الشورى في عهد نور الدين زنكي.

3 . غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران ، فلقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين . مثلاً . ووزرائه وقادته ، لكنهم كانوا يعالجون هذه المشكلات بأسلوب لم يخرج يوماً عن حدود المصلحة العامة ، وما تقتضيه وحدة الكلمة ، وتغليب الأخلاق الإسلامية[2].

4 . التفاني في أداء الواجب بتعاون وتاخٍ: ومن طريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس عند هذا الزعيم من القادة والإداريين والعلماء قوله: (إن تعلُّقهم بالدين جعلهم يتخيَّرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة ، فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة ، فيقولون: عضد الدولة ، بهاء الدولة ، صمصام الدولة ، وكان قادة هذه الدولة ، وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين ، وسيف الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، وأسد الدين ، ونجم الدين ، وزين الدين ، وهكذا[3].

وثمة ملاحظة أخرى ، وهي تعلُّق هذا الجيل بالدين مما جعلهم يحرصون على الجهاد ، والاستشهاد ، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد؛ أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة ، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي ، وأسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين[4].

5 . الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام: تجلَّت اثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة ، والإدارة والجيش من الثروات ، والسياسة الاقتصادية ، فقد زهدوا بالمكاسب ، وعزفوا عن الاحتكار ، والترف.

وحذا حذوهم الأغنياء في المدن والقرى ، فقد كان نور الدين زنكي مقتصداً في الإنفاق على نفسه ، وعلى أسرته ، وكان لا يكنز ، ولا يستأثر الدنيا ، ولم يكن له بيت يسكنه ، وإنما كان مقامه في قلعة البلد ، الذي يحل فيه[5] ، وكانت نفقته في الشهر مئة وخمسين درهماً ، يأخذها من دكاكين كانت له في مدينة حمص ، حيث اشتراها من حصته من الغنائم ، ولقد شكت له زوجته يوماً قلة نفقاتها ، وأرسلت له أخاها في الرضاع تطلب زيادة ، فقال: (من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض في نار جهنم في هواها. إن كانت تظن: أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي؛ فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لصالحهم وأنا خازنها ، فلا أخونهم فيها! ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم ، فقد وهبتها إياها ، فلتأخذها).

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 265.

(2) المصدر نفسه ص 266.

(3) نور الدين محمود ص 407 ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 266.

(4) البداية والنهاية نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 266.

(5) نور الدين محمود ص 369 د.حسين مؤنس.

وكان نور الدين صاحب مهنةٍ ، يخيط الكوافي ، ويعمل سكاكر للأبواب ، ويعطيها لبعض العجائز ، فتبيعها ولا يدري به أحد[1] ومع ذلك فقد شهدت دولته تقدُّماً اقتصادياً سيأتي بيانه بإذن الله.

وقادة الجيش ، من ذلك أسد الدين شيركوه أكبر قادته العسكريين ، فقد كان يملك أراضٍ واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس ، التي تنشر الفكر الإسلامي ، وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة[2].

وكذلك فعل وزير نور الدين ، أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ، الذي أوقف أوقافاً كثيرة ، منها: مدرسة الموصل ، ومدرسة نصيبين ، ورباطٌ في المدينة المنورة ، وأوقف أوقافاً في قرية «الهامة» على المقادسة ، الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي ، وكان كثير التبرع ، والهبات ، ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها[3].

وكذلك فعل عبد الله بن عصرون؛ حيث بنى مدرستين في دمشق، وحلب، وكذلك فعل نجم الدين يوسف والد صلاح الدين؛ حيث بنى خانقاه تُعرف بالنجمية[4].

وعلى هذا المنهاج سار بقية رجال الحكم والإدارة ، وحذت حذوهم نساؤهم. من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين ، حيث أوقفت «الخاتونية» بمحلة حجر الذهب ، وخانقاه خاتون باب النصر ، وأوقافاً كثيرة أخرى ، ومثلها زمرد خاتون بنت جاولي[5].

6 . توفر الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة: تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن ، والعدل ، واحترام الحرمات العامة ، كحرية الرأي المنضبطة ، والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة ، ولقد علَّق ابن الأثير على ذلك ، فقال: (قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحرّياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدلٍ ينشره ، وجهادٍ يتجهَّز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة؛ لافتخرت به فكيف في بيت واحد)[6].

وإلى جانب ذلك امتازت الأجواء العامة بحرية الرأي ، فكان كل إنسان يقول رأيه دون خوف من التعرُّض للأذى ، أو الانتقاد ، حتى لو كان النقد موجّهاً لنور الدين ، بالرغم من استعمال البعض لأساليب قاسية محرجة.

ولقد أورد المؤرخون الإسلاميون أمثلة عديدة لمواقف نور الدين التي تكشف عن أنه كان يتقبَّل النقد بصدر رحب ، مهما بلغت حدته ، وينظر في كلام الناقدين ، فإذا رأى فيه ما ينفع؛ سارع إلى الأخذ به ، وقد مرَّ معنا كلام الواعظ أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي ، وكيف تناول موضوع الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه ، فحذَّرَه ، وخوفه مما هو فيه ، وأنشد أمامه أبيات من الشعر[7] ، مرّ ذكرها.

---

[1] الكواكب الدرية نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 267.

[2] نور الدين محمود ، حسين مؤنس ص 391.

[3] طبقات الشافعية (6 /117 . 119).

[4] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 268.

[5] المصدر نفسه ص 269.

[6] التاريخ الباهر نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 270.

[7] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 273.

إنَّ التخطيط السليم ، والإدارة الناجحة في الحركات الإسلامية ، والدول ، من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى ، ولقد عرَّف بعض الباحثين التخطيط بأنه: (جسر الحاضر ، والمستقبل)[1]. إن التخطيط في المفهوم القراني ، هو الاستعداد في الحاضر، لما يواجه الإنسان عمله، أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم ، يكون قد عرف التخطيط؛ لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة. قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص:77] . إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة[2].

إن نور الدين محمود رجل عاش مع كتاب الله ، وعرف من قصة يُوسف وغيرها ، أهمية التخطيط والإدارة، ولذلك نجحت إدارته، فقد أدرك الملك العادل: أن الإسلام لا يقوم على التخمين ، والتواكل ، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها ، سواء في جوانب الاقتصاد ، أو السياسة ، أو غيرها ، فقد عرف: أنَّ من ثمار حسن إدارة يوسف عليه السلام ، وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع ، وخرج من الشدائد ، وعاد إلى الرخاء ، والتخطيط يعتبر وظيفة أساسيّة من وظائف الإدارة ، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها ، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين ، وخمسة عناصر.

أما الدعامتان؛ فهما التنبؤ، والأهداف، وأما العناصر؛ فهي السياسات، والوسائل والأدوات ، والموارد البشرية ، والإجراءات ، والبرامج الزمنية ، والموازنة التخطيطية التقديرية[3].

إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: (إنه لا إدارة فعَّالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق) ، وهذا عين الذي زاوله الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي ، والجهادي ، الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي ، والتربوي ، والإعلامي ، كلُّ ذلك في ذهنه قد أُعِدَّ إعداداً كافياً) ، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله تعالى ، إنَّ الاهتمام بالفكر الإسلامي وأصوله وقواعده وفق التصور الإسلامي الصحيح من الأسباب المهمة التي مارسها نور الدين محمود ، وساعدته على إنجاح مشروعه النهضوي الكبير.

المبحث الخامس : النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية

أولاً: مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية:

ثمة سؤال يفرض نفسه قبل الحديث عن هذا الموضوع ، فنور الدين محمود أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة ، وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية أكبر منها حجماً كانت تنصبُّ في خزائن الدولة ضرائبَ ، ومؤناً ، ورسوماً ، ومكوساً ، فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بموردها الدائم ، الذي يحميها من العجز؟ وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط المكوس ، والضرائب ، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية

---

[1] فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 277.

[2] فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 277.

[3] سورة يوسف دراسة تحليلية ص 415 ، 416.

دون أن يصيبها الخلل ، فتوقف ـ على الأقل ـ عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية ، فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق ، واستعادة التوازن ، والقدرة على العمل؟

إنَّ دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال، وبشكل دائم؛ لما واصلت سياستها تلك حتى آخر لحظة ، ولما وصفها العماد بأنها كانت: (نافذة الأوامر ، منتظمة الأمور)[1]. وقد كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال ، وكانت الدولة لها القدر على الإنفاق في المجال العسكري ، والاجتماعي ، والتعليمي ، وغيرها ، بسبب سياسة نور الدين الحكيمة ، وإليك شيء من التفصيل:

1 ـ نظام القطاع الحربي: اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي ، للصرف على جيوشهم خلال جهادهم ضدَّ الصليبيين، فقد نشأ نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي في الدولة السلجوقية ، التي كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي ، حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، حيث أدى اتساع رقعة الدولة ، وصعوبة السيطرة عليها ، وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتَّبات ، التي تصرف للجيش إلى تفكير الوزير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالإقطاعات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش[2] ، وقد انتقل نظام الإقطاع الحربي كاملاً إلى الدولة الزنكية ، التي نبتت ، وترعرعت في أحضان السلاجقة ، ثم ورثتهم بعد ذلك[3].

وقد ارتبط الإقطاع الحربي في عصر الزنكيين بالخدمة الحربية؛ إذ كان الأمير المقطع يُلْزَمُ بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها ، وكان إقطاعاً وراثياً، أي: أنَّ إقطاع الأمير ، أو الجندي يمنح بعد وفاته لأولاده[4] ، وفي حالة صغر سن الابن كان السلطان يعيِّن من يدير الإقطاع حتى يبلغ سن الرشد، ومنح الإقطاع بواسطة السلطان ، لم يكن معناه تمليك الأراضي الزراعية للمقطع ، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة ، بل كان يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه، وأجناده مجموعة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية العسكرية، التي كان المقطع ملزماً بها[5]، والملاحظ أن توزيع الإقطاعات الحربية على الأمراء والأجناد في العهد الزنكي شمل كلَّ البلاد، التي تمكَّنَ عماد الدين، وابنه نور الدين من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية آنذاك ، والأدلة على ذلك كثيرة منها: أنه عندما لجأ نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه إلى الموصل؛ رحب بهما زنكي وأقطعهما الإقطاعات في شهرزور بشمال العراق ، ثم خصَّ أسد الدين بالمؤزر[6].

وأقطع الأمير جاولي الرحبة وأعمالها[7] وسار نور الدين محمود على نهج والده في توزيع الإقطاعات الحربية ، فعندما استولى على دمشق سنة 549 / 1154م ، أقطع صاحبها مجير الدين ضياعاً بحمص عوضاً عن دمشق ، كما أقطع

---

(1) نور الدين محمود ص 119 ، 120 البرق ص 147.

(2) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين وابنه ص 26 نقلاً عن جيش مصر ، حسان سعداوي ص 1 ، 2.

(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين وعماد الدين وابنه ص 26.

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 27.

(5) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 27.

(6) مفرج الكروب (1 / 3 . 6). النجوم الزاهرة (5 / 277).

(7) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 27.

شهاب الدين علي بن مالك العقيلي سروج ، والملاحظة ، والباب ، وبزاغة[1]، وأقطع في سنة 563هـ / 1167م مجد الدين أبا بكر بن الداية حلب ، وحارم ، وقلعة جعبر ، ثم أقرها بعد وفاته سنة 565هـ / 1169م في يد أخيه علي ابن الداية ، وأقطع نور الدين مسعود بن الزعفران حمص ، وحماة ، وقلعة بعرين ، وسلمية ، وتل خالد، والرُّها[2]، كما أقطع أمراء العراق الإقطاعات لحفظ طريق الحاج بين الشام والحجاز ، ولمثل هذا الهدف أقطع أمير مكة إقطاعاً وافراً[3].

وشمل الإقطاع الحربي في عهد نور الدين الأراضي المصرية ، من ذلك ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه في مصر تردد في محاربة الفاطميين ، والصليبيين عند البابين في صعيد مصر؛ هددهم بأخذ إقطاعاتهم ، وإعادة الموارد التي أخذوها منها[4].

واتبع عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين محمود أساليب عدَّة لتوزيع الإقطاعات الحربية على أمرائهما ، وأجنادهما. منها ما كان الغرض منه استمالة الحكام المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية، ومن ذلك: أنَّ عماد الدين عندما عزم في سنة 540هـ /1145م للاستيلاء على قلعة جعبر وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، ولما رأى حصانتها؛ كتب إلى عز الدين علي بن مالك في معنى تسليمها ، وفوّض عماد الدين حسان المنبجي أن يضمن لعلي بن مالك الإقطاع الوافر ، والعطاء الكثير مقابل التسليم[5].

ومن ذلك أيضاً ما ذُكر: أن نور الدين عندما حاصر دمشق سنة 549هـ / 1154م وأدرك صاحبها مجير الدين ابق عدم جدوى المقاومة؛ احتمى بقلعة دمشق ساعات ثم استسلم ، فأطلق نور الدين سراحه ، وأقطعه عوضاً عن دمشق حمص ، وأعمالها[6]. كما منح الإقطاع في العهد الزنكي للأمراء والأجناد ، كمكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة ، سواء في مرحلة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة ، أو إبَّان مراحل جهادهم ضد الصليبيين ، من ذلك ما ذكره ابن الأثير: (أنَّ عماد الدين عندما ملك بعض ديار بكر سنة 538هـ / 1143م رتب أمور الجميع ، وجعل فيها من الأجناد من يحفظها)[7].

ومن خصائص الإقطاع الزنكي انتقاله من مُقطع إلى اخر عن طريق الوراثة ، أو غيرها ، فتشير المصادر إلى أنَّ عماد الدين زنكي قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق ، وأسكنهم بحلب ، وأعمالها ، وأمرهم بجهاد الصليبيين ، وأعطاهم كل ما استنقذوه منهم ، ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى نحو سنة ستمئة[8].

وقد سار نور الدين على نهج أبيه ، يدلنا على ذلك قول ابن واصل: إنَّ نور الدين كان: (من آرائه الحسنة ما يعتمده من أمر أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ذكراً أقرَّ عليه إقطاعه)[9]. ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة

---

[1] مفرج الكروب (1 /3 . 6) النجوم الزاهرة (5 / 277).

[2] كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص 28.

[3] مقومات حركة الجهاد ص 28.

[4] الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص 29.

[5] ذيل تاريخ دمشق ص 282 ، 285 الباهر ص 74 . 75.

[6] مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 30.

[7] الباهر ص 66 ، مقومات حركة الجهاد ص 30.

[8] الباهر ص 80 مقومات حركة الجهاد ص 31.

[9] مفرج الكروب نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 31.

558هـ / 1162م عندما هُزم جيش نور الدين في هذه السنة أمام الصليبيين بالقرب من حصن الأكراد في المعركة المعروفة بالوقيعة؛ حيث أصدر نور الدين أوامره بإحضار الأموال ، والدواب، والأسلحة ، والخيام من دمشق ، وفرَّق ذلك على من سَلِم من عسكره ، ومن قُتل أعطى إقطاعه لأولاده[1].

وأما انتقال الإقطاع من مُقطع إلى اخر من غير وراثة ، والذي يحدث غالباً إذا تقاعس المقطع عن أداء واجبه ، أو متى بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية ، يدلنا على ذلك ما حدث سنة 562هـ / 1117م عندما اختبر أسد الدين شيركوه رجاله لمعرفة ما يمكن أن يقدِّموه إذا اشتبكوا مع الصليبيين ، والفاطميين في مصر ، فأبدى بعضهم تخوفه من ذلك حيث صاح فيهم أحد أمراء نور الدين ، والذي كان مرافقاً لشيركوه قائلاً: (من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون في بيته مع امرأته ، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ، ولا بلاء نُعذر فيه؛ ليأخذنَّ مالنا من إقطاع وجامكية ، وليعودنّ علينا بجميع ما أخذناه مُنذ خدمناه إلى يومنا هذا ، ويقول: تأخذون أموال المسلمين ، وتفرون من عدوهم ، وتسلِّمون مثل مصر إلى الكفار)[2].

ويظهر من خلال هذا العرض: أنه كان على المقطع في مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع مجموعة من الالتزامات ، كان يؤديها للسلطان ، وهي في المرتبة الأولى التزامات حربية ، أملتها ظروف الجهاد ، الذي اتصف به عصر الأسرة الزنكية ، شملت تقديم العساكر وقت الحرب ، فكان المقطع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفقات عساكره ، حيث كان عليه أن يخرج بهم إلى ساحات القتال ، مزوَّدين بكل مستلزماته من مؤن وعتاد ودواب وغيرها ، فضلاً عما يتبع ذلك من تدريبات عسكرية فردية وجماعية لجيشه من أساليب القتال المعروفة آنذاك[3]، وإلى جانب ذلك كان على المقطع الاضطلاع بحماية إقطاعه من أيِّ اعتداء خارجي ، وفي ذات الوقت القيام بمراقبة تحركات الأعداء ، وتنفيذ بعض الأعمال الحربية ضد مراكزهم[4].

وصفوة القوة فإن نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع ، ومتى قصَّر في شيءٍ منها كان كفيلاً بإخلاص الأمراء والجند ، واستماتتهم في أداء واجب الجهاد في سبيل الله ، وتحقيق المزيد من الانتصارات ضد أعداء الإسلام ، والتوسُّع في الفتوحات لجعل كلمة الله هي العليا ، خاصة وأن الزنكيين كانوا حريصين على تحري الدقة في توزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم ، يخصون بها المخلصين منهم ، يدلنا على هذا ما ذكرته[5] بعض المصادر من أن عماد الدين زنكي كان يقطع بلاده لجند يختبرهم ، ويعرف نصحهم ، وشجاعتهم[6]. وعلى هذا النهج سار الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

2 ـ الزكاة والخراج والجزية: تُشَكِّل الزكاة ، والخراج ، والجزية جزءاً مهماً من موارد الدولة ، وتؤخذ حسب أحكام الشريعة الإسلامية ، فالزكاة ركن من أركان الدين الإسلامي ، لا يكمل إسلام المسلم وإيمانه إلا بتأديتها ، ولذلك يقبل المسلمون

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص 31.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص 32.
(3) مقومات حركة الجهاد ص 32.
(4) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 33.
(5) المصدر نفسه ص 34.
(6) الباهر ص 37.

على تأديتها من باب الحرص على دينهم ، دونما إكراه من الدولة ، وإن كان من حق الدولة إلزام من يمنع من المسمين بتأديتها؛ لأنها ركن من أركان الدين ، ومن حقوق المسلمين ، يجب على الدولة جمعها ، وتنظيم صرفها في مصالحهم ، وقد ثبت بالتجربة من خلال التاريخ الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[1]: أن الزكاة تساهم إلى حدٍّ كبير في سدِّ نفقات الدولة إذا كانت الدولة تطبق الإسلام على حقيقته ، وكان نور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي ، وبكثرة ذمييها ، ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الموجودين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع ، فكانت هذه الموارد الثلاثة تشكل ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة ، وحماية خزائنها من العجز ، والإفلاس[2].

3 . الغنائم وفداء الأسرى: كانت الغنائم تمثل بحقٍّ مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في حالة حرب مع الأعداء ، وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان ، يقول سبط ابن الجوزي على سبيل المثال: (عاد نور الدين بعد فتح حارم عام 559هـ إلى حلب بالأسرى ، ثم فاداهم وكان قد استفتى الفقهاء ، فقال قوم: يقتل الجميع ، وقال اخرون: يفادي بهم ، فمال نور الدين إلى الفدية ، فأخذ منهم ستمئة ألف دينار معجلاً ، وخيلاً ، وسلاحاً وغير ذلك ، فكان نور الدين يحلف بالله: أنَّ جميع ما بناه من المدارس ، والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع ما وقفه منها ، وليس فيها من بيت المال درهمٌ واحد[3].

ستمئة ألف دينار حصيلة معركة واحدة ، فكيف سائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين ، والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها؟

ثمة رواية أخرى فيها إشارة محدودة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة: (وقع صاحب طرابلس أسيراً بيد نور الدين ، فأطلق سراحه لقاء ثلاثمئة ألف دينار ، ومئة وخمسين أسيراً من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي)[4]. أما أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى: (مئة وخمسون ألف دينار ، وفكاك ألف أسير من المسلمين)[5] ، ومهما كان الأمر فإن المبالغ النقدية ، والعينية المترتبة على فداء الأمير الصليبي كانت كبيرة حقاً ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم التي فتحها كمصر ، واليمن ، وغيرها[6] على شكل ضرائب ، وغنائم ، ومعطيات عينية؛ أدركنا كم كان واسعاً كبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي[7].

4 . الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين: والتي الت خزائنها العظيمة إلى نور الدين . لحسن الحظ . بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي ، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب ، فلما الت هذه المدينة إلى نور الدين عام 544هـ وضع يده عليها ، ونقلها معه إلى حلب ، فكانت كما يصفها كلٌّ

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 190.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 121.

(3) مراة الزمان (8 / 247 . 248) نور الدين محمود ص 124.

(4) المنتظم (10 /249) نور الدين محمود ص 124.

(5) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 124.

(6) البرق ص 123 . 124 نور الدين محمود ص 124.

(7) نور الدين محمود ص 124.

من ابن الأثير ، وابن العديم «كثيرةً جداً»[1]، وأنها نقلت على ستمئة جمل ما خلا البغال ، وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملةً من الذهب[2].

5 ـ الأمانة العظيمة التي تميّز بها نور الدين وحكومته الرشيدة: تميَّز بأمانة عظيمة تجاه أموال الأمة ، والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها ، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة ، كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص ، وإن لنا أن نقدِّر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع ، وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم ، أسوةً بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين ، وإن لنا أن نقدر ـ بالمقابل ـ ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين ، وإيمانه ، والتزامه ، واختياره الدقيق لكبار موظفيه ، وحسابه الشديد معهم[3]، فقد سار على نهج عمر بن عبد العزيز ، وعني بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همَّهم الأول من مناصبهم جمعُ الأموال لأنفسهم.

والأغلب: أن ذلك عوّض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين[4]. وما قيل عن عمر ينسحب بالضرورة على نور الدين[5] ، كما أن وجود الحكومة الرشيدة ، التي كان يقودها نور الدين ساهم على تحقيق ما أراد ، فقد اعتمد في إدارته لدولته الواسعة على حشد من العلماء ، والفقهاء المشهورين بالأمانة ، والاستقامة ، والكفاية ، وكان أغلبهم قد مارس العمل مع الحكام والأمراء قبل العمل مع نور الدين ، فاكتسب خبرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة ، فكان نور الدين يستشيرهم ، ويعقد لهم الاجتماعات لبحث الأمور الهامة[6] ، وكان نور الدين يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين ، يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط[7] ، وألزم نوَّابه ، ورجال دولته بهذا الفهم ، الذي يرقى إلى أعلى مستويات الأمانة والإحساس بالمسؤولية ، وفرض رقابته الصارمة على بيت المال في مركز الدولة وفي الولايات ، ولم يتردَّد في محاسبة نوابه في الأقاليم ، إذا أحسَّ منهم ميلاً للمحافظة في هذا المجال[8] ، وأنزل عقوبةً شديدةً بأحد موظفيه بعد أن ثبت: أنه استغل مركزه ، وأخذ من الأموال العامة فوق ما يستحق من راتبه[9] ، قد مرَّ ذكرها.

ويكفي أن نتذكر حادثة المال الذي وجده في الخزينة ولم يكن يعلم عنه من قبل ، فأمر برده إلى القاضي كمال الدين ، الذي كان قد أرسله لبيت المال ليرده إلى أصحابه[10]. لنعلم كم كان الرجل صارماً ، ودقيقاً في مسألة الحلال والحرام فيما يتعلق بالأموال العامة ، فحفظت ، وانعدم التسَرُّب منها لحدٍّ كبير إلى جيوب الولاة والموظفين[11].

---

(1) زبدة حلب (2 / 298) نور الدين محمود ص 124.

(2) الباهر ص 98 نور الدين محمود ص 125.

(3) نور الدين محمود ص 125.

(4) الدولة العربية وسقوطها ص 296 ترجمة عبد الهادي أبي ريدة.

(5) نور الدين محمود ص 125.

(6) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 190.

(7) المصدر نفسه ص 190.

(8) المصدر نفسه ص 190.

(9) المصدر نفسه ص 190.

(10) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 189 ،

(11) المصدر نفسه ص 189.

لقد انتصر نور الدين على نفسه قبل أن يواجه أهله ورعيته بسياسته التقشفية ، فاستطاع بإيمانه القوي أن يتجرَّد من أهواء الدنيا ، ومغريات الملك ، ومن مظاهر البذخ والترف ، التي كان يعيشها غيره من الحكام غير مبالين بما تعانيه خزينة الدولة بسبب ذلك ، وألزم نفسه بالعيش المتواضع دون أن يفقد شيئاً من هيبة السلطان، وقوة الحكم، بل كان كما قيل: «من شاهده شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه؛ رأى من ألطافه ، وتواضعه ما يحيره[1]، فاقتدى به أهله ، وأمراؤه ، وقادته ، والتزموا البساطة في حياتهم ، ثم انتقلت خصائله إلى العامة من الناس، فكان لهذه السياسة أثرها البعيد في توفير الأموال التي كانت تهدر في مجالات اللهو ، والبذخ ، والترف ، فصارت تصرف في وجوه الخير والمصلحة العامة»[2].

6 . سيادة الأمن والاستقرار الداخلي: كانت النزاعات والحروب بين الإمارات الإسلامية المتعددة في بلاد الشام قبل توحيدها تستهلك أغلب موارد هذه الإمارات ، وتقضي على الأجواء المناسبة لاستغلال الأرض ، ورواج التجارة فيما بينها ، فكانت الأوضاع الاقتصادية سيئة ، فلما توحَّدت بلاد الشام كلها تحت زعامة نور الدين؛ زالت أسباب التوتر والنزاع ، وساد الأمن والاستقرار على الجبهة الداخلية ، وأصبحت الجهود كلها موجهة نحو الخطر الخارجي المتمثل بالفرنجة ، الذين أصبحوا بفضل جهود نور الدين العسكرية في وضع دفاعي ، لا يشكلون خطراً مباشراً على المدن الإسلامية في بلاد الشام ، كما كانوا من قبل ، فانصرف الناس إلى أعمالهم الزراعية ، والتجارية وهم مطمئنون ، فتحسنت الأحوال الاقتصادية ، وكثر العمل ، وكان من نتيجة ذلك كلِّه زيادة مقادير الزكاة التي تشكل المورد الرئيسي لخزينة الدولة[3].

7 . مساهمة الأثرياء: أثَّرت جهود نور الدين وقيادته الحكيمة ، في إيجاد مجتمع التكافل والتضامن في بلاد الشام ، وصار التعاون ، والتراحم ، والمودة ، والمواساة سماتٍ بارزة في المجتمع ، وأخذ الأثرياء من أبناء الأمة يسارعون إلى أعمال الخير ، تأسياً بسلطانهم ، وطلباً للأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى ، فتمّ بناء الكثير من المدارس ، والمساجد ، ودور الأيتام من قبل القادة ، والأمراء ، والولاة وغيرهم من الأثرياء ، حتى صارت هذه الأعمال من ظواهر المجتمع الدائمة ، وامتدت بعد دولة نور الدين ، واتسعت في زمن الدولة الأيوبية ، ودولة المماليك ، وما يهمنا هنا: أن هذه المساهمات ساعدت في توفير الأموال لخزينة الدولة[4].

8 . المعاهدات والاتفاقات: فقد شكلَّت المعاهدات والاتفاقات مورداً مالياً طيباً للدولة الزنكية ، ففي سنة 557هـ / 1156م سار نور الدين بقواته لمحاصرة حارم التابعة لإمارة أنطاكية ، وجمع الصليبيون قواتهم لصدِّه عنها ، وكان في هذا الحصن رجل صليبي من دهاة الإفرنج ، يرجعون إلى رأيه ، فقد نصحهم بمفاوضة نور الدين ، فوافق على ذلك مقابل أن يعطوه نصف أعمال حارم[5] ، كما حدث سنة 559هـ / 1163م أن وافق نور الدين على إطلاق سراح بوهيمند (1163 . 1201م) أمير أنطاكية بعد أن دفع فدية كبيرة ، وتعهّد أن يرسل مالاً كثيراً ، وأن يطلق سراح الأسرى

---

[1] عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود ص 189.

[2] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 189.

[3] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة 191.

[4] المصدر نفسه ص 191.

[5] مفرج الكروب (1 / 128) مقومات حركة الجهاد ص 35.

المسلمين الذين عنده ، وفي السنة نفسها شاطر الصليبيين في أعمال طبرية ، وقرروا له من المناطق التي يشاطرهم عليها مالاً في كلِّ سنة[1].

9 . دعم الخليفة العباسي: كان نور الدين يدين بالتبعية السياسية للخلافة العباسية السنية في بغداد ، فتحصل على إضفاء صفة الشرعية على قيام دولته ، والحصول على التأييد منها ، في أعماله الجهادية حرصاً على ما يبدو في ذات الوقت على طلب المساعدة المالية منها أحياناً ، لدفع حركة الجهاد ضدَّ الصليبيين ، يدلنا على ذلك ما ذُكر: أن نور الدين محمود لم يتحرج في أن يطلب من الخليفة العباسي المستنجد بالله النفقات والأسلحة لسدِّ الكلمة ، ودفع الملمة على إثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنة 565هـ / 1169م[2].

10 . سياسته الزراعية: عهد نور الدين إلى اعتمد سياسة زراعية سليمة ، كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة؛ لتنمية الدخل القومي تنميةً طبيعية ، في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين ، والفلاحين من كافة صنوف الأذى ، والتخريب ، والعدوان ، التي كان يمكن أن تلحق بهم من جراء حالة الحرب المستمرة ، وتحرك الجيوش الدائم ، وتحوِّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال ، لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً… وقد مّر بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الأربعينيات كان يشدد على أصحابه وجنده ألاّ يفسدوا المزارع ، والضياع ، والقرى ، وألا يأخذوا شيئاً من مزارع بغير حق.

كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين ، ونتذكر رواية ابن القلانسي: (سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين ، فقال: لا أنحرف عن جهادهم).

وهو مع ذلك كفَّ أيدي أصحابه عن العبث ، والإفساد في الضياع ، وإحسان الرأي في الفلاحين ، والتخفيف عنهم، وكتب إلى زعماء دمشق: (إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر: كثرة شكاية المسلمين ، من أهل حوران ، والعربان بأنَّ الفلاحين الذين أخذت أموالهم ، وشتت نساؤهم ، وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين ، وجهاد المشركين ، وكثرة المال ، والرجال ، إلاَّ الانتصار لهم)[3].

وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين ، ومثَّلوا دعماً حربياً متجدداً للجيش النوري ، وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكاناتهم المتميزة في مجال الزراعة ، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة ، وتوافر مصادر الري ، سواء من الأنهار والأمطار ، أو الينابيع والابار ، وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة ، وقد أنتج القطاع الفلاحي العديد من المحاصيل الزراعية ، التي دخل بعضها في نطاق التصنيع مثل القطن ، وقصب السكر ، والسمسم ، والزيتون ، وغيرها[4].

---

[1] الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص 35.

[2] مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 35.

[3] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 122 ،

[4] الصراع الإسلامي الصليبي: السياسة الخارجية للدولة النووية ص 42.

11 ـ المجال الصناعي: فقد امتازت الدولة النورية بتوفُّر المواد اللازمة للتصنيع ، وكذلك العُمَّال المهرة ، ووسائل النقل ، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية ، والصوفية ، والحرير ، وخاصة ثياب الدمسك[1] ، والموسلين ، وكذلك صناعات الورق ، والزجاج وغيرها.

ويلاحظ: أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات في عهد الدولة النورية ، يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوِّقات التقدم حينذاك ، وهي أن الآلآت التي أمكن استخدامها لهم معقدة ، ولم توجد المعدَّات التي يمكن أن تدار على طريق المعادن التي وجدت في بلاد الشام والجزيرة ، وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين ، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد ، والنحاس في بيروت ، والموصل ، ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة ، بل إنَّ استخدام الحديد انحصر في صناعة أدوات الطب[2] والجراحة ، وكذلك الأسلحة وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة.

وهذا الوضع بالطبع حدَّ من نمو حركة التصنيع ، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية ، على استثمار رأس مالها في حركة التجارة الداخلية ، والخارجية النشطة ، ولم تشأ استثماره في المجال الصناعي[3]؛ حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثته ، وسبرت أغواره ، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج ، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة ، كذلك عدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرةً لنهضة صناعية لا ثورة صناعية ، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية[4].

12 ـ القطاع التجاري: اتَّبعت الدولة النورية سياسةً انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية ، وكذلك الخارجيّة، واستطاعت التحكُّم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة ، وخاصة بعد استرداد الرُّها مما جعلها تتحكم في طرق التجارة ، التي تربط بين العراق ، واسيا الصغرى من ناحية ، وبلاد الشام من ناحية ثانية.

كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية ، وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة 567هـ / 1171م ، مكَّنَه من الاتصال بتجارة الهند والشرق عبر ممرَّين مائيين ، هما: الخليج العربي ، والبحر الأحمر[5].

وكانت العشور يتمُّ تحصيلها على التجارة ، التي تمرُّ عبر حدود الدولة النورية ، سواء الداخلية ، أو الخارجية منها ، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركيّة في العصر الحاضر ، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: «الذي يأخذ العشور»[6] ، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النَّبي صلى الله عليه وسلم وخليفته الأَوَّل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لأنَّ تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام ، والجهاد في سبيل نشره ، وبناء الدولة الإسلاميَّة ، فلمَّا اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ وامتدت حدودها شرقاً ، وغرباً ، وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة

---

(1) المصدر نفسه ص 43.
(2) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ص 159.
(3) الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية ص 43.
(4) المصدر نفسه ص 43.
(5) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 37.
(6) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص 37.

ضرورة تمليها المصلحة العامَّة ، ورأى الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يفرض تلك الضَّريبة على الوارد إلى دار الإسلام ، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجَّار المسلمين القادمين إلى بلادهم ، معاملة بالمثل[1]. وقد أجمع المؤرِّخون[2]: أن أوَّل من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب[3] ، رضي الله عنه.

وقد اهتمَّت الدولة الزنكية بالحركة التجارية ، وإقامة العدد من المؤسسات التجارية ، مثل الخانات[4] ، والفنادق[5] ، وأورد ابن عساكر العديد منها في مدينة دمشق ، كذلك شجَّعت التُجَّار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية ، التي شهدتها البلاد ، وقد استقروا في مناطق خطوط التجارة العالمية المارة من مدن الشام ، والجزيرة الكبرى ، مثل: دمشق ، وحلب ، وشيزر ، ومعرة النعمان ، والموصل ، وغيرها.

ففي دمشق مثلاً وُجِدُوا بأعداد كبيرة ، وعُرِفَتْ حارة باسمهم[6]. وقد تزايدت أعدادهم بها؛ حتى بلغوا الآلآف ، ووصفوا بأن منهم «ذوو اليسار»[7] ، أي: أنهم اشتغلوا بالتجارة؛ حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة ، وكذلك وجدوا مجالاً متسعاً في أعمال الصيارفة[8].

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط ، فهناك الإمبراطورية البيزنطية ، والقوى التجارية الإيطالية مثل جنوة ، والبندقية ، وبيزا ، وأمالفي[9]، وتمكَّن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام ، والجزيرة ، وأقام قناصلهم في المدن الشامية ، والجزيرة مثل: حلب ، ودمشق ، والموصل وغيرها ، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية[10] ، ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية ، يدلُّ على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص ، فهناك الخزَّانون ، ثم الركاضون ، والمجهزون[11].

ويكشف لنا الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم ، كذلك ظهرت عدة أسر تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحبي ت 632هـ / 1234م الذي عاصر نور الدين محمود ، فقد ترك أبناء لهم أشغال جيدة في هذا الفن[12] ، ووجدت في حلب بيوت قديمة معروفة بالثروة[13] يتوارثونها ، وطبيعي: أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك: أنَّ تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن

(1) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي ص 327.
(2) سياسة المال في الإسلام ص 128.
(3) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي ص 327.
(4) الحدود الإسلامية البيزنطية ، فتحي عثمان (1 / 234).
(5) الصراع الإسلامي الصليبي ، السياسة الخارجية النووية ص للدولة 44.
(6) خطط مدينة دمشق ضمن كتاب ابن عساكر ص 109 عبد القادر ريحاني.
(7) الصراع الإسلامي الصليبي ، السياسة الخارجية للدولة النووية ص 45.
(8) المصدر نفسه ص 45.
(9) المصدر نفسه ص 45.
(10) المصدر نفسه ص 45.
(11) الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي ، تحقيق الشوربجي ص 74 ، 75.
(12) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص 217.
(13) الصراع الإسلامي الصليبي ص 46.

موجودة من قبل[1] ، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام[2] ، وانطبق ذلك على بلاد الشام ، والجزيرة حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ، ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية ، وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري ، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية ، حيث جبيت فيها أموال الروم ، وديار بكر ، ومصر ، والعراق[3].

ويبدو: أنَّ الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ، ولم تشأ أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها ، وتزايد ثروتها على حساب احتياجاتها ، واحتياج السوق الشامي ، واستقراره ، ويبدو: أنها احتكرت بعضها ، كتجارة الحديد ، والأخشاب ، والقار ، وهكذا فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهمٍ ، وجديد ، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ، ووقع ذلك في عام 567هـ فقال:

لمـــا سمحـــتَ لأهـــل الشـــام بالخشـــب عوَّضـــتَ مصـــرَ فيهـــا مـــن النشـــــبِ[4]

إن الدولة النورية من خلال توسُّعها الخارجي أكثر ما غنمت واستفادت بعد الفتوحات ، ونصرة الإسلام من نشاطها التجاري؛ إذ أخضعت تجارة شمال الشمال ، ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط ايسا في أوربة ، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام ، وأيضاً القادمة من دمشق ، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم ، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية ، ومرَّ بها طريق الحجاج الشاميين ، وكذلك القوافل التجارية القادمة من غير أوروبة إلى شمال إفريقية إلى الشام.

أما الموصل فقد اشتهر نشاطها التجاري ، ومثَّلت حركة اتصال مؤثرة ، وحيوية بين تجارة شمال العراق ، وشمال الشام بصفة خاصة ، وتجارة الإقليمين المتجاورين بصفة عامة[5].

ويلاحظ: أنَّ الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي ساهمت في إحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط ، ومن المؤكد: أنَّها قد تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب ، ولا نغفل أن الدولة النووية بإحكام قبضتها على برقة ، وجبل نفوسة قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي ، خاصة تجارة الذهب والرقيق ، وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد ، فإذا أضفنا إلى تلك المحطَّات . التجارة البرية المحطات البحرية مثل عيذاب على البحر الأحمر ، ودمياط ، والإسكندرية على البحر المتوسط ، أدركنا كم كان على كافة القوافل المارة عبر كافة تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة ، ولا مراء في أنَّ خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على

---

[1] تاريخ التجارة ص 191.

[2] عالم العصور الوسطى في النظم والحضارات ص 202.

[3] الصراع الإسلامي الصليبي ، السياسة الخارجية للدولة النورية ص 46.

[4] الخريدة نقلاً عن الصراع الإسلامي الصليبي ص 47.

[5] الصراع الإسلامي الصليبي ص 238.

نحو دعم مشاريعها التوسعية[1]. وقد تمكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في المناطق كافة ، تلك التي أخضعتها لسيطرتها السياسية[2].

أ ـ مبدأ التخصص في التجارة الخارجية: شهدت التجارة في عهد الدولة النورية تطوراً مهماً من جرَّاء التوسع الخارجي ، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطةً بحلب ـ قلب تجارة شمال الشام ـ صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية ، وفي قطَّاعات إقليمية منسَّقة ، وموزعة بين قسم من غربي قارة اسيا ، والشمال الشرقي الإفريقي ، ويمكن ملاحظات ذلك من خلال ثلاثة محاور:

* المحور الأول: المتاجرة مع الكيان الصليبي ، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية؛ إذ كانت دولة داخلية حبيسة ، ليست لها موانئ على الساحل الشامي ، وحيث أن تلك الموانئ خضعت للسيطرة الصليبية ، فإنها مثَّلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول ، والأسواق التجارية الدولية ، التي استهلكت منتجاتها التجارية ، مثل: الإمبراطورية البيزنطية ، وجنوب أوروبة ، وغربها ، ومن المعروف: أنَّ ميناء صيدا كان ميناءً تجارياً لدمشق ، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كلٍّ من حماه ، وحمص ، ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل مدن جنوة ، والبندقية ، وبيزا ، وأمالفي ، وأثرها في دعم النشاط التجاري الصليبي[3].

* المحور الثاني: تجارة التوابل ، فقد نهض بأمرها الكارمية ، فقد احتلَّت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة ، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النووية على تجارة التوابل الهندية قد تأتي لها بعد أن سيطرت على مصر ، وقضت على النفوذ الفاطمي بها ، واحتاج الأوربيون ـ على نطاق متسع ـ لتلك التوابل ، التي حددها لوبيز ، بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينة ، والعطور ، والعقاقير ، والصيانة الكيماوية ، والطَّهو[4].

* المحور الثالث: تجارة الرقيق ، والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى ، فقد مثَّلت أهمية بالغة للدولة النورية ، وقد تهيَّأ لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدَّتْ سيطرتها السياسية إلى مصر ، وأمَّنتها بالسيطرة على برقة ، وجبل نفوسة[5] بطرابلس ، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة ، أما تجارة الرقيق ، فكانت لها أهمية خاصة[6] وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقية وعبر الصحراء الكبرى ، وغنمت من وراء ذلك غنائم عظيمة ، ولكن ينبغي أن نُدرك أن امتدادها إلى تلك الحدود ، جاء متأخراً ، أي: بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام 567هـ / 1171م وبالتحديد قبل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه[7].

ب ـ التجارة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس: لم تقطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إنَّ القوافل استمرَّت تتردد بين الجانبين ، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك

---

(1) الصراع الإسلامي الصليبي ص 238.

(2) المصدر نفسه ص 239.

(3) المصدر نفسه ص 240.

(4) الصراع الإسلامي الصليبي ص 241.

(5) تاريخ المغرب العربي ، سعد زغلول عبد الحميد ص 69.

(6) الصراع الإسلامي الصليبي ص 241.

(7) المصدر نفسه ص 244.

من خلال عائد المكوس المفروضة ، ومن المرجَّح: أنَّ الازدهار التجاري ، الذي شهده ميناء عكا بالذات يرجع ـ في أحد أسبابه ـ إلى المتاجرة مع الدولة النووية؛ إذ اعتبر أحد الموانئ الرئيسية الهامة ، لتصريف تلك الدولة ، وقد أثَّرت سياسة التوسَّع النورية ، والتداخل الذي جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجاري ، أثَّرت على سياسة المملكة اللاتينية؛ إذ إنها لكي تتاجر مع المسلمين ،كان عليها أن تتبع الموازين ، والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل[1].

كما كان الصليبيون في حاجة إلى استعمال نوع من العملات ، يقبلها التجار المسلمون ، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصُّوري ، وتم استخدامه في التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق ، وقد شابه البيزنت البيزنطي ، وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية ، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام[2].

ويلاحظ: أنَّ الهدنات ، التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس كان لها أثرها الفعَّال على التبادل التجاري بين الجانبين؛ إذ توقَّفت عند ذلك المعارك ، ووجد التجار فرصة سانحة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب[3] ، وأما الإمارات الصليبية؛ فقد أفادت ـ شأنها في ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها ـ من المتاجرة مع الدولة النورية[4].

ج ـ مكانة التجار عند نور الدين زنكي: تجدر الإشارة: أنَّ الدولة النووية حرصت على إرضاء كبار التجار ، من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها ، على نحو يدعم اقتصاديات الدولة ، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها ، من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها ، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة ، ولاسيما الأخيرة ، ومما ساعد على التعاون بين التَّجار ، ودولة نور الدين: أنَّ مصالحهما التقت مع بعضها ، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام 549هـ / 1154م وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم ، كان دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيَّة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل ، ومن الأمور ذات الدلالة ، أن نور الدين عندما دخل المدينة ، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة ، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم ، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة[5]. وقد استفاد التُّجَّار من هدنات الدولة النورية ، مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية[6].

13 ـ إلغاء الضرائب: أدرك نور الدين محمود: أنَّ أيَّ تغيير أساسي ، في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن ، والأمثل لن يستكمل أبعاده إلا من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية ، بالحق ، والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم ، أو مظلوم ، وكان موقفه الفعَّال ينطلق من الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة ، التي صاغها كتاب الله ، وسنة رسوله ،

---

(1) مملكة بيت المقدس ، عمر كمال توفيق ص 124.

(2) الصراع الإسلامي الصليبي ص 247.

(3) المصدر نفسه ص 247.

(4) المصدر نفسه ص 248.

(5) ذيل تاريخ دمشق ص 328 ـ 329.

(6) الصراع الإسلامي الصليبي ص 255.

ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين ، والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ ، وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، يرى في الدولة مؤسسةً لحماية حقوق جماهير المواطنين ، وتقديم أوسع الخدمات لهم ، وهو التصوُّر الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ ، والاستلاب ، والابتزاز ، والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي ، وغير الإسلامي ، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسُّع الضرائبي السالب ، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات ، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً ، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح ، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته ، وكان يحوط هذا التحرك . الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن . برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ، ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء.

ما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة ، من أجل تفهم واقعها المرير ، ودفعها إلى مستوى الكفاية ، يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد ، كانت قديرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولته الراشدة[1].

كانت الضرائب في عصر نور الدين تتزايد مع الزمن ، حتى إن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسباً يصل إلى خمسة وأربعين في المئة من قيمتها ، وابتكر ظلمة الحكَّام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها ، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة ، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامها في بلاء شديد ، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يُجبى على الأرض ، حتى لم يبق للزرَّاع ما ينفقون به ، وأصبح الحكَّام يَكِلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً ، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ، ثم يجني أضعافه من الناس[2].

في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب بلا شك يشير إلى استغراب الكثير من أبناء ذلك الجيل ، وهي خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي ، وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذُ فترة مبكرة ، وكان حيناً بعد حين ، يصدر الأوامر ، ويعمِّم الكتب ، والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللاشرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جرَّاء سياسات الابتزاز ، التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين ، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها ، وكان شعبيّته تزداد باطِّراد عجيب ، في خطٍّ متوازٍ مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها[3]. وهذا يؤكد ما قاله الدكتور عماد الدين خليل: «بأن إجراءاته الضريبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحيق العدل الاجتماعي ، وكان ينتهز الفرص المناسبة كفتح من الفتوح ، أو انتصار من الانتصارات ، أو حادث من الأحداث ، أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرُّد ، والعطاء»[4].

أ. في دمشق عام 549هـ: عندما دخل دمشق عام 549هـ أصدر منشوراً بإسقاط المكوس ، والضمانات ، والضرائب ، والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق: دور البطيخ ، سوق الخيل ، سوق البقل ، ضمان الأنهار[5]،

---

[1] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 94.

[2] نور الدين محمود ، حسين مؤنس ص 402.

[3] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 95.

[4] المصدر نفسه ص 95.

[5] أي احتكار توزيع الماء للري والشرب.

سوق الغنم، الكيالة... وغيرها، وقرأ المنشور على المنبر، فاستبشر الناس بصلاح الحال، وأعلن للناس، والفلاحين، والحرم، والمتعيشين برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه.

ب . في عام 552هـ عندما دخل شيزر: أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشدٍ كبير من المظالم ، والمكوس ، شمل معظم أنحاء دولته ، وجاوز المئة والخمسين ألف دينار وقد جاء فيه: (... هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً ، وأطلقه مسامحاً لمن ضعفه من الرعاية . رعاهم الله . لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار... . أبادهم الله تعالى .... إلخ ، ثم يعرض من المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الإلغاء ، والمبالغ التي أعفيت من دفعها[1].

ج . في الموصل عام 566هـ: عندما دخل الموصل عام 566هـ ، لم يشأ إلا أن يسقط عن أهلها ، ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات ، والضرائب ، والمكوس ، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية ، كالخابور ، ونصيبين ، وغيرهما، وأصدر بذلك منشورات من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: (وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال ، فسحقاً للسحت ، وحقاً للحرام الحقيق بالمقت... وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة ، أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة ، ومحو كل سنَّةٍ سيئة شنيعة ، وإحياء كل سنَّةٍ حسنة ، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة ، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة ، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً... وهذا حق الله قضيناه ، وواجب علينا أدَّيناه)[2].

د . في مصر عام 566هـ: فقد رفع صلاح الدين في مصر في عام 566هـ: جميع المكوس: صادرها وواردها ، جليلها وحقيرها[3]. ويبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون دينار: (فأطلقها نور الدين ، وهذا لم تتسع له نفس غيره)[4] ويؤكد ابن العديم: أنَّ عام 567هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس[5].

هـ . وفي عام 569هـ السنة التي توفي فيها نور الدين قام بحملة تطهير أخرى للضرائب ، فأسقط ما أطلق عليه «فريضة الأتبان» في بلاد الشام ، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني. وقد اطَّلع أبو شامة على نسخة المنشور، وعلامته بخط نور الدين «الحمد لله» ، ومما جاء فيه: (وبعد: فإن من سنتنا العادلة ، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم ، وإعفاء رسم ما سنَّه الظالمون من جائرات الرسوم ، وما نزال نجدِّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفِّيها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرُّباً إلى الله تعالى[6].

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 96 نقلاً عن كتاب الروضتين.

(2) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 98.

(3) الباهر ص 166 نور الدين محمود ص 98.

(4) نور الدين محمود ص 99.

(5) البرق ص 143 نور الدين محمود ص 102.

(6) البرق ص 143 نور الدين محمود ص 102.

ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين ، بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب سوى الجزية ، والخراج... وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج[1] وقد مرَّ الحديث عن إلغاء المكوس مفصلاً عند حديثنا عن العدل في دول نور الدين محمود. إنَّ نور الدين محمود في سياسته الاجتماعية ، والمالية يظهر حرصه العجيب على الأموال العامة ، وأموال الأمة ، التي حصيلة كدِّها ، ودمعها ، وعرقها ، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس ، أم عامة في أيدي الدولة.

و . حمايته للرعية من جشع التجار: كان رحمه الله حريصاً على حماية الرعية من أيِّ مظالم قد تقع عليهم ، وذات يوم حضر إليه جماعة من التّجار ، وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار) كان كل ستين منها بدينار ، فصار سبعة وستون بدينار ، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة، والنقصان، مما يلحق بهم الكثير من الخسائر، وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس ، فسكت وقتاً طويلاً، ثم قال: (إذا ضربت الدينار، وأبطلت المعاملة بالقراطيس؛ فكأني خربت بيوت الرعية ، فإن كل واحد منهم عنده عشرة الاف وعشرون ألف قرطاس ، إيش يعمل بها؟ فيكون ذلك سبباً لخراب بيته) ورفض من ثمَّ الاستجابة لمطالب التجار[2].

ز . الأموال التي خلَّفها أمير شيزر: وعندما دخل شيزر عام 552هـ بعد أن خرَّبتها الزلازل . لم يكن لينسى: أن هناك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق ، وأن عليه المطالبة به ، والبحث عنه؛ لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة ، ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال ، وهدَّدها ، وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها ، وعليهم ، وأخرجت هي حية من دونهم ، وأنها لا تعلم شيئاً ، وإن كان ثمة شيء؛ فهو تحت الأنقاض[3] ، ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه[4].

ح . خراج معرَّة النعمان: ويحدثنا أبو طاهر الحمدي الفقيه: (كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق ، وقد أخرج جريدةً سجِّلَ فيها خراج الأملاك ، فجعل ينظر فيها ، فلما انتهى إلى أهلها، فقال: (رفع إليَّ الخَيِّر من الثقات: أن جميع أهل المعرة يتقاضون الشهادة ، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ، ويشهد له هذا في دعوى أخرى ، وإن الملك الذي بأيدهم إنما حصل لهم بهذا الطريق). وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر ، ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع المستندات الخاصة بالملكية ، فقلت له: أيُّها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك ، فانظر ، واكشف ، وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك ، فإن أهل المعرة خلق كثير ، كيف تستمدُّ تواطؤهم على شهادة الزور ، وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز!!! فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال: إني أمسكها عليهم ثم اكشف عنها بعد ذلك ، والتفت إلى كاتبه قائلاً: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البيِّنات في ذلك[5].

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 103.

(2) الكواكب ص 24 نور الدين محمود ص 105.

(3) زبدة حلب (2 / 307) نور الدين محمود ص 105.

(4) نور الدين محمود ص 105.

(5) الكواكب ص 71 نور الدين محمود ص 106.

ط ـ اختيار أصحاب الأمانة في الإشراف على المشاريع: عندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام 566هـ ، وليكون مسجداً جامعاً للمصلين ، ومدرسة كبيرة للدارسين؛ لم يتسرَّع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه ، لاسيما وأنه عائد إلى حلب ، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة ، وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه ، فكان عمر الملا الرجل الصالح الكادح ، كما يصفه المؤرخون. ويحدِّثنا العماد الأصفهاني شاهد العيان عن الرجل فيقول: «إنما سمِّي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوَّى بها ، وكان يهب كلَّ ما يصل إليه، ولا يستبقي لنفسه شيئاً ، وكان العلماء ، والفقهاء ، والأمراء يزورونه في زاويته ، ويتبركون بهمته ، وكان نور الدين من أخصِّ محبيه ، ويستشيره في حضوره ، ويكاتبه في مصالح دولته[1]. هذا وقد أنفقتْ على الجامع الكبير أموالٌ كثيرة ، واشترى عمر الملاّ الأملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان ، وعندما تمّ إنشاؤه ، وحضر نور الدين لافتتاحه عام 568هـ؛ تقدَّم إليه عمر الملاّ بدفاتر الحسابات التي تضمَّنت تفاصيل الصَّرف بدقَّةٍ بالغةٍ ، رفض نور الدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل الذي عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة ، فاستراح إلى النتيجة[2]».

المحاسبة الدقيقة لعمال الزكاة:

وحكى معين الدِّين محمَّد حفيد القيسراني ، ووزير نور الدين الشهيد ، قال:

«انكسر ضامن دار الزّكاة ـ المعروف بابن شمَّام ـ بمال جمٍّ ، فحُبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية الاف دينار ، وحمله إلى الخزانة ، ولكنَّه بقي في الجس مُطالباً بما بقي في ذمَّته»[3].

هذه الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدِّين ، وسياسته الاقتصادية الرَّشيدة من نظام القطاع الحربي ، والزَّكاة ، والخراج ، والجزية ، والغنائم ، وفداء الأسرى ، والأموال العظيمة التي خلَّفها أبوه عماد الدِّين ، والأمانة التي تميَّز بها وحكومته الرَّشيدة ، وأهميَّة سيادة الأمن والاستقرار الدَّاخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية ، ومساهمة الأثرياء ، والمعاهدات ، والاتفاقات التي يترتَّب عليه امتيازات مالية ، ودعم الخليفة العباسيِّ للدَّولة الزنكية ، وسياسة نور الدين الزِّراعية ، والصناعية والتّجارية ، وغير ذلك من سياسته الاقتصادية الحكيمة التي ساهمت في دعم دولة الجهاد ، وتحقيق أهدافها.

إنَّ من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين: الاهتمام بالجانب الاقتصاديِّ؛ لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدُّنيا ، وقوامُها ، والضَّعيف فيها يقهر ، ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يُحكم ، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذَّات في موارد ثابتة ، وهذا عامل مهمٌّ من عوامل النهوض.

إنَّ حاجات مشروع نهوض الأمَّة متعددة ، تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها ، والمطلوب من الحركات الإسلاميّة ، والحكومات أن تُظهر من خلال سلوك رجالها من التجار المسلمين أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية ، وذلك من خلال تزويدهم بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم التاجر المسلم مع إخوانه مجالات التجارة الدَّولية ، والأسواق العالميَّة، ويعمل على توحيد جهود التُّجَّار المسلمين لإيجاد شبكات للتعاون المثمر لمقارعة الشَّركات اليهوديَّة ، والشيوعيَّة ،

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص 106.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص 106.

(3) مفرج الكروب (1 / 19) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 106.

والنصرانيَّة ، وبذلك ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلاميِّ على الأسواق العالميَّة ، وتوظيفه لخدمة المشروع الإسلاميِّ في تحرير شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الشيوعيِّ ، الرأسماليِّ الدَّخيل[1].

إنَّ التَّاجر المسلم ـ في المفهوم الإسلامي الأصيل ـ من صنَّاع الحياة ، هو صانعٌ لصنَّاع الحياة ، يقول الأستاذ محمد أحمد الرَّاشد في هذا الصدد: «وعلى خطَّة الدَّعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدُّعاة كراهة المال ، وحب الوظائف الحكومية»[2].

وطلب في كتابه (صناعة الحياة) من الدُّعاة أن يهتموا بجمع المال وأن ينزل منهم نفر إلى السوق؛ لأن في ذلك مردود دعويٌّ ، وذكَّر باليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق ، ونحن لا نجيد إلا شتمهم ، وسبَّهم ، ونضجر من المارُون ، والأقباط ، والبهرة ، والقاديانيّة ، والمبتدعة ، والأقليات؛ إذ كان منهم السبق إلى المال بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزماً ، وبمساعدة قوى خفية أخرى ، ولكنا لم نحسن غير سبِّهم ، وشتمهم. إلى أن قال: «... ولابد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصِّناعة ، والزِّراعة ، والعقار ، والاستيراد ، والتصدير ، وبخاصة في البلاد الحرَّة ، التي لا ينال أموالنا فيها ظلم ، وفي العالم الكبير الفسيح متَّسع للاستثمار»[3].

إنَّ نور الدِّين محمود اهتمَّ بالقوة الاقتصادية ، وجعلها في خدمة الأمة ، والدَّعوة ، وسياسة الدولة وقادة الفكر ، ودعم بها مشروعه النهضوي.

ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه ، وجعل مؤسسات الدَّولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير ، فسعت بدورها لتغطية شتى الحاجات: ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل ، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية ، وانتهاءً بقضايا الروح.

وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة ، فهي حيناً تأتي عن طريق التّوزيع المباشر للمال ، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة ، أو الفكاك من الأسر ، أو من خلال إنشاء مؤسَّسات ، ومرافق كالمارستانات ، والملاجئ ، ودور الأيتام ، والمدارس ، ودور الحديث ، والخانات ، والرُّبط ، والجسور ، والقناطر ، والقنوات ، والأسواق ، والحمامات ، والطرق العامة ، والمخافر ، والخنادق ، والأسوار ، وقد تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمَّة نضجها ، وتنظيمها ، وازدهارها ، أو عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة[4].

كان نور الدِّين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز ، لا أداة قسر واستنزاف[5]، فزمانه ـ كما يقول أبو شامة ـ: «مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم»[6].

---

(1) فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص 288.

(2) صناعة الحياة ص 46

(3) صناعة الحياة ص 46 ، 47.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 111.

(5) المصدر نفسه ص 112.

(6) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 112.

1 ـ المجال الصحي (المستشفيات): اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات) ، وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب ، وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية.

وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات ، وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ/705 ـ 715م) هو أوَّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام ـ كما بيَّنا في كتابنا «الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار» ـ فإن الملك العادل نور الدين محمود وخلفاءه من البيت الأيوبي ، هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين ، واهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتماماً بالغاً وقايةً لبلادهم من الأوبئة والأمراض ، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود إحدى مراكز تدريس الطب في بلاد الشام ، وكان ميدان ذلك: البيمارستان النوري ، الذي كان يؤدي رسالة علمية لها في تدريس الطب ، إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية في علاج المرضى ومتابعتهم[1].

أ ـ البيمارستان النوري: قال ابن الشحنة: «إنَّ الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء»[2] ، وقال الغزيُّ: «هو لصيق البهرامِيّة من جنوبيها الشرقي ، بناه نور الدين محمود زنكي[3] ، وقد ذكر ابن الشحنة: أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذا البيمارستان؛ طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة» صحيحة الهواء ، صالحة لإقامة البيمارستان بها ، وذبحوا خروفاً ، وقطَّعوه أربعة أرباع ، وعلَّقوها بأربا ع المدينة ليلاً ، فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرُّبع الذي كان في هذا الموقع ، فبنوا البيمارستان[4] فيه ، وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ، ودرجات الحرارة ، واختبارات الأجواء[5].

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق البهراميَّة[6]، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: «بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل ، صلاح الدنيا والدين ، قسيم الدولة ، رضي الخلافة ، تاج الملوك والسلاطين ، ناصر الحق بالبراهين ، محيي العدل في العالمين، قامع الملحدين ، قاتل الكفرة المشركين ، أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته»[7].

وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان قرية معراشا ، ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان ، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا ، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المطخ ، وثُمن طاحون غربي ظاهر باب الجنان ، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مَدَايا من عزاز ، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة المطخ ، واثني عشر فداناً من مزرعة الغرزل من المعرَّة، وثلث قرية بيت راغِل من الغربيّات ، وعشرة دكاكين بسُوق الهواء ، منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير ، وأحكار

---

[1] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 412.

[2] الدّر المنتخب ص 230 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 412.

[3] نهر الذهب (64/2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 412.

[4] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 413.

[5] المصدر نفسه ص 413.

[6] أخبار حلب وأسواقها ، خير الدين الأسدي ص 167.

[7] نهر الذهب (65/2 ، 66) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 413.

ظاهر باب أنطاكية ، وباب الفرج ، وباب الجِنان[1] ، وكثرة هذه الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرُّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير[2] ، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان ، تشمل على كثير من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدِّين محمود على هذا البيمارستان[3]، ممَّا يؤكد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلميِّ في هذا العهد ، إلى جانب الوظيفة الطبيَّة التي كان يقوم بها[4].

ب ـ البيمارستان النُّوري في دمشق: ينسب هذا البيمارستان للملك نور الدين محمود زنكي ، قال عنه ابن الأثير:«وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج ، بلغني: أنَّه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير»[5].

وذكر أبو شامة: أنَّ لأصل بنائه قصة عجيبة ، وهي: «إن نور الدين ـ رحمه الله ـ وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج ، ـ خذلهم الله تعالى ـ فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً ، فشاور نور الدين أمراءَه ، فأشاروا بعدم إطلاقه؛ لما كان فيه من الضَّرر على المسلمين ، ومال نور الدين إلى الفداء ، بعدما استخار الله تعالى ، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه ، وتسلَّم المال ، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات ، وبلغ نور الدين خبره ، فأعلم أصحابه ، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ حيث جمع الحسنيين وهما: الفِداء ، وموت ذلك الَّلعين ، فبنى نور الدين ـ رحمه الله ـ بذلك المال هذا البيمارستان ، ومنع المال عن الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم»[6].

ويعلق أبو شامة على قول ابن الأثير: «بلغني: أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء وحسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير»[7] ، فيقول: «وقد وقفت على كتاب وقفه ، فلم أره مشعراً بذلك ، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ، ليقع ما قدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه ، والله المستعان ، وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء ، فخصَّ ذلك بذلك ، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره ، لا سيَّما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين» ، وقال بعد ذلك: «من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي ، وروي: أن نور الدين ـ رحمه الله ـ شرب من شراب البيمارستان ـ أي: شرب دواءً للعلاج ـ وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: «من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي». والله أعلم»[8].

وهذا الشرط يؤكد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان؛ إذ كان الفقراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين[9] ـ رحمه الله ـ ، وذكر كرد علي: أنَّ هذا البيمارستان ظلَّ عامراً إلى سنة1317هـ/1899م ، وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً ، حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكيّة

(1) الدر المنتخب ص 231 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 413.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 414.

(3) خطط الشام (187/6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 414.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 414.

(5) التاريخ الباهر ص 170 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 456.

(6) كتاب الروضتين نقلاً عن العهد الزنكي ص 456.

(7) المصدر نفسه ص 457.

(8) المصدر نفسه ص 457.

(9) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 457.

السليمانية المطلَّة على المرج الأخضر ، وجمعت له إعانات ، وأخذ مبلغ من واردات البلدية ، وأوقاف المستشفى النوري ، واحتفل في 15 ذي القعدة 1317هـ بافتتاح المستشفى الجديد[1] ، أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ، ثم اتخذت سنة 1356هـ/1937م داراً لمدرسة التجار الرسمية[2] ، وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة ، وقد رُمّمت قبة المدخل حديثاً على الشكل الذي كانت عليه ، ويقام فيه حالياً: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السوريّة[3].

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب ، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة ، وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم ، المتوفى سنة 570هـ/1174م ، فذكر: أنَّ أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري ، ويتفقد أحوالهم ، ويتدبر أمورهم ، وبين يديه المشرفون والقوام لخدمة المرضى ، فكان جميع ما يكتبه لا يتأخر عنهم ، وكان مع فراغه من ذلك ، وطلوعه على القلعة ، وتفقُّده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الموجود في البيمارستان ، وجميعه مفروش ، فيحضر كتب الاشتغال ، وكانت جماعة من الأطباء ، والمشتغلين يأتون إليه ، ويقعدون بين يديه ، ثم يجري مباحث طبية ، ويُقرأ التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ، ومباحثة ، ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب إلى داره[4].

وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملةً كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت في الخُرِستانَيْنِ[5] الَّلذين في صدر الإيوان[6]. كما كان بعض مشايخ الطب ومتقدميهم ، يجعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه ، كما كان يفعل الطبيب مهذب الدِّين بن النَّقاش[7]، المتوفى سنة 574هـ/1178م[8] ، فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب ، والصيدلة من حيث التدريس ، والتطبيق ، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب ، وتدريسه لطلابهم ، ولم تُشر المصادر إلى مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي ، كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك ، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة 621هـ/1224م ، وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق[9].2 . المساجد: اهتمَّ نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً ، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي ، فهي أول ، وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق ، وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين المكان الذي يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم ، وظلَّ المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم[10].

---

[1] خطط الشام (159/6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 408

[2] تاريخ البيمارستانات ص 213 أحمد عيسى.

[3] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 458.

[4] المصدر نفسه ص 146.

[5] تعني المكان اللائق أو المخزن أو الخزانة.

[6] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 146.

[7] المصدر نفسه ص 147.

[8] المصدر نفسه ص 147.

[9] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 147.

[10] المصدر نفسه ص 110.

ويروي العماد الأصفهاني: أنَّ نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت ، أو خَرِبت ، فأناف على مئة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كلِّه ، وعيَّن له أوقافاً[1]. وأصلح أحوال المسجد الأموي ، وأضاف إلى أوقافه المعلومة الأوقاف التي لا تُعرف شروط واقفيها وسمَّاها مال المصالح[2] ، وأما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل ، الذي يذكره ابن الأثير في قوله: «فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن ، والإتقان»[3] ، وبنى جامعاً في حماة ، على نهر العاصي ، وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع ، وأنزهها[4] ، وأمر بإصلاح الجوامع والمساجد في جميع المدن التي تأثرت بالزلازل سنتي (552هـ ، 566هـ)[5] ، وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية ، ومن أهمِّها:

أ. في حلب: كانت المساجد من المؤسسات العلمية التي استخدمها نور الدين في الإحياء السني ، والوقوف أمام المذهب الشيعي ، ولقد شهدت المساجد في حلب نشاطاً علمياً واسعاً في مجال الدراسات الشَّرعية ، واللُّغوية ، والأدبيَّة ، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة ، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشئ في حلب ، وهو:

* المسجد الكبير: وقد ذُكر: أن موضع هذا الجامع كان بستاناً للكنيسة العظمى في أيام الرّومان ، وهي منسوبة إلى هيلانة ، أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية ، ولما فتح المسلمون حلب ، صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع[6] ، وقد ذكر ابن شدَّاد: أنَّ هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96 . 99هـ/705 . 715م) فهو الذي قام ببناء هذا المسجد[7] ، وفي شعبان سنة 564هـ (1169م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع ، كما احترقت الأسواق المجاورة له ، فقام الملك نور الدين ، وأمر ببنائه ، واجتهد في عمارته ، ونقل إليه عُمداً من بُعادين ، وقنسرين؛ لأن العمد التي كانت فيه قد تفطّرت من النار ، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه ، واتسع به المسجد ، وأوقف نور الدين عليه أوقافاً كثيرة ، ويقع هذا الجامع حالياً في سويقة حاتم ، أشهر حارات حلب ، وأقدمها ، ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريباً من جهة الغرب ، وبناؤه الحالي يرجع للعهد المملوكي ، باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة 482هـ/1089م[8].

وأما النشاط العلمي في هذا الجامع؛ فقد أشارت المصادر إلى وجود حِلق عديدة يجتمع حولها المشتغلون بالعلم ، أشهرها: السارية الخضراء التي كانت مخصَّصةً للدراسات الأدبية ، كما كانت حِلق الأدب واللغة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القران الكريم ، والفقه[9]. وقد أنشأ نور الدين في هذا الجامع زاويتان إحداهما لتدريس الفقه

---

[1] نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 116.

[2] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 188 ، الكواكب ص 17.

[3] الباهر ص 170 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 187.

[4] الباهر ص 170 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 187.

[5] الدر المنتخب ص 61 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 389.

[6] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 390.

[7] زبدة حلب (105/2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 390.

[8] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 390.

[9] المصدر نفسه ص 390 ، 391.

على المذهب المالكي ، والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي ، وقد كان لهاتين الزاويتين نشاطٌ علميٌّ ملموس خلال فترة البحث ، وبخاصة في عصر مؤسسها. وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود ، توجيهاً منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعيّة ، ليدعم بها المذهب السني في حلب ، فأنشأ زاويةً لتدريس علم الحديث في هذا الجامع ، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف عليها ، وعلى المشتغلين بها[1].

ب. المساجد في دمشق: قام العديدُ من المساجد في دمشق بدور هامٍ في نشاط الحياة العلمية ، ممَّا أدَّى إلى هذا التوسع الكبير في إنشاء المدارس ، وازدياد نشاطها في تلك الفترة ، وكان من أبرز تلك المساجد ما يلي:

* الجامع الأموي: يُعدُّ الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها ، وأراد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 . 96هـ/705 . 715م) ، عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق ، فأنفق عليه الأموال ، وجلب إليه المهرة من الصُّنَّاع ، وأهل الفن البارعين ، وبقي العمل فيه تسع سنين ، أنفق عليه أربعمئة صندوق ، في كلّ صندوق أربعة عشر ألف دينار ، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مرِّ العصور[2].

وقد حظي هذا الجامع باهتمامٍ بالغٍ ، ورعاية كبيرة من الخلفاء ، والملوك ، والحكام على مرّ العصور الإسلامية ، وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره وتحسينه ، أو صيانته وزيادة الوقف عليه ، وفيما يتعلق بتشجيع حِلق التعليم التي كانت تُقوم في جنباته ، والصرف عليها[3]، فقد ظلَّ الجامع مُنذ بنائه مناراً للعلم والمعرفة ، ومدرسةً جامعة لعلماء دمشق وطلابها ، فيه تُلقى الدروس العلمية من كل فنٍّ ، وإليه يفد طلاب العلم من كلِّ صوب للنَّهل من مَعين الثقافة، وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف ، وتدريس العلوم ، واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين ، ومركزاً علمياً بارزاً ، فيه تعقد حِلق التعليم الخاصة والعامّة ، وفي جنباته تنشر زوايا تدريس القران ، وإملاء الحديث ، وفيه صُنِّفت ، وأُمليت العديد من المؤلفات المهمّة مثل تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره ، كما تواتر في المصادر ذكر الزاوية الغزاليّة ، ومجلس ابن عساكر ، وزاوية المقادسة ، والزاوية الكوثرية ، والسُّبع المجاهدي ، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علميٌّ مميَّز خلال هذا العهد.

وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركَّز على تدريس القران الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والفقه ، كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء والسماع ، اجتمع إليها عدد من العلماء ، وطلاب العلم ، حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق ، تناوب فيه جلَّةٌ من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية ، ولا تزال اثارهم ومؤلفاتهم باقية حتى اليوم ، ويصوِّر أحد الشّعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود . وهو عليُّ بن منصور السروجي المتوفى سنة 572هـ (1176م) . نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف فيها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي ، فيقول:

كأنَّـــها جنَّـــة للخُلـــد دانيــــة قُصُورهـــا فُتحـــتْ منهـــا المقاصيـــرُ

(1) المصدر نفسه ص 390 ، 391.

(2) الحياة العلمية في عهد الدولة الزنكية ص 416.

(3) المصدر نفسه ص 417.

فـي كـلِّ قطـر بهـا للعلـم مدرسـةٌ وجامـعٌ جامـعٌ للديـن معمـورُ
يُتلـى القـرآن بـه في كـلِّ ناحيـة والعلـم يذكـر فيـه والتفاسيـرُ
تكامـل الحسـنُ فيـه مثـلَ مـا كَمُلت أوصـاف مولـىً بنشـر العـدل مشهـورُ
المِلْـك والدِّيْـنُ والدُّنْيـا بأجمعهـا وللخليفـة مـن أنـوارِه سُـورُ[1]

وكان من أشهر مرافق التَّعليم في هذا الجامع:

* الزَّاوية الغزالية: تقع في الجهة الشَّمالية الغربيّة من الجامع الأموي، كانت تُنسب إلى الشيخ المقدسي المتوفى سنة 490هـ (1097م)، ثم نسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفى سنة 505هـ (1112م)[2] لكونه دخل دمشق، وقصد الخانقاه السميساطيّة ليخلو إليها، فمنعه الصُّوفيّة من ذلك لعدم معرفتهم به، فعدل عنها، وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن عُلِم مكانه، وعُرِفت منزلته، فحضر الصوفية بأسرهم إليه، واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاه، فعرفت تلك الزاوية به[3]، وقد درَّس مجموعة من العلماء في هذه الزَّاوية بعد الشيخ نصرٍ المقدسي منهم: تلميذه عالم الشام أبو الفتح نصر الله المصيصي المتوفى سنة 542هـ/1147م، والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطوسيّ المتوفى سنة 561هـ/1166م[4]، وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي المعروف بأبي عبد المتوفى سنة 562هـ/1167م، والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة 563هـ/1168م، وأبو الفضائل عبد الرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفى سنة 563هـ/1168م[5]، ثمَّ درَّس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابُوري المتوفى سنة 578هـ/1182م[6].

إنَّ تدريسَ جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية، يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع، رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربّما أن هذا النشاط يفوق نشاط الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة، لا سيَّما وأن هذه الزاوية تناوب عليها جُلةٌ من أقطاب الفقه الشافعيِّ في بلاد الشام في ذلك العصر[7].

* السُّبُع المجاهدي: يقصد بالسُّبُع: قراءة سبع من القران، ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه، ويقع السُّبُع ـ على ما ذكر النعيمي ـ داخل الجامع بمقصورة الخَضِر داخل باب الزيادة، ويُنسب للأمير مجاهد الدين أبي الفوارس بُزان بن يامِين أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، وهو موصوف بالشجاعة والبسالة، مواظب على الصلاة والصدقات، تُوفي في داره بدمشق في صفر 555هـ 1160م، ودفن بالمدرسة المشهورة باسمه[8].

---

(1) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 418.
(2) سير أعلام النبلاء (322/19 ـ 346).
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 416.
(4) المصدر نفسه ص 419.
(5) طبقات الشافعية (159/4) الدارس في تاريخ المدارس (418/1).
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 420.
(7) المصدر نفسه ص 420.
(8) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص 420.

* الحلقة الكوثرية: تقع هذه الحلقة تجاه شبَّاك الكلاَّسة ، تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي[1]، وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار ، وأيتام يقرؤون في كلِّ يوم بعد صلاة العصر «سورة الإخلاص» ثلاث مرات ، يهدون ثوابها للواقف ، ولهم على ذلك مُرتَّبٌ يتناولونه من ديوان السُّبُع الكبير[2] وقد ذكر النعيمي: أن عدداً من طلاّب هذه الحلقة في عصر واقفها ، يصل إلى ثلاثمئة وأربعة وخمسين طالباً[3].

* حلقة لإقراء القران الكريم تحت قبَّة النِّسر: وردَ في ترجمة المقرئ الحنبلي أبو العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفى سنة 588هـ/1192م: أنه قدم دمشق سنة 540هـ/1145م ، فنزل بها ، وكان يقعد لإقراء القران في الجامع الأموي تحت قبّة النِّسر[4].

* مجلس الحافظ ابن عساكر: ذكرَ ياقوت الحموي: أن الحافظ أبا القاسم ، علي بن الحسن بن عساكر أكمل أربعمئة مجلس وثمانية مجالس في فنٍّ واحد[5]، وكان الجامع الكبير بدمشق ميدان هذه الأمالي ، وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث النوريَّة بدمشق ، والتي أملى كثيراً من مجالسه فيها[6] ، كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالسُ السماع لمصنَّفه الكبير «تاريخ دمشق» ، وقد حفظت لنا العديد من هذه السَّماعَات ، ونُشرت في المجلدة الأولى من الكتاب ، وفيها ذكر تاريخ السَّماع ، وعدد السَّامعين ، وهي الأمور التي لا بدَّ من ذكرها عند تمام السَّماع[7].

* جامع القلعة: هذا الجامع ، أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق ، وأوقَف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد ، وإمامه ، ومؤذِّنه[8] ، وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفيَّة ، مدرسةً بجامع القلعة وقفها الشهيد نور الدين محمود ، كما ذكرها النعيمي باسم: «المدرسة النوريَّة الحنفية الصغرى» بجامع قلعة دمشق[9].

ج ـ في الموصل: جامع نور الدين محمود: كان من ضمن أعمال نور الدِّين أمر ببناء جامع يستوعب عدداً أكبر من المصلين ، وكان قد فوَّض أمر بناء هذا الجامع للشّيخ عمر الملا ، وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة 566هـ/1171م ، واستمرَّ العمل فيه نحو ثلاث سنوات.[10]

وكان نور الدين قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة ، وأوقف عليه ضيعة من ضياع الموصل ، وكان قد قدم الموصل سنة 568هـ/1173م ، وصلى في جامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصران ، وعيّن له مؤذِّنين وخطيباً ، ورتّب ما يلزمه[11] ، وقد بلغ هذا الجامع درجة عالية من روعة البناء ، وحسن التخطيط ، قال عنه ابن الأثير: «فجامعه في

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 421.
(2) الدارس في تاريخ المدارس (451/1).
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 421.
(4) شذرات الذهب (292/4) الحياة العلمية ص 421.
(5) معجم الأدباء (81/13).
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 422.
(7) المصدر نفسه ص 422.
(8) المصدر نفسه ص 422.
(9) الدارس في تاريخ المدارس (648/1).
(10) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص 356.
(11) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص 356.

الموصل إليه النهاية في الحسن ، والإتقان»[1] ، وحينما اكتمل بناء هذا الجامع ، رأى نور الدين: أنَّ من الأفضل أن يجمع فيه بين الصلاة وطلب العلم ، فأمر ببناء مدرسةٍ بداخله ، ووافق أنْ وصل الموصل في تلك السّنةِ الفقيهُ عمادُ الدين أبو بكر النوقانيُّ الشافعيُّ ، تلميذ محمد بن يحيى ، تلميذ الإمام الغزالي ، ففوَّض إليه أمرَ التدريس في هذه المدرسة، وكتب له منشوراً بذلك[2].

هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد ، وتفعيل دورها العلمي والتربوي ، فكان لها آثارٌ ملموسة في الازدهار العلميّ ، وتطوُّره في العهد الزّنكي ، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد[3]. وتبقى ملحوظة مهمة ، وهي: أنَّه لا يكاد يخلو مسجدٌ من هذه المساجد من مكتبةٍ ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم ، والتخصُّصات ، وكانت تلك المكتبات أوقفت خصيصاً على المساجد ليرجع إليها الطلاب ، والباحثون ، مثل المكتبة الشرقِيّة لجامع حلب ، وهي مكتبةٌ عامرة ، مسبلة للمطالعة ، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة[4].

وهكذا كانت المساجد من المؤسسات الهامَّة في المجتمع الإسلامي ، وهي بمثابة المعاهد العلمية المشعَّة ، التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد ، أسوة بالعهود الإسلامية السَّابقة ، وخرَّجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقدم العلم وازدهاره ، وكانت تلك المساجد تتميَّز بتكافؤ الفرص بين الطلاب ، دون تمييزٍ لغنيٍّ منهم على فقير ، فزاد إقبال طلبة العلم عليها ، ولم يعد الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها ، بل على العكس ، فقد وجدت الكثير من الأوقاف التي خصَّصت لمن يرتاد هذه المساجد معلمين ، أو متعلمين ، حتى يتفرغوا لطلب العلم ، دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

3 ـ المدارس: كانت المساجد المراكز الأولى للتعليم في الإسلام ، إلى جانب كونها محلَّ عبادة المسلمين ، ومقرَّ اجتماعاتهم ، ولكن مع مرور الزمن ، انتقل التّعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكنَ أخرى ، عرفت بالمدارس، وقد ناقش شلبي هذا الأمر ، وعلَّله بأمورٍ عديدة من أهمها:

ـ ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعيّة ، وبالتالي ازدحام حِلق التّعليم في المساجد بالكثير من الروَّاد ، وكان يُسمع من كل حلقة من هذه الحلق صوتُ المدّرس يُلقي درسه ، وأصواتُ الطّلاب يناقشونه ويسألونَه ، حتى تلاقت الأصوات المتصاعدة من الحِلقَ المتعددة ، فأحدثت في المسجدِ شيئاً من الضجيج ، مما يتنافى مع مكانة المسجد ، وهذا ما جعل احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً أمراً صعباً[5].

ـ تطورُ العلوم والمعارف مع مرور الزَّمن؛ حيث أصبحتْ هناك مواد تستدعي دراستُها الكثيرَ من الحوار والنقاش ، ومثل هذه المواد تتنافى مع ما يجب أن يكون عليه روَّاد المسجد من هدوء وسكينة[6].

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 357.

(2) المصدر نفسه ص 357.

(3) المصدر نفسه ص 114.

(4) المصدر نفسه ص 115.

(5) تاريخ التربية الإسلامية ص 113.

(6) المصدر نفسه ص 113.

. انشغال جماعة من المسلمين بالتّعليم في حلق المساجد معظم وقتهم ، ومحاولتهم الارتزاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس ، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب ، ممَّا أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوافر فيه شروط التدريس من جهة ، ويضمن لهم جرايات وافرة تقوم بحاجاتهم من جهةٍ أخرى[1]، وعلى هذا الأساس بُدأ بتأسيس هذا المكان الذي حمل اسم «المدرسة» ، ومن ثم بدأت طلائع الحركة المدرسيّة الفعلية بالظهور والتطور مع الزمن[2].

وتطوَّرت المدارس ، وازداد انتشارها في زمن السلاجقة ، على يدي الوزير نظام الملك السلجوقي ، وقد ذكر السبكي في ترجمته لنظام الملك ما نصه: «وبنى مدرسة ببغداد ، ومدرسةً ببلخ ، ومدرسة بِهَرَاة ، ومدرسة بأصبهان ، ومدرسة بالبصرة ، ومدرسة بمرو ، ومدرسة بامل طبرستان ، ومدرسة بالموصل ، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة»[3] وقد تحدثتُ عن المدارس النظامية بالتفصيل في كتابي: «دولة السلاجقة ، والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني ، والغزو الصليبي».

ولما تولّى نور الدين حكم الدولة الزنكية ، شاهدتْ حركة بناء المدارس انتشاراً واسعاً ، فقد أخذ في إنشائها ، واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلاميّة ، وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته ، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السنّي ، ومقاومة التشيُّع في المنطقة[4].

أ . المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب منذ بداية حكم نور الدين محمود لها في عام 541هـ (1146م) ، والذي ركَّز نشاطه مُنذ استلامه الحكم على تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدَّةٍ أمام المذهب الشيعي ، الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب ، فحرص على تقويضه ، وإحلال المذهب السنّي مكانه ، مما تطلَّب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك ، كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السُّنِّية ، وتوجيه التّعليم وجهة سنيّة عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية ، وقد جلب عدداً من العلماء الأكفاء لتولي المهمّة ، وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من تأصُّل الفكر الشيعي بها ، وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنَّة بعد أن كانت قاعدةً للمذهب الشيعي في المنطقة[5].

وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب؛ حتى أصبحت من المراكز العلميَّة المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية ، حيثُ قامت فيها نهضة علمية بارزة ، بدت واضحة من خلال إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها ، وبذلك وصلت حلب إلى مصاف المراكز العلمية المشهورة في العالم الإسلامي ، بل ربَّما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميَّزت به حلب من موقعٍ متوسط بين تلك المراكز ، وإمكانات مادية وبشريَّة تفوق بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى ، إضافةً إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم

(1) المصدر نفسه ص 114 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 122.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 122.
(3) المصدر نفسه ص 22 طبقات الشافعية (313/4).
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 125.
(5) المصدر نفسه ص 389.

الزنكي في نفس القوة التي بدأ بها نظراً لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرَّين طيلة عصر نور الدين ، والسَّلاطين الأيوبيين ، والمماليك من بعدهم[1]. وكان من أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

. المدارس الشافعية:

المدرسة الزَّجاجية: تعد هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي ، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي سنة (517هـ/1123م) ، وهي أول مدرسة سنيَّة فيها ، وحينما عزم بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب ، لم يمكِّنه الحلبيون من ذلك ، لغلبة نزعة التشيُّع فيهم ، فكان كلَّما بنى فيها شيئاً في النهار؛ هدموه ليلاً إلى أن أعياه ذلك ، فأحضر الشريف زهرة بن علي الحُسَينيَّ ، وأوكل إليه أمر الإشراف على بنائها ، ليكفَّ عنه الشيعة ، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منها[2] ، وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها[3] ، ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر حلب في سنة 522هـ/1128م؛ نقل والده ، وكان مدفوناً في قرنْبيا[4]، فدفنه في شمالي هذه المدرسة ، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القُرّاء والمتفقّهين المرتبين بها[5] ، وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي:

شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبيُّ ، المتوفى سنة 561هـ/1166م[6]؛ حيث ذكر ابن شداد: أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة؛ فوَّض مُنشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف بابن العجميِّ ، وقد استمر شرف الدين مدرِّساً بها إلى أن تُوفي سنة 561هـ/1166م[7]، وتولَّى التدريس بها بعده حفيداه مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/1201م)[8] ، وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهبل المتوفى سنة 590هـ/1194م[9]، وكانا من العلماء المتميِّزين ، والفضلاء المبرزين[10].

* المدرسة النضرية (النورية): أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة 544هـ/1149م ، وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري أول من وُلِّيَ التدريس في هذه المدرسة ، وكان قدم إليها من دمشق ، ثم وُلِّيَ التدريس فيها بعدَه مجدُ الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/1201م)[11] ، ولم يزل مدرِّساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف ، فدرس به إلى أن توفي[12].

---

(1) المصدر نفسه ص 389.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 84 ، 85.

(3) المصدر نفسه ص 85.

(4) قرنبيّا: موضع يقع شرقي حلب.

(5) الدر المنتخب ص 110 الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 392.

(6) طبقات الشافعية (147/7) الحياة العلمية ص 392.

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 393.

(8) شذرات الذهب (324/4) الحياة العلمية ص 393.

(9) الحياة العلمية ص 393.

(10) الحياة العلمية ص 393.

(11) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 394.

(12) طبقات الشافعية للأسنوي (372/1).

* المدرسة العصرونيّة: كان موقع هذه المدرسة في الأصل داراً لأبي الحسن علي بن أبي الثريَّا ، وزير بني مِرداس أصحاب حلب ، ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب؛ اشترى هذه الدار ، وحوَّلها إلى مدرسة ، وجعل فيها مساكن للمدرّسين بها من الفقهاء ، وذلك سنة (550هـ/1155م) ، حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية[1]، وبعد أن أتمّ نور الدين محمود بناء هذه المدرسة؛ استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون، المتوفى سنة (585هـ/1183م)[2] ، وفوَّض إليه مهنة التدريس بها ، والنظر في أوقافها ، وهو أوّل من درّس بها فعُرفت به ، ونسبت إليه[3] ، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدرِّس في هذه المدرسة ، وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة 570هـ/1174م[4] ، ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرّحمن ، وظل هذا حتى ولي قضاء حماة فغادر حلب[5].

وممَّن أقام في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجَّة الدين محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصِّقلِّيُّ المتوفى سنة 565هـ/1169م[6] ، فقد ذكر: أنَّه حلَّ بحلب ، وأقام بالمدرسة العصرونية ، وصنَّف كتباً حسنة ، فلما وقعت الفتنة بين الشِّيعة والسُّنَّة ، . وأظنُّها فتنة سنة 552هـ/1157م[7] . نُهبت كتبه فيما نُهب ، وخسر جزءاً من مؤلفاته القيّمة ، فرحل إلى حماة ، وأقام بها حتى وفاته[8].

* المدرسة الشرفية: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي ، المعروف بابن العجميّ ، المتوفى سنة (561هـ/1166م) ، وقد صرف شرف الدين على بنائها ما نيف على أربعمئة ألف درهم، وأوقف عليها أوقافاً جليلة[9].

* المدرسة الأسديَّة الجُوَّانية: تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان ، المتوفى سنة 564هـ/1168م ، وقد أنشأها بمحلة الرَّحبة بحلب للمذهب الشافعيّ[10].

* المدرسة الشُّعَيْبيَّة: كان موقع هذه المدرسة مسجداً ، يقال: إنَّه أوَّل ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِرِيّ ، المتوفى سنة 313هـ فلما ملك نور الدين محمود حلب ، وأنشأ بها المدارس ، وصل الشيخ شُعيب الأندلس إلى حلب ، فصيَّر له نور الدين هذا المسجدَ مدرسة ، وجعله مدرِّساً بها ، فعرفت به ، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرِّساً بها إلى أن توفي بِطَريق مكَّة سنة 596هـ/1199م[11].

---

(1) الدر المنتخب ص 110 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 395.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 394.

(3) المصدر نفسه ص 395.

(4) وفيات الأعيان (54/3) الحياة العلمية ص 397.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 397.

(6) المصدر نفسه ص 397.

(7) المصدر نفسه ص 397.

(8) معجم الأدباء (48/19) بغية الوعاة (142/1 ، 143).

(9) الدر المنتخب ص 112 الحياة العلمية ص 398.

(10) الحياة العلمية ص 399.

(11) المصدر نفسه ص 400.

المدارس الحنفية:

* المدرسة الحلاَّوية (الحَلَويّة): يذكر ابن شدَّاد: أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلاريني أمُّ قسطنطين، فلمَّا حاصر الصليبيون حلب سنة 518هـ/1124م، قاموا بقطع الأشجار ، ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، فعمد القاضي أبو الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيَّرها مساجد، وكانت هذه المدرسة تُعرف قديماً بمسجد السرَّاجين، فلمَّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب، جعل هذا المسجد مدرسةً، وأنشأ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء ، وإيواناً للدروس ، وكان مبدأ عمارتها في سنة 544هـ/1149[1] ، وقد جلب نور الدّين إلى هذه المدرسة من أفامية مجموعة من الرُّخام الشفَّاف الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه ، ووضعه فيها[2] ، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً ، وأكثرها طلبة ، وأغزرها جامِكيّة.

وكان من شروط الواقفة أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة الاف درهم للمدرِّس يصنع بها للفقهاء طعاماً ، وفي ليلة النِّصف من شعبان من كل سنة حلوى معلومة ، وفي الشتاء ثمن بياض ، لكل فقيه شيء معلوم ، وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة ، وفي المولد أيضاً الحلوى ، وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة ، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ، ومشمشاً ، وتُوتاً[3].

* المدرسة المقدمية: ذكر ابن شدَّاد: أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبد الملك المقدم ، وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيَّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة 518هـ/ (1124م) ، وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها، وأنه ابتُدئ في عمارتها سنة 545هـ (1150م)[4] ، وكان أوَّل من درَّس في هذه المدرسة الشيخ برهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي ، مدرس المدرسة الحلاوية ، ثم وَليها بعدَه السيِّد الشَّريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطلب الفضل الهاشمي ، ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادى الاخرة سنة616هـ/1219م[5].

* المدرسة المجديَّة الجُوَّانيَّة: ذكر ابن الشحنة: أن هذه المدرسة تنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود ، وهو مجد الدِّين أبو بكر محمد بن الدَّاية ، المتوفى في رمضان سنة 565هـ/1170م[6].

المدرسة البرَّانيَّة: ذكرها ابن الشحنة أيضاً ، ونسبها إلى مجد الدين بن الدَّاية مؤسس الجوَّانيَّة[7].

المدرسة الحدَّادية (الحدَّادين): ذكر ابن شداد: أنَّ منشئ هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدِّين ، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة 518هـ/1124م[8]

---

(1) المصدر نفسه ص 400.

(2) المصدر نفسه ص 400.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 401.

(4) المصدر نفسه ص 404.

(5) المصدر نفسه ص 405.

(6) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 406.

(7) أحياء حلب وأسواقها ص 142.

(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 406.

ب ـ في دمشق: كانت أوَّل مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة 491هـ/1097م ، المدرسة الصادريَّة الحنفيَّة ، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس في الحكم الزنكيِّ لدمشق (549هـ 569هـ/1154 ـ 1174م) ، وقد توزَّعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربع ، ولكن المذهب الحنفيَّ ، والشافعيَّ هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد ، يليهما المذهب الحنبلي ، وأخيراً المذهب المالكي[1]. المدرسة الصادرية: أنشئت هذه المدرسة على يد الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة 491هـ/1097م ، داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي ، وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق[2].

* المدرسة الطَّرخانيَّة: قال ابن عساكر في تَعداد مساجد دمشق: «مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان ، وهي كانت قديماً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن ، فوقفها سنقر الموصلي ، وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة»[3].

المدرسة المعينيّة: ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق ، فقال: «مسجد في المدرسة المعينيّة في قصر الثقفيين»[4]، وقال ابن شداد بحصن الثقفيين: «أنشأها معين الدين أنر ، أتابك الأمير مجير الدين آبق ، اخر الحكام البوريين بدمشق[5] ، وذكر الصَّفدي: أن معين الدين بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفَّر محمَّد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي مُدرِّس الصادرية ، والطرخانية المتوفى سنة 567هـ/1171م»[6].

* المدرسة النورية الكبرى: ذكر كلٌّ من أبي شامة ، وابن شداد: أن هذه المدرسة تقع بخط الخواصين[7]، وأنَّ الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي[8]، وقد شاهد الرَّحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة 580هـ/1184م ، ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً ، وأنَّها قصر من القصور الأنيقة[9]، وفي هذه المدرسة يقول الشاعر المشهور عرقلة الدمشقي ، المتوفى سنة 567هـ/1171م[10]:

ومدرســـة ستـــدرس كُـــلَّ شـــيء ... وتبقــى فــي حِمــى علــم ونُســكِ
تضــوَّع ذكــرُهـا شرقــاً وغربـــاً ... بنــور الديـــن محمـــود بــن زنكـــي
يقــول وقولـــه حـــقٌّ وصـــدقٌ ... بغيــر كنايـــة وبغيـــــر شـــكِّ
دمشـــق فـي المدائـن بيـت مُلكـي ... وهــذي فـي المـدارس بيــت مِلكـــي[11]

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 423.

(2) الدارس في تاريخ المدارس (537/1).

(3) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 425.

(4) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص 426.

(5) الحياة العلمية ص 426.

(6) الدارس في تاريخ المدارس (203/2).

(7) يسميه أهالي دمشق حالياً: سوق الخياطين.

(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 427.

(9) الرحلة ص 256 الحياة العلمية ص 428.

(10) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص 429.

(11) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص 429. .[1606]

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد ، حيث كانت في مقدِّمة مدارس دمشق ، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود ، والسنوات التي أعقبتها ، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور؛ يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم ، وتتَّضح أهميَّة هذه المدرسة في الأثر العلميّ الذي قام به شيوخها، ومدرّسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرَّجوا منها، إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاطٍ سياسيّ، واجتماعي كبير في ذلك العهد[1] ، وفي استقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة ، يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة ، للإنفاق على الطلاب والمدرسين والعاملين بالمدرسة إنفاقاً سخياً متواصلاً ، ونص هذه الكتابة كالآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه ، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة ، رضي الله عنه ، ووقف عليها ، وعلى الفقهاء ، والمتفقهة بها جميع الحمَّام المستجدِّ بسوق الفتح ، والحمَّامين المستجدين بالورَّاقة ظاهر باب السلامة ، والدار المجاورة ، والربع من بستان الجوزة بالأرزة ، والإحدى والعشرين حانوتاً خارج باب الجابية ، والسَّاحة الملاصقة لها من الشرق ، والستة حقول بداريَّا على ما نُصَّ وشُرط ، فكتب الوقف رغبة في الآخرة ، وتقدَّمه بين يديه يوم الحساب: [2] ﴿فَمَنْۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٨١﴾ [البقرة :181].

* المدرسة الخاتونية البرَّانيَّة: كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته الستُّ زمرد خاتون ، أمُّ شمس الملوك ، أخت الملك دُقاق بن تُتُش ، المتوفاة سنة 557هـ/1161م[3]، وتاريخ وقفه سنة 526هـ/1132م ، على الشيخ أبي الحسن علي البلخي المتوفى سنة 548هـ/1153م[4] ، وقد ذكر الذهبي: أنَّ الستَّ زُمُرُّد خاتون على قدر من الثقافة والعلم، واستنسخت الكتب ، وحفظت القران ، وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق ، ثم تزوَّجها أتابك زنكي ، فبقيت معه تسع سنين ، فلما قُتل حجَّت ، وجاورت المدينة ، ودُفنت بالبقيع[5].

المدارس الشافعية:

* المدرسة الأمِينيّة: ذكر ابن شدَّاد: أنَّ هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام ، وزاد عليه النعيمي: أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق ، بناها أتابك العساكر بدمشق ، وكان يقال له أمين الدولة ، وكان مبدأ التدريس بها سنة 514هـ على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُّلميّ الدِّمشقيِّ الشافعيّ ، مدرِّس الغزاليَّة والأمِينيَّة ، ومفتي الشام في عصره ، المتوفى سنة 533هـ/1138م[6].

---

[1] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 429.

[2] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 430.

[3] المصدر نفسه ص 430.

[4] الدارس في تاريخ المدارس (502/1 ، 503).

[5] العبر (27/3) الحياة العلمية ص 431.

[6] الحياة العلمية ص 432.

* المدرسة المجاهديَّة الجُوَّانيَّة: وواقف هذه المدرسة: الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزَّان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكُردي ، أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله[1].

* المدرسة المجاهدية البرَّانيَّة: تنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين بُزَّان ، واقف المدرسة المجاهدية الجُوَّانيَّة ، وقد دفن فيها بعد وفاته[2].

* المدرسة العمادية: بناها نور الدين محمود . رحمه الله تعالى . برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي ، وهو أول من درَّس بها[3] ، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده ، وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة 567هـ/1172م فقال: «وفي رجب من هذه السنة فوِّض إليَّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير ، وعوِّل عليَّ في التدريس بها ، والنظر في أوقافها»[4].

* المدرسة العصرونية: تنسب هذه المدرسة للفقيه العلاَّمة قاضي القضاة ، شرف الدين عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، المتوفى سنة 585هـ/1189م[5] ، وقد بنى له مدارس عديدة بحلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وغيرها[6]، وقد وردت نصوص تفيد: أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون قد بنى لنفسه بدمشق[7]. يقول عنه ابن خلكان: توفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمئة بمدينة دمشق ، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد ، وهي معروفة به[8].

المدارس المشتركة بين الحنفيَّة ، والشافعيَّة:

* المدرسة الأسدِيَّة: تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه ، أحد أمراء نور الدين الكبار ، والمتوفى سنة 564هـ/1168م[9] ، وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرِّسين على المذهبين: الحنفيِّ ، والشافعيِّ ، ذكر النعيمي منهم خلال العهد الزنكي الواعظ الحنفي المعروف بابن الشاعر نزيل القاهرة المتوفى سنة 584هـ/1188م[10]، وكان قد قدم دمشق ، وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره ، فحدَّث ، وأفاد ، ودرَّس بالأسدية[11].

المدارس الحنبلية:

* المدرسة الحنبليَّة الشريفيَّة: ذكر ابن شداد: أنَّها من إنشاء سيف الإسلام ، أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب[12].

---

(1) الدارس (451/1) الحياة العلمية ص 435.
(2) الدارس (454/1 ، 453) الحياة العلمية ص 437.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 438.
(4) المصدر نفسه ص 439.
(5) المصدر نفسه ص 440.
(6) وفيات الأعيان (54/3).
(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 441.
(8) وفيات الأعيان (55/3).
(9) الدارس في تاريخ المدارس (152/1).
(10) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 444.
(11) الدارس (473/1) الحياة العلمية ص 444.
(12) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 444.

* المدرسة العمرية: سمَّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر ، بالجبل في وسط دير الحنابلة ، وذكر أن بانيها وواقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير[1] ، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي ، وكان من الأولياء المشهورين ، وذكر ابن طولون: أنه إلى الشَّيخ أبي عمر ، وإلى ولده أحمد بن قدامة المتوفى سنة 558هـ/1163م يرجع سبب كثرة اتِّباع المذهب الحنبلي بدمشق ، وبلاد الشام ، فوالد الشيخ أبي عمر ، كان قد فرَّ بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس ، ووصلوا إلى دمشق في سنة 551هـ/1156م ، ونزلوا في سفح جبل قاسِيُون بمسجد أبي صالح ، ولهذا عرفوا بالصَّالحين ، وأقاموا في السَّفح منزلاً كثير الحجرات عُرف بدير الحنابلة ، ثم تتابع البناء وعُمرت تلك الأراضي ، ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصَّالحين؛ لما عُرِف منهم من علمٍ ، وتقىً ، وصلاحٍ[2] ، وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقرَّ نزلهم في الجبل ، وكان الناس يزورون الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة ، وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته[3].

المدارس المالكية:

* المدرسة النوريَّة الصلاحيّة: ذكر الإربلي: أنَّ المدرسة النوريّة ضمن مدارس المذهب المالكي بدمشق ، ولكنَّه لم يحدِّد موقعها[4] ، وأثبت ابن عساكر المدرسة النوريَّة في حديثه عن مساجد دمشق ، فقال: «مسجد في المدرسة النوريَّة التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب»[5].

هذه هي أهم المدارس التي كانت في دولة نور الدين ، وهي على سبيل المثال لا الحصر.

4 ـ دورُ الحديث: على الرَّغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي ، وشيوع لفظ «مدرسة» على المكان المخصص للتعليم ، والإقامة ، والرِّعاية؛ فقد وجدت بجانبها دور تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس ، وإنْ لم تحمل اسمها ، فلفظ دار كان مرادفاً في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة ، وقد ورد كثيراً في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق ، وهي الأولى من نوعها في الإسلام ، ولم يطلق عليها مسمَّى مدرسة ، ومن بعده تكاثرت دور الحديث ، كمدارس أحادية مخصَّصة لهذا العلم.

وقد عني المسلمون بدراسة الحديث الشريف عنايةً كبيرة ، باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القران الكريم ، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وأحواله ، من حيث رواية الحديث ، والبحث عن كيفية اتِّصال الأحاديث بالرَّسول صلى الله عليه وسلم من حيث أحوال رواتها ، ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً ، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث ، والمراد منها بناءً على قواعد اللغة العربية ، وضوابط الشريعة ، ومطابقتها لأحوال النبيِّ صلى الله عليه وسلم[6].

---

[1] المصدر نفسه ص 446.

[2] القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية (125/1).

[3] المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها ص 39.

[4] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 448.

[5] المصدر نفسه.

[6] كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ص 132.

وكان الاتّجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسةً ، وتدريساً ، وتشييد دُورٍ خاصة به من أبرز سمات التَّعليم في العهد الزنكي؛ إذ بادر الملك نور الدِّين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام ، كما ذكرنا ، وهي دار الحديث النُّوريّة بدمشق ، والتي أولى مهمة التدريس فيها ، والإشراف عليها ، إلى أبرز أعلام عصره ، وهُو الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة 571هـ/1176م[1]، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي ، وتُعدُّ مبادرة نور الدين تلك إدراكاً منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة ، سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي ، وتحمل عبء تقويضه في المنطقة ، ونشر المذهب السني[2]، أو ما يتمثَّل بالخطر الصليبيِّ المحيط بالمنطقة؛ إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس ، وإعدادهم للجهاد ضد العدوان ، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد ، والحث عليه ، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصُّص ، وكانت دور الحديث مقراً لذلك النشاط[3].

وليس هناك اختلاف في نظم التَّعليم بين دور الحديث ، والمدارس الأخرى ، سوى في كون المناهج في الأولى تُركِّز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث ، بينما يغلب التخصُّص الفقهي على مدارس العصر ، وهذه خطوة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك؛ إذ إن دراسات الحديث كانت تتمُّ في حِلَق المساجد ، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية ، ومع ذلك فإنَّ علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدور فحسب ، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس إضافة إلى تخصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدريسه[4].

أ . في حلب: وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد ، ولكنَّ تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور ، أو نشاطاتها ، أو مواقعها ، واكتفت بنسبتها إلى مؤسِّسيها، ومن أبرز تلك الدور:

. دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود[5] ، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم ، والتي سبق الحديث عنها[6].

. دار أخرى أنشأها نائب نور الدِّين في حلب مجد الدين ابن الداية ، المتوفى سنة 565هـ/1170م[7].

. دار أنشأتها أمُّ الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، في الخانِقاة التي بنتها[8].

---

(1) التاريخ الباهر ص 172 الحياة العلمية ص 133.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 133.

(3) المصدر نفسه ص 133.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 134.

(5) الدر المنتخب ص 123.

(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 408.

(7) المصدز نفسه ص 408.

(8) المصدز نفسه ص 408.

ب ـ في دمشق: سبقت الإشارة إلى أن الاتِّجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسةً وتدريساً ، وإنشاء دُور خاصة به كان من أبرز سمات التَّعليم في هذا العهد؛ إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أوَّل دار للحديث في الإسلام ، وهي دار الحديث النورية بدمشق ، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها ، إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال ، وهو الحافظ الكبير ، أبو القاسم بن عساكر المتوفى سنة 571هـ/1176م ، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي ، ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار[1].

ـ دار الحديث النوريّة[2]: أجمعت كثير من المصادر على أن هذه الدار من إنشاء الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وأنّها أوّل دار من نوعها في الإسلام[3]، قال ابن الأثير: «وبنى بدمشق أيضاً داراً للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة ، وهو أوَّل من بنى داراً للحديث فيما علمناه[4] ، وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس ، والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي، المتوفى سنة 571هـ/1176م[5] ، وكان من بين تأليف الحافظ كتاب سمَّاه:/تقوية المِنّة على إنشاء دار السُنّة/ في ثلاثة أجزاء[6]، حيث كانت هذه الدار تُسمّى دار السُّنَّة في السَّماعات القديمة التي قُرئت بها ، وقد زاد من مكانتها: أنَّ الذين تولّوا التدريس فيها في أوّل أمرها هما الحافظ الكبير، وابنه القاسم بهاء الدين المتوفى سنة 600هـ/1203م من بعده ، ثم تناوب فيها جُلَّةٌ من علماء الحديث البارزين ، وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثيّة في بلاد الشام خلال القرنين السادس ، والسابع الهجريين (الثاني عشر ، والثالث عشر الميلاديين)[7].

5 ـ الخوانق ، والرُّبط: تُعد الخوانق ، والرُّبط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي ، حيث يُمارس فيها التصوف سلوكاً ، بالإضافة إلى قيامها بوظائفَ دينية واجتماعية أخرى ، ولكنَّها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية ، بالإضافة إلى مهمتها الأساسية وهي التصوُّف[8]. وكان التصوّف في تلك المدَّة اتجاهاً له نفوذه وسيطرته ، وتقديره على المستوى الرسميّ ، والشعبيّ ، فكان الصوفيّة محلَّ تقدير الحكام ، واحترامهم.

وقد برز نور الدين في هذا المجال، وحظي الصوفيّة لديه بمكانة عالية، فأكرمهم، وأدناهم من مجلسه ، وبنى لهم الخوانق، والرُّبط في شتى أنحاء مملكته[9] ، وكانت مراكز الصوفية تلك ، مكاناً للعبادة والدرس ، قدَّمت مع دور التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم آنذاك[10].

---

(1) المصدر نفسه ص 450.

(2) المصدر نفسه ص 450.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 450.

(4) التاريخ الباهر ص 172 ، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص 450.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 405.

(6) معجم الأدباء (78/13) الحياة العلمية ص 450.

(7) الحياة العلمية ص 451.

(8) المصدر نفسه ص 135.

(9) الباهر ص 171 الحياة العلمية ص 135.

(10) الحياة العلمية ص 135.

وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم ، وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس ، ذلك لأنَّها لم تُبنَ أساساً لأغراض التعليم ، والقيام بوظائفه ، وإنَّما بنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون لأنفسهم لعبادة الله تعالى ، فخصِّصت لهم تلك الدور لإقامتهم ، حيث كانت تُوفر لهم كافة أسباب الراحة والعيش ، حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم ، بعيداً عن مشاغل الحياة ، وكان منشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها ، وعلى من ينزل بها من الصوفيّة.

أ . في حلب: أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في العهد الزنكي ، ومن أشهرها:

. خانقاه البلاط: ذكر ابن شداد: أنَّ منشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك ، رضوان بن تاج الدولة تُتُش السلجوقي ، وهي أول خانقاه بنيت بحلب ، وذلك سنة 509هـ/1115م[1].

. خانقاه ابن العجميِّ: تنسب هذه الخانقاه لشمس الدين أبي بكر بن العجمي ، أخي الشيخ شرف الدين أبي طالب عبد الرحمن ، المتوفى سنة 561هـ/1166م ، وكان موقع هذه الخانقاه داراً يسكنها شمس الدين بن العجمي ، فلما تُوفي سنة 531هـ/1136م ، أوقفها أخوه شرف الدين أبو طالب على الصوفيّة ، وجعل لها وقفاً يدرُّ عليها[2].

. خانقاه القديم: أنشأها نور الدين محمود ، وتولَّى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسيِّ[3].

. خانقاه ابن المقدَّم: تُنسب هذه الخانقاه لعز الدين عبد الملك المقدم ، منشئ المدرسة المقدميَّة الحنفيَّة المتقدم ذكرُها.

. خانقاه النفر: وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد زنكي ، وسميت بهذا الاسم لأنّه كان في مكانها قصر من بناء شجاع الدين بن فاتك ، وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة[4].

. خانقاه مجد الدين بن الداية: تُنسب هذه الخانقاه لنائب حلب في عصر نور الدين محمود ، وأخيه من الرضاعة مجد الدين أبي بكر محمد بن الداية ، المتوفى سنة 565هـ/1170م[5].

. خوانق النساء: إلى جانب الخوانق الخاصة بالرجال أنشئت في العهد الزنكي خوانق مخصَّصة لإقامة النساء ، يتعبدن فيها ، ويتلقين دروساً في الوعظ الدِّينيِّ ، ومن أشهر هذه الخانقاهات في حلب خانقاه نور الدين ، حيث ذكر ابن شداد: أنّ الملك نور الدين أنشأ خانقاه للنساء سنة 553هـ/1158م . على الأرجح[6]. ولكنّه لم يُحدد موقع هذه الخانقاه ، كما أنَّه لم يبقَ لها أيُّ أثر في الوقت الحاضر.

هذه أهمُّ الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي ، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعَّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد ، نظراً لما كان يُعقد فيها من دروس ، وحِلق ، ووعظ إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسّية التي أُنشئت من أجلها ، وهي إيواء المتصوّفة للانقطاع فيها للعبادة ، ومجاهدة النَّفس ، والبعد عن الدنيا[7].

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 409.

(2) المصدر نفسه ص 409.

(3) المصدر نفسه ص 410.

(4) المصدر نفسه ص 411.

(5) المصدر نفسه ص 411.

(6) المصدر نفسه ص 411.

(7) المصدر نفسه ص 412.

ب ـ في دمشق: وجدت في دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق ، والرُّبط ، وكان لها مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد ، فقد كانت ميداناً للتعليم إلى جانب ممارسة التصوُّف بها كنشاط أساسي أنشئت تلك الدور من أجله ، وكان أبرز هذه المنشئات ما يأتي:

ـ الخانقاه السُّميساطية: تُنسب هذه الخانقاه للسُّميساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السُّلمي الحُبَيْشيّ المتوفى سنة 453هـ/1061م ، كان من أكابر الرؤساء في دمشق[1]، وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكِيّ ، فقد قدم دمشق زمن الملك نور الدين محمود ، فارتبطه عنده ، وأنزله هذه الخانقاه ، وجعله شيخها ، وساهم أبو المظفر في زيادة عمارتها[2].

ـ خانقاه القصر: ذكر كل من ابن شداد والإربلي أن هذه الخانقاه تُنسب لشمس الدين الملوك ، وذكر الحُسيني[3]: أنه إسماعيل بن تاج الملوك بُوري المتوفى سنة 529هـ/1135م ، أما ابن جبير السَّابق لهما؛ فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدها في زيارته لدمشق سنة 580هـ/1184م ، ووصفها بقوله: «ومن أعظم ما شاهدناه لهم (يعني الصوفية) موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقلّ في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافاً منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتّصل به ، وكانت متنزّهاً لأحد الملوك الأتراك ، فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر ، فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل حتى استوعبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصُّوفية مؤيداً لهم ، فطال العجب من السَّماحة بمثله ، وبقي أثر الفضل فيه مخلَّداً لنور الدين ، رحمه الله»[4].

ـ الخانقاه الأسدِيّة: تُنسبُ هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركوه ، المتوفى سنة 564هـ/1168م[5]، منشأ المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية ، والشافعية ، بالشرف القبلي ظاهر دمشق[6]، وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية ، بدرب الهاشميين المعروف بباب الوزير[7].

ـ خانقاه الطاحُون: تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، وهي خارج البلد بالوادي[8].

ـ الرباط البياني: جاء ذكر هذا الرِّباط عند ابن شداد «رباط أبي البيان بناه بحارة درب الحجارة»[9]. وذكر السبكيُّ: أن هذا الرباط لا ينسب إليه ، إنّما أنشئ بعد موته بأربع سنين ، وقد اجتمع أصحابه على بنائه ، وأعانهم الملك نور الدين ، فأوقف عليه مكاناً بِحُرِّين[10].

---

(1) المصدر نفسه ص 451.

(2) الوافي بالوفيات (224/15) الحياة العلمية ص 453.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 454.

(4) الرحلة ص 257 الحياة العلمية 454.

(5) الحياة العلمية ص 455.

(6) المصدر نفسه ص 455.

(7) المصدر نفسه ص 455.

(8) المصدر نفسه ص 455.

(9) المصدر نفسه ص 456.

(10) طبقات الشافعية (319/7) الحياة العلمية ص 456.

ج . في الموصل: كان في الموصل في العهد الزنكي رُبُط عديدة ، شاركت في نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد ، حيث كانت مراكز للتعليم ، والتثقيف ، والتأليف ، إلى جانب قيامها بوظائف التصوُّف التي أنشئت من أجلها ، ومن الملاحظ هنا: أنه لم يفرق بين الخانقاه والرِّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد[1]، وكان من أشهر الرُّبط التي كانت قائمة في الموصل:

. رباط الملك سيف الدين غازي: أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (541 . 544/1146 . 1149) ، وهو الرِّباط المجاور لباب المشرعة ، وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته[2].

. رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني: يُنسب هذا الرّبَاط للوزير الموصلي ، جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني ، المعروف بالجواد ، المتوفى سنة 559هـ/1164م[3] ، وقد ذكر عنه ابن الأثير: أنَّه: بنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها[4].

. الرِّباط الزيني: لم يقتصر بناء الرُّبُط على الملوك الزنكيين ، بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزراؤهم فأنشؤوا الكثير من الرُّبط في الموصل وغيرها ، كما أنشؤوا دُور التّعليم الأخرى ، وكان ممن أنشأ رباطاً بالموصل: الأمير زين الدين علي بن بُكتكين ، المتوفى سنة 563هـ/1167م ، منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) ، والمدرسة الزينيّة ، فقد ذكر ابن الأثير: أنه بنى مدارس ، ورُبُطاً بالموصل وغيرها[5].

. رباط ابن الشهرزوري: أشار إليه ابن خلكان في ترجمته للشيخ عز الدين أبي القاسم بن عقيل بن نصر الإربلي ، المتوفى سنة 619هـ/1222م ، حيث ذكر: أنَّه ساكنٌ ظاهر الموصل في رباط ابن الشهرزوري ، وقرّر له صاحب الموصل راتباً ، ولم يزل هناك حتى توفي[6].

وقد قامت الخوانق ، والرُّبط في عهد نور الدين بدور كبير في الجهاد ، وجمع المعلومات ، وتحريك العامة ، والدعاء للجيوش الإسلامية ، و مقاومة التشيُّع الرافضي ، وتعليم الجهَّال أمور دينهم ، وكانت الدولة النورية تشرف على ذلك، وتوظِّف هذه الطاقات لخدمة مشروع النهوض.

وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها ، والإشراف عليها ، يُسمى شيخ الشيوخ ، وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المناصب شروطاً عدة ، وآداباً تؤهله لذلك ، منها ما ذكره السبكي من أنّه لا بد أن يتمتّع بقسط وافر من العلم والحلم ، وأن يتحمَّل الأذى ، والضَّيم على نفسه ، وأن يكون حَسَن التلفُّظ ، حريصاً على الصلاة والذكر ، وتلاوة القرآن الكريم ، وأن يحرص على تعليم مريديه العلم النافع ، متدرجاً بهم بالأهون فالأهون ، مبتعداً بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها[7].

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 384.

(2) الباهر ص 63 مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص 384.

(3) الحياة العلمية ص 384.

(4) التاريخ الباهر ص 129 الحياة العلمية ص 385.

(5) الحياة العلمية ص 385.

(6) معيد النعم ص 97 الحياة العلمية ص 137.

(7) العبر الذهبي (74/3) الحياة العلمية ص 137.

وكان الملك نور الدِّين قد عهد بهذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حمويه ، المتوفى سنة 577هـ/1181م[1]، وكان قد قدم دمشق في أيامه ، ولم يلبث أن انس منه نور الدين علماً زاهداً ، ففوَّض إليه سنة 563هـ/1167م مشيخة الخوانق والرُّبُط في كلٍّ من دمشق ، وحمص ، وحماة ، وحلب ، وبعلبك[2]، ومُنذ أن تولى الشيخ عمر بن حمويه هذا المنصب ، أُطلق عليه لقب شيخ الشيوخ ، وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية ، أو ناظر الخوانق مُنذ ذلك الوقت[3].

6 . الكَتَاتيب: الكَتَاتِيْب ، أو الكُتَّاب: يطلق على المحل الذي يتعلم فيه الصبيان، وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر ، وقد اتَّخذ المعلمون في العهد الزنكي زوايا بالمساجد ، وغرفاً ملاصقة لها لتعليم الأطفال القران الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي ، في شتى المدن الزنكية ، من ذلك الحلقة الكوثريّة ، والمجتمع السُّبعي ، وكلاهما في الجامع الأموي[4].

ويبدو: أنَّ السبب في اتخاذ المساجد أمكنة لتعليم الصبيان يعود إلى أنَّ الكثير من معلميهم كانوا يعتكفون في المساجد، وكانوا يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم ، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد ، فلزم حضور الصبية إليهم.

وبجانب هذه الكتاتيب كتاتيب أخرى قامت مستقلةً عنها ، وقد أُنشئت لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم ، أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء ، الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر ، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم ، وقد اهتمَّ روَّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب، وأكثروا منها في بلادهم ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة ، للصرف عليها رغبة في الأجر ، وحرصاً على نشر العلم ، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب (مكاتب الأيْتام) ، أو مكاتب السَّبيْل ، وقد خصَّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية ، فقال: «ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين ، وأجرى الأرزاق على معلميهم ، وعليهم ، وبقدر ما يكفيهم»[5]، كما تحدَّث ابن جبير عن أحد هذه الكتاتيب في دمشق ، ووصفه ، بقوله: «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد ، لها وقف كبير ، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم»[6].

كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس ، وبجانبها مكاتب الأيتام ، حتى إذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب؛ انتقل إلى المدرسة ـ إن رغب في مواصلة دراسته ـ وله الجراية المستمرَّة ، أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْماز ، والي القلعة في الموصل ، المتوفى سنة (595هـ/1199م) إذ أنشأ مكتباً

---

(1) الدارس (153/2 ، 154) الحياة العلمية ص 137.

(2) الحياة العلمية ص 138.

(3) المصدر نفسه ص 119.

(4) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص 120.

(5) الرحلة ص 245.

(6) وفيات الأعيان (82/4 ، 83) الحياة العلمية ص 121.

للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة[1] ، وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية؛ حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس ، أو قريبة منها[2]، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال ، وتربيتهم تربية إسلاميَّة صحيحة ، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة ، وجانباً من العلوم الإسلامية ، المتفقة مع قدراتهم ، لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلاميّة متينة[3]. وهكذا نرى: أنَّ للأطفال نصيباً من المشروع الإسلامي النهضوي ، الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية ، والغزو الخارجي ، والسَّير على نهج الإحياء الإسلامي السنّي الكبير.

7 ـ المكتبات: تعدُّ المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أيِّ عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتّخاذها في كثير من الأحيان المعيارَ الذي يُحكم به على تقدُّم هذا المجتمع ، أو ذلك العصر. وقد كانت المكتبات بمثابة دور التعليم في شتَّى العصور الإسلامية ، وهيئات ينفق عليها الملوك ، والأمراء ، والأثرياء ، والعلماء لنشر العلم بين الناس ، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أيُّ وجود ، وكانت الكتب تُنسخ على أيدي نسَّاخٍ متخصصين في هذا العمل ، فكان يتعذر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقلَّة عدد نسخها ، وارتفاع أسعارها؛ لأنها تُنسخ باليد ، ومن هنا نشأت فكرة جمع الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد؛ كي يسهل على طالب العلم الاطلاع عليها ، والاستفادة منها ، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب ، أو المكتبات)[4].

وقد اهتمَّ الزنكيون ـ كغيرهم ـ بتأسيس المكتبات في المساجد ، والمدارس ، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد ، وقلّما نجد داراً تعليمية ، تخلو من مكتبة تتبعها ، مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب ، والباحثون في مختلف التخصصات تبعاً لحجم تلك الدار ، والأوقاف التي أوقفت عليها ، ولا أدلَّ على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود؛ الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيّمة ، وجعل عليها وقفاً كبيراً ، يصرف منه على المكتبة ، والمشتغلين بها[5] ، وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: «إنه حصَّل الكثير من كتب العلوم ، ووقفها على طلابها ، وأقام عليها الحفظة»[6].

8 ـ الإنفاق على الأيتام والأرامل: كانت طبيعة المجتمع تقوم على الجهاد ، فاشتبك المسلمون مع الصليبيين في معارك كثيرة ، وترتَّب على ذلك تزايد أعداد من الشهداء ، وخرجت للوجود ظاهرة الترمل ، ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات الوغى ، وأشرفت الدولة النوريَّة على تزويج الأرامل ، والاهتمام بهن ، ووجد الأطفال اليتامى؛ الذين فقدوا اباءهم في ساحات الهيجاء العناية ، والاهتمام ، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصَّصات لهم من مال وكساء[7] ، ففي سنة 569هـ/1173م استدعى نور

---

(1) الحياة العلمية ص 121.

(2) الحياة العلمية ص 121.

(3) الحياة العلمية ص 121.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 154.

(5) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 154.

(6) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص 154.

(7) زبدة حلب (39/2) الصراع الإسلامي الصليبي ص 261.

الدين محمود بن زنكي رؤساء دمشق ، ومشايخها ، ومقدَّمي حاراتها ، ودروبها ، وقال: «أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوريكم ، فعرِّفوني باليتامى ، والأرامل ، ومن انقطع عن التكسب ، ومن اختلت أحواله؛ لأنظر في حالهم» ، ففعلوا ذلك ، فبعث إليهم بالغلاَّت ، والكسوات ، ووظَّف لهم الوظائف[1].

وكان نور الدين محمود يعتني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك ، أو موتاً طبيعياً ، فإن توفي أحد أجناده؛ وله ولدٌ؛ يقرِّه على إقطاع أبيه ، وإن كان الولد صغيراً؛ رتَّب معه رجلاً يوثق به إلى أن يكبَر ، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد ، والحروب[2].

9 ـ الإنفاق على الحصون الخانات و«المجال العمراني»: كان نور الدين محبّاً للبناء والعمران ، ولكن ليس لبناء القصور، وأماكن اللَّهو ، والترف ، فقد كان أبعد الناس عن هذا المعنى ، إنما العمران الذي يقضي الحاجة ، ويخدم مصالح الأمة ، كأسوار المدن ، والقلاع ، والحصون الضرورية لحماية السكان ، وصدِّ هجمات العدو ، وإسكان الجند، وحفظ المؤن ، والأسلحة اللازمة للقتال ، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف المواجهة مع الغزاة الفرنجة ، ثم المساجد ، والمدارس ، ودور الأيتام والغرباء الضرورية لتربية الأجيال على الخير والصلاح ، والمستشفيات ، والأسواق ، والخانات ، والحمامات ، والقنوات ، والقناطر ، والجسور ، لتسهيل العمل بالزِّراعة ، والتجارة من أجل تحقيق الكفاية، وتحسين المعيشة ، وزيادة موارد الدولة.

هذا هو العمران الذي أحبّه نور الدين ، وأنفق القسم الأكبر من خزينة الدولة في سبيل تحقيقه[3]، فقد بنى أسوار مدن بلاد الشام جميعها ، وأصلح القلاع والحصون بعد الزلازل التي حصلت عام 552هـ/1157م ، وكذلك بعد الزلازل التي وقعت عام 566هـ/1171م[4] ، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة. يقول ابن الأثير في ذلك: «فمن ذلك: أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها ، وقلاعها ، فمنها: حلب ، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس[5]. وكنَّا قد تحدثنا بنوع من التفصيل عن المدارس، والمستشفيات، ودور الأيتام، والمساجد.

ومن مظاهر العمران التي استحدثها نور الدين: بناء الأبراج على الطرق بين الإمارات الفرنجية ، وما جاورها من بلاد الشام ، حتى المدن الرئيسية: (دمشق ، حلب ، حماة ، حمص) ، ووضع فيها حاميات صغيرة ، ومعهم الزاجل ، لينذروا من يليهم من بلاد المسلمين عن حركات الفرنجة ، فيستعد المسلمون للقائهم ، فكانت هذه الأبراج تعمل كنقاط مراقبة دائمة ، لتمرير المعلومات عن العدو[6].

وأمَّا ما يتعلق بالمرافق العامة كالخانات ، والحمامات ، والأسواق ، ودور الوضوء ، فقد تميزت مدن الشام بكثرتها ، وترتيبها ، ونظامها ، وقد وصف ابن جبير دمشق بقوله: «وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها ، وفي أرباضها ، وفيها

---

[1] الكامل في التاريخ نقلاً عن الخدمات العامة في بغداد ص 80.

[2] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص 191.

[3] سنا البرق الشامي ص 27.

[4] عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة.

[5] الباهر ص 170 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 187.

[6] الباهر ص 171 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 187.

نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلِّها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب؛ لأن المرافق بها كثيرة ، وأسواق هذه البلدة من أفضل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاماً ، وأبدعها وصفاً ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعة كأنها الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب حديد ، كأنها أبواب القصور»[1]. ويصف ابن جبير مدينة حلب بقوله: «أما البلد فموضوعه ضخم جداً ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام ، مستطيلة تخرج من سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرع من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مثقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السّماط خزانة واحدة ، وتخلَّلتها شُرف خشبية ، بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرَّم ، وهذا الجامع من أحسن الجوامع ، وأجملها ، وحسنه أكثر من أن يوصف ، ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية ، تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة»[2].

واتسعت مدن بلاد الشام ، وتضاعف عدد سكَّانها عدَّة مرات خلال عهد نور الدين[3] ، فقد كانت بنايات مدينة دمشق أحياناً مؤلفة من ثلاث طبقات ، تحتوي من الخَلْق ، ما لا تحتويه ثلاث مدن ، وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن ، أكثر من المدينة ، وصارت تعاني من كثرة العالم ، وامتدت بساتين دمشق من حولها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً ، ولم تبق مزرعة في جبل ، ولا واد ، إلا وفيها سكان ، ولها مُغلٌّ ، ومع أن نور الدين كان يركِّز في البناء والعمران على البساطة ، والمتانة؛ إلا أنّه كان يميل إلى تجميل البناء ، وتحسينه ، ليكون البناء متناسقاً ، حسن الصورة ، مع عدم المبالغة في الزخرفة ، والتزيين ، فقد أحضر للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب قطعاً من الرّخام الشفاف من مدينة أفاميا ، وأمر بتجميل محراب المدرسة العمادية في دمشق بفصوص من الذهب ، وبنى في قلعة دمشق داراً عامَّة ، سمَّاها دار المسرَّة ، وأوقف بعض البساتين في دمشق ، على تطييب جوامعها ، ومدارسها[4].

لقد شكَّلت الإنجازات الباهرة المتعددة التي حققها نور الدين أركان نهضة الأمة ، والجدير بالملاحظة والاعتبار: أنَّ نور الدين حقق هذه الإنجازات في ظل ظروف بالغة الصعوبة ، فقد كان في حالة حرب مستمرة مع الغزاة الفرنجة[5].

10 . فكُّ الأسرى: وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة ، وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين ، لقد فرَّق الرجل اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى أهل الشام ، فكان يقول: هؤلاء يفتكُّهم أهلوهم ، وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم[6].

* في عام 569هـ خدمات اجتماعية كبيرة: في عام 569هـ ، السَّنة التي توفي فيها نور الدين شهدت دولته جملة من خدمات اجتماعية ، شملت الكثير من القطاعات ، وتطلبت الكثير من النفقات ، فزيدت الأوقاف ، ووسِّعت الصدقات ، ووفرت النفقات ، ويُجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو

---

(1) رحلة ابن جبير ص 235 ، 236.

(2) المصدر نفسه ص 203 ، 204 ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص 187.

(3) رحلة ابن جبير ص 230 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 188.

(4) الكواكب الدريّة ص 47.

(5) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 188.

(6) رحلة ابن جبير ص 280 نور الدين محمود 118.

للإعجاب ، وتوضّح لنا إلى أيّ مدىً كان نور الدين ، يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة ملبساً ، ونفقة ، وإشباعاً ، وإكساء الأيتام ، والنسوة ، وتزويج الأرامل ، وإغناء الفقراء ، وختان الأطفال[1].

ويعلِّق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله: «...حسبنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهباً ، وكان إذا مرَّ بصدقة غلَّة ، أو ذهب ، تقدَّم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد ، وعدوله ، من أهل كل محلة ، فيقول لكل واحد: «كم تعرف في جوارك من...وغيرهم؟» فيقول: «أعرف كذا وكذا» فيسلِّم إليه صدقات أولئك الأعداد ، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين ، ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرَّقه[2].

لقد تحقق في عهد نور الدِّين محمود ظهور مجتمع العدل ، والتضامن ، والتكافل ، والمواساة ، في الحاجات الأساسية. إنَّ المسألة ليست مسألة دولة تعطي ، وتضمن ، وتخدم فحسب ، ولكنَّه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله ، المجتمع الذي يمحى فيه الاستغلال ، وتضيق الفوارق ، ويشترك الجميع بالحق والعدل ، فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية ، لكي يقدر الجميع على التحرُّك إلى ما وراء تلك الافاق الواسعة الرحيبة؛ التي جاء الإسلام لكي يقوِّم الناس إليها.

لقد تحقَّق التعاون الفعَّال بين القيادة ، والقواعد[3]، فنهض الجميع من كبوتهم ، واستوعب مشروعه الحضاري ، وقام بدوره الريادي ، وهذه صورة من بين عشرات الصور ، التي وصف بها هذا المجتمع ، يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين: «..إن الحاج الدِّمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (580 هـ) خرج الناس لتلقيهم ، الجمُّ الغفير رجالاً ، ونساءً ، يصافحونهم..وأخرجوا الدراهم لفقرائهم ، يتلقونهم بها ، وأخرجوا إليهم الأطعمة ، ..وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم ـ إن أحب ـ ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الإمامة ، أو التعليم ، أو ما شاء ، ومتى سئم المقام؛ خرج إلى ضيعة أخرى»[4].

وفي مكان آخر ، يقول ابن جبير عن شاهد العيان هذا ـ مثمِّناً أخلاقية المجتمع هناك ـ: «..ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلاَّ مبادرة أهلها لإكرام الغرباء ، وإيثار الفقراء ، ولا سيَّما أهل باديتها؛ لكفى بها فضلاً»[5].

إن من أبرز المعالم في تاريخنا كلِّه الإيمان بكرامة الإنسان ، وفطرة الإنسان ، وحرمة الإنسان ، حرمة دمه ، وعرضه ، وماله ، وحقوق الإنسان ، حقُّه في الحياة ، وحقُّه في الحرية ، وحقُّه في المساواة ، وحقُّه في عيش كريم له ولمن يعول ، وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ ، يكرِّم الإنسان من حيث هو إنسان ، من ذرية ادم ، الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وجعله في الأرض خليفة ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الاسراء : 70] ، وأكَّد القران مع كتب السماء: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ

[1] زبدة دمشق (240/2) نور الدين محمود 117.

[2] البرق ص 143 نور الدين محمود ص 117.

[3] نور الدين محمود ص 119.

[4] رحلة ابن جبير ص 259 ، نور الدين محمود 119.

[5] نور الدين محمود ص 119.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة :32] . كما أكّد الإسلام: أن البشر جميعاً سواسية كأسنان المشط ، لا يفرق بينهم عرق ، ولا لون ، ولا لغة ، ولا إقليم ، ولا طبقة ، وإنّما يتفاضلون عند الله بالتقوى ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات : 13] .

لهذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية ، والمؤكدة في تاريخنا كله المساواة بين البشر جميعاً ، بيضاً وسوداً ، عرباً وعجماً ، حكاماً ومحكومين ، أغنياء وفقراء ، شرفاء ووضعاء ، مسلمين وغير مسلمين[1] في إقامة العدل.

ومن المعاني الإنسانية العميقة البارزة في تاريخنا الإسلامي: البر ، والإحسان بالناس ، وبذل المعروف لهم ، وإعانتهم في السرَّاء ، والضرَّاء ، وخصوصاً الضعفاء والمحرومين منهم ، أيّاً كان سبب ضعفه ، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال ، كالمسلمين ، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن ، كابن السبيل ، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية ، كالأسير ، والرَّقيق ، وقد أوصى الإسلام بهم جميعاً ، كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان : 8.9]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة : 177] ، وهؤلاء لهم في الإسلام حقوق ، بعضها واجبة ، وبعضها مندوبة ، وبعضها تطالب به الدولة ، وبعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية؛ التي تمثّلت في نظام الوقف الخيري ، الذي رسخت جذوره ، وسبقت فروعه ، وامتدت ظلاله ، وآتى ثماره في الحياة الإسلامية ، وتميّز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم[2].

* ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا ، ووضوحها في تاريخ أمتنا كثرة المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان ، والبرية[3] ، وإليك هذه الصفحات المشرقة مما كتبها الداعية الكبير ، والمجاهد الشهير ، العلامه الشيخ الدكتور مصطفى السباعي ، رحمه الله ، في كتابه البديع: «من روائع حضارتنا» عن هذه المؤسسات ، فقال: «كانت المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئه الدولة ، وتوقف عليه الأوقاف الواسعة ، ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء ، وقواد ، وأغنياء ، ونساء ، ولا نستطيع في مثل هذا الحديث ، أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلّها ، ولكن حسناً أن نُلِمَّ بأهمِّها:

. فمن أول المؤسسات الخيرية: المساجد ، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله ، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد ، التي يؤسسونها ، وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة ، على بناء الجامع الأموي ، ممَّا لا يكاد يصدقه الإنسان ، لكثرة ما أنفق من مال ، وما استخدم في إقامته من رجال. ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

. ومن المؤسسات الخيرية: بناء الخانات ، والفنادق للمسافرين المنقطعين ، وغيرهم من ذوي الفقر.

---

(1) تاريخنا المفترى عليه ، للقرضاوي ص 138.

(2) تاريخنا المفترى عليه ص 141.

(3) المصدر نفسه ص 144.

. ومنها: التكايا والزوايا ، التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل.

. ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء ، يسكنها من لا يجد ما يشتري به بيتاً ، أو يستأجر داراً.

. ومنها: السقايات ، أي: تسييل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.

. ومنها: المطاعم الشعبية ، التي كان يفرَّق فيها الطعام من خبز ، ولحم ، وحساء (شُوربة) ، وحلوى ، ويقول الدكتور السباعي: «ولا يزال عهدنا قريباً بهذا النوع من كلٍّ من تكية السلطان سليم ، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق».

. ومنها: بيوت للحجَّاج في مكة ، ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام ، وقد كثرت البيوت ، وعمَّت أرض مكة كلَّها ، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكَّة في أيام الحج؛ لأنها كلَّها موقوفة على الحجاج.

. ومنها: حفر الابار في الفلوات ، لسقي الماشية ، والزروع ، والمسافرين ، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ، ومكة ، وبين دمشق ، والمدينة ، وبين عواصم المدن الإسلامية ، ومدنها ، وقراها ، حتى قلَّ أن يتعرض المسافرون . في تلك الأيام . لخطر العطش.

. ومنها: أمكنة المرابطة على الثغور ، لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد ، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله ، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه ، من سلاح ، وذخيرة ، وطعام ، وشراب ، وكان لها أثر كبير في صدِّ غزوات الروم أيام العباسيين ، وصدِّ غزوات الغربيين في الحروب الصليبية ، عن بلاد الشام ، ومصر ، ويتبع ذلك وقف الخيول ، وأدوات الجهاد ، على المقاتلين في سبيل الله ، عز وجل ، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية ، وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا ، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية ، يفدون إلى بلادنا . أيام الهدنة . ليشتروا منَّا السلاح ، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء ، فانظر كيف انقلب الأمر الان ، فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح ، لا يسمحون لنا به إلا بشروط ، تقضي على كرامتنا ، واستقلالنا ويتبع ذلك أوقافٌ يُعطى رَيعها لمن يريد الجهاد ، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة في الإنفاق على كل أفراده ، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسّراً لكل مناضل ، يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ، ليشتري بها جنة عرضها السموات والأرض ، فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتسلُّح ، تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه ، ولو كان عندنا وعي اجتماعي ، وإيمان صادق؛ لأقمنا من أموالنا كل يوم . لا أسبوعاً للتسلح ، تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش ، وتسليحه ، ولمرَّة واحدة في العام . مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد ، حتى يكون من أقوى الجيوش ، وأكثرها استعداداً لصدِّ العدوان ، وحماية الديار.

. ومن المؤسسات الاجتماعية: ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات ، والقناطر ، والجسور.

. ومنها: ما كانت للمقابر ، يتبرع الرَّجل بالأرض الواسعة ، لتكون مقبرة عامة.

. ومنها: ما كان أكفان الموتى الفقراء ، وتجهيزهم ، ودفنهم.

. ومنها: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي ، وإعانة اليتامى ، وختانهم ، ورعايتهم ، ومؤسسات للمقعدين، والعميان ، والعجزة ، يعيشون فيها موفوري الكرامة ، لهم كلُّ ما يحتاجون من سكن ، وغذاء ، ولباس ، وتعليم أيضاً، وإمدادهم بمن يقودهم ، ويعتني بهم.

. وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب ، لصيانة صحتهم.

. ومنها: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسُّكَّر ، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا ، مع تمحُّصها للخير الخالص لله عز وجل ، وقد كان من مبرات صلاح الدين: أنَّه جعل في أحد أبواب القلعة . الباقية حتى الآن في دمشق . ميزابا ، يسيل منه الحليب ، وميزابا اخر ، يسيل منه الماء المذاب فيه السكر ، تأتي الأمهات يومين في كلِّ أسبوع؛ ليأخذن لأطفالهنّ ، وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكّر[1].

ومن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادي[2] للأولاد الذين يكسرون الزبادي ، وهم في طريقهم إلى البيت ، فيأتون إلى هذه المؤسسة ، ليأخذوا زبادي جديدة ، بدلاً من المكسورة ، ثم يرجعوا إلى أهليهم ، وكأنهم لم يصنعوا شيئاً، وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات ، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة ، أو لإطعامها ، أو لرعايتها حين عجزها ، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق ، الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن ، فقد كان وقفاً للخيول، والحيوانات العاجزة المسنَّة ، ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد فهذه ثلاثون نوعاً من المؤسسات الخيرية ، التي قامت في ظل حضارتنا ، فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟... اللَّهم إنّه سبيل الخلود ، تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلُّها في غفلة ، وجهل ، وتظالم ، اللهم إنه سبيل الخلود ، كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها ، وآلامها ، فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيادي التي تمسح عبرة اليتيم ، وتأسو جراح الكليم ، وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً متراصاً ، ينعم فيه الناس جميعاً ، بالأمن والخير والكرامة والسلام؟[3].

---

[1] من روائع حضارتنا ، مصطفى السباعي ص 178.

[2] الزبادي: جمع زبدية وهي إناء من الفخار يوضع فيه اللبن حتى يتخمر.

[3] من روائع حضارتنا ص 178 . 182 تاريخنا المفترى عليه ص 148.

المبحث السَّادس : أهمِيَّة التَّربية والتَّعليم في النُّهوض الحضاري

أدرك المشرفون على عملية التغيير ، وفقه النهوض: أنَّ عزَّ هذه الأمة ، وقوَّتها ، في تمسُّكها بدينها ، وعملها بكتاب ربها ، وسنة نبيِّها ، وأنَّ الجيل الأول من سلف هذه الأمة لم ينتصر على عدوِّه إلا بقوة العقيدة ، وأن النَّصر والتأييد والتمكين لهذه الأمة مقرون بالالتزام بعقيدة التوحيد الخالصة ، والعمل بمقتضاها ، وأنَّ هذه الأمة تكون هدفاً للسِّهام، وطعمةً لسيوف الأعداء بمجرد الزيغ عن هذه العقيدة ، والانحراف عن هذا المنهج ، وأنَّ الهزائم التي حلَّت بالمسلمين أمام حملات الصليبيين كانت ثمرة طبيعية ، ونتيجة حتمية للانحراف العقائدي ، والفساد الفكريِّ ، الذي أصاب الأمَّة[1].

وقد ألهم الله قادة الأمة ، من أمثال نور الدين محمود إلى إدراك دور العقيدة الصحيحة ، في صناعة النصر ، وأنَّ الأمة بدونها تتحول إلى قطيع من الأغنام ، لا تقوى على شيء ، ولذلك فإن أوَّل ما بدأت به عملية التغيير ، والإصلاح ، والتجديد هو إعادة بناء العقيدة في النفوس ، وإعادة صياغة الإنسان المسلم على التوحيد الخالص بتجديد العقيدة في نفوس الناس ، وإزالة كل ما علق بالنفوس ، من بدع ، وعقائد فاسدة ، ولذلك راحوا يواجهون التحديات الباطنية في إفساد العقائد الإسلامية بنشر العقيدة الصحيحة ، عن طريق مؤسسات تجسِّد العقيدة في النفوس ، وواقع الحياة اليومية عن طريق التعليم الإسلامي النَّقي في عدد من المدارس والمساجد ، تم إنشاؤها وإعدادها لهذا الغرض ، قام بالتدريس فيها صفوة من علماء الأمة ، وخيرة مفكريها[2].

وقد كانت بداية حركة الإصلاح والتجديد على يد السلاجقة السنَّة ، الذين زحفوا على بغداد ، واستنقذوا الخليفة العباسي من الأسر والذلِّ الفاطمي الرافضيّ الشيعي بعد الانقلاب الذي دبَّرته الدولة الفاطمية ، على يد القائد العسكري البساسيري ، الذي تشيَّع ، وترفَّض ، واعتنق المذهب الإسماعيلي ، وقد هدى الله قادة تلك الدولة السلجوقية السنيّة إلى أنَّ السيوف تفلُّ السيوف ، وأن الحجَّة لا تقرع إلا بالحجَّة ، وأن الأفكار والعقائد ، لا بدَّ من غرسها عن طريق التعليم ، والتربية ، والتهذيب ، لا بالسيف والسِّنان ، خصوصاً وأن مذهب أهل السُّنة والجماعة هو مذهب الحق ، ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله ، فأنشؤوا لهذا الغرض ما عرف باسم المدارس النظامية ، نسبة إلى الوزير العظيم نظام الملك ، وقد تحدَّثتُ عن سيرة نظام الملك ، والمدارس والنظامية ، في كتابي: «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي».

وإلى جانب نظام الملك كان هناك العشرات من الذين تولوا الإدارة ، والجيش ، والقضاء ، والحسبة ، واخرون تولَّوا القيام على المدارس النظامية ، كالإمام الجويني ، وأبي إسحاق الشيرازي ، وأبي القاسم القشيري ، والإمام الغزالي ، وغيرهم ، ولقد واجهت الدولة السلجوقية ورجالها العظام الخطر الفاطمي الباطني ، الذي انتشر في مختلف البقاع الإسلامية ، لقد كانت المدارس النظامية والحركة المباركة التي قادها السلاطين السلاجقة ـ من أمثال ألب أرسلان ـ مع العلماء ، لمواجهة

---

[1] لا طريق غير الجهاد لتحرير القدس ص 320.

[2] المصدر نفسه ص 321.

التحدي الفاطمي الرافضي الباطني أطيب الأثر في وضع الأمة على الطريق الصحيح ، الذي سار عليه من بعدهم رجال من القادة السياسيين ، والعلماء العاملين المخلصين ، فكانت لتلك الشجرة الطيِّبة الكثير من الغصون والثمار ، التي طابت وأينعت ، وامتدت ونمت ، وتفرّعت؛ حتى عمَّ خيرها الجميع[1].

وقد تحدَّثت عن حركة الإصلاح التي قام بها الإمام الغزالي في كتابي عن دولة السلاجقة ، وعن جهوده الفذَّة في مقارعة التشيُّع الرافضي الباطني ، وسيأتي الحديث بإذن الله عن المدرسة القادرية ، وشيخها عبد القادر الجيلاني ، وجهوده في الإحياء السني ، ودوره في نهضة الأمة ، وترشيد التصوف السني ، فقد لعبت المدرسة القادرية دوراً مهماً جداً في حركة الإصلاح ، والتجديد ، والتغيير الاجتماعي ، وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله.

وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية ، والتربوية ، التي سبقته ، وأدركت دولته: أن التعليم هو الدعامة الأساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية ، والثقافية ، والفكرية...إلخ ، واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يقدر بأيِّ ثمن ، فجعلته مدار اهتمامها ، وقطب الرحى في تفكيرها ، فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ، ودور القران ، والحديث ، وأحيت رسالة المسجد؛ ليسهم في عملية البناء ، والتصحيح الجديدة ، وتوجيه وتوعية الأمة وتعبئتها تعبئة عامة شاملة لمواجهة الأخطار ، ومجابهة التحديات الداخلية الباطنية ، والخارجية الصليبية ، وكوّنت مجلساً عاماً يشرف على العملية التعليمية ، والصياغة التربوية ، يضمُّ أهل الحلِّ والعقد ، وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين ، والقادة العسكريين ، والفقهاء ، والشيوخ المستنيرين ، وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى ، الذي يشرف على التخطيط العام والشامل ، وكان يجلس مع العلماء ، والشيوخ ، يتدارسون الأمور إلى ما يحقق المصلحة الإسلامية[2] ، ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداد الأمة الإسلامية ، كلّها إعداداً جديداً ، وبنائها بناء سليماً ، على طريقة السَّلف الصالح ، فقرَّروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ، ونشر التعليم الإسلامي ، في جميع أنحاء البلاد ، كما قرّروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية ، والتحلية بالفضائل ، والتخلية من الرذائل ، واستقدموا الاف العلماء ، والمربين المشهورين ، للقيام بواجب التدريس في المدارس ، والتوجيه في المساجد ، وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية[3].

ولم يكن التعليم لدى دولة نور الدِّين مجرد نشاط أكاديمي ، يستهدف توفير الموظفين والمهنيين ، وإنَّما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً ، استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة ، بما يتفق وأهداف الإسلام ، والحاجات القائمة[4]، وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء القادة، والأغنياء ، والرجال ، والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية ، وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمّة ، لدخولها والاستفادة[5] منها.

---

[1] لا طريق إلا الجهاد ص 322.

[2] لا طريق إلا الجهاد ص 334.

[3] المصدر نفسه ص 334.

[4] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 257.

[5] المصدر نفسه ص 258 ، 259.

فقد أعطت الخطة الزنكية أهمِّيَّةً خاصة لتعليم كافة المسلمين من عمال وفلاحين، ومزارعين من الكبار ، والصغار ، والرجال ، والنساء ، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة ، وأركان الدين ، والقيم والمبادئ الإسلامية ، كما عمدت الخطة الحكيمة إلى تعرية المذاهب الهدَّامة ، والفرق الضالة ، من إسماعيلية باطنية ، وشيعيَّة إماميَّة ، وشعوبية ، وأبانت عن خطرها ، وضررها على النفس ، والمجتمع ، والأمة ، وأن لا خروج من المحنة ، ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة ، في صورتها الأولى ، التي كان عليها سلف هذه الأمة ، دون زيادة أو نقصان ، ودون تعقيدات ، فلسفية ، ومجادلات كلامية ، لا طائل من ورائها ، ولا خير فيها ، ولا في مروِّجيها.

لقد التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة ، وعملاً ، ومنهجاً ، والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة للجميع ، فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتِّجاهات ، والفلسفات ، كالصوفية المنحرفة ، التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقِّيها مما علق فيها من أتباع الفكر الإسماعيلي الباطني ، فأقامت لشيوخها الزَّوايا ، والأربطة ، وأنفقت عليهم الأموال ، وأمدَّتهم بالعطايا والهبات ، وأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني ، وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها التربوي ، ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة ، إلى جانب المدارس والمساجد في التوجيه ، والإرشاد ، والتعليم ، والتهذيب حسب الخطة العامة للدولة ، وتحت إشراف المجلس التعليمي الأعلى.

لقد وجَّه التعليم الإسلامي عنايةً خاصة لإعداد الأمة كلِّها للجهاد بكافة أنواعه من الإعداد المادي ، والمعنوي ، وتربية النفوس ، ومجاهدتها في ذات الله ، ومجاهدة الشيطان ، والجهاد بالمال ، والنفس ، والتعبئة الروحية العالية ، وتربية الإرادة القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى ، بالإضافة إلى طائفة مختصة اعتنت الدولة بإعدادها إعداداً قتالياً خالصاً،وتدريبها تدريباً عسكريا متميزا يجعلها تتفوق على مايملكه الأعداء [1] .

أولا : فئات المدرسين في الدولة الزنكية :

1. معلمو الكتاتيب : الاسم الشائع الذي كان يطلق على معلم الشبان في العهد الزنكي , هو (المعلم) أو (المؤدب), ومعلم الكتاب في ذلك الوقت يماثل المرحلة الابتدائية في عهدنا الحاضر , من حيث إنه يتولى تعليم الأطفال العلوم الأساسية, ويشرف على تربيتهم , وتوجيههم , وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى , وقد اهتم حكام العهد الزنكي بهذه المرحلة من التعليم اهتمام خاصا , وحظي معلمو هذه المرحلة بمكانة عالية لديهم , فوفروا لهم كافة سبل العيش المريح, للقيام بمهمتهم على أفضل وجه , وأداء رسالتهم المهمة في توجيه اللبنة الأولى في التعليم على النهج السليم الذي رسمته تلك الدولة , وهو إعدادهم منذ صغرهم , ليتخرجوا صحيحي العقيدة , سليمي الذهن[2] , متأثرين بذلك التوجه الإسلامي , ليتخذوا مواقعهم في المجتمع , وليقوموا بالأعمال المنوطة بهم مستقبلا , على التوجه السليم , والسياسة المرسومة [3].

وكان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم : أن يكون حافظا لكتاب الله , ملما ببعض علوم اللغة , وأصول الحساب والخط[4] , وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خلقية كثيرة , ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب , زاد الصبي به تجملا ورفعة , وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي المتوفى سنة 505هـ /1112م ((إن

---

(1) لا طريق غير الجهاد ص 335 .

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 166 .

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 166 .

(4) مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة (317/2).

صلاح التلميذ بصلاح معلمه , فإنَّ أعينهم إليه ناظرة , وآذانهم إليه مصغية , فما استحسنه فهو عندهم الحسن , وما استقبحه فهو القبيح))[1] .

كما اشترط المربون في المعلم أن يكون عادلا بين الصبيان , وأن يكونوا عنده بالمنزلة سواء لا تفريق بينهم , فابن الفقير, وابن الغني على حد سواء في التربية والتعليم[2] ، هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى ، والورع ، والعفة ، واستحب المربُّون في معلم الكتَّاب أن يكون كبير السن[3].

وقد اشتهر بالتأديب في العهد الزنكي: الشيخ علي بن منصور السُّرُوجي المتوفى سنة 572 هـ/1176م[4]، وكان قد ندبه الملك عماد الدين زنكي لتلبية أولاده وتعليمهم ، وقد اشتهر السُّروجي ببراعته في الأدب ، والشعر ، وحسن الخط[5].

ولقد تمتَّع معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة؛ إذ وفّر لهم الواقفون رواتب شهرية ، تُصرف لهم من إيراد الوقف[6] ، كما ذكر أبو شامة عن نور الدين: أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب ، وأجرى على المعلمين ، والصبيان رواتب وافرة[7] ، وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي ، الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم بطمأنينةٍ وراحة بال[8].

2 . المدرِّسون: إن نظام التعليم المتَّبع في العهد الزنكي لا يقل شأناً عن نظام المدارس في العصر الحاضر ، فإن النظام المتبع آنذاك ، هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين ، يختصُّ كلُّ واحدٍ منهم بتدريس مادة أو أكثر ، ويشرف عليهم شيخ ، يسمى ناظر المدرسة ، ويشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم ، ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي ، والقدرة العالية في مجال التأليف ، والتدريس ، وقد عني الزنكيون ، ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ، ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم ، وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلمُ الوافر ، والسمعة الحسنة بين العلماء ، وطلاب العلم ، كما حرصوا أن يكون المدرِّس سليم العقيدة ، حتى يتوافق مع التوجيه الديني الشامل للدولة[9].

وكان المدرسون في العهد الزنكي يتقاضون رواتب ، أو معاليم ، تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة ، وكانت تلك الأجور أو المعاليم ، تتأثر بظروف مقدار الوقف على المدرسة ، وما يدرُّه شهرياً ، أو سنوياً ، وكان هناك من المدرسين من يأنفون من أخذ ما يُخصَّص لهم من تلك الأوقاف ، فقد رفض القاسم بن الحافظ علي بن الحسن بن

---

(1) إحياء علوم الدين (63/1 , 64) .
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 167.
(3) المصدر نفسه ص 167.
(4) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص 168.
(5) المصدر نفسه ص 168.
(6) المصدر نفسه ص 169.
(7) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص 169.
(8) الحياة العلمية ص 169.
(9) الحياة العلمية ص 170.

عساكر ، المتوفى سنة (600 هـ/1203م)[1] . وكان مدرساً بدار الحديث النورية بدمشق . أن يتناول من معلومه شيئاً ، فقد تنازل عنه لمن يتردَّد عليه من الطلبة[2] ، وكان يحق للمدرِّس أن يستنيب من يقوم بالتدريس مكانه في إحدى المدارس ، ومن هنا ظهر منصب «نائب المدرس» ، وهو أعلى من رتبة المعيد ، وأقل من رتبة المدرِّس ، ومن ذلك أنَّ القاضي شرف الدين بن أبي عصرون ، درَّس بالمدرسة الأمينية بدمشق[3] ، وأناب عنه في بعض وقته الفقيه أبا الفضائل الدمشقي[4] ، المتوفى سنة 561 هـ/1165م[5].

3 . المعيدون: من الواضح: أنَّ نظام الإعادة ، الذي نجده منتشراً في جامعاتنا في الوقت الحاضر ، لم يكن وليد نُظم التعليم الحديثة ، فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام ، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين ، إلا مع ظهور المدارس ، وتطوُّر وظائفها ، في منتصف القرن الخامس الهجري[6].

ثانياً: فئات الطلاب:

1 . طلاَّب المرحلة الأولى: اهتمَّ الحكام الزنكيُّون ، وبعض الموسرين ، في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتيب لتعليم صغار المسلمين القران الكريم ، ومبادئ الدين الإسلامي ، وطرقاً من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة ، والحساب ، وما يُستحسن من الأشعار ، وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام ، في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي): أنَّ للقوم في التعليم سيرة بديعة ، وهو أن الصغير منهم إذا عقل؛ بعثوه إلى المكتب[7] ، وقد حدَّد ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ/1201م بقوله: «ومتى اعتدل المزاج ، وتكامل العقل ، أوجب ذلك يقظة الصبي ، فإذا بلغ خمس سنين؛ أخذ يحفظ العلم»[8].

وأمَّا المدَّة التي كان يقضيها الطفل في الكُتَّاب ، فهي أيضاً تختلف باختلاف استعداد الطفل ، ومدى قابليته للتعلُّم ، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية ، على أنَّ هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة الدراسة بالكتَّاب بسن البلوغ ، فقد أشارت بعض المصادر ، إلى أن الصبيَّ إذا بلغ سن البلوغ؛ ترك المكتب ، وهذه تتراوح ما بين الثانية عشرة ، والخامسة عشرة[9] ، وكانت أيام التَّعليم في الغالب خمسة أيام ونصف اليوم: السبت ، والأحد ، والإثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، وصبحة الخميس ، حيث كان بقية يوم الخميس ، وطوال الجمعة عطلة الرّاحة ، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة ، وأيام عيد الأضحى الخمسة ، وبعض المناسبات العامة[10].

---

(1) المصدر نفسه ص 176.
(2) المصدر نفسه ص 176.
(3) الدارس (178/1) الحياة العلمية ص 178.
(4) طبقات الشافعية (186/7) الحياة العلمية ص 178.
(5) الحياة العلمية ص 178.
(6) المصدر نفسه ص 179.
(7) أحكام القران (1895/4)الحياة الزنكية ص 193.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 193.
(9) المصدر نفسه ص 195.
(10) التربية والتعليم في الإسلام ص 78 محمد أسعد طلس.

وأمّا من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى فإنَّ أقرب المصادر للعهد الزنكي ، التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة ، هو كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» لعبد الرحمن بن نصر الشيزري ، المتوفى سنة 589 هـ/1193م ، الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد ، وما ينبغي للمعلِّم اتخاذه تجاه تعليمهم ، وطريقته ، ومن ذلك قوله: «وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلّم الصبي السور القصار من القران بعد حذقه بمعرفة الحروف ، وضبطها بالشكل ، ويُدرّجه في ذلك ، حتى يألفه طبعه ، ثم يعرِّفه عقائد أهل السنة ، والجماعة ، ثم أصول الحساب ، وما يستحسن من المراسلات ، والأشعار ، دون سخيفها ، ومسترذلها»[1].

ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة ، وتحفيظهم القران فحسب ، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان ، وتعويدهم الآداب الحسنة[2] ، وقد شبَّه الإمام الغزالي المعلم الذي يُربي الصبية ، ويهديهم الأخلاق الفاضلة بالرِّفق والِّلين ، ويبعدهم من السقوط بالمهالك ، والشرور ، بالفَلاَّح الذي يقطع الشوك ، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع؛ ليحسن نباته ، ويكمل ريعه[3].

وقد تعدَّدت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب ، على النحو التالي:

في السنوات الأولى من هذه المرحلة ، يهتمُّ المؤدب بتعليم الأطفال السور القصار من القران الكريم ، وكانت وسيلته في ذلك أسلوب التلقين ، بمعنى: أنَّ المعلم كان يقرأ ، وعلى الصبيّ أن يكرر ما يقرأ معلمه من فقرات ، إلى أن يتمَّ حفظها ، وهكذا يستمرُّ معه ، وقد أكّد ابن جُبير اشتهار هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: «وتعليم الصبيان للقران بهذه البلاد المشرقية كلِّها إنما هو تلقين»[4]، ويذكر ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق: أنَّ سور القران لم تستعمل في تعليم الأطفال الكتابة ، وإنَّما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض ، وأنَّ تعليم القران والكتابة ، لا يقوم بهما مدرِّس واحد ، وإنَّما يخصَّص معلِّم لكلٍّ منهما على حده.

فإذا فرغ الصبي من التلقين؛ التحق بالكُتَّاب الخاص بتعليم الخط ، ويستصوب ابن جُبير هذه الطريقة؛ إذ يرى فيها إتقاناً للخط؛ لأن المعلِّم له لا ينشغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط ، فيبرع الطفل في ذلك[5].

أما طريقة تدريس الشعر ، فكانت تتلخص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللُّغة؛ كي يسهل حفظها وفهمها ، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة ، والنبيلة ، دون السخيف والرذيل منها ، وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار ، حتى يتم حفظها[6].

هذه هي أهمُّ وسائل التحصيل ، وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم ، وكانت تتميَّز بالبساطة ، والتدرج في المعلومات ما أمكن ، والحرص على تربية الصبيَة خلقياً إلى جانب تحصيلهم العلمي[7].

---

(1) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص 103.

(2) المصدر نفسه.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 197.

(4) كتاب أدب المعلمين ص 76.

(5) الرحلة ص 245 الحياة العلمية ص 199.

(6) الحياة العلمية ص 200.

(7) المصدر نفسه ص 200.

2 . طلاب المرحلة العليا: يُطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب «الفقهاء» ، وقد غلب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاَّب المدارس[1] ، ويمكن تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صنفين: طلبة عارضين ، وآخرين منتظمين.

فالصنف الأول يشمل أعداداً كبيرة من أصحاب الحرف ، والعمَّال ، وغيرهم ، ممن يحضرون الدروس بين حين وآخر، ولا سيَّما مجالس الوعظ والإملاء ، وحلق التعليم العامة ، غير أنَّهم لا يواصلون دراستهم ، ولا يواظبون على الحضور ، وهؤلاء يمثِّلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين.

أما الصنف الآخر؛ فهم الطلبة المنتظمون ، وكانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم وحده ، ولكنّ ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق[2].

وكانت المساجد تقوم بالتدريس ، ولا يشترط فيمن يريد التعلُّم عدد معين ، ويختلف الوضع بالنسبة للمدارس؛ إذ كان يجلس أمام المدرِّس فيها عدد معين من الطلاب ، لا يصحُّ تجاوزه في الغالب ، ثم إن هذا العدد قليل جداً إذا قيس بأعداد طلاب الحلق في المساجد ، وكان ممَّا جرت عليه العادة في المدارس ، أن يعين منشئ المدرسة ، أو واقفها مدرساً لها ، ويُحدِّد في الوقت نفسه عدد الطلاب ، الذين يسمح لهم بالالتحاق بها ، كما حصل في المدرسة النورية بالموصل ، حيث حدَّد واقفها نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالباً من فقهاء الشافعية[3]، وكذلك في المدرسة العصرونية بدمشق ، والتي شرط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالباً من الشافعية وغيرهم[4].

وكان طلاب العلم يحصلون على مرتبات ونفقات ، تحصل في الغالب من موارد الوقف المخصَّص للحلقة ، أو المدرسة، وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكي ، بوفرة ما يناله منتسبوها من الأموال ، والمأكولات ، والملابس ، والهدايا في المناسبات ، كما كانت عليه المدرسة العُزيَّة بالموصل ، والحلاوية بحلب ، والنورية الكبرى في دمشق[5] ، وغالباً ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغنى مخصَّصاتها[6] ، كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكي على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها ، وبالأخصِّ المسكن الملائم لهم ، كي يجد الطلبة الغرباء ، والفقراء ، المناخ المناسب لتلقي العلم ، فكان من مكملات المدارس إنشاء مرافق تُلحق بها ، تخصَّص لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء ، وقد حدَّثنا الرحالة الأندلسي ابن جُبير عما شاهده في دمشق من التسهيلات المغرية لطلاب العلم ، ومنها هذه المرافق، فقال: «ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء؛ ولا سيما لحفاظ كتاب الله ، عز وجل ، والمنتمين للطلب...وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكنَّ الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد ، فمن شاء الفلاح من نشأة

---

(1) الحياة العلمية ص 201.

(2) المصدر نفسه ص 201.

(3) المصدر نفسه ص 202.

(4) المصدر نفسه ص 202.

(5) المصدر نفسه ص 204.

(6) المصدر نفسه ص 204.

مغربنا؛ فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأوَّلها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان ، وأهمُّها»[1].

وقد حرص المربُّون في العهد الزنكي ، وبعده ، أن يُسْدُوا الوصايا ، والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقيهم العلم ، وكان من أهم تلك الوصايا ، والتوجيهات ، ما يأتي:

. أن يُخلص الطالب نيّته في طلب العلم ، وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى ، والعمل بما يعلم ، وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة ، والمال ، والجاه[2].

. أن يحرص الطالب على وقته بأن يبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم ، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ، ولا عوض ، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلِّل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان[3].

.كما ينبغي لطالب العلم ، أن يصبر ، ويثبت على أستاذ ، وعلى كِتَابٍ ، حتى لا يتركه أبتراً ، وعلى فنٍّ حتى لا يشتغل بفنٍّ اخر قبل أن يُتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد اخر من غير ضرورة ، فإنَّ ذلك كله ، يفرّق الأمور ، ويشغل القلب ، ويُضيع الأوقات ، ويؤذي المتعلم[4].

. وعلى الطالب أن يلتزم بالورَع في جميع شؤونه ، وأن يتحرَّى الحلال في طعامه ، وشرابه ، ولباسه ، ومسكنه ، وفي جميع ما يحتاج إليه...وذلك ليستنير قلبه ، ويصلح لقبول العلم ، ونوره ، والنفع به[5].

وفيما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاذه ، فإن هناك جملة آداب ، كفلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه؛ إذ كان على الطالب أن يُوفيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص ، ويمكن اختصارها في الأمور الاتية:

. من آداب الطالب مع أستاذه: إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة ، متطهر البدن ، والثياب ، يستأذنه في الدخول، وكذلك في الانصراف ، وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس[6].

. أن يجلس بين يدي أستاذه بأدب ، مصغياً إليه بانتباه ، وألا يتشاغل أثناء الدرس ، ولا يكثر حركة يديه ، ولا رجليه، ولا يعبث بشيء ، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك ، من الأخلاق الذميمة[7].

.كما يلزم على الطالب أن يُحسن مخاطبة شيخه ، وألا يقاطعه ، أو يخالفه ، وأن يتلطف في سؤاله ، وأن يحذر من تكرار السؤال ، وألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة ، أو جواب سؤال منه ، أو من غيره[8].

وإذا ناول الشيخَ شيئاً؛ ناوله باليمين ، وإذا ناول الشيخَ كتاباً ، ناوله إيّاه لفتحه ، والقراءة فيه[9].

---

(1) الرحلة ص 227 . 228 الحياة العلمية ص 205.

(2) تذكرة السامع والمتكلم ص 68 ابن جماعة.

(3) المصدر نفسه ص 70 الحياة العلمية ص 205.

(4) تعليم المتعلم ص 49 الحياة العلمية ص 206.

(5) تعليم المتعلم ص 75 الحياة العلمية ص 206.

(6) تذكرة السامع والمتكلم ص 95.

(7) الحياة العلمية ص 207.

(8) تذكرة السامع والمتكلم ص 101 ، 102.

(9) تذكرة السامع والمتكلم ص 108.

. وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدَّة حياته ، ويرعى ذريَّته ، وأقاربه بعد وفاته ، وأن يستغفر له، ويتصدق عنه[1]، إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبته ، حتى تدوم العلاقة الحسنة بين ركني التعليم: المدرس ، والطالب على الحب والمودة والتقدير من كلا الجانبين لتكتمل الفائدة[2].

3 . تعليم الإناث: بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجةً كبيرة؛ لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح ، لتطبيقه عملياً ، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام ، حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية ، ونافَسْنَ فيه كبار الحفاظ والمحدّثين ، وكنَّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة ، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي؛ حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات ، والمحدثات ، والفقيهات ، والأديبات ، والنحويّات ، إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى.

كما دأب الكثير منهن على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهنَّ ، طلباً للعلم على أكابر العلماء والمحدثين ، وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن[3] ، وحسبنا دليل على نشاط المرأة في هذا الميدان: أنَّ الذين ترجموا لابن عساكر المتوفى سنة (571 هـ/1176م) أجمعوا على أنَّه أخذ العلم عن بضع وثمانين امرأة[4] ، وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد ، بحيث إنَّ عالماً واحداً من علماء العصر سمع ما يزيد على ثمانين امرأة ، هذا فضلاً عن كثير من عدد النساء اللاّتي ترجم لهنَّ ابن عساكر في تاريخه[5].

ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير: أنَّ المنزل كان المدرسة الأولى ، التي تتلقى فيها المرأة علومها ، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد: أنهنَّ نشأن في بيوت العلماء ، وأنهنَّ درسن على ابائهن ، أو أحد ذويهن من أولي العلم ، أو أنهنَّ كنَّ يستفدن من الدروس ، التي كانت تعقد في بيوتهنَّ لتعليم الطلاب ، حيث كنَّ يستمعن إلى ما كان يُلقى في منازلهن من دروس ، وهو ما أطلق عليه «التعليم داخل منازل العلماء»[6] ، فابن عساكر عندما يُتَرجم لأمِّ أولاده ، وابنة خالته . عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السَّلميَّة المتوفاة سنة (564 هـ/1168م) يقول عنها: «أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين بن سهل بن بشر بن أحمد الأسفرائيني ، المدعوة ست العجم» والمعروفة بالعالمة الصغيرة ، يقول ابن عساكر: «سمعت أباها أبا الفرج»[7].

كما أن أبواب المساجد ، كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء؛ حيث كن يتردَّدن لحضور الحِلق؛ التي كانت تعقد فيها أماكن مخصصة لهنَّ ، ومعزولة عن أماكن الرجال ، لا يكون هناك سبيل للاختلاط[8].

---

[1] المصدر نفسه ص 90.

[2] الحياة العلمية ص 207.

[3] الحياة العلمية ص 212.

[4] معجم الدباء (76/13) سير أعلام النبلاء (556/2).

[5] ترجم ابن عساكر في تاريخه لمئة وست وتسعين امرأة من النساء.

[6] الحياة العلمية ص 214.

[7] تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص 214.

[8] الحياة العلمية ص 215.

ولم يكن للمرأة الحقُّ في التعليم فقط ، بل كان لها أيضاً الحقُّ في نشر التعليم ، وقد شاركت المرأة في ذلك ، وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم ، فقد أشار ابن عساكر لمثل هذه المشاركة في ترجمته ، لفاطمة بنت سهل بن بشر المدعوة سِت العجم من أنها: «كانت تعظ النساء في المساجد»[1].

وممَّن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد ، العالمة فاطمة الفقيهة[2] ، المعاصرة للملك العادل نور الدين محمود ، فقد تصدَّرت للتدريس في حلب ، وألَّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث ، كما استشارها الملك نور الدين في بعض أموره ، واستفتاها في بعض المسائل الفقهية ، وكان دائماً يبذل لها ، ويعينها على مواصلة نشاطها العلمي[3] ، وما حدث بين الملك نور الدين ، والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد ، على الالتزام التَّامِّ بالحجاب الإسلامي ، حيث أنَّ المحادثات بينهما كانت تتمُّ بواسطة امرأة تُندب لهذا الأمر ، وفي هذا الصدد ، يورد القُرشي قصةً مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقيهة ، عزم الرحيل من حلب إلى بلاده ، بإيعاز من زوجته فاطمة ، فاستدعى الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني ، وسأله أن يقيم في حلب ، فعرَّفه علاء الدين دواعي سفره ، وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه ، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادماً يخاطبها عن الملك في ذلك ، فلم تأذن للخادم ، واحتجبت منه ، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد ، أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إليَّ هذا الخادم ، وأيُّ فرق بينه ، وبين الرجال في عدم النظر ، فعاد الخادم ، وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك ، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك ، فخاطبتها ، وأجابتها إلى ذلك ، وأقامت بحلب إلى أن توفِّيت ، وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة 587هـ/1191م ودفن عندها بحلب[4] وقد تحدث الدكتور ابن عزوز عن جهود المرأة الدمشقيَّة في رواية الحديث الشريف بنوعٍ من التفصيل.

4 . أساليب التقويم: لم يُعرف في العهد الزنكي ما يشير إلى أنَّه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة . كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا . ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفَّاء شهادات ، أو إجازات ، ينصُّون فيها على أن الطالب قد أتمَّ دراسة منهجٍ معيَّنٍ بإشراف الشيخ الفلاني ، دون أن يؤدي الطالب امتحاناً ، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب ، واجتهاده ، وانكبابه على العلم ، وتفرغه للدراسة والبحث ، وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية ، يمنحها الشيوخ لمن يرون فيه الكفاية ، ولا علاقة لها بمنظَّمة تعليمية معينة . كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر.

وإذا كانت الإجازة إقراراً بأن الطالب قد أتمَّ دراسة كتب معينة ، أو إقراراً له بصلاحيته للتدريس ، أو الفتوى ، بناءً على مجهود علمي قام به؛ فهي بذلك تُعد أحد أساليب التقويم ، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم ، أو المدرِّس بالنسبة لعلماء عصره ، فهي أيضاً تُعد من أساليب التقويم ، وقد انحصرت أساليب التقويم

---

[1] تاريخ ابن عساكر تراجم النساء ص 288 ، الحياة العلمية ص 215.

[2] الحياة العلمية ص 215.

[3] المصدر نفسه ص 216.

[4] الجواهر المضيئة (123/4 ، 124) الحياة العلمية ص216.

في العهد الزنكي في هذين المعيارين: الإجازات العلمية ، والألقاب العلمية: الإمام ، والحافظ ، والشيخ ، والفقيه ، والمحدث ، والمقرئ[1].

ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي:

شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية، واللغوية، والأدبية دون غيرها ، وإنْ كانت الصيغة العامة لمدارس الزنكيين ، والدراسات التي قامت بها هي الاهتمام بدراسة مذهب ، أو أكثر من المذاهب السُّنِّية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس، وتلك الدور، التي ركَّزت اهتمامها على نشر المذهب السني، ومقاومة المذهب الشيعي؛ الذي كان منتشراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبَّان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية[2] في مصر.

ولكن هذا لا يعني، بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه، أو غيره من فروع العلوم الشرعية، وما يتصل بها من العلوم اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرَّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجَّه من الدولة، والذي يتوافق مع مصالح الأمة ، وعقيدتها فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقُدِّمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنِّفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم، حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية ، والجغرافية ، وعلوم الرياضيات ، والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماءُ كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة؛ التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية، وحتى الوقت الحاضر[3]، واتِّساع أفق التفكير الإسلامي في هذا الصدد، وتنوُّع الدراسات والبحوث التي قدمت فيه نتيجةٌ واضحة للنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد، وإليك أهم تلك العلوم:

1 . العلوم الشرعيَّة: كانت الغَلَبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي للعلوم الشرعيّة من قراءاتٍ، وتفسيرٍ، وحديث، وفقهٍ، وأصوله، ثم علوم اللغة العربية، وآدابها ، وهذا الأمر يتَّفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها ، فقد رتَّبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها ، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى 405هـ/1058م إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين؛ إذ قال: «إنه إن لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيلٌ؛ وَجَبَ صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها ، والعناية بأولها ، وأفضلها ، وأُولى العلوم وأفضلها علم الدين؛ لأن الناس بمعرفته يرشدون ، وبجهله يضلون؛ إذ لا يصلح أداء عبادةٍ جهل فاعلها صفات أدائها ، ولم يعلم شروط أجزائها»[4]. وهذا رأي ابن جماعة أيضاً عندما قال: (إذا تعددت الدروس؛ قُدِّم الأشرف ، فالأشرف ، والأهمُّ ، فالأهم ، فيقدم تفسير القران ، ثم الحديث ، ثم أصول

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص220 إلى 331.

(2) المصدر نفسه ص237.

(3) الحياة العلمية ص237.

(4) أدب الدنيا والدين ص44.

الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم المذاهب ، ثم الخلاف ، أو النحو أو الجدل)[1]. وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

أ ـ علم القران: وقد نشط علم القراءات في العهد الزنكي ، وكان من العلوم التي تُدرَّس في دور التعليم المختلفة ، كما ظهر العديد من علماء القراءات؛ الذين كانت لهم مصنَّفات مهمَّة في القراءات في العهد الزنكي ، ومنهم:

ـ عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة أبو حميد ، وأبو الصبغ السماني الإشبيلي ، المعروف بأبي الصحَّان ، المتوفى بحلب 560هـ/1164م أستاذ كبير ، وإمام محقق بارع ، مجوِّد ثقة ، ولد سنة 498هـ /1104 تنقل بين البلاد طلباً للعلم ، ودخل الشام ، ومات بحلب بعد الستين وخمسمئة[2] ، وكانت له مصنفات مهمة في القراءات منها كتاب (الوقف والابتداء ، وكتاب: مرشد القاري إلى تحقيق معالم القاري) الذي قال عنه ابن الجزري: (لا يعرف قدره إلا من وقف عليه[3]).

ـ كما برز من مُقرئي العهد الزنكي: أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمَّام بن محمد الأزدي ، المتوفى بالموصل سنة 567هـ[4]، 1172م من أهل قرطبة ، سكن دمشق والموصل ، أحد أئمة اللغة والقران ، وله يد قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق ، تنقل بين البلاد يطلب العلم؛ حتى وصل الموصل ، وأقام بها إلى أن مات ، وأقرأ الناس القرآن الكريم بالقراءات ، وانتفع به خلق عظيم ، قال عنه ياقوت: (شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات)[5]. وقال الذهبي: (وبرع في العربية ، والقراءات ، وتصدر فيهما مدة)[6].

ب ـ علم التفسير: كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي ، حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعليم في هذه العهد ، وبرز فيه علماء أجلاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم ، كان من أبرزهم:

ـ الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي ظفر الصقلّي ، المتوفى سنة 565هـ/1169م وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير (كتاب التفسير الكبير) و(ينبوع الحياة)[7].

ـ ومن المفسرين المبرزين علي بن إبراهيم الغزنويُّ ، المتوفى في حلب سنة 582هـ (1186م) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد ، على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، المتوفى سنة 538هـ/114م ، صاحب (الكشاف في التفسير) ، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها ، وألف فيها مصنفات عديدة ، في التفسير ، والفقه،

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم ص35 ، 36.

(2) الحياة العلمية ص240.

(3) غاية النهاية في طبقات القراء (395/1).

(4) المصدر نفسه (395/1).

(5) معجم البلدان (15/20 ، 14).

(6) المصدر نفسه (14/20).

(7) العبر (53/3).

واللغة ، والأصول ، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب (تقشير التفسير)[1] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة 572هـ 1176م[2].

ج ـ الحديث: ازدهر علم الحديث ، في العهد الزنكي ، حتى إنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتأليف ، ففيه أنشئت أوّل دار للحديث في الإسلام ، وهي دار الحديث النوريّة ، ولعلَّ من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ، ودراسته ، والتأليف فيه في هذا العهد ، اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم ، فقد أُثر عنه: أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه[3].

كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدَّة شيوخ[4]، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنَّف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق[5] ، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه ، الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة ، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة 571هـ 1176م ، في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد ، وفي جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود[6] ، كما صنَّف ابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ/1201م مصنَّفاً جمع فيه أحاديث الجهاد ، وفضائله في كتاب أسماه (البحر النوري)[7].

وقد زاد الاهتمام بهذا العلم ، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث ، الذين أفنوا أعمارهم في جمعه ، وتصنيفه ، وضبطه ، وتنقيحه ، ومنهم علماء جمعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور ، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية[8] ، ومن أبرز علماء الحديث في العهد الزنكي:

ـ الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، المعروف بابن عساكر الدمشقي ، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله مستقبلاً.

ـ وممن برز في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري ، المتوفى 606هـ/1209؛ ، وقد اشتهر مجد الدين بن الأثير في علوم عديدة ، كان منها علم الحديث ، حيث صنَّف فيه مصنفات هامة ، كان من أبرزها (جامع الأصول في أحاديث الرسول)[9]. ذكر ياقوت: أنه جمع فيه بين البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، والترمذي ، عمله على حروف المعجم ، وشرح غريب الحديث

---

(1) كشف الظنون (466/1) الحياة العلمية ص245.

(2) بغية الوعاة (140/2) الحياة العلمية ص245.

(3) التاريخ الباهر ص165 الحياة العلمية ص248.

(4) تاريخ مشق نقلاً عن الحياة العلمية ص248.

(5) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص248.

(6) معجم البلدان (78/13) الحياة العلمية ص249.

(7) مراة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص249.

(8) الحياة العلمية ص249.

(9) معجم الأدباء (76/17) الحياة العلمية ص252.

ومعانيها وأحكامها ، وصنف رجالها ، ونبَّه على جميع ما يُحتاج إليه منها ، ثم قال: (أقطع قطعاً: أنه لم يُصنّف مثله قطُّ ، ولا يصنف)[1].

وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة 1368هـ/1949م في اثني عشر جزءاً بعناية عبد المجيد سَليم ، وحامد الفقي ، وهي طبعة ناقصة ، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، وطبع في دمشق 1394هـ/1974م في أحد عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس[2]، وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسَّعة عن الحديث في هذا العهد.

ح ـ الفقه وأصوله: عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلٌّ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة: الحنفي ، والشافعي ، والحنبلي ، والمالكي ، ورجّحوا بين الروايات ، وخرَّجُوا على الأحكام ، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاويهم[3] ، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية الأربعة ، واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيّق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية ، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد برز خلال العهد الزنكي علماء أجلاء في الفقه وأصوله ، كان لبعضهم أبحاث رائعة ، ودراسات جليلة ، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي.

المذهب الشافعي: وممن برز في هذا المذهب: الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبد الله بن أبي المظفر القاسم الشهرزوري ، المتوفى سنة 572هـ/1176م[4] ، وقد وُصِف بأنه كان: (فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكه المجالسة، يتكلم في الخلاف والأصول)[5]. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة ، وأصول الحكم ، والكرم ، كما كان كثير الصدقات والمعروف ، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ، ونصيبين ، ودمشق على أعمال الخير ، وطلب العلم ، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل (الكمالية القضوية) ، وكان رأس المدرسين فيها؛ حيث خصَّصها لتدريس الفقه الشافعي[6].

ـ ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد: الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري ، المتوفى سنة 578هـ/1182م[7] ، قال عنه السبكي: (كان إماماً في المذهب الشافعي، والخلاف، والأصول، والتفسير، والوعظ، أديباً مناظراً)[8] أما أبرز جهوده في علم الفقه ، فتتمثل في مصنفه الكبير (كتاب الهادي) في الفقه ، والذي قال عنه ابن خلكان: (وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى[9]).

---

(1) معجم الأدباء (76/17) الحياة العلمية ص252.

(2) الحياة العلمية ص252.

(3) المصدر نفسه ص452.

(4) المصدر نفسه ص255.

(5) وفيات الأعيان (242/4).

(6) طبقات الشافعية (117/6 ـ 121) الحياة العلمية ص256.

(7) الحياة العلمية ص256.

(8) المصدر نفسه ص256.

(9) وفيات الأعيان (196/5).

. وممن برز في علم الفقه الشافعي أيضاً: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون ، المتوفى سنة 585هـ (1189م)، وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد ، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كُتباً كثيرة منها: (صفوة المذهب من نهاية المطلب) وهو في سبع مجلدات ، وكتاب (الانتصار) لمذهب الشافعي في أربع مجلدات ، و(كتاب المرشد) في مجلدين ، وكتاب (الذريعة في معرفة الشريعة) في مجلد واحد ، وكتاب (مآخذ النظر) وكتاب (الإرشاد المغرب في نصرة المذهب) ، ولم يكمله ، وذهب فيما ذهب له بحلب[1].

. المذهب الحنفي: وممن برز في هذا المذهب: الشيخ عبد الغفار بن لقمان بن محمد أبو المفاخر الكُردي ، الملقب تاج الدين المتوفى سنة 562هـ/1166م[2] ، إمام الحنفيّة في حلب ، كان على غاية من الزهد والورع ، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي ، وخلّف اثاراً جمة في الفقه وأصوله ، ففي الفقه شرح (الجامع الصغير في الفروع) للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة 187 هـ (803م) ، وكان يذكر لكل باب أصلاً ، ثم يخرج عليه المسائل[3] ، وجمع المسائل التي يحار في حلها العلماء في كتاب سمَّاه: (حيرة الفقهاء[4]) ، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمن بن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة 543هـ/1148م الموسوم بالتجريد في كتاب سمَّاه: (المفيد والمزيد)[5].

. ومن فقهاء الحنفية البارزين ، في العهد الزنكي: الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي الملقب بُرهان الإسلام ، المتوفى بحلب عام 571هـ/1175م[6] ، قدم حلب في عصر نور الدين محمود ، ودرَّس بالمدرسة الوردية ، والحلاوية، بعد الإمام علاء الدين الغزنوي ، المتوفى سنة 564هـ/1169م ، وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير (المحيط) وهو في أربع مصنفات (المحيط الكبير) وهو نحو من أربعين مجلداً ، (والمحيط الثاني) عشر مجلدات ، (والمحيط الثالث) أربع مجلدات ، والرابع مجلدان[7].

. وممن اشتهر بالفقه الحنفي: الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ، ملك العلماء ، المتوفى بحلب سنة 587هـ/1191م ، قَدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاَّوية ، بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة 571هـ/1175م ، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته[8]، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب (تحفة الفقهاء) وزوجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة ، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه (البدائع) فقال الفقهاء في عصره «شرح تُحفته وزوّجه ابنته»[9]، واشتهر علاء الدين الكاساني ، وزوجته فاطمة الفقيهة ، في

---

(1) الحياة العلمية ص257.

(2) الجواهر المضيئة (443/2 ، 444) الحياة العلمية ص258.

(3) كشف الظنون (561/1) الحياة العلمية ص258.

(4) الحياة العلمية ص258.

(5) طبقات الفقهاء ص101 ، الحياة العلمية ص258.

(6) الحياة العلمية ص259.

(7) الجواهر المضيئة (25/4 . 28).

(8) الحياة العلمية ص260.

(9) المصدر نفسه ص260.

مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام ، وكانت تحفظ مصنّف والدها (التحفة)[1] ، وكان كتاب (البدائع) أشهر مصنّفات الإمام علاء الدين الكاساني ، وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي: (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع)[2].

. المذهب الحنبلي: وممن برز بهذا المذهب في العهد الزنكي: الشيخ الزاهد أبو الحسن علي بن عمر أحمد بن عمَّار بن أحمد بن علي بن عبدوي الحراني ، الفقيه الحنبلي ، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمئة (1116 . 1117م) ، وسمع ببغداد ، وتفقَّه ، وبرع في الفقه ، والتفسير ، والوعظ ، ثم قدم حرَّان ، وأمَّ الناس بجامعها ، له مصنّفات حسنة في التفسير ، والفقه الحنبلي ، أبرزها: (المذهب في المذهب) وكانت وفاته في اخر نهار يوم عرفة سنة 559هـ/1164م بحرّان[3].

. ومنهم: أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي ، الدمشقي ، شيخ الحنابلة بالشام في وقته ، والمتوفى عام 586هـ/1190م ، ولد سنة 498هـ/1104م ، سمع ، وأفتى ، ودرَّس وهو ابن عشرين سنة إلى أن مات[4] ، وغيرهم.

لقد ظهر في هذا العهد عددٌ كبير من علماء الفقه والأصول ، وبخاصة على المذهب الشافعي ، والحنفي ، والحنبلي[5]. ولا عجب في ذلك الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء ؛ فقد كان الفقه مصدر التشريع ، وعليه يعتمد الحكَّام فيما يصدرونه من أحكام ، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء ، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم ، كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف، والمصالح المتعلقة بالمساجد ، والمدارس ومصارف الأوقاف ، وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى ، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء ، وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به ، وكُتِب في ذلك محضر في صورة ما جرى في ذلك المجلس ، ووقَّع عليه جميع الحاضرين[6].

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم ، وركَّزوا فيها دراساتهم ، وكان أشهر هذه الفروع «الفرائض» الذي يُعد باباً من أبواب الفقه ، نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته ، وكثرة الاحتياج إليه؛ حتى أصبح علماً قائماً بذاته. وموضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقدرة في كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه[7]، وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِّقِلّي المتوفى سنة 565هـ/1169م ، وكان قد صنَّف تصانيف كثيرة في علوم عديدة ، كان منها أرجوزة في الفرائض[8].

---

(1) كشف الظنون (371/1).

(2) شذرات الذهب (183/4 . 184).

(3) الحياة العلمية ص261.

(4) المصدر نفسه ص263.

(5) المصدر نفسه.

(6) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص263.

(7) الحياة العلمية ص264.

(8) معجم الأدباء (49/19) الحياة العلمية ص264.

كما خصَّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي (الخلاف والجدل) وصنَّفوا فيها المؤلفات الحسنة[1].
وقد جدَّ العلماء ، في العهد الزنكي ، في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها ، فلا يكاد يوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلا وقد عني بدراسة هذه العلوم ، باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية ، وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين؛ حيث حرص الحكام ، وأمراء الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة ، والإنشاء ، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف مَنْ ذاع صيته وشأنه في هذه العلوم ، واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين ، والنحاة ، والأدباء ، وبرز منهم علماء أجلاء خلَّفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها ، والتي من أهمها: اللغة ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والنقد الأدبي ، والأدب ، والعروض ، والقافية ، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي ، للدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزيني[2].
والرسالة التي نريد أن تصل للقارئ: أنَّ النهوض عندما يحدث للأمة يكون في الغالب شاملاً ، وليس عسكرياً ، أو سياسياً ، كما يظن البعض ممن يطلقون الأحكام بدون دراسة واعية ، أو بحث عميق ، ثم يعمِّمون هذه الأحكام الناقصة في جلساتهم ، ومحاضراتهم ، ومقالاتهم ، وبالتالي يساهمون في تسويق ثقافة مغلوطة عن تاريخ أمتنا ، ظالمة لأجدادنا البواسل الذين استوعبوا فقه النهوض ، ومارسوه في دنياهم.
2 ـ العلوم التاريخية والجغرافية: ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية ، والجغرافية ، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية ، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرَّحَّالة ، الذين أثروا هذا الجانب بتأليف جديدة مهمة ، وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد ، والاهتمام بالدراسات الشرعية ، والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة؛ فإنَّ الاهتمام بالدراسات التاريخية ، والجغرافية يرجع للسبب نفسه ، وقد تمثَّل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ، ضدَّ العدوان الصليبي في المنطقة؛ حيث وجد المتخصصون بهذا الفرع من العلوم ـ الجهاد ـ مادة زخرت بها مؤلفاتهم ، سواء عن طريق الكتابات التاريخية؛ التي تؤرِّخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين ، أو في الكتابة في فضائل المدن ، وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد.
كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ، ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين ، كما اهتموا بتحديد البلدان ، وخططها ، وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركزَ الاهتمامِ السياسي ، والاقتصادي ، والفكري في العالم الإسلامي ، حيث كانت تلك الدولة تمثّل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة ، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية ، مما كان له أثر في تطوير العلوم ونشاطها[3] ، وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيما يأتي:

---

(1) الحياة العلمية ص265.

(2) الحياة العلمية ص268 إلى 316.

(3) الحياة العلمية ص317.

. التراجم والطبقات: يُعَدُّ هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد ، فقد عُني به المؤرخون عناية فائقة ، فما أن يظهر أحد من المتخصِّصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ، ودراسته ، وتنقلاته ، وشيوخه ، وتلامذته ، وإسهاماته العلمية في مجال التأليف والتدريس ، وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمّة للتاريخ الإسلامي؛ إذ إنها تزوِّدُ الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة[1]. ويُعَدُّ الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا المنهج في هذا العهد حين كان اهتمامه منصبًّاً على الحديث ، وتراجم العلماء ، وبخاصة رجال الحديث طوال حياته ، ومع أن كتابه (تاريخ دمشق) قد شمل التاريخ العلمي ، والثقافي لمدينة دمشق ، فإنه يُعَدُّ واحداً من أشهر كتب التراجم بعد كتاب (تاريخ بغداد) للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى 463هـ/1070م وكان ابن عساكر قد سار على نهجه[2].

. وممَّن برز في الكتب التاريخية على هذا المنهج في العهد الزنكي أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج، المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب ، المتوفى سنة 597هـ/1201م ، الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر في كتابه (خريدة القصر وجريدة العصر) والذي أرَّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه ، في كافة الأقطار الإسلامية[3].

. وممَّن كتب في التراجم: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى سنة 630هـ/1233م[4] فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً ، استطاع أن يخلِّد اسمه بين كبار المؤرخين ، عن طريق مصنَّفاته التي من أشهرها: كتاب (الكامل في التاريخ) ، وكتاب (اللُّباب في تهذيب الأنساب) وكتاب (التاريخ الباهر في الدولة الزنكية) وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة)[5] ، الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمسمئة ترجمة ، واستدرك على مَنْ تقدمه من مؤلفي التراجم ما فاته ، وبيَّن أوهامهم[6].

. التاريخ المحلي (الخاص): تخصَّص فريق اخر من المؤرخين بالتأليف المحلي ، والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه ، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً من المؤرخين في العهد الزنكي[7] ، وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار ، ومن أبرز مَنْ كتب في هذا المنهج خلال العهد الزنكي:

. ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التيمي ، المتوفى سنة 555 هـ/1160م[8] العميد الأديب الشاعر المؤرخ ،كان من أعيان دمشق ، ومن أفاضلها المبرزين، وكانت له عناية بالحديث، وكان أديباً له خط حسن،

---

(1) المصدر نفسه ص319.

(2) المصدر نفسه ص320.

(3) المصدر نفسه ص322.

(4) سير أعلام النبلاء (353/22 . 356).

(5) وفيات الأعيان (349/03).

(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص324.

(7) المصدر نفسه ص325.

(8) سير أعلام النبلاء (388/20 . 389) الحياة العلمية ص325.

ونظم، ونثر، وليَ رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين ، عُمِّر بضعاً وثمانين سنة ، وتوفي سنة 555 هـ/1160م ، وقد استفاد القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق ، فاطَّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها ، مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره. ولابن القلانسي: كتاب (تاريخ دمشق) بدأ به سنة 360هـ/971م وانتهى إلى سنة وفاته 555(1160م) ، وهو أول تاريخ لدمشق صُنِّف حسب الحوادث والحوليات ، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين ، والسلاجقة ، فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية، والاجتماعية، والعقيدية، والسياسية، وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر في هذا الكتاب على تاريخ دمشق ، بل عالج في مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام ، والعراق ، والجزيرة ، ومصر ، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاعٍ مستمرٍ[1].

. ومن المؤرخين في التاريخ المحلي: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكلام بن الأثير الجزري المتوفى سنة 630هـ (1233م) وقد صنَّف كتاب (تاريخ الموصل) وهو الموسوم (بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية) وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل ، عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوَّعة: اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية عن الموصل مطلع عماد الدين زنكي سنة 521هـ/1127م حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة 607هـ/1210م[2].

. التاريخ العالمي (العام): وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث مُنذ بدء الخليقة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد ، وأهم كتاب في ذلك العصر (الكامل في التاريخ) لعز الدين علي بن محمد الجزري المتوفى 630هـ 1233م ، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب ، وكان قد ألفه على طريقة الحوليات ، ابتدأ فيه بأول الزمان ، حتى وصل به إلى سنة 628 هـ 1231م ، وقد تحرَّى ابن الأثير الحقيقة والدّقة فيما كتب ، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرار الروايات ، ثم إنه راعى التوازن في كتابه لتاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي ، فلم تصرفه الأحداث التي ألمت بالمشرق ، عما كان يجري بالمغرب من تطورات[3] ، وقد تابع ابن الأثير في كتابه: الكامل المعلومات التاريخية ، التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريُّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حدٍّ بعيد فلخَّصها ، ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة ، وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين ، واتَّخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أيِّ تاريخ عام غيره[4].

. التاريخ المعاصر والمذكرات: وممَّن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية ، وكتب عنها بأسلوب المذكرات ، أبو المظفر مؤيد الدَّولة أسامة بن منقذ بن علي بن مقلد الشيزري ، المتوفى سنة 584هـ/1180م[5] ، وله كتاب (الاعتبار) وهذا الكتاب قلّ أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد؛ إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة ، وما صادفه أسامة في حياته من حوادث ، وتعكس صور الحياة في

(1) الحياة العلمية ص326.

(2) الحياة العلمية ص328.

(3) الحياة العلمية ص328.

(4) الحياة العلمية ص328.

(5) المصدر نفسه ص329.

العصر من حروب ، وفروسية ، وملامح من الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية على الصعيدين: الإسلامي ، والصليبي[1].

. وممّن كتب بأسلوب المذكرات: العماد الأصفهاني ، الكاتب المؤرخ المتوفى سنة 597هـ/1201م وأهم ما كتب في هذا المجال ، (البرق الشامي) ، وهو أشبه بالمذكرات الشخصية؛ لأنه بدأه بذكر نفسه ، وحياته ، وانتقاله من العراق إلى الشام ، وأخباره مع نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام[2].

. الجغرافيا والرحلات: تُعَدُّ الرحلات ، وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية ، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين ، مثل: ابن حوقل ، والمسعودي ، والمقدسي ، والإدريسي ، وابن جُبير ، وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة؛ حيث فاق المسلمون في ميدان الرِّحلة ، والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب.

وساعد على الرِّحلات الإسلامية أمور عديدة ، منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات ، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي ، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب ، أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله ، أو القيام بمهمة ، كأن يكون الرَّحالة سفيراً للخليفة ، أو السلطان[3] ، وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم ، وتسجيل أخبارهم ، والمسالك والطرق ، التي ساروا فيها ، والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم ، كما كانوا يصفون المدن ، التي يمرون بها ، ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم ، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه ، كالمنتجات الزراعية ، والصناعات ، والتجارة ، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يَمُرُّ بها[4].

فكانت تلك الرحلات ، وما تقدمه من معلومات مبنيَّةٍ على المشاهدة والاطلاع من أبرز عوامل تقدُّم ، وتطوُّر المعارف الجغرافية عند المسلمين[5]. ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية ، وبخاصة ما له صلة بالرحلات الجغرافية ، ومن أشهرهم:

. أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصِلّي المتوفى سنة 611هـ/1215م[6] ، الذي قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات؛ حتى لقب بالسائح ، وأبو الحسن الهروي أصله من هراة ، ولكنه ولد بالموصل ، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن، والحجاز، ومصر، وبلاد الروم، وبعض جزر البحر المتوسط ، مثل صقلية ، وقد تنقل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة ، وتكلَّم عن مشاهدها ، ومساجدها ، وخالط أهلها ، والتقى بالعلماء ، وأخذ عنهم ، ولم يكن في تجواله مقتصراً على طلب العلم فقط ، بل إنه وثَّق علاقاته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره[7]. قال عنه ابن خلكان: (طاف البلاد ، وأكثرَ من الزيارات ، وكاد يطبق الأرض بالدوران ، فإنه لم يترك براً

---

[1] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص330.

[2] المصدر نفسه ص330.

[3] المصدر نفسه ص330.

[4] التاريخ والمؤرخون العرب ص211 الحياة العلمية ص331.

[5] الحياة العلمية في العهد الزنكي ص332.

[6] وفيات الأعيان (346/3 . 348) الحياة العلمية ص332.

[7] تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين هاشم ص333.

ولا بحراً ، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه ، ولقد شاهدتُ ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها[1]) ، وقد ألف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: (الإشارات إلى معرفة الزيارات)[2].

3 . علوم الرياضيات والفلك: اهتمَّ المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة ، ومن ذلك علوم الرياضيات، والفلك ، حيث نالت تلك التخصصات قدراً كبيراً من اهتماماتهم ، فبرعوا في علم الحساب ، وصنَّفوا فيه المصنَّفات ، وبحثوا فيها الأعداد ، وأنواعها ، وخواصها ، وتوصَّلوا إلى إضافات ، ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ، ودهشتهم، فاعترفوا بفضلهم ، وأسبقيتهم في هذا المجال ، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين ، مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم. كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر ، وأتوا فيه بالعجب العجاب؛ حتى إن (كاجوري) قال: (إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر)[3]. وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات ، والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية ، وقد تمثلت أبرز الجهود في الآتي:

. الرياضيات: كانت العلوم الرياضية: من حسابٍ ، وجبرٍ ، وهندسةٍ من العلوم التي كانت تدرَّس في بعض المدارس الزنكية ، كما أنَّ هناك تنقلات ، ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب ، والجبر في تقسيم المواريث ، أو ما يسمى بعلم الفرائض ، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت ، واتجاه البلدان لإقامة الصلاة ، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين ، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى.

ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات: .كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى 639هـ/1242م ، ولما ذاع صيته في علم الرياضيات؛ أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له. يقول ابن خلكان: (كنتُ بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمئة ، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة ، فأشكلتْ عليه مواضع في مسائل الحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والمساحة ، وإقليدس ، فكتب جميعها في درج وسيَّرها إلى الموصل ، ثم بعد أشهر عاد جوابه ، وقد كشف عن خفيها ، وأوضح غامضها ، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه)[4]. ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ، ذكر منها بروكلمان: (شرح الأعمال الهندسية) ، وهو محفوظ في مكتبه آيا صوفيا بإسطنبول رقم 2753 ، وله رسالة في البرهان على المقدِّمة التي أهملها أرخميدس في كتابه تسبيع الدائرة ، وكيفية اتخاذ ذلك ، وهو محفوظ في مكتبه بودليانا برقم (987/8)[5].

. الفلك: يُعرف قديماً بعلم الهيئة ، وموضوع الأجرام السماوية من النجوم ، والكواكب ، وأحوالها ، وأبعادها ، وحركاتها ، وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول ، على أساس تلك الحركات ، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية

---

(1) وفيات الأعيان (346/3) الحياة العلمية ص333.

(2) الحياة العلمية ص333.

(3) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص61.

(4) وفيات الأعيان (315/5) الحياة العلمية ص236.

(5) تاريخ الأدب العربي (222/4 . 223) الحياة العلمية ص337.

وبالعكس ، وأطوال البلاد ، وعروضها ، والرياح والأمطار ، وكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية ، وأخرى عملية ، وبعض هذه المباحث تدخل الان في علم الفضاء[1].

وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي ، وقد تركَّزت في الموصل ، وكان الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان ، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درَّس بها ، وصنَّف في هذا العلم ، ووردت إليه ـ أيضاً ـ مسائل في مشكلات هذا العلم ، قام بتفسيرها ، وحلَّ رموزها، ونبَّه على براهينها ، بعضها من بغداد ، وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا[2] ، ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم: أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرَّقاص[3] ، ويذكر طوقان: أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي غاليليو المتوفى سنة 1052هـ/1624؛ في هذا المجال[4]. وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات ، والفلك في العهد الزنكي[5].

4 ـ علوم الطب والصيدلة:

ـ الطبُّ: علم الطب؛ يُبحَثُ فيه عن بدن الإنسان من جهة ، وإزالة المرض من جهة أخرى ، وفائدته بيِّنة لا تخفى ، وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً قول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: (العلم عِلمان: علم الطبِّ للأبدان ، وعلم الفقه للأديان)[6].

وقد تقدم وارتفع شأن الطبِّ في العهد الزنكي ، وتقدمت وسائل دراسته ، ولعل من انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية ، واهتمام الحكَّام والأمراء بإنشائهما ، ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد ، والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء؛ الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية ، والتي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها ، استمراراً حتى العصر الحاضر.

وممَّن برز في هذا الميدان: ـ الطبيب أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم ، المتوفى سنة 570هـ/1174م[7] ، الذي اشتهر بالتدريس بالبيمارستان النوري بدمشق ، زمن الملك العادل نور الدين محمود ، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه ، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد المرضى بنفسه ، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان ، ومناقشاته مع طلابه ، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألَّفه في الطب[8].

وممن اشتهر بالطبِّ في هذا العهد: أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي المتوفى سنة خمس ، أو ست وسبعين وخمسمئة (1179 ـ 1180م)[9] ، وكان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة ، وله حسن نظر في

---

(1) الحياة العلمية ص339.

(2) المصدر نفسه ص339.

(3) الرقّاص: أو رقّاص الساعة ، يسمى باسم البندول.

(4) تراث العرب العلمي ص398.

(5) الحياة العلمية ص341.

(6) مفتاح السعادة (303/1) الحياة العلمية ص342.

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص343.

(8) المصدر نفسه ص242.

(9) المصدر نفسه ص343.

الاطلاع على الأمراض ومداواتها ، أقام بدمشق سنين كثيرة ، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها ، ويعالج من يأتي إليه ، أو يستوصف منه ، وكان له عناية بالكتب الطبية ، والنظر فيها ، وتحقيق ما ذكره المتقدّمون من صفة الأمراض ومداواتها ، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث ، وله شعر كثير ، إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول. وعُمِّر ابن البذوخ عمراً طويلاً ، وضعف عن الحركة ، حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً ، وعمي في آخر عمره؛ حتى توفي[1] ، ولابن البذوخ من الكتب الطبية (شرح كتاب الفصول لأبقرط) ، وشرح كتاب (تقدمة المعرفة) لأبقراط أيضاً ، وله كتاب (ذخيرة الألباء والمفرد في التأليف عن الأشياء) ، وله حواشٍ وضعها على كتاب (القانون لابن سينا)[2].

الصيدلة: ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها، وهي متصلة بعلم الأعشاب «النبات» وبعلمي: الحيوان، والمعادن، وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية، وحيوانية، ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة ، وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء[3].

ونظراً لعدم توفر المعرفة التامّة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور ، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة ، فجعلوا على الصيادلة نقيباً يسمى رئيس العشّابين ، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة ، حتى يحولوا دون غشّ الدواء[4] ، وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بنسبٍ معينة ، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصّصين في تركيب الأدوية (الصيدلة) ، كانوا في الأصل أطباء ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة على الطبيب ابن البُذوخ المغربي ، المتوفى سنة 575هـ أو 576هـ (1179 . 1180م)[5] ، كان خبيراً بمعرفة المفردة المركبة ، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها ، ويعالج من يأتي إليه ، أو يستوصف منه ، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة ، يصنعها من سائر المعاجين ، والأقراص ، والسَّفوفات وغير ذلك ، يبيع منها ، وينتفع الناس بها[6] ، كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي (المتوفى سنة 610هـ/1213م) في كتابه «المختارات في الطب» كثيراً من أنواع المأكولات وأثرها على الصحة ، وأنواع العلاجات والأدوية وكيفيّة استخراجها[7].

لقد ركَّزت السلطة القائمة في العهد الزنكي على إحياء العلوم الشرعية ، والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة ، من أبرزها الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكريَّة والسرّية . الهامَّة . والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في العقيدة الإسلامية توطئة للسيطرة عليهم ، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطنية ؛ لذا تقلَّصت الدراسات الفلسفية ، ودراسة المنطق ، التي تخدم الفكر الشيعي الباطني ، وتحقِّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد ، كما صَاحَبَ هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط اخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية ، والتاريخية والجغرافيا ، كما قُدِّمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة ، وفي علم الفلك

---

(1) المصدر نفسه ص343.

(2) المصدر نفسه ص343.

(3) تاريخ العلوم عند العرب ص294 الحياة العلمية ص345.

(4) نهاية الرتبة ص42 للشيرزي الحياة العلمية ص345.

(5) الحياة العلمية ص346.

(6) عيون الأنباء ص628 الحياة العلمية ص346.

(7) المختارات (2/210 . 336).

والميقات إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة ، والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية ، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء ، كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصِّصة ، والتي ظلَّت مرجعاً للبحوث العلمية؛ حتى الوقت الحاضر[1].

رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضدَّ الصليبيين:

قال عنه الذهبي هو: «الإمام العلاَّمة الحافظ الكبير المجوِّد ، مُحدِّث الشام ، ثقة الدين ، أبو القاسم الدمشقي صاحب تاريخ دمشق[2] ، وهو علي بن الشيخ أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين[3] ، صنف الكثير من الكتب ، وكان فَهِماً حافظاً ، متقناً ذكياً ، بصيراً بهذا الشأن ، لا يُلْحَق شأوه ، ولا يشقُّ غباره ، ولا كان له نظير في زمانه[4] ، كان مواظباً على صلاة الجماعة ، وتلاوة القران ، يختم كل جمعة ، ويختم في رمضان كل يوم ، ويعتكف في المنارة الشرقية ، وكان كثير النوافل والأذكار ، ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة[5]، وقد لزم طريقة واحدة مدَّة أربعين سنة من لزوم الجماعة في الخمس في الصَّفِّ الأول إلا من عذر ، والاعتكاف في رمضان، وعشر ذي الحجة ، وعدم التطلّع إلى تحصيل الأملاك ، وبناء الدور ، وقد أسقط ذلك عن نفسه ، وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة ، والخطابة ، وأباها بعد أن عرضت عليه ، وقلَّة التفاته إلى الأمراء ، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم[6]».

وكان له نظم من الشعر منه قوله:

ألا إنَّ الحديـــــث أجـــــلُّ علـــــــمٍ ... وأشرَفُـــــــهُ الأحاديـــــث العوالـــــــي

وأنفـــع كـلِّ نـــوع منـــــه عنـــدي ... وأحسنـــــه الفوائـــــــدُ والأمالـــــــي

فإنـــك لـــن تـــرى للعلـــم شيئـــــاً ... تحقِّقُـــهُ كأفـــــــواه الرِّجـــــــــالِ

فكـــن يـا صـــاح ذا حِـــرْصٍ عليـــه ... وخـــذه عـــــن الشيـــوخ بـلا مَـــلالِ

ولا تَأْخُـــذْهُ مـــن صُحُـــفٍ فترمـــى ... مـــن التَّصحيـــف بالـــداء العضـــال[7]

ومن شعره أيضاً:

أيـــا نفـــسُ ويحـــك جـــاء المشيـــب ... فمـــا ذا التصابـــي ومـــا ذا الغـــزل

تولَّـــى شبابـــي كـــأن لـــم يكـــن ... وجـــاء مشيبـــي كـــأن لـــم يـــزل

كأنـــي بنفســـي علـــى غِـــرَّةٍ ... وخطـــبُ المنـــون بهـــا قـــد نَـــزَلْ

---

(1) الحياة العلمية ص346.
(2) سير أعلام النبلاء (554/20).
(3) المصدر نفسه (555/20).
(4) المصدر نفسه (556/20).
(5) المصدر نفسه (562/20).
(6) المصدر نفسه (565/20).
(7) المصدر نفسه (569/20).

فياليــــت شعـــــرِيَ ممَّـــن أكـــون وما قـــــدَّر اللـــه لــي فـــي الأزل[1] ؟

قال عنه رفيقه أبو سعد السمعاني: كثير العلم ، حافظ متقن ، ديِّنٌ خيرٌ ، جمع بين معرفة المتون ، والأسانيد ، صحيح القراءة ، مثبتٌ ، محتاطٌ ، رحل في طلب الحديث ، وتعب في جمعه ، وبالغ في الطلب[2].

وقال ابن النجار: (إمام المحدِّثين في وقته ، ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان ، وبه خُتِمَ هذا الشأن[3]).

وقال السيوطي: (الإمام الكبير ، حافظ الشام ، بل حافظ الدنيا ، الثقة الثبت الحجة ، ثقة الدين. وكان من كبار الحفَّاظ المتقنين ، ومن أهل الدين والخير ، غزير العلم ، كثير الفضل ، جمع بين معرفة المتن ، والإسناد)[4].

وقال عنه السبكي: «سمع الحديث وعمره ستُّ سنين ، ثم طلبه بنفسه ورحل في هذا الشأن عشرين سنة.. وأبعد الرحلة ، وجمع ، وكتب الكثير في العراق ، وخراسان ، وأصفهان ، وغيرها ، ومن جملة شيوخه ألف وثلاثمئة شيخ ونيِّف ، وثمانون امرأة حتى أصبح: إمام أهل الحديث في زمانه ، وحامل لوائه[5]».

1 . مساندته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود:

برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في معاضدته على الوحدة والجهاد ، حيث اندفع يطلب منه إلى التطبيق العملي في تأليف (الأربعون حديثاً في الحث على الجهاد) قال ابن عساكر: «وأحبَّ أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد ، تكون واضحة المتن ، متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين الأجلاء[6]».

وكان هدف ابن عساكر: تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك للقيام بواجب الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ، ضدَّ الخطر الصليبي ، وبسبب قناعة ال زنكي بأن الأعمال العسكرية والسياسية لا تكن ناجحة مؤثرة ، إلا بدعم فكريٍّ وعقائدي وعاطفي وديني ، واستجاب ابن عساكر لطلب نور الدين وقال في مقدمته: «فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد ، وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد ، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهاد ، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد ، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد ، والمسدد في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد»[7].

وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها في توضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة ، لتحريض المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي[8] ، ومن هذه الأحاديث:

. سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: « إيمان بالله، عز وجل». قيل: ثم ماذا؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله، عز وجل» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور[9]».

---

(1) سير أعلام النبلاء (570/20).

(2) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (59/1).

(3) المصدر نفسه (59/1).

(4) المصدر نفسه (60/1).

(5) طبقات السبكي (273/4).

(6) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص102.

(7) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص108.

(8) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص103.

(9) مسلم رقم 83.

ـ قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ العمل أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله ، وجهادٌ في سبيله». قلت: يا رسول الله فأيُّ الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها ، وأغلاها ثمناً». قال: فإن لم أجد؟ قال: «تُعين ضائعاً ، أو تَصْنعُ لأخرق». قال: فإن لم أستطع قال: «تكف أذاك عن الناس؛ فإنها صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بها عن نفسك[1]».

ـ قلت: يا رسول الله أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله ـ عز وجل ـ قال: «أن تصلي الصلوات لمواقيتها». قلت: ثمَّ أي؟ قال: «برُّ الوالدين» قلت: ثمَّ أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». ولو استزدته؛ لزادني[2].

وفي الأحاديث الأخرى حاول ابن عساكر ، أن يذكِّر الناس بمنزلة المجاهد في سبيل الله فمثلاً في الحديث الحادي عشر: (قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أبا سعيد الخدري! من رضي بالله ربَّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً؛ وجبت له الجنة». قال: فعجب لها أبو سعيد ، قال: أعدها عليَّ يا رسول الله! ففعل ، ثم قال: رسول الله: «وأخرى يُرفع بها العبدُ مئة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال:وما هي يا رسول الله؟! قال: «الجهاد في سبيل الله ، عز وجل»[3].

ـ وفي الحديث الثاني عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله[4]».

وهناك الكثير من الأحاديث الي ذكرها ابن عساكر ، فهي لا تدعو ولا تذكر الجهاد مباشرة، ولكنها تدعو إلى القتال في سبيل الله، كما هو الحال في الحديث التاسع عشر: ـ «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا أخبركم بخير الناس ، وشر الناس؟! إنَّ من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو على قدميه؛ حتى يأتيه الموت؛ وهو على ذلك[5]».

كما أورد أحاديث في الرباط في سبيل الله مثلاً كالحديث الواحد والعشرين:

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة[6]».

ـ وفي الحديث الثالث والعشرين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رباط يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها[7]».

كما ذكر الخيل ، وضرورتها في القتال ، فمثلاً في الحديث السابع والعشرين:

---

(1) البخاري رقم 2518.

(2) صحيح ابن حبان رقم1476 ، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص111.

(3) مسلم في الإمارة رقم 1884.

(4) البخاري 2790.

(5) سنن النسائي ،كتاب الجهاد فضل من عمل في سبيل الله (12/6 ، 11).

(6) سنن سعيد بن منصور رقم 2414 قال الترمذي: حسن صحيح.

(7) البخاري رقم 2892.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله ، وتصديقاً بوعد الله فإنَّ شبعه ، وَرِيَّهُ وروثه ، وبوله في ميزانه يوم القيامة[1]».

. وفي الحديث الخامس والثلاثين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «طوبى لعبد اخذ بعنان فرسه في سبيل الله[2]».

وأحاديث أخرى في صناعة الأسلحة كما في الحديث التاسع والعشرين:

. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ الجنة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير ، والذي يجهز به في سبيل الله ، والذي يرمي به في سبيل الله». وقال: «ارموا ، واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا[3]».

وليس ذلك فقط ، بل ذكر فضل أولئك الذين يوجهون أسلحتهم لأعداء الإسلام:

. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تقلَّد سيفاً في سبيل الله؛ قلَّده الله . عز وجل . يوم القيامة وشاحين من الجنة لا تقوم لهما الدنيا وما فيها[4]».

وفي أحاديث أخرى ساوى بين الإنفاق في الحج ، والإنفاق في سبيل الله في الحرب ، مثلاً في الحديث الثلاثين:

. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «النفقة في الحج مثل النفقة في سبيل الله ، الدرهم بسبعمئة[5]».

إن نظرة سريعة للأحاديث التي ذكرها ابن عساكر، نلاحظ: أنه اختارها بدقة كبيرة، من بين الأحاديث الكثيرة التي تطرقت إلى الجهاد ، وبصورة عامة فهو اختار أحاديث تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام ، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين ، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك ، كالخيول ، والسلاح ، والمرابطة في سبيل الله.. إلخ. وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية، والدينية، التي كرَّس حياته لها ، وقد آتت ثمارها في مواجهة الغزو الصليبي ، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية ، المتمثلة في شخص نور الدين محمود ، والتي اعتمد عليها كقاعدة استند عليها في صراعه الطويل مع الصليبيين.

إنَّ تحالف العلماء مع القادة السياسيين العسكريين . كتحالف ابن عساكر ونور الدين . خير مثال على أهمية وحدة الصف في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ضد الإسلام والمسلمين[6].

2 . تأليف ابن عساكر في فضائل المدن: ووجد ابن عساكر: أن استمرارية الغزو الصليبي للشرق الإسلامي لا بد أن تواجهه استمرارية في الجهاد ضده ، ولذلك أكد على فكرة الجهاد كما برزت الأحاديث الي ذكرها ، والتي كانت جزءاً من منهجه الجهادي المحرض للمسلمين ، وليس ذلك فحسب ، وإنما أيضاً من خلال تأكيده على فضائل المدن الإسلامية داعياً المسلمين إلى استعادتها والدفاع عنها ، حيث ألف العديد من الكتب التي تشيد بذلك ، منها: (فضائل القدس) و(فضائل عسقلان) و(فضائل المدن الإسلامية) و(الزهادة في بذل الشهادة).

---

[1] البخاري رقم 2853.

[2] البخاري رقم 2887.

[3] صححه الحاكم (86/2) ووافقه الذهبي.

[4] حديث موضوع فيه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي ، المجروحين (139/2).

[5] إسناد ضعيف ، عطاء بن السائب اختلط ، التاريخ الكبير(63/3).

[6] موقف فقهاء الشام وقضاتها ص108.

وغيرها من الكتب التراثية العديدة؛ التي تشير إلى مدى تركيزه واهتمامه بذكر فضائل المدن الإسلامية ، وتذكير المسلمين لدور تلك المدن في التاريخ الإسلامي ، التي لا بدَّ من التَّشَبُّثِ بها ، والدفاع عنها[1].

ولم يكن ابن عساكر الوحيد الذي ألَّف في فضائل المدن الشامية آنذاك ، بل اتجه العديد من الفقهاء للتذكير بهذا الجانب ، مثل (فضائل الشام) للفقيه الحافظ عبد الكريم السمعاني (ت562هـ) و(فضائل الشام) للفقيه محمد عبد الواحد منصور السعدي الحنبلي (ت643هـ) ، وكتاب (ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام) للفقيه عز الدين السلمي (ت660) وغيرهم الكثير[2].

وذلك لأن الغزو الصليبي كما أشار السلمي ، وابن عساكر لم يستهدف الإسلام كفرد ، أو عقيدة فحسب ، وإنما أيضاً كان يستهدف القضاء على حضارته ، وتراثه المتكامل ، ووجد أولئك الفقهاء: أنه خير وسيلة لحفظ تراث تلك المدن الإسلامية ، ومكانتها التاريخية من خطر زوالها ، ولربما تغيير ملامحها الحضارية من قبل الصليبيين هو التاريخ لها، وتدوين أخبارها[3]. وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تمَّ تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق ، وهو (تاريخ مدينة دمشق) للحافظ ابن عساكر ، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: (ورقى خبر جمعي إلى حضرة الملك القمْقام ، الكامل ، العادل ، الزاهد ، المجاهد ، المرابط ، الهمام ، أبي القاسم محمود بن زنكي بن اق سنقر ناصر الإمام.. وبلغني تشوّقه إلى الاستنجاز والاستتمام؛ ليلمَّ بمطالعة ما تيسر منه بعض الإلمام ، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام ، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام)[4].

ممَّا يوضِّح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته «دمشق» وتشوقه إلى ذلك ، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب ، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة ؛ التي تبناها نور الدين محمود[5]. وبذلك كان ابن عساكر أحد أولئك الذين استخدموا التراث وسيلة لتحريض البلاد الإسلامية للوقوف في وجه الخطر ، الذي يحيق بها ، فقد استخدم التاريخ ، والأدب مع فكرة الجهاد ، كمنهج متكامل من أجل بعث الحياة الثقافية في بلاد الشام ، التي أثقلها الضعف والصراع السياسي ، والديني[6].

3 . ابن عساكر يحث نور الدين على مواصلة الجهاد: عُرِف عن ابن عساكر تدينه وتعففه واعتكافه ، وبعده عن إغراءات الدنيا ، وعزوفه عن المناصب ، بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ، ودورهم الثقافي والسياسي ، فلم يتردد ابن عساكر في مخاطبة نور الدين بعد أن أعفى الأخير أهل دمشق من المطالبة بالخشب ، وبعد فتح مصر في أن يوجِّه للسلطان قصيدة يحثه فيها إلى ما يجب أن يفعله في المستقبل فيقول:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشبِ

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص108.

(2) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (399/2).

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص108.

(4) تاريخ مدينة دمشق في المقدمة ص4.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص79.

(6) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص109.

وإن بذلــت لفتــح القـــدس محتسبــــــــاً | للأجـــر جوزيـــــت أجـــــراً غيـــر محتســـــبِ
والأجـر فـــي ذاك عنـد اللـــه مرتقـــــب | فيمـــا يثيـــب عليـــــه خيـــــر مرتقـــــبِ
والذكـــر بالخيـــر بيـــن النـاس تكسبُــــه | خيـــرٌ مــــن الفضــــة البيضـــاء والذهــــــبِ
ولســـت تعـــذر فـــي تـــرك الجهـــــــاد | وقــد أصبحـــت تملــك مـن مصـر إلى حلــبِ
وصاحـب الموصـــل الفيحـاء ممتثـــــــلٌ | لمـــا تريـــــد فبـــــادر فجــــأة النــــــوبِ
فأحـــزمُ النـــاس مــــن قـــوَّى عزيمتــــه | حتـــى ينـــال بهـــا العالـي مـــن الرتــــــبِ
وقــد بلغــت بحمـــد اللـــه منزلـــــة | عِلّيـــةً فاقصــــد العالـــي مـــن القـــــربِ
فالجـد والجـــد مقرونـــان فـــي قـــرن | والحـــزم فـــي العـــزم والإدراك فـــي الطلـــــبِ
وطهـــر المسجـــد الأقصـــى وحوزتــــه | مـــن النجاســـات والإشــــراك والصلــــــبِ
عســاك تظفــر فــي الدنيـا بحسن ثنـا | وفـي القيامـــة تلقـــى حســـن منقلـــبِ[1]

وكان نور الدين محمود قائداً متميزاً ، يملك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة ، فقد جعلها قادرة على تحمُّل أعباء الجهاد والتحرير ، فبمجرد مجيئه للحكم بدأ ببناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمرانية والثقافية والسياسية ، فقد كانت مداركه الحضارية واسعة ، فأقام صروحاً كبيرة ، فبنى المستشفيات ، وأقام دار العدل ، واهتمَّ بالحياة الثقافية ، وتنشيطها ، ومن هنا كان اللقاء بين الحافظ ابن عساكر والقائد نور الدين[2]. واهتمَّ نور الدين بالبناء الداخلي ، وكان العلماء عوناً له على ذلك ، واستطاع أن ينقل نور الدين الموقف بالنسبة للحرب في مواجهة الصليبيين من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم ، حتى إنه بدأ يعد العدة لخوض المعركة الفاصلة معهم.

فعمل أولاً على أن يحول دون سيطرتهم على مصر ، فعندما أيقن الصليبيون أن وجودهم أصبح مهدداً؛ توجَّهوا بأنظارهم صوب مصر وهيأوا له ، فأدرك القائد نور الدين ذلك ، فتدخل على هذه الجبهة بنظرة استراتيجية ، وأرسل ثلاث حملات متواليات ، تمكَّنت من إحباط خططهم ، وإنهاء الوضع المتردي في مصر ، ومن ثم إسقاط الدولة الفاطمية ، وتوحيدها مع الشام .كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى ..

وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين ، ومحفزاً له ، وداعياً للجهاد والتحرير ، وكان يقول داعياً للوحدة: (لم يمكِّن الله أهل فرقة على جماعة أبداً)[3] ، وخطط نور الدين لجولة فاصلة مع الصليبيين تستخدم فيها طاقات الشام، والجزيرة ، ومصر ، والمغرب ، وبلاد إسلامية أخرى ، وبات متيقناً بالنصر ، وتسامع الناس أخبار ثقته بالنصر، فقد كان لنور الدين نجار بحلب يعرف بالأختريني من ضيعة قريبة من حلب تعرف «بأخترين» اشتهر ببراعته ودقة صنعه التي لاتجارى ، فأمره «أن يصنع منبراً لبيت الله بالمقدس ، ولبى الرجل ما ندب له ، وبذل النجارون الصُنَّاع في صناعته سنين ، وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين[4].

[1] الخريدة للعماد الأصفهاني (277/1) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص53.

[2] ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص46.

[3] المصدر نفسه ص48.

[4] كتاب الروضتين نقلاً عن ابن عساكر دوره في الجهاد ضد الصليبيين ص48.

واستطاع نور الدين من خلال وسائله وخططه وتواصله مع العلماء أن يقلب موازين الصراع لصالحه ، فالمعارك قبل نور الدين كانت تخوضها قوات محترفة تابعون للحكام المسلمين ، ومُنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعة يكثر ، ويندفع في المعارك ، وباتت مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من أعداد الجند المحترفة ، وكان ذلك كله نتيجة تعبئة مشاعر الناس ، وتحريضهم على الجهاد ، وندبهم إلى حمل السلاح ، وهو ما كان يتولاه الولاة والوعاظ.

ويأتي ابن عساكر كبير علماء الشام ، ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء. وفي هذا المجال لا بد من ملاحظة هامة وهي أن المتطوعة لم يقتصروا على سكان العراق وبلاد الشام أو مصر ، بل تعداه إلى سكَّان المغرب ، والأندلس ، فلقد كان المغاربة يأتون للجهاد والحج فيجاهدون ويحجون أو يحجون ويجاهدون ، أو يجاهدون وتكتب لهم الشهادة ، وكلنا يعلم: أنَّ أحد أهم أحياء دمشق هو حي (المغاربة) الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة[1] ، ولقد تحدَّث عن المغاربة والأندلسيين ، ومشاركتهم في الجهاد ضد الصليبيين ، والعلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس ، وبين بلاد الشام والتأثيرات الفكرية بين العلماء عددٌ من مؤرخي تلك الفترة ومن بعدهم ، كياقوت الحموي في (معجم البلدان) وابن العماد في (شذرات الذهب) ، وابن جبير في رحلته ، والمقري في (نفح الطيب) ومحمد بن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) ، والسبكي في (الطبقات) ، وكذلك ابن سعيد المغربي في (المغرب في حلى المغرب) ، وينقل عنه المقري ، كما ترجم ابن عساكر لعديد من العلماء والقراء والشعراء ، المغاربة ، والأندلسيين الذين قدموا إلى دمشق[2].

4 . وفاة ابن عساكر: توفي ابن عساكر . رحمه الله . في رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمئة ليلة الاثنين ، حادي عشر الشهر ، وصلى عليه القطب النيسابوري ، وحضره السلطان صلاح الدين ، ودفن عند أبيه في مقبرة باب الصغير[3].

رحم الله ابن عساكر ، فقد كان له دور هام في إيجاد صحوة إسلامية ، ساعدت بدورها في تدعيم المواجهة الإيديولوجية مع الصليبيين ، وقد تمكَّن نور الدين بفضل الله ، ثم جهود العلماء والمخلصين من أبناء الأمة من إعداد جبهة واحدة متماسكة عقائدياً على نحو أدَّى في النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر ، ولا نزاع في أن الدولة النورية قد نجحت في تحقيق أهدافها بصورة كبيرة ، ودلَّ ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية في إيجاد كيان داخلي متماسك في مواجهة الغزو الصليبي[4].

---

(1) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص48

(2) المصدر نفسه ص48.

(3) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق ص70.

(4)

الفهرس :

كتب صدرت للمؤلف:

1 . السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

7 . الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8 . فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12 . الوسطية في القران الكريم.

13 . الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14 . معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

15 . عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16 . خلافة عبد الله بن الزبير.

17 . عصر الدولة الزنكية.

18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القران في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 . الشورى في الإسلام.

42 . الإيمان بالله جل جلاله.

43 . الإيمان باليوم الآخر.

44 . الإيمان بالقدر.

45 . الإيمان بالرسل والرسالات.

46 . الإيمان بالملائكة.

47 . الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48 . السلطان محمد الفاتح.

49 . المعجزة الخالدة.

50 . الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51 . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52 . التداول على السلطة التنفيذية.

53 . الشورى فريضة إسلامية.

54 . الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55 . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56 . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57 . العدل في التصور الإسلامي.

58 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 . الأمير عبد القادر الجزائري.

60 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61 . سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63. أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.



مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
- سير الخلفاء الراشدين
- الدولة الحديثة المسلمة
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.

- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري
- العدالة والمصالحة الوطنية
- وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".